Adib

al-Durar

ساعة
در
م

الدرر

وهي

منتخبات الطيّب الذكر الخالد الاثر

المرحوم

اديب اسحق

عني بجمعها واختيارها من آثار الفقيد

احد اصدقائه الخلصاء

جرجس ميخائيل نحاس

محرر جريدة المحروسة

· غير المسئول ·

طبعت بنفقة جامعها وخليل افندي النقاش

بمطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

سنــة ١٨٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

١

هو الحي الباقي

اي مقتني هذه الصفحات أجارك الله من لهفة المحزون على فراق العزيز الهاجر هجرَ ساعة الصفاء في اليوم الغابر . وحماك الله من لوعة الكئيب الصابر صبرَ الضعيف على حكم القدر السائر . ووقيتَ غدر الزمان وصرف الحدثان ونوازل الايام وما رأيت من عبر الدهر بالانام وعنيتَ من كلمة المتوجع ووقفة المتفجع وغصة البكاء وترديد الرثاء . ثم لا اراك الله مصابًا تجد فيه بالتلهف مثلي ولا اذاقك كأسًا تشد بعد تجرعه قولي .

جمد الماء رعبةً وارتياعا   وجرى الصخرُ أنّةً والتياعا
وضياء المنا استحالَ ظلامًا   وإلى المحو مطلقًا قد تداعى
مذ هوى من اعاليَ الفضل طودٌ   راسخٌ جاوزَ السماكَ ارتفاعا
يومُ هولٍ بكاهُنا اشتدَّ فيه   فملأنا من الدموع البقاعا
حتى خلنا من الأسى كلَّ طفلٍ   نائحًا قبل أن يتمّ الرضاعا
لفراقِ الاديبِ من كان يرعى   لنا ودًّا وقد غدا لا يُراعى
بحلولِ القضاء بالموت بالرز   ء الاليم بها ابتلانا وراعا
كلَّ قلبٍ فبتنا لا نلاقي خلاً   من جرى الخطبِ ليس يشكو الصراعا
ايها الراحلُ العزيز المفدّى   قف قليلاً لنستزيد الوداعا
من بنانٍ سبا العيانَ اقتيادًا   من لسانٍ به ملكتَ السماعا
من بيانٍ استغفرُ الله فهو آ   سحرُ تعنو لهُ العقولُ انصياعا
كيف تنأى ولم تدع فينا روحًا   تتمنّى البقاءَ تأبى النزاعا
لا وحقِ الولاء لم يبقَ منا   من يُرَجّي من الحياةِ انتفاعا
بعد خطبٍ اقلُّ ما نروي فيه   كل نفسٍ اليكَ طارت شعاعا
بعد رزءٍ بكت عليك المعالي   فيهِ واليأسُ قد تولّى اليراعا
ايُّ عينٍ تكفكفُ الدمعَ والهج   رُ طويلٌ رغبتَ فيه انقطاعا
ايُّ قلبٍ لم يجرحِ اليوم والصـ   دُّ بعيدٌ ازمتَ فيه امتناعا
آه لو كنتَ تنظر القومَ خلفَ الـ   نعشِ يرجونَ بالفقيد اجتماعا
بلكَ يا من اضاعه العلمُ مأسو   فًا عليه وأيُّ ذوقٍ اضاعا
كم رأينا براعتك الحرَّ في كـ   لِّ مجالٍ جرى بيومٍ اتساعا
وسمعنا على المنابر من فيـ   ـكَ الخطاب البليغ يشفي الصداعا
ورأيناك في الجدال اماما   ومن القرنِ فهو اطولَ باعا
وعرفناك في السياسةِ بالأو   طانِ تخشى على الحقوق الضياعا

ما ذكرناكَ حقَّ ذكرك في قو لنـا فضلُ الاديبِ ذاعا وشاعا
ان عُدِدْنا سفينةً تجربي في بحـ ـرِ اجتهادٍ عُدِدْتَ انتَ الشراعا
أو بسوق الاداب رمتَ اتجـارًا كنتُ في النورِ من شرى ثم باعا
يا حبيبًا صفـا له الوقتُ في عمـ ـرٍ نضيرٍ وللترقي استطاعـا
لكن الدهرُ لم يدع من سبيلٍ فيهِ تزدادُ عزةً وارتفاعـا
هكذا الناسُ بين حرٍ وغرٍّ قبل ذا قد مضوا تباعـًا سراعا
وكذاك الباقون يمضون طرًّا بعد ذا للثرى ثلاثـًا رباعـا
فتعزَّ يا قلبُ فالموت عبدٌ منفذٌ للالهِ امرًا مطاعا

كفى وما كنت لأمسك في الرثاء عن الزيادة لولا ان بعض السادة الفضلاء قد وفوا الفقيد حقهُ من الوصف في صدق البيان كما يرى القارئ اللبيب في باب اقوال الجرائد وقسم مراثي الشعراء الذين اولونا من فضلهم غنيً عن بقية الرثاء بما شهدت شهرة آدابهم لاديبنا المفقود مما لا يسع هذا المقام له ذكرًا

ولقد كان في النية على عهد الصديق الخالدة له في الفؤاد آثار الاسف المبرّح عزيزنا المرحوم سليم النقاش ان نجمع شتات ما ترك الفقيد من اثار علمه وادبهِ منتخبةً من فصوله ومقالاته ورسائله ورواياته واشعاره ومصنفاته وسائر ما خطبهُ باللسان وخطهُ بالبنان مجردًا مع ذلك من كل ما نشأ عن الحدة التي عزّتها بنزق الشباب في احدى ملاحظاتي الواردة في هذا الكتاب ساعين الى هذا القصد من طريق حفظ تلك الاثار التي لم تطبع في كتاب مخصوص ضنًا بها ان تبقى متفرقةً منثورة لا تجمعها صفحات جامعة ولا ترعاها بعد فقد الحبيب آذان سامعة وقد كانت للبلاغة مثالاً وللبراعة عنوانًا وعلى الذكاء والنباهة برهانًا وكانت ولامراء خلابة نهىً بدقة المعاني وسلافة رقة في كؤوس الالفاظ

فتنفيذًا لهذا المشروع استحصلنا على مجموعات اقوالهِ المنثورة وفصوله المنشورة في بعض صحف بيروت واخصها صحيفة التقدم التي تولى تحريرها في ازمنة مختلفة فاضفناها الى المجموع لدينا من منشوراته الادبية والسياسية الآخذة باسباب الاعتدال المتجافية عن مواطن الجفاء مما هو مثبت في جرائد مصر والعصر الجديد والمحروسة والى المحفوظ من بقية نثره وشعره مما لم ينشر في الجرائد ولم تسمح له فسحة الاجل بطبعه

ولكن حالت دون المرام اذ ذاك فاجعة السليم فبقي المشروع في طي الخفاء الى ان سنحت الفرصة لهذا العاجز فانتهزتها مأذونًا من صاحب الحق في طبع هذه المنتخبات حضرة الصديق الوفي الاروع عوني افندي اسحق شقيق الفقيد بعد استشارة حضرة والده الجليل معتمدًا في تحقيق الامل بتعميم فوائدها على التهاب ارباب الذوق شوقًا اليها ورغبةً في اقتنائها مستندًا في جمعها بكتاب مخصوص من جريدة المحروسة حيث طبعت اقسامًا على فضل حكومتنا السنية

يسير واخذ يعول عائلتهُ اذ اصابها في ذلك العهد سوء حال وعطلة اعمال وما اتمّ الثانية عشرة من سنيه الزاهرة حتى كان لهُ عدة قصائد وموشحات ثم عرض لوالده ان سافر الى بيروت ودخل في خدمة البوسطة العثمانية ففي الخامسة عشرة استدعاه اليهِ من دمشق ليكون معينًا لهُ في خدمتهِ فجاءها وتعرّف ببعض ادباء بيروت ولهُ مع اكثرهم كمصباح افندي رمضان والشيخ فضل القصار وبولس افندي زين مطارحات ومراسلات شعرية وفي السابعة عشرة نال وظيفة في ادارة كمرك بيروت فقضى فيها مدة يسيرة ثم نزعت بهِ نازعة العلى الى الاشتغال بفن الكتابة والانصباب على الانشاء فتولى تحرير جريدة التقدم بعيد نشأتها الاولى زمنًا طويلاً ولهُ فيها فصول شائقة كما لهُ قصائد كثيرة في ديوان يوسف افندي الشلفون وكان يصرف اوقات فراغه في المطالعة ونظم الشعر فألف كتابًا سماه (نزهة الاحداق في مصارع العشاق) لم نظفر بنسخة منهُ ثم دخل جمعية زهرة الاداب وقام فيها عضوًا مهمًا يلقي على مسامع اقرانهِ الخطب البليغة والقصائد الرائقة ويباحثهم في المواضيع الادبية وبعد ذلك كلفهُ حضرة صديقنا الفاضل سليم افندي شحاده بمشاركتهِ مع زميلهِ المرحوم سليم الخوري في تحرير آثار الادهار عام ١٨٧٥ وهو كتاب نفيس فاشتغل فيهِ مدةً وكان سنهُ دون العشرين ولهُ في ثلثة اجزاء منهُ فصول تدل على سعة اطلاعه وغزارة مادتهِ ولبث على هذه الحال الى ان جاء الاسكندرية باشارة فقيدنا السليم فساعده في تمثيل الروايات العربية وكان قد عرَّب في بيروت عن راسين الشاعر الفرنساوي المشهور رواية اندروماك وهو في التاسعة عشرة من العمر اجابةً لطلب قنصل فرنسا فترجمها ونظم اشعارها وعلَّم ادوارها في مدى ثلثين يومًا ودفعها الى حضرة القنصل فمثلت اسعافًا للبنات اليتامى ثلاث مرات فجمعت خمسة وثلثين الف غرش فلما حضر الى الاسكندرية قلبها بطنًا لظهر ونظم فيها ابياتًا جديدة من الشعر الرائق فحصل لها وقع عظيم وهي مثبتة في هذه المجموعة مع رواية شارلمان التي ترجمها في الاسكندرية ونالت من استحسان القوم حظًا وفيرًا

ثم قصد المحروسة عاصمة البلاد المصرية ولزم العلامة جمال الدين افندي الافغاني فقرأ عليهِ شيئًا من الفلسفة الادبية والفلسفة العقلية والمنطق ورغب اثناء ذلك في انشاء جريدة عربية فحصلت لهُ هذه الغاية فانشأها باسم مصر عام ١٨٧٧ وليس في جيبهِ اكثر من عشرين فرنكًا ولما رأى من اقبال الناس عليها ما يشد الأزر نقل ادارة الجريدة الى الاسكندرية مشتركًا في ادارتها وتحريرها مع فقيدنا الاخر (وكفانا تسميهِ) فلقيا نجاحًا ليس باليسير ثم انشأ كلاهما جريدة التجارة فاصدراها يومية وابقيا « مصر » اسبوعية فحصل لها جميعًا اقبال عظيم ثم أُلغيت الجريدتان لمقتضيات دعت الى الغائها فابتعد الاديب عن مصر عام ١٨٨٠ مهاجرًا الى باريس حيث انشأ جريدة « القاهرة » وكتب فيها فصولاً متناهية في البلاغة لا يعاب اكثرها الا بما كان فيها من آثار الحدة وكفى .

وحصلت لهُ في باريس حظوة موصوفة باقلام بعض كتاب الجرائد الباريسية وجريدة تركية

منشأة في تلك العاصمة وتعرّف ببعض المتقدمين من رجال الدولة الفرنسوية وحضر في مجلس النواب جلسات كثيرة فزادته خطب البلغاء منهم اقدامًا على الخطابة ودخل المكتبة الاهلية فطالع فيها عدة مؤلفات من المخاطيط العربية القديمة ونسخ عنها نتفًا كثيرة

وكانت صحته في الاسكندرية قد تعرّضت للمؤثرات فلما ذهب الى باريس اتفق ان بردها كان في منتهى الشدة فاصيب بعلة الصدر وتألم منها مدة الشتاء ثم عاد الى بيروت مصدورًا بعد ان قضى في باريس تسعة شهور فعهد اليه صاحب «التقدم» بتحرير جريدته فتولّى تحريرها للمرة الثانية وقد اثرنا عنها مقالات كثيرة في هذا الكتاب واقام على ذلك نحوًا من سنة فلما حصل انقلاب الوزارة المصرية اواخر عام ١٨٨١ عاد الى مصر مدعوًا اليها فودعه اصحابه وخلانه بنفوس الآسفين على فراقه وكنت في جملة من انحدر لوداعه الى رصيف البحر فما رأيت قلبًا غير مائل الى اصطحابه واني لاذكر ما سمعت احد وجهاء بيروت عزتلو حسن افندي بيهم قائلاً له ساعة الوداع

انا نودعُ روحنا وفؤادَنا   ومع الاديب نودع الآدابا

فاجابه بقوله «ليس ببقائك وداع للاداب» ثم سار واتى القاهرة فعين ناظرًا لقلم الانشاء والترجمة بديوان المعارف ورخصت له الحكومة في استئناف نشر جريدة مصر فاصدرها اولا في شكل كراس ثم اعادها الى مظهرها الاول باربع صفحات ونال خلال ذلك الرتبة الثالثة وعين كاتبًا ثانيًا لمجلس النواب ولما طرأت الحوادث العسكرية عاد الى بيروت فيمن هاجر الى القطر السوري وبعد ان حلّ الانكليز في الاسكندرية جاءها مرة اخرى في التماس شأنه الاول فلم يحصل عليه فأبعد الى بيروت حيث اقام متوليًا تحرير جريدة التقدم للمرة الثالثة الى ان اشتد عليه الداء وهو السل الرئوي فاشار عليه الاطباء بالذهاب الى مصر مستفيدًا من ملاءمة هوائها لصحته فالتمس الرخصة في العودة اليها بواسطة المغفور له سلطان باشا فاجابت الحكومة السنية التماسه كرمًا واحسانًا فأتاها ساعيًا الى العفو لدى من لقي من شمائله عفو الكريم واهل به من عرفوا قدر ادبه فاقام في مصر ايامًا قليلة ثم عاد الى الاسكندرية فصرف بضعة ايام في محلة الرمل التماس العافية ولكن ضاقت به سعة العمر فلم يرجوا الاطباء له شفاء فاقنعوه بالعود الى اهله في ثغر بيروت فعاد اليها ولم يمض على عودته ثلثون يومًا حتى جاءنا خبر وفاته وكنت اذ ذاك مساعدًا لنقيدنا السليم في تحرير جريدته المحروسة وكتاب «مصر للمصريين» فهالنا الخبر فبكينا الاديب بمقل الغمام وكان قد ملأ اسماعنا قبل رحيله من الاسكندرية كلمات آمال وايناس فاذكرتني بعد ورود الخبر بقول القائل

هم اودعوا مسمعي يوم النوى دررًا   فردّها الدمعُ من عيني يواقيتا

(جرجس ميخائيل)

(نحاس)

وعناية رجالها العظام وموظفيها الكرام بنشر المعارف والآداب وترويج بضاعة الانشاء لطلاب القلم العربي في ظل اميرنا الوارف سيدنا السند صاحب النوائل والعوارف ايد الله سموه وعلاءه ورفع على هام الانام لواءه

وكنا قد عولنا على افتتاح المجموعة بترجمة حال الفقيد مأخوذًا بعضها عما نعلم العلمَ الشخصي وبعضها الآخر عن لسان شقيقه البارع مذكورًا بصحة الرواية وقد تم لنا ذلك فلبث محفوظًا في الذهن الى ان ظفر المشروع بالزمن المطلوب فاثبتنا الترجمة في مكانها من هذه المقدمة كما سيجيء

وتراكمت علينا مراثي الشعراء والادباء في ذلك الحين فكان منها ما يحكي السحر الحلال ومنها ما يزري بالدرر الشوال فاخترت من مجموعها ما ورد في قسم المراثي دلالة على مكانة الفقيد من البراعة والاجتهاد وحفظت منها لهذا المقام رثاء بليغًا لحضرة صديقنا الكاتب اللوذعي اسكندر افندي العازار لعلاقته بترجمة الاديب ووصف شأنه فجعلته تمهيدًا للترجمة وتوطئةً لما هو آتٍ في ايراد الحقائق من الكلام الصادق

قال ٠

ما طلعت على اديبنا شمس الخميس وما عرف في صباحه وجه انيس استحكمت منهُ علة الصدر فما دفع الاطباء عنهُ مقدورًا وما محا الاحباء ما كان مسطورًا وما راقب الموت فيه اهلاً ولا عشيرا فتلاشى نفسًا في نفس وقبضت روحه عند الغلس فمات وعيناه البرقيتان منفتحتان ترسلان نورًا كانهما محدقتان الى فضاء الابدية

قضى في سفح لبنان حيث الشمس العافية من الهواء والماء ومن ابن للداء العياء دواء فاتصل نعي وفاته ببيروت الآسفة فلا تسل القلوب عما تمزق ولا الصدور عما توقد ولا العيون عما جرى انك تكاد لا تجد الا رأسًا قلقًا وصبرًا مفترقًا ودمعًا مسنبقًا وقلبًا محترقًا فيا لله ما هذه البلية

كان رايتنا في علم اللسان وآيتنا في صناعة البيان وغايتنا في حب الانسان ٠ كان والله فتىً ولا كالفتيان جريئًا في الحق ما اخذته فيهِ لومة وما رهب فيهِ وعيدًا بل ما كان لهُ شعارًا في هذه الحال او مثلها من الاحوال الا قول من قال

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تموتَ جبانا

فعاش حرّ الضمير فكرًا وقولاً وفعلاً ومات حرّ الضمير فكرًا وقولاً وفعلاً يبكيه ضمير الاحرار وتندبه الحرية نشأ وطنيًا خالصًا صحيحًا وعاش جنديًا لأشرف الاصول واسنى الغايات وانفق في خدمتها من روحه ما كان ينفخ في القلم من الروح وجاهد جهادًا جنسيًا بنفس كبيرة اعيت بدنهُ وقوضت اركانه فصحّ فيهِ

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الاجسامُ

فمات شهيدًا حميدًا فقيدًا وحق لاسمه ان يخلد الى الذرية

كان زهرة الادب في الشام وريحانة العرب في مصر فلا عجبًا اذا الفيت بنسيانه احشاء الشآم شحاحا او لفقدانه امتلأت نواحي ارض مصر نواحا اي والانسانية كان للانسانية نصيرا ولاعدائها نذيرا وبالانسانية بشيرا فلتبكه الانسانية

ويا اخوان اديب المنتشرين في الارض مات اديب وأُدرج في كفنه واصابت الديدان مقيلا في بدنه واخرسه الموت في ترابه وحيل بيننا وبين خطابه فابكوا ما وجدتم في العيون دموعا ولا تسألوا قبلة الوداع فقد قبّلته عنكم جميعًا وقد

ودَّعتهُ وبودي لو يودعني   طيب الحياة واني لا اودعهُ

دفناه وتركناه ولو أمّنا ما نفعناه وهو من قبل قد نزعت اليكم روحه شوقًا فاوصاني بالقاء التحية

وانتَ ياشقيق الروح يامن اوحشتَ الدار ومن فيها وانست القبور وساكنيها يامؤبن الامراء وراثي العلماء وباكي الادباء والكبراء والفقراء يا ايها الراقد بلا حراك ولا يجدر بتأبينك سواك يبكيك القلم يا اميره والحق يا اسيره يبكيك الاهل والاحباء فقد كنتَ ودودًا حبيبًا ويبكيك الشعراء والكتاب والخطباء فقد كنتَ شاعرًا وكاتبًا وخطيبًا . تبكيك المجالس ياخير جليس وتبكيك محاضر الانس ياخير انيس . تبكيك صحفٌ بعبراتها وترثيك صحفٌ بعبراتها ولا تسل عمن استرهن الامور باوقاتها فترجمة حالك ستفضح ما كان مستورًا تبكيك افاضل الكهنوت الحق انك كنت للافاضل عضدًا كريمًا . تبكيك الجمعيات الادبية . تبكيك بكاء اندروماك انك زهرة الآداب ياغصنًا نضيرًا ونسقيك الذكرى في كل عشية

واما الكئيب الكاسف البال رفيق صباك زاعما لك واخوك في جهادك فاجثو بالذلة والاكتئاب عند ذلك التراب واستمطر دمع العين لهفا واستوقد نار الصدر أسفا وابكيك وارثيك ما بقي لي من الحياة بقية

واقسم بوحشتك آنسها الله وبغربتك رحمها الله اني مقيم على ولائك محبٌ لاحبائك عدوٌ لاعدائك لا عزاء لقلبي الأسوان الا التأسي بان تجمعني واياك ظلمة الابدية

فحسبي شجوًا ان ارى الدار بلقعًا   خلاء واشلاء الحبيب ترابا   (انتهى)

وهذه ترجمة الفقيد طاب ثراهُ

ولد واآسفاه عليه في دمشق الشام عام ١٨٥٦ فلم ينفطم عن الرضاع حتى ظهرت عليه مخائل النجابة طفلاً تخترق ذهنه موثرات التربية لادقها اشارةً واقلها ظهورًا ولما ترعرع ادخله والده مدرسة الاباء العازريين فتلقى فيها مبادئ العربية والفرنسوية بما كان يزيده في اوقات الامتحان تقدمًا على اقرانه وكان استاذه في العربية يقول لابيه « ان ابنك سيكون قوّالاً » اي شاعرًا لان اكثر كلامه كان يرد مسجعًا عفوَ القريحة وهو لا يعرف اذ ذاك شيئًا من قواعد اللغة ولما بلغ العاشرة اخذ ينظم الشعر كلفًا به وفي الحادية عشرة دخل في خدمه الكمرك براتب

اقوال الجرائد

قالت المحروسة بلسان فقيدنا المرحوم سليم النقاش بعنوان

اديب

***

كذا فليجلِّ الخطبُ وليفدح الامرُ　　وليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذرُ

أمن حدّ الاقلام ان تجري بعد فقد الاديب من المحابر أمن واجب الدموع ان تبقى بعد هذا المصاب مصونةً في المحاجر . أمن العدل أن نعاف اليوم من اثواب الحداد . أمن الغرابة ان نفقد بهذه الفاجعة الهدى والرشاد . لا والاسف وحر نار اللهف فقد ثلّ عرشُ الفضل ودُكّ طودُ الذكاء والنبل وغاضَ معين البراعة وشوّه وجهُ اليراعة وبدد شمل البلاغة واختلّ نظام الانشاء وكان لا يأخذ محاسنه العدُّ والاحصاء وانقبضت الصدور واضطربت القلوب واندهلت البصائر وشخصت الابصار فعمت الاحزان واستولت الاكدار وحارت الافكار

وغاضت ينابيع المسرة وانقضت　　ليالٍ بها كم كان للانس اوقاتُ

واصبحت الآداب تندب حظها　　تقول مضى سعدي واهليَ قد ماتوا

كيف لا

والدهر قد فوق نحو العلى　　سهماً وهذا السهم كان المصيب

تعصًا لهذا الدهر من خائنٍ　　لم ينجُ منهُ فاضلٌ او اديب

اجل لقد ارسلت المنية رسلها فاختطفت زهرة الفضل الزاهرة وفغرت الداهية الدهياء فاها فابتلعت درة الادب الباهرة

والموت نقادٌ على كفه　　جواهرٌ يختار منها الغوال

ومن ذا الذي يسمع بافول بدر المعارف وغروب شمس اللطائف

ولم يسل من عينه ادمعًا　　نساجل السحب وفيض البحار

ولم تروّع قلبه حسرةٌ　　تلوّن الوجه بلون البهار

مضى الاديب الذي كان للعلم حرزًا وللبلاغة كنزًا وللفصاحة ركنًا وللسماحة حصنًا

هيهات ان يأتي الزمان بمثلهِ　　ان الزمان بمثلهِ لبخيلُ

مضى فكان الهول هولاً صير بياض العيش سوادًا ورحل فكان الخطب خطبًا جعل نور الحياة ظلامًا

واني لابكيه واني لصادقٌ　　عليهِ وبعض القائلين كذوبُ

مضيت واي مقلة ايها الاديب لاتذرف الدمع عليك صبيبًا واي امرء من مفتوني ادبك لا يتفجع عليك بكاءً ونحيبًا فارقتنا ونأيت وما اصعب نأيك وفراقك ورحلتَ عنا ومضيت

فجعت برحيلك احبابك وعشاقك وقد اطمعتهم يوم وداعك بامل اللقاء وطدت رجاء الاجتماع يوم لثموك في السفينة لثمة الاخاء فما كان العهد بهجرك ان يكون اليوم مزيل الصفاء مذهب الهناء لاصبر بعده ولا عزاء

ولو قسم الحزن على فقدك اعشارًا لاصاب عشرٌ منها والديك وآلك وعشرٌ اصدقاءك وخلانك والادباء الذين عرفوا قدرك وشانك وعشرٌ كل من سمع بك ورآك او علم برفعة مقامك واصابني انا السبعة الاعشار وما ارضاها قسمة ضيزي اكون بها اقل من الجميع حزنًا عليك لا سيما انك غبت عن العين ولم التمك لثمة الوداع قبل ان تغمض وا آسفاه عينيك

ولو جمعت في رثاءك ما قيل في الدنيا من رثاء لما جاء وافيًا بجزء من الواجب وهيهات ان يوفيك حقك منة الا من هبطت عليه اسرار بلاغتك واُعطي نخبة براعتك وكان لك في البراعة قرينًا وفي سرعة الخاطر ندًا ومثيلاً

ولقد شهدناك في ابان شبابك تأخذ بناصر المبادئ الحرة وتؤيد شأن القواعد الصحيحة فدلنا ذلك على انك لست من ابناء هذا الجيل وليس اهله اقرانك بل انك سابق بمئات من السنين في الوجود اوانك وانه سيأتي على الاعصار القادمة زمنٌ يذكرك اهله بما نشأت عليه في زمانك فينادونك ثم ايها الاديب هذا عصرك الخليق بك فقد وجد فيه رجالك وهم بك حريون ثم وانشر فيهم مبادئك وتعاليمك الديمقراطية فهم لك مصغون ولشأنك معظمون

فقدناك يا فتى النبهاء بالغًا مبلغ الكهول من الحكمة ولم تبلغ الثلاثين من عمرك ولكنك ابقيت لك ذكرًا يؤبد دهورًا واثرًا يخلد من بعدك اجيالاً فعلم بهما الفضلاء كيف يحيا الذكر ويبقى الاثر

وبمَ نذكرك تذكيرًا بادبك أبطلاقة لسانك وقد كنت واسطة عقد الخطباء ام بتوقد جنانك وقد كنت خيرة الالباء ونخبة الاذكياء

فكم رأيناك على المنابر تجيل عينيك ملتفتًا نحو ملتفطي دررك يمنة وشمالاً فصيحًا بليغًا قوي التصور حاد الذهن حاضر الفكر سريع الخاطر متين الحجة صحيح البرهان ثابت الجنان

وكم عرفناك في مكاتب الصحف متقلبًا بين فنون البراعة بما هو بادي الاثار في جرائدنا شاهدًا على سعة معارفك وطول باعك في السياسة والمباحث العلمية والمناقشات اللغوية والمنافسات الادبية والمدح والهجاء والتأبين والرثاء وحسن الرواية واحكام طرق الاخبار والحكاية والتفنن في اساليب الجد والهزل والعذر والرجاء واللوم والعتاب والتنصل منهما بمناصحة الخلان والاحباب والمغازلة والمداعبة والحزن والطرب وسائر فنون الادب وكليات الامور وجزئياتها على اخلاف احوالها وصفاتها

وبمَ نستوفي ذكر محاسنك ونستجمع بقية اوصافك واحاسنك أبفنّ القريض وقد كنتَ ابن بجدته وقائد نجدته مقتبسًا مبتكرًا مجيدًا مؤثرًا مرقصًا مطربًا محزنًا مبكيًا تلعب بالعقول بين

الرقة والانسجام وتأخذ بالالباب على ابدع نظام في نظم الكلام أم برقة جانبك في المعاشرة ولطف محاضرتك في المصاحبة ام بحسن وفائك وجميل ولائك وبشاشة وجهك وكرامة طبعك

وبمَ نمثلك لدى العين في سجاياك ومناقبك ومزاياك أبالآداب وقد كنت صحيحها من غير تصنع ولا رياء ام باخلاقك وطباعك وقد كنت حاد الطبع سريع التأثر والانفعال غير حقود او جحود طيب القلب سليم النية عنبري الصوت مسكي السمعة مستقيم الشأن رضي الخلق لا يتولاك الحسد ولا يتملكك الطمع ملتهبًا غيرة على ابناء جنسك عزيز النفس ابيها طاهر السريرة نقيها انوفًا من غير كبرياء مقدامًا جسورًا لا يأخذك العجب آن الفوز والخيلاء حكيمًا ذكيًا منبسط اليدين سخيًا محسودًا على ما كان فيك من النباهة مشكورًا على ما كنت مفطورًا عليه من النزاهة

وبمَ نتخذ بعد ذلك من اثار حياتك سببًا للسلوان وموجبًا للعزاء أخطبك واقوالك التي ذكرنا او صفات كمالك التي عددنا . نعم هذه آثارك في الادهار تشهد على سعة علمك بغير بيان وهذه باريسينك الحسناء تنطق بحسن بيانك بغير لسان وهذه رواية اندروماك التي لو علم واضعها بما لبنانك عليها من فضل التعريب لانبعث مطأطئًا في موقف الاجلال لمقام الكاتب الاديب وهذه جرائد مصر والتجارة والعصر الجديد والمحروسة والتقدم وغيرها مما جاء مطوقًا بقلائد فصاحتك السحبانية محلى بفرائد حكمتك اللقمانية وجاء معلنًا انك لم تكن فيما اجدت به وابدعت الا اياسي الذكاء اخطلي الادب وهذه المؤلفات العديدة والمنشورات المفيدة التي اشتركت مع اربابها في التأليف والتصنيف فكانت دليلاً على اجتهادك وسعيك في نفع بلادك. وهذه سورية تفتخر بكونها مسقط رأسك ومطلع شمسك وهذه مصر تنافس بك الامصار وتفتخر بكونها مظهر فضلك ومجلى افكارك

وكيف يسلوك اهلها وقد كتبتَ اليَّ منذ سنة في احدى رسائلك تقول . آه لو ارى مصر نظرةً اخرى في حياتي . وقد نلتَ اربك وبلغتَ مناك فجئتها ورأيتها فاكرم امرؤها وفادتك مأهلين بك مرحبين ثم نأيت عنها على امل العود اليها بعد الشفاء فحال واحسرتاه بينها وبينك الداء فكانوا عليك آسفين وبما ذكرناكَ به ذاكرين

وكيف اسلوك يارفيق الشباب وكنت ان نمت رأيتك في منامي وناجيتك في احلامي وان صحوت رأيتك الى جانبي وامامي وان تكلمت كنتَ موضوع كلامي وان كتبت سبقتني الى ذكرك اقلامي

فمن اين لي بعد ذلك ان اصبر على عظم هذه المصيبة فيك ومن اين لي ان ارى بعدك مثل الدرر التي كانت تتناثر من فيك فوا آسفاه على اوقات تقضت بقربك وواحسرتاه على زمن كان بانقضاء نحبك الزمن الذي كان يتوقع فيه ابناء بلادك زيادة النفع باقدامك واجتهادك فثق وانت تحت الثرى اناديك حيًا بذكرك اني لا اسأل بعد هذا الخطب صبرًا قليلاً كان

او جزيلاً فقد رأيتهُ بعين الحقيقة امرًا مستحيلاً ولكني اسأَلهُ لوالديك واخويك وآلك وسائر محبيك وخلانك.

وكفى لتعزيتي ان لا اجد على فقدك مَنْ

يظنُّ انَّ فؤادي غير ملتهبٍ وانَّ دمع جفوني غير منسكبِ

وورد في جريدة الاهرام الغراء

بمزيد الاسف والشجن نعت لنا اخبار بيروت فقد الشاب الاديب اديب افندي اسحق توفاه الله يوم ١٢ الشهر الجاري في قرية الحدث من اعمال لبنان قرب بيروت اثر داء عياءٍ الَمَّ بهِ من مدة طويلة فعالجهُ الاطباء بما وصل اليهِ جهدهم حتى تعاصى عليهم فمضى الفقيد في شرخ صباهُ مغادرًا الاهل والخلان يرددون عليهِ زفرات التحيب والاسف ولا غرو فقد كان رحمهُ الله شابًا نبيهًا حاد الذهن وكاتبًا بليغًا تشهد لهُ نفثات اقلامهِ التي اودعها الطروس وحفظتها الصحف دالة على ما كان لهُ من الباع الطولى في فنون الادب وانها لتحفظ لهُ الذكر الجميل يرددهُ العالمون بفضل اولي الفضل ويعاودون الاسف على فقده قبل ان استوفى حق عمرهِ لانهُ توفي عن ٣٠ عامًا صرف جلها في الانكباب على المطالعة والاهتمام بالكتابة واندمج في سلك الخدمة المصرية ونال من لدنها الرتبة الثالثة ثم تجرد في بيروت لكتابة صحيفة التقدم ولما انهكهُ الداء انقطع عنها الى المعالجة حتى قبض فنسأل الله ان يسقي ضريحهُ غيث الرحمة ويلهم اهلهُ وخلانهُ صبرًا جميلاً ويكتب لهم بذلك اجرًا جزيلاً

وجاء في الطبيب بقلم حضرة صديقنا العلامة اللغوي الشهير الشيخ ابرهيم اليازجي

رزءٌ وطنيٌّ

ننعى الى الوطن وآلهِ والفضل ورجالهِ خطب يومٍ جفّت فيهِ المحابر وسالت المحاجر وقامت نوادب الفصاحة ترثي موشي حبرها وانبرت خطباء البلاغة تؤبن خطيب منبرها نعني بهِ الكاتب البارع النحرير والخطيب المفوَّه الشهير اديب بك اسحق صاحب النبل المعروف والذكاء الموصوف الذي غاضت مناهل الادب لغيض بحارهِ وراح ولسان الحال ينشد في آثارهِ

استشعر الكتاب فقدك سالفًا وقضت بصحة ذلك الايامُ

فلذاك سوَّدت الصحائف وجهها حزنًا عليك وشقّت الاقلامُ

وقد استأثرت بهِ رحمة الله تعالى في صباح يوم الخميس الثاني عشر من هذا الشهر في مصيفه بحدث بيروت على اثر داءٍ في الصدر اعيا الاطباء علاجهُ وقدرٍ سُدَّ على ذوي البصائر منهاجهُ ودُفن بها رطب الشباب غضّ الاهاب غير متجاوزٍ نيفًا وعشرين سنةً ملأ فيها الاسماع والقلوب

وطار ذكره في الآفاق بما لا تمحو اثرهُ الخطوب وكان دفنه بمشهد سوادٍ من اوليآئه واحبابهِ بعد ان قضوا سنة الوداع والتأبين بما يقتضي حق آدابهِ رحمهُ الله رحمةً واسعةً وافرغ عليهِ سحائب رضوانه وثوابهِ

وقال لسان الحال

مات الاديب . فقضى من كان في قومهِ للذكآء اوقد شعلة وللولآء اخلص طوية وللوطنية امضى بنيها عزيمة وللتحرير والتحبير امدّ باعًا ولآداب الجيل اوسع اطلاعًا اضعنا الرصيف وفقدنا الزميل . فيا للنازلة لا تدفع ويا للخطب لا يردّ . اضعنا اديب بك اسحاق عند غلس الخميس في الحدث احد ارباض المدينة . ثم نعي للبلد بلسان الرسل وما انتشرت مناعيهِ مسطورة الا بعيد عصارى النهار لما اصاب آله الفضلآء وخلانهُ من روع الخطب نتولاهم الحيرة بين ان يواروهُ سفح لبنان اجابة لدعوة اهل المكان الذي قضى فيهِ وبين ان يسيروا بهِ الى المدينة امتثالاً الى رأي صحبهِ وسائر من قدر فضلهُ . ثم غلب الرأي الاول فدفن في مقبرة الحدث والعيون بالدمع شكرى والصدور بالاسف ملأى . واهل الادب بالنعش يحفون وذوو المكانة يؤبنون . واما من اصاب المنتهم عجمة الخطب وعقدة المصاب فقد كانوا بالدموع يتكلمون وبشهب الجوانح وعطفات الجوارح يرثون . وكان ارقّ من خطب (وانما برخيم صوت الكئيب ولوعة الشاكي ودمعة الباكي) جناب البارع الذكي الفؤاد اسكندر افندي العازار ثم تلاه جناب الالمعي الاديب ابرهيم افندي الحوراني . وكان في جملة من خطب واجاد الذكيان خليل افندي الخياط وسامي افندي قصيري . على انهُ لما كانت الشمس موشكة ان تغيب امسك كثيرون من الخطباء عن التأبين ثم تفرّق الحشد . الحدثيون الى منازلهم والبيروتيون الى بلدهم

(ويلي ذلك ترجمة حال الفقيد فاضربنا عن نشرها لورودها في مقدمة الكتاب)

وقال الجنان

اختطفت المنون حلية شبان العصر الخطيب الفصيح الفاضل المرحوم اديب بك اسحق من كان لعين البلاغة قرة وللوطن فرحةً ومسرة . قضى وهو في يانع الشباب غيسان لا يعوزه الا الصحة ولا يلزمهُ الا الشفاء اغتالتهُ المنية وانشبت فيهِ اظفارها بعد ان طال بهِ المرض وتمكن من جسمهِ فايبسهُ غصنًا رطيبًا في التاسعة والعشرين من العمر ولما سرى نعيهُ في الاقارب والاصدقاء تنفطر منهم القلوب وشقوا الجيوب وبكوا الاديب بكاء لا يزيد بكاء وحزنوا على فقده حزنًا ولا حزن الخنساء فمن نادب سوء حظ الوالدين والاخ والشقيقة ومن نائح على الاديب اخًا حُرِمَ لذيذ خطابهِ ونافع الفاظهِ الفصيحة واعرابهِ ومن ذاكر للفقيد اقوالاً وحسن معنيً وسحر سبك حباه بهِ رشداً وهداية . ونحن في مقدمة الذين يعجبون خسارة الفقيد النجيب

تتقاسم الجميع حزنهم واسفهم وتأبينهم ولو اوردنا اظهار ما حاق بالقوم من الكآبة والالم لملأنا الصفحات والسطور ولم نأت بجزء مما يختلج في الصدور فلذا ولما انتشر الخبر وذاع تسابقت كتائب القوم الى قرية الحدث حيث اقام الفقيد في هذه الايام يؤدون واجب التعزية للوالد وحزنة اشبه بحزن يعقوب والوالدة الثكلى الحزينة حتى اذا استكمل عدد الاصدقاء والاقارب صلى احد الاباء الاجلاء على الفقيد وبعد ان فرغ رفع النعش على الاكف وسير به الى المدفن وهناك استأنف حضرة الاب الجليل الصلاة عن نفس الفقيد

ثم ابنه جناب خليل افندي خياط معددًا محامده وحسناته ثم خطب من بعده جناب اسكندر افندي العازار مؤبنًا الفقيد بخطبة مؤثرة فان علاقته معه ومحبته له لاشهر من ان تذكر ثم ابنه جناب المعلم ابرهيم افندي الحوراني فاجاد واحسن ومن بعده لفظ جناب الدكتور بشاره افندي زلزل تأبينًا جميلاً اعرب فيه عن حاسيات الجمهور ذاكرًا خدم الفقيد المتتالية واعماله الكثيرة الى ان تكلم جناب سامي افندي قصيري بعبارة رقيقة اثرت في القلوب عظيم تأثير ثم ردوا التراب على الفقيد وارفض القوم كل يكفكف دموعه ويشكو ما به من ألم الحزن ولسان حالهم يقول

لا تأسفنّ على ميت له اثرٌ   ما مات والله من ابقى له اثرا

وجاء في مجلة الانسان لصاحبها الفاضل حسن بك حسني
بعد قصيدة الرثاء التي ادرجناها في قسم المراثي

ورد الينا الرقيم الاليم بتاريخ ٣٠ حزيران ينعى الى الصديق الحميم ل الخليل التدمري ربة الادباء وغرة الالباء وكانت وفاته في صبيحة يوم الخميس «ولا كانت» الموافق ١٢ حزيران في قرية الحدث في جبل لبنان وانني لاخجل وحرمة الادب ان البس الصحيفة عليه ثياب الحداد كلا فما يلبس الحداد الا على من مات اما اديب فلم يمت ذكرًا وان مات جسماً ولم يفقد اثرًا وان فقد عينًا احسن الله عزاء المعارف والاداب واجزل الصبر على اهله والاصحاب وابقى لنا شقيقه السالك طريقه الحائز صفات اخيه بما يضمن آمال المعالي فيه

وقد تناولنا الصحف العربية قاطبة ناعية نادبة شاكية باكية لفقد وعلى فقد رب البراعة وصاحب البراعة غرة جبين زمانه والحسنة المأثورة من اوانه اديب بك اسحق ولا غرو ان تدمع على اثره العيون وتهيج الشجون وتنوح النوائح على مثله فلقد كان فاضلاً كاملاً واديبًا اريبًا ظهرت براعته وقويت يراعته فلم تعطرت حدائق الصحف بطيب نشره وتقلدت اجياد المعارف بلآلئ نظمه وشذور نثره كان تحرير التحرير ان كتب مقرر التقرير ان اعتمد فخطيب مع كمال النطق وجمال اللسن كان بدر الباب فأجنته هالة الاجل وكان كوكب آداب مذ اشرق حتى افل

المراثي

قال جناب صديقنا الشاعر البليغ الشيخ خليل اليازجي

أخلق بجسمك أن يبيت كليلا عن جهد نفسك او يموت عليلا
نهكته نفسك في المطالب والعلى حتى تمنى للفراق سبيلا
يا راحلاً ابكى عليهِ محابرًا ومنابرًا ومحاجرًا وطلولا
ترثيك اقلام بكون صريرها نوحًا عليك من الاسى وعويلا
تتذكر الكف التي كانت بها اصواتها التغريد والترسيلا
وهي التي قد كن يرن بنانها قضبًا وكان صريرهن صليلا
كف يضاهيها لسانك خاطبًا وهو الذي للسيف كان مثيلا
فوق المنابر لا يفل غرارهُ لكن يكون لهُ المضاه فلولا
تحتاج منك الى خطيب مصقعٍ يتلو ثنا لك في الانام جميلا
ولعل مثلك ليس يوجد عندنا حتى نرى لك منك عنك بديلا
يروي مآثر عنك يقصر دونها صوغ القوافي في ثناك طويلا
وبعد ما احصيتهُ في مدة قصرت ففات العرض منها الطولا
ان كان قل مدى حياتك عندنا فقليل مثلك لا يعد قليلا
فلقد ملأت بهِ السماع جرائدًا وقصائدًا ورسائلاً وفصولا
ما بين شرق في البلاد ومغرب لم تألُ فيهِ تغربًا ورحيلا
مستصحبًا الك همةً نفاذةً وعزيمة مثل الحسام صقيلا
وقريحةً وقادةً وبصيرةً نقادةً تستوضح المجهولا
لا يبعدنك الله من نآءٍ مضت معهُ قلوبٌ لا تروم قفولا
ان كنت قد اوحشت بيروتًا فقد اوحشت باريسًا وشقت النيلا
فعلى ضفاف النيل منك مآثرٌ سالت فكانت ضفتاهُ مسيلا
انت الاديبُ كما سميت وحبذا اسمٌ عليك نراه قام دليلا
لك عندنا ذكرٌ يهب نسيمهُ فيسيل من محب الدموع سيولا
فاذا تذكرنا شبابك ذاويًا رطبًا ذكرنا للغصون ذبولا
واذا تذكرنا خلائقك التي لطفت تذكرنا النسيم بليلا
واذا تذكرنا حديثك فالطلا تسبي قلوبًا للملا وعقولا
واذا تذكرنا محاسنك التي غربت ذكرنا للبدور أُفولا
فعليك من لدن المهيمن رحمةٌ تسقي ضريحك بكرةً واصيلا

وقال جناب الشيخ سليمان الحداد شيخ طائفة الروم الكاثوليك في الاسكندرية

بكيت للبين بعد البين ازمانا فاحدث الدمع في الاجفان اجفانا
قد كنتُ ابخل في دمعي فامسكهُ واليوم ابذلهُ درًّا ومرجانا
على اديبٍ بهِ ايامهُ غدرت فغادر اليوم في الاكباد احزانا
على اديبٍ اتى حسان آونةٍ سحائب الدمع تبكي منهُ سحبانا
على اديبٍ لهُ في كل جارحةٍ عينٌ ترى دمعها في الحي هتانا
على اديبٍ بهِ ايامنا فقدت كنزًا من الفضل والآداب ملآنا
على اديبٍ لهُ آدابه شهدت في كل فن فلا يحتاج تبيانا
وعن اديب اسال الدمع من مقلٍ لم يسأل القلب بعد البين سلوانا
تقول اجداث قومٍ اذ يجاورها لله من جدث يسقى فاسقانا
ياحادث البين قد واريت في حدثٍ من سفح لبنان بين الترب لبنانا
ورمسٌ حوى طود علمٍ في جوانبهِ قد صار للفضل والآداب اوطانا
يا ايها الرمس هل تدري مكانتهُ وفضلهُ كان بين الناس كيوانا
القائه الخيل في مضمار خطبته غرّ المعاني عليها كن فرسانا
ما غالت القوم في مضمار من سلفوا اذ كان فضلك للباقين برهانا
هدمت هيكل جسم زانهُ ادبٌ فيا بهِ رمت للآداب عمرانا
خمدت كالنصل في ارضٍ بنيت لها فخرًا وحزنك فيها قصر غمدانا
قد كنت للعرب قسًّا في منابرها وللفصاحة فيا قلت حسانا
توقد الذهن فيهِ كان آفته اذ كان افراطه للنفس عدوانا
قلنا بهِ الصدق والايام كاذبةٌ وليس ما اتبع الغاوون اغوانا
ما زال يجني الورى من لفظه عسلاً حتى ارتدى قده العسال اكفانا
قد كان سامعه في قولهِ ثملا واليوم اضحى بخمر الحزن نشوانا
قد لازم الحد والاقدار قادرةٌ على شجاع وان لم يرضَ اقرانا
يا شاربًا من كؤوس البين نهلته ابقيت كلاً الى لقياك عطشانا
اعداك داء عدوّ الفضل تحسبهُ فليت فضلك قبل البين اعدانا
آيات حق لنا كانت رسائلهُ فكلما قلتهُ ما كان بهتانا
تبكي البصائر والابصار آسفةً من كان منه لعين الفضل انسانا
يدعى اديبًا وهذا الوصف منتشرٌ فكل من ذكر الاداب ابكانا

وقال جناب الامجي وديع افندي الخوري

شقّت عليك قلوبها الاخوانُ ما بعدها ستر العزاء يصانُ
وبكتكَ اقلام الرثاء بكفها فجرى لفقدك دمعها الهتان
دمعٌ يسوّد طرسها بمداده كالكحل تجلو حسنه الاجفان
تخشى الطروس هيبة فكانهٔ نـار المصاب تثيرها الاشجان
مدّ الدجى ليلاً على ليل الاسى ودجـا فابها له الرجمان
قد سرتَ من دار الغرور الى بها دارٍ يفاض بها لكَ الاحسان
فهناك لا غدرٌ ولا شرٌّ ولا ضرٌّ ولا كدرٌ ولا احزان
يبدو هناكَ الامنُ ثم الخيرُ ثم البشرُ ثم اللطفُ والرضوانُ
لو كانت الاصحاب تكتم ما بها من حرقةٍ لاذاعة الكتمان
او كان صرف الدهر يترك فاضلاً جزعَ الغرور اليه والبهتانُ
ولّى الذي لم تبدُ درّة نطقه الاّ غدت تتنازع الاذهان
اني لاعجب كيف خرّ من الذكا جبلٌ احلّ بقلبه لبنان
يا قبر اكرم وفد ضيفٍ قد اتى فبكلّ قطر تكرم الضيفان
انى اعزّيـه والدًا بنجيبه بشجو النضا ونجيبة الاخدان
قصفت يد الحدثان غصن حياته بغيـاً فلا صبرٌ ولا سلوانُ
واخٌ ووالدةٌ وصحبٌ قد رثى شعر لحرّ مصابهم وبيان
صحبٌ اذا بغت العزاء قلوبهم لعبت بها من ذكركَ النيران
ثارت على الايام حرب اسىً لقد جاءت بها الاقلام وهي عوانُ
ماتَ الذي احيى البلاغة بعد ما مرّت عليها للفنا ازمان
لطفُ الملاكِ بثغره لكنَّ مذ ولّى علمنـا انـهٔ انسانُ
ويراعهُ نملٌ ومـا بمداده راحٌ ومـا بسطوره ريحان
عهدي بصحب اديب لُسْنٌ كلهم وهنا نظرتهم وهم خرسان
حصر المصاب بيانهم فجرت لهم للفصح عنهٔ مقلةٌ وجنان
ذكرٌ للطفكَ في صميم فوادهم حي فليس يميتهٔ نسيان
ضربات يأسٍ في قلوبهم لقد وقرت بهـا الاسماع والاذان
بكت النهى جزعَ الحجى قلق الذكا شكت الرفاق وناحت الخلان
شقت جيوبًا للمصاب وانبعت تلك الجيوب بشقها الاخوان
لو دامَ قلبٌ لم يشقّ رأيتهٔ دمعًا عليك تسيلهٔ الاجفان

عزّوا المحابر والمنابر قد مضى قس الزمان وقد قضى سحبان
نفثات صدرك مذ بدت تهدي السنى شامت بها عقد البهاء حسان
تبدي لنا ثمر الحجى كرماً وما ظهرت لنا بطروسها اغصان
حفظت لك الاداب ذكراً زهرةً يبدو وانت لعامها نيسان
شمتُ الزمان وقد عرفتُ شؤونهُ اعمى يجل بكفهِ الميزان
يهوي بهِ من كان ملء طباعهِ فضلٌ ويعلو من بهِ نقصان
يبكي عليكَ الصحب لكن كلهم بكَ لاحقٌ لمّا يحين اوانٌ
فهمُ ضئين والحياة حظيرةٌ والموت ذئبٌ خاطفٌ غرثان

وقال جناب الكاتب البارع ميخائيل افندي جورج عورا في جريدة البيان

وفدت علينا صحف بيروت ناعية لنا فقد الكاتب النحرير رب البراعة والتحرير وقدوة اهل التحبير اديب بك اسحق فلما شاع الخبر في القاهرة ثارت لواعج الاحزان وتولت القلوب الاشجان وملكت الرعدة الخواطر وفاض دمع المحاجر وشاهت الوجوه وخشعت الابصار وحارت الافكار فيارحمة الله على رجل الادب وطود العلم ونجم الفضل الآفل ورفيق المجد الراحل وكوكب الاوطان وتاج هذا الزمان

بربك ما هذا الذي دكدك القوى تزلزل رضوى اومات اديب

اديب وما ادرى الورى بقدره هو بديع زمانه وسحبان دهره قضى الادب بماته نحبه وأسال السكون على مشرق ذكائه غربه أجل فقد ذهبت الحكمة والوقار وشحبت الدراية والاخبار وتفككت اوصال اللطائف وانهمرت ذوارف المعارف فيا راحلاً عنا وقد سجل على القلوب بالاسى وضيق على النفوس رحب الزمان حتى لا تجد الصباح امثل من المساء باي لسان نوفي حقوق رثاك وكيف يجمل التصبر على طول نواك

الصبر ليس على فراقك يحسن ولمثل هذا الخطب تبكي الاعين
يامن تحركت النفوس تأسفاً لفراقه هيهات بعدك تسكن
فلئن تمكن منك سلطان الردى فنفوسنا فيها الاسى متمكن
ياعين جودي بالبكا وتكلمي بمدامع ان المدامع ألسن
هل ثم عين لم تجد بدموعها لهفاً عليك ومقلة لا تحزن
أو ثم قلب لم يمزقه الاسى أو هل هنالك قوة لا توهن
تالله ما الدنيا بدار يبتغى فيها الثوا ويطيب فيها المسكن
كلا ولا للدهر عهد يرتجى منه الوثوق وليس منه مأمن

والارض يورثها الاله عباده وهمو مسيء نفسهُ او محسن
كأس الممات على البرية شربه حتم ومنه ليس ينجو ممكن
كيف النجاة من الممات وهذه جند المنية بالاسنة تطعن
ام كيف يطمع في الصفاء فتى لهُ بالطين والماء المهين تكون
والمرء مرمى الموت فهو اذا نجا منه النهار ففي غد لا يمكن
لاينفع الاسف النفوس ولا الاسى الكف اولى والتصبر احسن

وقد وردت الينا المراثي الكثيرة في تأبين الفقيد رحمه الله وغفر لهُ في دنياه واخراه فنحن ندرجها عند سنوح الفرص واولها رسالة لحضرة البارع عزيز افندي الزند من منوف نقتضب منها شيئًا من نثرها الصادع ولفظها الرائع ومطلعها :

ردد النوح صباحًا ومسا وتجلد لتباريح الاسى

وابكِ بكاء الخنساء وارسل زفرة البأسا والتعساء واذرف الدمع واخشع لهذا الفجع فقد اغتالت المنية اديب الدهر وسحبان هذا العصر

الى ان قال متوجعًا اهًا اهًا عليك وواحسرتاه كيف تركت ايها الاديب اخواننا الك يصلون نار فجعتك بعد ان برّح بهم اسى فرقتك ان الصحائف لتبكيك وان الاقلام لترثيك ولتندبك العلوم والمعارف واللطائف والعوارف انا لله وانا اليهِ راجعون

وقال حضرة الفاضل عزتلو حسن بك حسني صاحب مجلة الانسان

اعوني اليوم جدد لي نحيبي وثم نبكِ على ذاك الحبيبِ
أعوني كيف لا تجري شؤون على شأنٍ قضى نحب القلوب
اعوني دمت خبرني لماذا تبدلت المسرة بالخطوب
امن حدثٍ الى جدثٍ تولى اديب العصر ذو الخلق الاريب
ام الشمس المنيرة قد توارت ولم يك ثم من وقت المغيب
ام الغصن الرطيب ذوى وكانت حدائقهُ رياحين اللبيبِ
اسفت نعم اسفت على صديقي بكيت نعم بكيت على اديب
فقل للزهر غاب البدر فابكي وقل للارض حزنيهِ نطبي
وعز اليوم ابكار المعاني فقد فجعت بمنطيقٍ خطيب
وشوه وجنة الاوراق حزنًا لتبدي وجه مذلولٍ كئيب
ونادِ القول والتحرير جمعًا لتندب فقد قوالٍ كتوب
وسل عنهُ القلوب علام شقت على اثر السرائر والجيوب

وكيف يموت من احيى الليالي ... وكيف يصاب ذو الرأي المصيب
فتى قد كان للاوطان عبدًا ... له من شأنها اوفى نصيب
فتى افنى الشباب نهىً وفكرًا ... وادرك حلم ذي الرأس الخضيب
به ازدهت اليراعة واستنارت ... براعة روضها الزاهي الخصيب
فيا لهفي على خلٍ وفيٍّ ... عليه خان دهري بالكروب
ويا ولهي على ثاوٍ وحيدٍ ... بعيد الوصل في فصل قريب
بكيت فقالت الاداب ارخ ... اقمت وفا على مثوى اديب

سنة ١٣٠١

خطب ومحاورات ادبية

لمع من كلام له في محاورة جرت في جمعية زهرة الآداب ببيروت على نابوليون الاول هل كان خيره اكثر من شرّه وكان في المحاورة سالبًا

قال

لقد سبق لساني الخاطر وخاطري الفكر في الرضى بهاته المباحثة . تذكرني بالرجل الذي ما رأيت فيه كبيرًا غير ذنبه ولا عظيمًا غير استبداده ولا مميزًا غير شره وقسوته فتقوى بها علة على حرف الضعف وتضعف صحة على طرف القوة فانهُ يمتنع على اي قلب لم يصفُ من دم الرحمة ويتعذر على اي نفس لم تخلُ من روح الانسانية ويستحيل على اي فكر لم يصفد من معنى الرشاد ان يذكر ما اجترم الظلاَّم وما ارتكب المفسد وما افتأت العادي ثم لا يناله عذاب التأثر ولا يمسه الم الانفعال

واي اجترام اعظم مما سابسط واي ارتكاب افظع مما ساروي واي افتئات اضرّ مما سابين في اعمال الآفة الحاصدة للارواح والبلية النازلة بالابدان والصاعقة المنقضة على عموم الانسان وصفت نابوليون الاول وهذا الوصف لا يصل الى معناه وسميتهُ وابن من الاسم مسماه

ولست في موقف الخطيب لامثل سيئات هذا الرجل ومنكرات اعماله انذارًا للناس من التهالك على امثاله من المنهمكان واغراء لهم بمجانبة اللوم الباعث على تأييد الظالمين واجتناب سبق الحكم الداعي لتقوية الطامعين واطراح الغرة الحاملة على رفع اقدارهم السافلة ونبذ الفتنة الحادية لاجلال نفوسهم الباثلة

ولست في مقام المؤرخ لاجيءَ بتفصيل اعماله ومحصل اقواله خصوصًا بعد انتهاء الملك اليه فاعرضها في مجلس الحق فيصدر حكم الانسانية عليه ان يهبط من جنة التعظيم الى جحيم الخزى والتحقير

وانما انا مناظر في موضوعه التزمت ان انفي عنهُ ما لم يكن فيه البتة من الخير واثبت لهُ ما كان راجحًا فيه من الشر وما التزمت الا بيان البين وتحصيل الحاصل . بل لا ارى للقول في الوجه الاول مجالاً . فقد كان ممتنعًا على فطرة هذا الرجل ان يصدر منهُ شيء من الخير بالارادة والاختيار فان نتج من افعاله شيء مفيد فوجه النفع غير مقصود فيه وانما حصل عنهُ كما ينفع القاتل ورثة المقتول والهادم عطل الفعلة والكاسر معمل الزجاج لا يقصدون النفع فيما يعملون وانما ينشأ ذلك عن طبيعة تلك الاعمال وقد يكون في بعض الشرّ خيرٌ من بعض الوجوه

واما وجه شريته هذا الرجل فهو ظاهر في اعماله واضح في اقواله نطقت به افواه المؤرخين الصادقين ورسمته على صفحات القلوب دموع النساء والاطفال ودماء خمسة مليونات من الرجال فلم يجتنه بهرج انتصاراته في ساحات القتال . واني ناظر فيه من ثلاثة وجوه الاول حالته الادارية والثاني حالته السياسية والثالث حالته الذاتية الخصوصية مبينًا ما الحق بالناس عمومًا وبالبلاد التي وليها خصوصًا من جسيم الاضرار في كل حالة من تلك الحالات معينًا

في الاخيرة ما كان عليهِ من فساد الخلق وسفالة الفطرة وخسة النفس ليعلم انهُ لا يعقل صدور شيءٍ من الخير المقصود عمن تجمعت فيهِ تلك النقائص

لا ترتجِ الاصلاح من فاسدٍ
فالشهد لا يجنى من الحنظلِ

« ثم ابنت شرية نابوليون في الحالتين »
« الاوليين بذكر استبداده وغدره بالجمهورية »
« التي كان من رؤسائها وتحامله على اعدائهِ »
« من ذويه وبيله مع الهوى في حروبهِ التي »
« انتزفت اموال الفرنسيس ودماءهم عبثًا »
« وهدرًا وسعيه في استئصال جراثيم الحرية »
« التي تظاهر من قبل بنصرتها خداعًا وابدت »
« ذلك بالامثلة الواقعة والادلة القاطعة من »
« التاريخ ثم قلت »

وقد كنت في غنى عن بيان تينك الحالتين بما اذكر من الحالة الثالثة الدالة على لؤم طبع الرجل وبعد نفسهِ عن النفع والخير فما يصدر الخير العظيم الا عن الطبع القويم وكل من خلا عن الفضائل فهو دنيءٌ سافل . قال (شاتوبران) في وصف نابوليون الاول ما معناه . ولد بونابرت ليفسد في الارض فهو يحمل الشر بين يديهِ كما تحمل المرضع طفلها بفرح وافتخار ويكره سعادة الناس كراهة الارمد للنور فقد قال ذات يوم : لا يزال في فرنسا اناس سعداء من بعض ذوي البيوتات المقيمين بالضواحي والارباض فهولاء يعيشون من دخلٍ لم يكون بين ثلاثين الفًا واربعين الفًا فرنكًا ولا يعرفونني ولكني سالمٌ بهم لا محال . وكان من ينفر كل مزية لغيره ومن كل شهرة لسواه ويحسد اهل الذكاء والفضل والنباهة بل ربما كره شهرة الجريمة ان لم تكن صادرة عنهُ . اه

فان قيل كان شاتوبريان على فضله وثبوت صدقه من اعداء نابوليون ولا عبرة بشهادة العدوّ اوردنا لتأييد كلامهِ قول مدام (دي رموزا) فهي عالمة باحوال نابوليون واقفة على حركاتهِ وسكناته وقد كانت من نساء قصره المقربات وتوفيت عام ١٨٢١ قالت لم ارَ اسفل والأم من نفس هذا الرجل فانها خالية من اثار الكرم والشرف ولم ارهُ البتة مستحسنًا شيئًا حسنًا بل كان يخفي اندهاشه بحجاب الاستخفاف ولا يعتقد الصفو في احد من الناس حتى انهُ كان يقول ان الذي يميز بعض الناس عن بعض انما هو الدقة في اختلاق الكذب ومما انقل من لفظهِ قوله : ان مترنيخ (الوزير الالماني المشهير) يقرب ان يكون رجلاً سياسيًا فانهُ مليح الكذب

وقالت هاته الخاتون ايضًا . كانت خدمة هذا الرجل من اعسر الامور فقد كان يعامله خدامه بالعنف ولا يريهم سوى الغلظة حتى انهُ قال وهو على حالة من الحالات التي يغلب فيها اليقين على اللبس فينطلق اللسان بما في النفس لا شك ان الرجل السعيد من اختباء مني في طرف احدى الولايات ولا ريب ان العالم يتنفسون الصعداء يوم اموت . اه .

قال احد الشارحين لهذه الكلمات : ما اكتفى العالم بتنفس الصعداء يوم مات ذلك الظلاّم ولكنهُ بكى فرحًا واشتكى تذكارًا ثم ضمد الجروح ورمم الخراب وما كان ذلك مما يتم في عدة ايام ولا في عدة اعوام . ه .

وقالت مدام دي ستايل وكانت من
مشاهير نسائهم . كان نابوليون الاول يعدّ
الانسان الحي بمنزلة الجماد ولم يكن يحب ولم
يكن يكره بل كان لا يرى بذاته غير ذاته ولا
يعدّ سائر الناس غير ارقام اعداد وكانت قوة
ارادته قائمة بقصد اثرته وكأنما هو شطرنجي بارع
يحسب الارض رقعة والناس بيادقها فلا الشفقة
ولا الذمة ولا الشرف ولا التعلق بشيء ما
يحوّله عن الوجهة المقصودة فهو بالنظر الى
مطمعه كالعادل بالنظر الى الفضيلة . اه .

وختام المقال فيه ما اورده الموسيو دي
بيري من تقرير له على خواطر الخانون دي
رموزا في جريدة الفلسفة الوضعية قال : لقد
ترينا الطبيعة في احوال الخلقة البدنية عجائب
من ذوي العاهات كالصم والبكم والبله والمثالم
وفي احوال الطبائع الخلقية غرائب من ذوي
العاهات النفسية من مثل (نرونيان) و (ابادي)
و (المركيز دي ساد) و (لسانير) ـ اشرار
معروفون فيهم ـ وغيرهم من انواع المجانين
الذين خلوا عن كل ما يجعل الانسان اليفًا
او كان ذلك فيهم شديد الضعف . ولا ريب
انه لو كان اكثر الناس على هذا الخلق لكان
الاجتماع الانساني محالاً فانه من لوازمه ان
يكون في كل واحد من الناس شيء من عواطف
الانسانية والعدل المعبر عنها بحب الغير

ولقد كان بونابرت خاليًا عن ذلك رأسًا
كما يشهد ملازموه والمتقربون اليه والذين
استطاعوا هتك سجوف الكذب عن حقيقة
احواله . فحدّ هذا الرجل انه لا يحب غير ذاته
ويزدري بسائر الناس فيستخدمهم لمقاصده
ويتنزف منافعهم لمطامعه ويضحي بهم غير راحم
على مذابح ذاتيته سالكًا لمقصده مسلك الكذب
والشدة والخداع . اه .

وله

الحرية

خطبة القاها شفاهًا في جمعية زهرة الآداب

(الحرية)

موضوعي الخاصة التي مدحت بما لم تمدح
بمثله فضيلة وذمت بما لم تذم بمثله رذيلة والتي
هي عند بعض الناس هناء وعند بعضهم شقاء
وفي اعين فريق راحة وفي اعين فريق عناء
ولدى قوم حياة ولدى قوم فناء . والتي مرت
عليها الايام وكرّت الاعوام في صحبة هذا الموجود
الانساني منذ شقّ عنه حجاب الخفاء وما برحت
موضع اختلاف بين الباحثين والمعرّفين .
موضوعي الحرية

وانا على يقين من اني لا اجد في هذه الوجوه
الزاهرة انكماشًا ولا احدث في هذه النفوس
الطاهرة انقباضًا من ذكر هاته الخاصة التي فدتها
رجال الانسانية من اسار الجهل والعبودية
بدم كريم لا يباع ولا يشرى

فلم يبقَ الاّ ان اعدّ النفس واهيىء الخاطر
واخفض من جناح الخضوع وارتدي لباس الرهبة
والخشوع لأدخل مقدس هذا الموضوع

فالحرية ثالوث موحد الذات متلازم
الصفات يكون بمظهر الوجود فيقال له الحرية
الطبيعية وبمظهر الاجتماع فيعرف بالحرية المدنية
وبمظهر العلائق الجامعة فيسمى بالحرية السياسية

وقد حدها (منتين) بقوله هي المقدرة على
فعل كل ما يتعلق بذاتي . وبمثل ذلك حدها

الحكيم سنبيك من قبل . وعرّف (منتسكيو) الحرية المدنية بان لا يجبر المرء على ما لا توجبه القوانين وعرّف السياسية بان يفعل كل ما تجيزه القوانين ومرجع هذين الحدين الى وهم واحد وهو الذهول عن ماهية القوانين فان الظاهر من قول هذا الحكيم الفرنسوي ان الحرية موجودة في واشنتون وجودها في طهران حاصلة في لندرة حصولها في بكين وليس الامر كذلك بل الحرية الحقيقية غريبة في كل مكان لسوء حظ الانسان

وقد اتفق الكثير من الناقدين على تعريف الحرية بكونها مقدرة المرء على فعل ما لا يضر بغيره من الناس وهو عين الحد المنصوص عليه في القانون الروماني وفيه نقص من وجهين الاول ان حد الاضرار منوط بالاحكام الموضوعة على ما بها من الخلل والثاني ان قيد الاضرار بالغير يخرج عنه الاضرار بالذات وهو مخالف لمقتضى الناموس الطبيعي الحقيق بالاتباع

اما حدود المداجين وتعاريف المنافقين للحرية فلا محل لايرادها ولا موضع لانتقادها في مثل هذا المقام فغاية القول فيها ان اهل السلطة الاستبدادية حيث كانوا ومن حيث كانوا يفترون على الحرية كذبًا في تعريفها بالطاعة العمياء والتسليم المطلق لمقال زيد مرويًا عن حكاية عمرو مسندًا الى رواية بكر مؤيدًا بمنام خالد فهي بموجب هذا الحد فناء الذهن وموت القوة الحاكمة وخروج الانسان عن مقام الانسان

الا ان اختلاف المعرّفين وخطأ كثير من الناقدين واباطيل ذوي الاغراض الذاتية ومفاسد الهيئة الاجتماعية كل ذلك لم يمنع من ظهور نور الحرية من خلال الناف الاقوال فهي فيما ترشد اليه البداهة خاصة طبيعية وجدت لينمي بها الانسان قواه البدنية والعقلية متدرجًا في مراتب كمالات الوجود ثم كان من سوء بخته ان مظاهر السلطة اتت على ضدها من كل وجه وفي كل زمان حتى كأنما اول ما سعت فيه الجمعية البشرية الأَّ يكون الانسان انسانًا . فقد المّت هاته الجمعية بالحرية الطبيعية في كل مكان . او ما ترى كل اناس يرومون ان يكون الولد على شاكلة ابائهم فالصيني يخنق رجل الطفلة بالنعل الحديد لتشبّ على خلق جدتها والاوربوي يضعف يسار الطفل لتكون يمينه اقوى والشرقي يخنق الطفل بجملته في اللفافة والقماط . ثم ان البلهوان يعوّد صغيره المجلي على احدى القائمتين ويلين اعصابه بقوة والكل يعارضون قواه الطبيعية ليشبه سائر القوم . فهذه العادات القاضية على الموجود الانساني بان لا يكون كما وجد ولكن كما يريد الناس ان يكون ذاهبة بحريته الطبيعية رأسًا . فلقد رأينا الاقوام يربون الولد كما يضربون الدراهم فهم يرومون ان تكون جميع القطع متماثلة متشاكلة ولا يقبلون منها ما كان مختلف النقش عن الجملة وكذلك الانسان الذي يخالف سائر قومه في الخلق والخلق ينفقد فيهم نصف قيمته لا اقل . ومن ذلك ينشأ فونا خفة الاعجاب وبله الاستغراب وجنون الدهشة من رؤية كل شيء غريب الا الرذيلة فانها حيثما تكن تصادف اهلاً وذلك لان هيئة الاجتماع التي تقتل حريتنا باحكام التربية لا تعنى بفضائل النفوس عنايتها بالصور

الخارجية

وأما الحرية المعنوية فقد كان المام الهيئة الاجتماعية بها اشد وانكى فانه لا يكاد الطفل يخرج الى عالم الوجود حتى يغمس في ماء الكنج او يرسم بما لا يعلم ثم يوجه فكره الى من يجهل من المعبودات التي لا حقيقة لها ولا اله الا الله . ثم تأخذ الوالدة او الظئر في تعليمه الفاظًا لا يفقه لها معنى وتخيلات لا يدرك لها سرًّا ثم يلقى بايدي المربين من اللامات والموبذانات فيتولون ذهنه الطاهر البسيط ويعركونه كالشمع ليرسموا عليه طوابع تعليمهم ثم يبعثونه عنوة لا على الخير ولكن على ما يظنونه خيرًا ويصدونه لا من الشر ولكن مما يحسبونه شرًّا ملقين به بين الرهبة مما لا يعلم والرغبة فيما لا يتوهم حتى ترسخ في ذهنه آراؤهم وتستحكم في نفسه صبغتهم فيعيش من القماط الى الكفن كما ارادوه لا كما اوجده الله

قال (جان جاك روسو) ان عنف الامهات في شد ولدهم باللفائف والاقمطة يضعف منهم الاعصاب فهن على ذلك ملومات . واين هذا العنف مما يرتكب الذين يشدون العقول بلفائف الاوهام حتى تضعف بل تتلف اعصاب الاذهان والافهام نعم ومن اجل هذا رسخت عداوة الحكماء في قلوب المتسلطين الاقوياء وما يبغضون الفلاسفة انفسهم ولا يبالون بسقراط ولا غليلاوس ولا دسقرط وامثالهم من حيث كانوا وانما يخافون منهم الجرأة على الرجوع الى العقل واتخاذ الفهم الطبيعي دليلاً في سبيل الانسانية وهذا لا سواه ما كانوا يحاولون قتله بالسيف والحبل والنار.

ثم ان تعليم الانسان يتم استعباده وقتل الحرية فيه فان سادته لا يسعون في توسيع نباهته ولكنهم يشربونه نهجًا جديدًا حتى صار التهذيب عبارة عن افساد الذهن وتضليل القوى الحاكمة . فالاستاذ لا يعرض تعليمه ليؤخذ اختيارًا ولكنه يوجبه ليحمل اضطرارًا . وبذلك تأيدت الاغلاط واستحكمت الاوهام واستمرت الجهالة على مرور الاعوام . ثم تعزز التعليم بالقانون ثم تأيد بالعادة فاثبتته الجهلة قضايا مسلمة لا ترد فكان الناس الى ما قبيل هذا العهد يمشون القهقرى ويهبطون من معالي فصاحة المخترعين الى سفساف اقوال المستظهرين ومن محاسن اقوال الابداع والتصورات الى مساوي الاوهام والتخريفات وهلم جرًّا . وكيف لا وقد كان التعليم امتيازًا لفرق من الناس معلومين لا يلقون منه في الالباب الا ما لا يخرجها عن دائرة الملائم لاغراضهم والموافق لما يضمرون فكانوا يقتلون اوقات المتعلمين بما تقوى به الحافظة ولا تستفيد منه القوة الحاكمة شيئًا ويضعون لهم على نوع ما ذلك العلم الذي يتلقون فكلما خالف وضعهم وخرج عن رأيهم عدوه من اثار الثورة وتجليات الخطاء وان كان صوابًا . تشهد بذلك معاملتهم للحكماء واحرار الافكار وتنطق به السجون والنطوع في كل زمان ومكان

وما كان ذلك ليفيد اهل السطوة نفعًا فيما يحاولون من تقييد النفوس ولكنه يزيد اهل الحرية استمساكًا بها حتى يبلغوا حد التعصب فيه . فالتشديد من جانب الدين يضعف الايمان والعنف من جهة السلطة يجلب العصيان والغلظة من الطرفين لا تزيد على انقياد الفكر

لما يمكن الوصول اليه بدلالة العقل ان كان خيرًا او رده عما يمكن النجاة منهُ بقوة الرشاد ان كان شرًا . ولكن احكام الهيئة الاجتماعية مباينة لمبداء السهولة فهي تقضي (بالمغايرة) او (الجنحة) او (الجناية) او (الجريمة) في كل ما يخالفها والغرامة والسجن او السيف من وراء تلك الاحكام لتأييدها على رغم المخالفين .
فحرية المرء واقعة تحت احكام استبداد مستمر

ولا يوءخذن من هذا القول انا نروم الاطلاق المحض في الحرية بمعنى اخراجها عن كل حد وتعريف وقانون فذلك فيما نعتقد يردها الى العنيدية بحكم ان الطرفين يتلاقيان وانما المراد اظهار آثار القوانين الموضوعة والعادات المألوفة في حرية الانسان . فالقانون الحق لا ينقص من الحرية ولا يزيل الاستقلال ولكنهُ يقيم لها حدودًا تقيها الضعف والاضمحلال وشرط الحقيقة في القانون ان يكون موضوعه الحرص على حقوق الكل والحفظ لحق الفرد ما لم يمس تلك الحقوق فالحكم يكون قانونيًا لا من حيث انهُ يذهب بحرية فردٍ من القوم ولكن من وجه انهُ يحفظ حرية الكل . فلا ينبغي للقوانين ان تمس غير الذين ألموا بحقوق غيرهم من الناس . ولا يسوغ ان توثر في شان الوطني الا بمقدار ما يصيب من حق الجميع فهي من هذا القبيل معدلة للحرية لا ناسخة ولا مبدلة

ولا شك ان هذا الضرب من القوانين قد عدّل واصلح في اكثر البقاع حتى كاد يبلغ في بعض الاقطار حد الكمال وحتى صار في المأمول وصولهُ الى ذلك الحد في سائر الامصار فقد نسخت آيات العدالة احكام الامتياز الفاضح القاضي لبعض الناس بالراحة كل الراحة وعلى بعضهم بالعناء كل العناء . وابطلت احكام التبعة مراسيم الاستبداد الرافعة لبعض الناس الى مقام الالوهية والهابطة بسائرهم الى منزلة العجماوات . فلا يوءخذ اليوم الوف من الناس لمخالفتهم رأي واحد ممن يساكنون ولا يسجن الافراد ويقتلون صبرًا بلا محاكمة ولا قانون الا عند الذين لا تزال شمس الحقائق محجوبة عنهم بغيوم الاوهام فهم لا يبصرون . وليس الامر كذلك في القوانين السياسية فهي عند الاكثرين استبدادية اصلاً وفرعًا تحتجب فيها الحرية بالوان الحكومات وتضعف بشهوات الامراء وتعوّه او تشوّه بثورات الشعوب . فتقتضي ماهية الحكومة ان لا حرية الا فيما بنيت احكامها عليه وموجب شهوة الحاكم ان الحرية قائمة بما مالت نفسه اليه وغلطة الشعب في ثورته محسنة لذلك الفساد من وجهيه

ولقد رأينا دعاة الحرية يحاولون الوصول الى غايتها الموهومة واهل الاستبداد من ورائهم يزايلون اعدام جرثومتها الطبيعية وما يفلح الفريقان فيما يعالجان . ربما اخطأ اولئك من حيث يتوهمون الصواب وضعف هولاء من حيث يلتمسون القوة . فقد بالغ (جان جاك روسو) في مقاومة الاستبداد وتأييد حرية الافراد ولكنهُ قيد هذه الحرية بارادة الجمع فوقع فيما حاذر من العبودية . وظن غيره من الباحثين ان الوطني يبادل ما يفقد من حريته الذاتية بما يحصل لهُ من الامن بالاحكام المدنية وهي نزعة مستنكفة تحصر بها القوة في الحكم فيملك ما يريد اخذه من الحرية

وما يروم اعطاءه من الامن فيفضي به الامر الى ترك الحرية بلا ضمانة والوطني بلا استقلال ولا يصح بالنظر الى الحق ان يخرج الوطني عن ان يكون حرًّا . فانهُ لا يعد الهيئة بوثيقة الاجتماع الا باعانة مماثليه وحفظ الوطن الذي نبذ احكامه فيه فهو في جمعية ضمانة متساوية في الجانبين فاذا ساعد فيها الكل لم يخسر من استقلاله شيئًا الاّ عوض منهُ ولم يحصل لهُ من الكسب شيء الا كان مضمونًا

وكما ان الحكام يريدون تقييد الحرية بما يتصورون من الاحكام كذلك حاول بعض الناس اعدام الحكم والحكومة بما يتخيلون من الاوهام . فالسلطة والحرية متماثلتان في الحدة يفضي بهما الخلاف الى الغضب وتؤدي فيهما الصعوبة الى العداوة . ومن اجل ذلك رأينا ذوي الامر مائلين الى الاستبداد والشعوب الى الاطلاق . ومن اجلهِ كان ارباب الخطط الذين هم مظاهر السلطة بغضاء عند سائر القوم ومن اجله كانت الرعية بمنزلة الاعداء عند المستبدين

ومن المقرر المتفق عليهِ بين النقدة الاحرار ان الحرية والمساواة متلازمتان فلا حرية مع الامتياز ولكن هنالك درجات عبودية من الامير الى احقر الرعية تتصل دنياها بالرق ولا تصل علياها الى الحرية . ولا خفاء في ذلك فحد الامتياز ان يعمل احد الناس ما لا يجوز لسائرهم وان يحظر على الجميع ما يجوز لبعض الافراد بحيث لا يتمتع الممتاز بمزيته ما لم يمس حرية سائر القوم ولا ينال هؤلاء حريتهم الاّ بانعدام تلك المزية فالامتياز والحرية متخالفان

على ان الامتياز منافٍ للقوة الحاكمة ايضًا بما فيهِ من اخراج بعض الناس عن دائرة الحكم الكلي وتخويلهم من ذلك حقًّا غير طبيعي يكون حكمًا على الحكم فهو عدو الحرية والحكومة معًا يظاهر المستبدين على الشعوب وهؤلاء على المستبدين ثم لا يتحد باحد الفريقين في حال

ولكن ليست المساواة مبدأ الحرية وانما هي نتيجتها الطبيعية فان لم توجد فلا تكون تلك حقيقة بل اذا ظهرت الحرية يظهرها الحق بين الذين تولاهم الامتياز خالوا انها بدعة منكرة وما هي في شيء من ذلك ولكن بدعة الامتياز اخفت عنهم الحق وهم لا يشعرون

فما تقدم يعلم ان الحرية السياسية بعيدة المنال عسرة الكمال بل يكاد يمتنع تكاملها في فريق من الناس بما تؤثر فيها عوامل العادات والقوانين والاخلاق والاحوال الاجتماعية وانما تحصل منها ضروب متنوعة تشبه ان تكون ضروبًا من الامتياز ثم تكثر وتمتد حتى يحصل منها لكل واحد من القوم نصيب فتعمهم انواع الامتياز كأنهم جميعًا نبلاء ولو حصلت لهم الحرية الحقيقية لكانوا جميعًا متساوين

اقول هذا ولست اجهل ان الشرط او القليل او التمني لا يفيد شيئًا فقد مرّت الوف الاعوام على جماهير الانام والحرية عند اكثرهم مجهولة المكان فما ابعدك من الكمال ايها الانسان .

(التعصب والتساهل)

(وهي خطبة القاها في جمعية زهرة الآداب)

لقد جرى لفظ التعصب على السنة اهل الانشاء العربي بمعنى الغلوّ في الدين والرأي الى

حد التحامل على من خالفها بشيء فيما يدين وما يرى واجريت ها هنا لفظ التساهل بمعنى الاعتدال في المذهب والمعتقد على ضد ذلك الغلوّ متابعة للافرنج في لفظهم المعبر عن هذا القصد (توليرانس) . ولا اجهل ان هذين الحرفين — لفظ التعصب ولفظ التساهل غير وافيين بالمراد منهما اصطلاحًا وان في ايلاء الاول معني الغلوّ في الدين والرأي توسعًا عظيمًا وفي اشراب الثاني ضد ذلك المعنى خروجًا عن الحد اللغوي ولكنّ للاصطلاح حكمًا نافذًا يسوق الالفاظ الى المعنى الغريب فتنقاد فاذا مرّت عليها الايام وصقلتها الالسنة والاقلام جاءت منطبقة عليه بلا ابهام ولا ايهام

وحد التعصب عند اهل الحكمة العصرية غلوّ المرء في اعتقاد الصحة بما يراه واغراقه في استنكار ما يكون على ضد ذلك الرأي حتى يحمله الاغراق والغلوّ على اقتياد الناس لرأيه بقوة ومنعهم من اظهار ما يعتقدون ذهابًا مع الهوى في ادعاء الكمال لنفسه واثبات النقص لمخالفيه من سائر الخلق

وحد التساهل عندهم رضى المرء برأيه اعتقاد الصحة فيه واحترامه لرأي الغير كائنًا ما كان رجوعًا الى معاملة الناس بما يريد ان يعاملوه فهو على اثباته الصواب لما يراه لا يقطع بلزوم الخطاء في رأي سواه وعلى رغبته في تطرّق رأيه للاذهان لا يمنع الناس من اظهار ما يعتقدون

فمن تبين هذين الحدين بصيرًا سليم العقل طليق الذهن من اسار الوهم حار لا شك في كثرة من يراه من اهل التعصب على قلة من يمر به من المتساهلين . وعجب وحق له العجب من بني نوعه كيف يداخلهم التعصب فيما يعتقدون وما يرون وقد عجزت افهامهم عن ادراك الكثير من اسرار هذا الوجود وقام لهم في كل حركة وكل سكنة من افكارهم دليل على امتناع الكمال على الانسان وكان لهم في تعصب الاولين عبرة لو كانوا يعتبرون . الم يروا كيف تعاقبت المذاهب وتوالت الاراء وتتابعت قضايا العلوم الانسانية معدودة في عصورها من الحقائق وفيما يلي تلك العصور من الاوهام . ولا اذكر العقائد الدينية متسلسلة من بوذا الى زرودشت الى كنفوشيوس الى سائر دعاة الدين كراهة ان يتوهم فيّ قصدها بالذات بل حسبي الاشارة الى تعاقب الوهم والحقيقة والخطاء والصواب في قضايا العلم عبرة المتعصبين . الم يكن القول بسكون هاته الارض قضية مسلمة وبدوران الشمس من حولها حقيقة معلومة وبانقسام البسيطة سبعة اقاليم علمًا يقينًا او لم يكن طب ابقراط لهامًا وفلسفة ارسطوطاليس كشفًا وتعبير ابن سيرين حقًا فماذا نقول رحم الذين تعصبوا لهاته الاوهام على من كان في ريب منها فالزموه الصمت والخسف وعاملوه بالشدة والعنف حرصًا على ما يتوهمون من الحق والحق بريء منهم لو يعلمون

ولقد رجعت الى المحفوظ من اخبار الامم حتى بلغت الحد الذي يدخل التاريخ منه في ظلمات الريب والخفاء فما مرّ بي جيل من الناس ولا حقبة من الزمان الاّ رأيت من اثار التعصب في الدين والرأي ما ينقبض له الصدر استنكافًا وتثور منه النفس استنكارًا ثم عدت الى

الفطرة الانسانية لاستكشاف العواطف الطبيعية فرأيت فيها من السذاجة والسلامة ما ينطبق على حكم التساهل من كل الوجه فعلمت ان التعصب على قدم وجوده حادث طارئ على الانسان تولد عن مفاسد الرئاسة في الجماعات وتأصل بالعادة والتقليد حتى صار في النفوس من الملكات . يظهر ذلك لمن تدبر قدم التعصب في جنب خروجه عن الطباع ويعلمه من تأمل احوال الرئاسة في صدور هيئات الاجتماع

ولعلي اوجزت واجملت والامر محتاج الى الايضاح والتفصيل فاقول : قد اجتمعت اراء المتفكرين على ان الرئاسة قد حصلت بداءة بدء للمتمولين او الاقوياء وفي الحالين لم يأمن الروساء على سطوتهم ان تزول بفقد الثروة او انحطاط القوة فالتمس النبهاء منهم تأييدها بما لا تؤثر فيه النوازل ولا يضعفه كرور الايام فوضعوا للجماعات احكامًا كل رئيس وما توهم فيه المصلحة او ما رأى ميل قومه اليه فرضي كل اناس مشربهم وقالوا هذا هو الحق الذي لا ريب فيه وقال غيرهم من الاقوام بل الحق ما نحن عليه فانتم في ضلال مبين فوقعت بينهم الاحن وشبت اعقابهم على العداوات حتى قويت روابط الاوهام فتقطعت صلات الارحام فصار من الفضيلة ان يقتل الانسان اخاه ان خالفه فيما يراه وامتلأت رؤس الخلق عنادًا فملأوا الارض فسادًا فعدت المظالم عدلاً وسميت المذابح جهادًا

ولا احاول استيعاب المفاسد والنوائب التي نشأت عن التعصب في الدين والرأي فذلك تاريخ الحروب والفتن والغارات والمهاجرات من صدر الاجتماع الانساني الى المائة السالفة في بلاد الغرب والى هذه الايام في الشرق . بل الغرب على انتشار العلوم فيه وحصول الحرية لاكثر ساكنيه لم يخلُ الى الان عن اثار ذلك الداء العياء . نعم لا نرى فيه الان افرادًا وجماعات من الناس يذوقون الوان العذاب ثم يقتلون صبرًا شهداء ما يعبدون كما وقع لاهل النصرانية في دولة الرومان ولا نجد الوفا من السكان المستأمنين يخرجون من ارضهم بالقوة او تهدر دماؤهم لاستمساكهم بما كان يعبد اباؤهم كما جرى لليهود في اسبانيا ولا نبصر ديوان عقاب وتهمة يحكم بالتشهير والحد والتعذيب والموت على من اتهم بالشك في رواية بعض المجاذيب عن بعض النساء عن بعض الاطفال كما كان ديوان التفتيش في كثير من ممالك الافرنج . ولا نلفي مئات الوف من نبهاء الخلق الامناء الصادقين يبيتون في منازلهم ويوخذون بالسيف تقتيلاً لمجرّد انهم يفهمون من آي الكتاب خلاف ما يفهم غيرهم من الناس كما حل بالبرونستنت عام ١٥٧٢ في بلاد الفرنسيس ولا ايضًا جماعات من الخلق لا يستطيعون النطق بما يعتقدون ولا الظهور بما يعبدون ولا افرادًا من الجماعة يعاقبون بالسجن او التبعيد لانهم يأكلون الباب حيواناتهم في زوايا اكواخهم يوم يأكل سادتهم الوان الاسماك الشهية ويشربون معتقة الخمور في غرف القصور . نعم لا نرى كل ذلك في الغرب الان ولا نكاد نبصرهُ في الكثير من اقطاره مأخوذا بما اوضح من رأيه وما اشاع من مذهبه وان خالف رأي الاكثرين ولكنّ هذا التساهل في الهيئات ارسخ منهُ في

الافراد الّا الذين تطهروا من ادران التقليد وسلموا من علل الاوهام وغالبوا الملكات الحاصلة عن العادات وترفعوا الى مقام السذاجة الاعلى وقليل ما هم . والّا فما هذا الذي نراه من التحامل على بقايا آل اسرائيل في بلاد الروس والالمان وما ذلك الذي مرّ بنا من مظاهر الاحن بين الكاثوليك وغيرهم في تلك البلاد وماذا الذي نسمع بهِ الان من الخلاف والشقاق بين الشيع المتباينة في فرنسا وايطاليا وبلجيكا وغيرها من اعرق البلاد في التساهل والحرية . ألا اقص عليكم اخواني شيئًا ما تبين من محاكمة المتهمين بالفتنة التي جرت منذ نحو شهرين في بلد (منسوليمين) بوطن الفرنسيس : تبين من تلك المحاكمة ان اصحاب المعدن في ذلك البلد (والبلد عبارة عن المعدن والعاملين فيهِ) كانوا اذا رأوا من احد الفعلة فتورًا في العبادة او ضعفًا في العقيدة التي يعتقدون ضربوا عليهِ الغرامة اجرة يوم ويومين وما فوق واذا ظهر عليهِ انحلال العقيدة طردوهُ من المعمل رأسًا اي حكموا عليهِ بالفاقة وعلى عياله بالجوع واذا مات ذلك المنحل العقيدة فشيعه صاحب له من رفقاء اتعابه الى القبر عاقبوا المشيع بمثل ذلك العقاب وهم هم في البلد الذي افتدى اهله بدمائهم حرية السعي وحرية الرأي وحرية القول فما الظن بغيرهم من اهل سائر الاقطار وما الظن بنا نحن الذين كان من نعم الله علينا ان وجدت بلادنا المقدسة مهبطًا للوحي ومقامًا للعقائد الدينية من عهد موسى صلوات الله عليهِ الى هذه الايام . بل ما الظن بنا ونحن احرص الناس على تعاليم السلف الكرام فيما لا يمس جانب النفع الادبي ولا يتصل بطرف الفائدة الحسية حتى ان معارف علمائنا في هذه الحقبة لتشاكل بالحرف معارف آبائهم من ثلاثمائة عام وتنحط بالضعف عما كانت عليهِ معارفهم من الف عام وما الظن بنا ومثلي متكلمًا بهذا الموضوع في مثل هاته الجمعية الزاهرة يخاف معاذ الله ان لا يجد لديكم استحسانًا . لا جرم انا اسعد خلق الله في اسعد بلاد الله فالحمد لله ثم الحمد لله

وقد سبق القول في حد التساهل انهُ رضى المرء برأيه اعتقاد الصحة فيهِ مع احترامه لرأي سواه . وهذا وان كان من الواجبات البديهية والقضايا المسلمة عند ذوي العرفان الا انهُ لسوء الحظ كغيره من سائر الواجبات ترشد الحكمة اليهِ ولكن تغلب الشهوة عليهِ حتى لا يكاد يوجد في الانسان الا عند العجز عن مجاوزة حده لمجاورة ضده فهو كالحرية يشتاقها الانسان مرؤوسًا وينكرها رئيسًا وكالزهادة يقبلها سقيمًا وينبذها معافى سليمًا فلا يثبت على تغير الاحوال الا عند ذوي النفوس الكريمة والطباع القويمة وما هم بكثير . فلكم رأينا من فئة مستضعفين يطلبون التساهل ويدعون اليهِ بكل لسان ويثبتون له الوجوب من كل الوجوه فلما ان قامت دولتهم وقويت شوكتهم وصار اليهم الامر والقوة كانوا من الغلاة المتعصبين . وهذه تواريخ العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية والطرائق السياسية فيما تعاقب عليها من القوة والضعف والقبول والرفض شاهدة بصحة ما اقول لا يقف النظر على صفحة منها الا رأى المتساهل في ضعفهِ متعصبًا يوم قوته والمتلاعبن

في حال خسفهِ متشددًا في دولته . ولذلك لم يرضَ الحكماء من التساهل بان يكون صادرًا من اللسان مراعاة لاحكام الضرورة او من عاطفة القلب ميلاً الى المعاملة بالاحسان بل اوجبوا فيهِ الاعتقاد بحتمهِ على الانسان علمًا منهم بانهُ يكون في الحالة الاولى متعلق الوجود ببقاء تلك الضرورة والضرورات قابلة الزوال وفي الحالة الثانية متوقف البقاء على وجود تلك العاطفة والعواطف لا تستقر على حال ومثل هذا الواجب الادبي الحق لا ينبغي ان يناط بهاته الاسباب الواهية وتلك العرى القريبة الانحلال وانما اللازم فيهِ تقييدهُ بمبداء متين من الحق وتأييدهُ بعماد مكين من اليقين بحيث يعلم المتساهل مع مخالفيه فيما يظهرون من ارائهم وما يعلنون من مذاهبهم انهُ لا يفعل ذلك رهبة منهم ان كانوا اقوياء ولا شفقة عليهم ان كانوا ضعفاء ولكن قيامًا بواجب من العدل والحق

قال احد كتاب الفرنسيس في هذا الموضوع ما معناه : وجب التساهل على الانسان من ثلاث جهات من جهة نفسهِ ومن جهة ابناء جنسهِ ومن جهة الحقيقة والحقيقة هي الله

فاما من جهة النفس فلأنهُ من واجباتنا الادبية التماس العلم والحكمة في اي وعاء خرجا واصلاح ما عسينا ان نكون عليهِ من الخطاء وكيف يحصل لنا ذلك ان سددنا افواه الناطقين ظلمًا واستبدادًا عليهم ولم نسمع ما يقولون لننظر في اقوالهم فنتم اراءنا بآرائهم . قال وكتور هيكو

كل انسانٍ كتابٌ يكتب الله سطورَه

ويقول العاجز

وكذا البحث زنادٌ قادح للحق نورَه

كيف لا وفي اقوال احقر الناس وآراء اصغر الخلق عبرة وفائدة وعلم جديد للمتأملين

واما وجوب التساهل على الانسان من جهة حق الناس عليهِ فلأن العدل الموجب للتكافؤ يلزمه بقبول ما يريد ان يقبله الناس منهُ سواء . ولما كان اول واجباتهِ الادبية التماس الحق والصواب وثانيها ايضاح ذلك الحق بالاقوال والاعمال كان من الظلم القبيح ان يمنع غيره من ابداء ما يظنهُ ذلك الغير صحيحًا ومن العسف المنكر ان يشوش عليهِ ما يلتمس من الحق بالاغتصاب او الارهاب المانعين من التفكير

واما وجوب التساهل من الجهة الثالثة جهة الحقيقة الخالصة فقد اثبتهُ العقل ولم تنفهِ نصوص الاديان بل ايدته في مواضع لا تعد قال ترتليانوس الكلامي ليس من البر ولا التقوى ان تسلب حرية الناس في امور الدين فان الله سبحانه وتعالى منزه عن ان يريد ان يعبد اضطرارًا . وقال يوستنيانوس القديس : اشد ما يخالف الدين نكرًا ان يحمل الناس عليهِ قهرًا . وفي : لكم دينكم ولي ديني . وفي : لا تجادلوهم الاَّ بالتي هي الاحسن بلاغ للمتبصرين . فالذين يلتمسون الزلفى الى الله بالوعيد والتهويل والذين لا يريدون ان يعبد الاَّ كما يريدون والذين يحاولون رسم ارائهم في القلوب والجباه بالحديد والنار كل هؤلاء يغضبون الله ويكفرون بالحق ولا يشعرون . فان الحقيقة ليست باجنبية ولا بعدوة لتلقى على كاهل المرء الزامًا وانما نحن ضيوفها بالطبع فهي تقبل علينا

ونقف لدينا لنطلبها عن رضى راغبين

وقال شيشرون خطيب الرومان : انما نكون عبيد القانون لنصير بالقانون احرارًا . وفي الحديث المأثور كن للحق عبدًا فعبد الحق حرّ . وقول ذلك الخطيب الروماني ينطبق مقلوبًا على ما نحن بصدده فيقال فيه . يجب ان نكون احرارًا لنخدم الحق كما يجب والحق هو الله

وهذا دعاء المتساهلين نجعله للمقال ختامًا .

يا بديع الصفات اله جميع الموجودات ما عرفناك حق معرفتك ولا اهتدينا بضيائك لحكمتك المهمنا في امورنا رشدًا واسلك بنا سبيل الهدى لنتعاون على احتمال النوائب الكثيرة في هاته الحياة القصيرة ونعلم ان الخلاف الذي بين وقاء اجسامنا الضعيفة وبين لغاتنا القاصرة وبين عاداتنا السخيفة وبين احكامنا الناقصة وبين احوالنا المتباينة فيما نراه على استوائها لديك ان جميع هاته المميزات بين هاته الذرّات لا تكون من اسباب الاحن والعدوات . فتستوي عبادتك برطانة من لسان قديم مهجور وبغيرها من لسان جديد مشهور ولا يميز بين من يوقد الشمع نهارًا لدعائك ومن يكتفي فيه بضياء سمائك وبين من يلبس لذلك الذهب والحرير ومن يستقبل سمائك باطمار الفقير ويكون الذين ملكت ايمانهم قطعًا مدورة من بعض المعادن متمتعين بلائه بما يسمونه نعيمًا والذين استولوا على نتفة حقيرة من بقعة صغيرة متنعمين بلا كبر بما يحسبونه ملكًا مقيمًا ويكون سائر الناس راضين بالموجود غير حاسدين على المفقود ويذكر ابناء الانسان انهم في الانسانية اخوان فلا يمزق بعضهم بعضًا عنادا ولا يملأون الارض فسادا . سبحانك عما يقول الجاهلون وتنزيهك عما يزعم المتعصبون انك اعظم من ان تغضب واعز من من ترضى واكرم من ان تنتقم واعدل من ان تعفو واكبر من أن تسر واجل من ان تساء تماثلت لديك الذوات وتساوت عندك الاشياء وانت في الكلّ وللكل سواء وقنا العثرة مع المتعصبين واحشرنا في زمرة المتساهلين . امين . اه .

(اليونان والرومان)

(وهي خطبة القاها في جمعية زهرة الاداب)

لو عدل تاريخ اليونان والرومان بتواريخ سائر الامم في جميع الازمنة لكان اوسع منها مجالاً واوفر مادة واكثر انتشارًا ولا بدع في ذلك فان هاتين الامتين معدودتان بمنزلة الاصل الاول او الوسيلة المعروفة في وصول التمدن والعلوم الى الغرب حتى ان العلم بلسانيهما القديمين كان من لوازم العالمية في جميع البلاد الاوربوية ولا يزال كذلك في الكثير منها الى الان . ومن اجل هذا أقبلت على جمع شيء من تاريخهما بقصد المقابلة بين ما نشاء عن كل منهما من الآثار الناقمة والموازنة بينهما في الفضل والمقام المدني لا اقصد بذلك غرضًا في النفس ولا اخرج فيه عن قسطاس التاريخ على ان المقام ضنكٌ فيما تعلمون وما هي الا تجربة مبتديء يعرضها لاخوانه ويسترها عن غيرهم من الناقدين

ولا بد قبل الشروع في تاريخ الامتين من الاشارة الى جغرافية المملكتين لما بين التاريخ والجغرافية من التلازم في كثير من الاحوال

فمملكة اليونان لم يحددها القدماء تحديدًا شافيًا جليًا وانما قسموها ثلاثة اقسام البلوبونيزة جنوبًا واليونان خاصة في الوسط ونسالية شمالاً ثم اضافوا اليها ايليرية الجنوبية ومكدونية وثراقة والجزائر اليونانية . هذا حد ما بلغ اليه تقسيمها الاصلي على انهُ كان لدولها املاك كثيرة في سائر اقسام الارض ؛ فتحت من الامصار وما اكتشف رجالها من الاقطار وما استعمرت نزالاتها من الديار . وقد اختلف تقسيمها عن ذلك عقيب موت بلوبس وفي خلال حرب تروادة وحرب البلوبونيزة الى ان دخلت في ولاية الرومان عام ١٤٦ للميلاد فصارت ايالة او قنصلية رومانية وسميت اخائية ثم صارت في زمن اغسطوس ولاية سنانية اي لاحقة بمجلس السنات . ولما قسمت السلطنة الرومانية في زمن قسطنطين دخلت مملكة اليونان في سلطنة الشرق وما برح اسمها مع ذلك اخائية ثم صارت مع مكدونية في النصف الثاني من القرن الرابع مملكة برأسها الى ان استوى الصليبيون على القسطنطينية فجعلوها امارات متعددة لغير واحد من روساء جند البندقية وجنوى ولما فتح العثمانيون القسطنطينية استولوا على معظم تلك البلاد ثم تمَّ لهم امتلاكها جملة فجعلوها ولايات اربعًا ولاية تسالونيكية وولاية يانينة وولاية ليوادية وولاية المورة او ترببوليزة فبقيت على هذه الحال بلا تغيير يذكر الى ان كانت سنة ١٨٢١ فنشط اليونان لطلب الاستقلال فتسنى لهم ذلك بمساعدة بعض الدول العظام فصارت بلادهم مملكة مستقلة تمتد من الغرب الى الشرق من جون ارتا الى جون فولو ويحدها من الشمال بلاد الدولة العثمانية في اوروبا ومن الشرق والشمال الشرقي الجزائر المعروفة بالارخبيل ومن الجنوب البحر المتوسط ومن الغرب بحر اليونان وطولها ٢٥٠ كيلو مترًا وعرضها مئتان

اما مملكة الرومان او ايطاليا القديمة فقد كانت منذ القرن الرابع قبل الميلاد مقسومة ثلاثة اقسام غالية اوغولة السسلبية في الشمال وايطاليا خاصة في الوسط واليونان الكبرى في الجنوب فكان يحدها شمالاً عسكرا وابنين واونيس وغربًا البحر المعروف بالداخلي وجنوبًا سيرانوس وفرنتو وشرقًا بحر الادرياتيك ثم قسمت في زمن الجمهورية سبع ولايات وفي زمن الامبراطورية احدى عشرة ثم غيَّر ادريانوس هذا التقسيم فجعل المملكة ولايتين اثنتين ولما مات قسطنطين وقسمت المملكة من بعده اطلق على ولايتين من سلطنة الغرب اسم ايطاليا ولم يكن كل ما فيها من البلاد منها وبعد اضمحلال سلطنة الغرب قسمت ايطاليا بين يوستينيانوس الثاني امبراطور الشرق واللمبرديين . هذا حد ايطاليا القديمة اي نفس بلاد الرومان اما الاقطار التي آلت اليهم بالفتح والاستعمار فما لا يكاد يدخل الحصر لتشعبهِ وكثرتهِ وتعاقب انواع التقسيم فيهِ

ولنعد الى اليونان لذكر شيء من تاريخهم فنقول سمي اليونان اولاً انسنيين اي اهل تربة واحدة وهم في الاصل قبائل وبطون من البلاسجيين ولا يعرف اصلهم في ما وراء ذلك ولكن الاكثرين على انهم جالية من اسية الصغرى . وقد كانوا قبل عام ٢٠٠٠ قبل

المسيح في حالة البداوة والخشونة ولم يذكر التاريخ لهم من مدينة قبل سيسيون التي اخذتها اجبالة في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ثم انهم اقوام من مصر وفينيقية باسباب الحضارة والمدنية فاختط ايناكوس وامة فورونى منهم مدينة اركوس وشرع اسبرتون في بناء مدينة اسبرته عام ١٨٨ ولم تتم على عهده وانما كمل بناؤها على يد ليلبكس عام ١٧٤٣ وبعد ذلك ظهر الهيلانيون الذين يطلق اسمهم على امة اليونان الى هذه الايام فاستولى رجل منهم يقال له سيروبس على اثينا سنة ١٦٤٣ وآخر يقال له دكاون على تسالونيكية عام ١٦٣٥ وحكم كوموس في ثيبة عام ١٠٠٨ ودانوس في اركوس عام ١٥٧٣ ومينرس في كريت عام ١٥٠٠ وهذه العصور معروفة فيهم بايام الابطال لما حصل فيها لبلاد اليونان من المجد والسؤدد والفلاح في الزراعة والصناعات وفيها ادخلت بتلك البلاد مذاهب المصريين والفونيقيين وسنت لاهلها القوانين والشرائع وظهرت فيهم سطوة المراقلة فاستولوا على البلوبونيزة فاتاها الهيلانيون الذين كانوا اصحاب تسالية واقاموا بها في ولاء المراقلة الى ان امتلكوها على يد اولاد بلوبس عام ١٣٠٧ ثم كانت حروب تروادة التي بالغ شعراؤهم في وصفها وذكر شجاعة المقاتلين فيها حتى امتزج في تاريخها الصدق بالخرافات وانتهت عام ١١١١ ثم حصل الوفاق بين المراقلة والهيلانيين فاستولوا ثانية على البلوبونيزة واخرجوا سكانها بقوة وكان ذلك ابتداء عصر اليونان المعروف بالوسط وهو الذي وقفت فيه حركة نجاحهم المدني الى ان عاودتهم الغيرة

فبعثوا بملاحيهم الى سواحل آسية الصغرى وايطالية والفواة وهسبانية وسارت ركبانهم باشعار هوميروس العجيبة التي ترفع الذهن بقوة التصور الى ما فوق رتبة الانسان فاتسع فيهم نطاق الادب وجدّ بهم الحرص على العلوم والعقائد حتى صار لكل بلد من اقطارهم معبود مخصوص بذلك البلد ووضع لهم ليكرغوس القوانين في اسبرتة عام ٨٩٨ وقامت الجمهوريات في مدنهم لاقامة امور العدل فألغي الملك في اثينا عام ١٠٣٢ وفي اركوس عام ٨٣٠ وفي اليدة عام ٧٨٠ وفي قرنثية سنة ٧٤٧ وفي ارقادية ومسينة عام ٦٦٨ ولم يبقَ محفوظًا الاّ في اسبرتة . ثم ادخلت الى اثينا شريعة دراكونوس عام ٦٢٤ وشريعة سولون سنة ٥٩٠ ووقعت الحروب المادية عام ٤٩٠ فبلغ ابطال اليونان فيها مقامًا تخفض لمثله رؤوس الابطال وفي خلال ذلك نبغ فيهم العلماء وظهر منهم الحكماء الذين فتح عليهم بما كان مغلقًا على سائر الناس فاخرجوا الاذهان من ظلمات الجهالة ومهدوا سبل الخروج من دياجر الضلالة فاشتهر اشيلوس وسفقليس واوريبيدس بفن التراجيدية البديع وظهر ارستوفانوس بفن الكرميدية البهي ونبغ هيرودوتوس وتوقيديدس في صناعة التاريخ وبدت آثار الحكمة والفلسفة من تاليس وذيمقريطس الذين ينسب الذيمقراطيون اليهم من فيثاغورس وبرمنيدس وهرقليدس وانكساغورس فانشئت على يدهم مدارس الحكمة الخالدة الآثار وابدع ابقراط في الطب وهو واضع اصوله واول كاتب فيه بلغ من العلم به الى حد ان عد علمًا وحيًا وبقي من بعده ستمائة عام لم يزد واحد عليه

حرقًا الى ان ظهر جالينوس فاخذ ما كتبهُ ابقراط ومذبه وزاد فيهِ . وظهر سقراط وافلاطون وارسطوطاليس حكماء الارض غير معارضين واشتهر فيدياس مصلح الهندسة العظيم وبرقليس الخطيب البليغ الذي ولي الامر في اثينا ثلاثين عامًا وغيرهم كثير من العلماء والحكماء والفضلاء الذين ابقوا لبلاد اليونان مجدًا ثابتًا على مرور الزمان

ثم اختلت امور اليونان الداخلية بما نالهم من النشوة بالنصر في الحروب الخارجية فوقعت حرب البلوبونيزة ودامت فيهم سبعًا وعشرين سنة ثم اجلت عن حصول الامتياز لاسبرتة على سائر البلاد اليونانية ثم وقع الاتفاق بين تلك البلاد على ضد لقدمونية وعظم شأن اثينا باعمال كولون وثقراط ولكن اتنا السيداس واتى الفرس ميثاقًا دنيئًا عائبًا عام ٣٨٧ فكان ذلك سببًا في قيام اليونان على اسبرتة . ثم جرت الحرب المعروفة بالمقدسة على ضد الفوقيين الذين احرقوا هيكل ذلفة عام ٣٥٥ فكانت وسيلة لتداخل فيليب صاحب مكدونية في امور اليونان فانتهزها فرصة لادخالهم في طاعتهِ فقاومهُ دمستين اشد المقاومة وذاده اليونان عن انفسهم ما استطاعوا ثم دانوا لهُ بعد يوم شيروني عام ٣٣٨ واستمرت فيهم الحروب الاهلية بعد ذلك حتى وهنت قواهم وعظم اختلال احوالهم وضعفت مستعمراتهم من قلة المدد فباغتهم الرومان على هذه الحال من الوهن واستولوا على الليرية عام ٢٢٩ ثم نازلوا مكدونية عام ١٦٨ وامتلكوها عام ١٤٧ وصارت بلاد اليونان ولاية رومانية عام ١٤٦ ومذ حينئذ لم

يبقَ لتاريخ اليونان شأن يذكر لما انهُ دخل في تاريخ الرومان ثم لما شطرت السلطنة الرومانية في القرن الرابع للميلاد ادخلت بلاد اليونان في سلطنة الشرق واخذت هاته السلطنة في التلاشي من توالي هجمات البرابرة من الوسغوط والوندال والاستروكوت والبلغار وغيرهم ثم زحفت العرب اليها في القرن التاسع وتلاهم البلغار في العاشر فلم يفوزوا منها بطائل ثم نازلها فادكسكار بالنورمنديين عام ١٠٨٠ ثم قامت بها الدولة اللاتينية فجعلتها عدة اقسام لامراء من الصليبية يتولونها في حماية صاحب القسطنطينية الى ان تم الفتح الكبير للسلطان محمد الثاني عام ١٤٥٣ فاستولى القائد عمر باشا على اثينا عام ١٤٥٦ ودافع اسكندر بك المشهور عن استقلال ابيرة الى ان مات فوقعت بيد العثمانيين عام ١٠٦٧ ثم دانت لهم المورة سنة ١٤٦٠ وبقي اليونان في ولاية الدولة العثمانية قرنين الاَّ قليلا وفي ولاية الاجنبي من قبلها خمسة عشر قرنًا صابرين ذاكرين مجدهم السابق مترقبين الفرص لاعادة الاستقلال حتى آن الوقت فنشطوا من العقال وشقوا عصا الطاعة واعانتهم بعض الدول الاوروبية فتم لهم الاستقلال وصار لهم مملكة معروفة بهم عام ١٨٣٠

اما سلطنة الرومان فخلاصة تاريخها ان ايطاليا كانت معروفة منذ القدم باسم سانترنية ثم حل بها قوم من الاركاديين تحت لواء (انوتروس) قبل حرب تروادة باربعمائة سنة فسميت (انوترية) ثم استولت عليها قبيلة غير تلك من الاركاديين تحت قيادة (افندر) الذي خرج من البلوبونيزة مطرودًا . وكان

سكانها الاول من البلاسجيين والابوريجيين والليبرنيين ثم اتاها الميلانيون من اليونان وجاء بعدهم اقوام من الغاليين فكانت لهم مستقرًا مكينًا الى ان اتاها بلوفير في القرن السادس قبل الميلاد فضعفت شوكتهم ومالت سطوتهم الى الهبوط . وكانت رومية عامرة منذ اختطها قوم اني عام ٧٥٣ قبل الميلاد فلما ضعف امر الغاليين عدا اهلها عليهم فدانوا لدولتها خاضعين ثم سار اهل رومية على الملك تركين الملقب بالكبير عام ٥٠٩ ق م فخلعوه واقاموا لانفسهم حكمًا جمهورية فكانت هذه الثورة سببًا في تأخير ظهور آثارهم مائة وستين عامًا على انهم جدوا بعد ذلك في سبيل المجد حتى بلغوا منه غاية لا تدرك . وكان في تلك البلاد على ذلك العهد ثلاث قوى عظيمة الشأن قوة الغاليين في الشمال وقوة السمنيتيين في الجنوب وقوة الرومان او اهل رومية فنمت هذه القوة الاخيرة بعد استحكام جمهوريتها وانتظام جنديتها فاقامت الحرب على ساقها من سنة ٣٩٥ الى سنة ٣٥٠ ومن سنة ٣٤٣ الى سنة ٢٦٧ قبل الميلاد فخضع لها السمنيتيون واستولت على بلاد الوسط والجنوب من ايطاليا ثم انصرفت الى محاربة الغاليين على ارضهم المسماة بغاليا السيسلبية فصبروا لها من سنة ٢٢١ الى سنة ٢٧٣ ثم وهنت قواهم فاستولى الرومان على بلادهم الا نواحي قليلة منها وصارت جمهوريتهم اعظم قوة في ذلك الاقليم بل اعظم قوة في الارض على الاطلاق بما حصل فيها من حب الشرف وحب الوطن وحفظ النظام العسكري فدخلها الطمع في غير ما ملكت من البلاد فانصرفت قوتها

الى الفتوح واستولت على سردينية وغواة اي بلاد الغوليين التي هي الان بلاد الفرنسيس وعلى قرطجنة وكانت بينها وبين انيبال قائد قرطجنة الكبير حرب ليست كالحروب اوشكت ان تكسر شوكتها وتبيد سطوتها وتجعلها على شفا الاضمحلال ولكن ساعدتها التقادير فنجت من ذلك القائد وغلبت عليه فبلغت معارفها الحربية وفنونها نهاية الكمال . ثم اخذت هذه المزية في الضعف بعد سنة ١٢٥ وضعف معها [illegible] معارف الرومان وشبت بينهم الفتن الداخلية فادت الى تغيير الحكم فصار ملكيًا ووسد بارادة مجلس الشيوخ الى اكتاف فدعي اغسطس ومعناه الامير وامبراطور ومعناه القائد الاعظم فابتدأ اغسطس ملكه باعادة الراحة والامن فتم له ذلك واجتنب الحرب الا فيما اقتضاه تأمين حدود الملك الى ان مات عنه كاملاً محفوظًا فتولاه خلفاؤه من بعده الى ان مات تيودوروس عام ٣٦٥ بعد الميلاد فقسم شطرين امبراطورية الشرق وامبراطورية الغرب فاما امبراطورية الغرب فكانت منقسمة خمسة اقسام بريطانيا وغالية واسبانية وايطالية وافريقية ثم قسمت هذه الاقسام اقسامًا واندفعت عليها قبائل البرابرة من كل صوب فتلاشت بعد وجودها بمائة عام واما امبراطورية الشرق فتاريخها يبتدئ بموت تيودوس وينتهي باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وفيه خمسة فصول الاول من سنة ٣٩٥ الى سنة ٥٦٦ وفيه اخذت ارمينية وسقطت امبراطورية الغرب والثاني من سنة ٥٦٥ الى سنة ٧١٧ وفيه توالت عليها النوائب والمصائب فتمكن

اللمبرديون من ايطاليا واستقرّ البلغار والصرب في جنوب الطونة واستولت العرب على سورية ومصر وافريقية وقبرص . والثالث من سنة ٧١٧ الى سنة ٨٦٧ وفيهِ ظهرت دولة ايزوريان ففقدت ما بقي للسلطنة من الملك في ايطالية وادخل اليها اكرام الصوَر على يد سبعة من امراء تلك الدولة وتم انقسام الكنيستين الشرقية والغربية عام ٨٥٨ فكانت رومية مركز هذه والقسطنطينية مركز تلك كما هو اليوم واخذت جزيرة كريد وصقلية وغيرها ووقعت الحروب البلغارية التي اضرّت بسلطنة الشرق كثيرًا والقسم الرابع من سنة ٨٦٧ الى سنة ١٠٥٦ وفيهِ ظهرت عليها علائم السقوط اذ هاجمها البلغار والروس والبشناق على انها استعادت بلاد البلغار والصرب وقبرص مرتين . والخامس من سنة ١٠٥٦ الى سنة ١٢٦٠ وفيهِ استولى السلاجقة على ثلثي اسية الصغرى ومر الصليبيون بها وكانوا من الساعين في تدميرها ووقعت حرب النورمنديين فاستولوا على صقلية ثم مات كمنيتوس الاخير فازدادت المملكة ضعفًا فاستقل عنها الصرب والبلغار وعادة الصليبية الرابعة من القدس الى القسطنطينية فامتلكتها فصارت عاصمة مملكة لاتينية ثم نازلها الامبراطور ميخائيل باليلوغوس فاستردها لنفسهِ وبذل المجهود في اعادة المجد لهذا الملك وتلاه ولداه من بعدهِ ولكن تعذر عليهم الامر اذ تأيد استقلال البلغار والصرب والبشناق واستولى الترك على سائر بلاد المملكة فاخذ امبراطور القسطنطينية في استنجاد ملوك الغرب وواعدهم بالعدول عن المذهب الشرقي فلم ينجدوهُ وعظم هذا الامر على رؤساء الدين في المدينة فكانوا اعوانًا للعثمانيين على الامبراطور ثم فتح الترك بلاد البلغار وقاتلوا الصرب وتم لهم فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني وهي الى الان عاصمة دولتهم واسمها اسلامبول او الاستانة او دار السعادة

المقابلة

ليس بالامر اليسير محاولة المقابلة بين هاتين الامتين العظيمتين فقد امتلأت باخبارها صحف التاريخ وحارت في آثارها افهام الناقدين واختلفت احوالها وعاداتها كما اختلفت آثارها والمنافع الناشئة عنها حتى كادت الموازنة بينهما تمتنع لولا ان يكون الغرض منها محدودًا قاصرًا على ما نشأ عن كل من الامتين من النفع الانساني فاذا تبين هذا وعلمنا ان اليونان خرجوا من الحالة الهمجية الى حالة العرفان والتمدن من عام ١٩٠٠ ق م وان الرومان لم يخرجوا الى هذه الحالة الّا بعد ذلك بالف ومائتي عام قلنا

ولكن بكت قبلي فهيّج لي البكا
بكاها وان الفضل للمتقدم

وعلمنا ان اولئك جدوا باكتشاف البلاد المجهولة واستعمار الاماكن المهجورة وتوسيع نطاق الاسفار في البحار ونشر آثار التمدن بين المتوحشين وفي جملتهم اصحاب دولة الرومان وان هؤلاء لم يزيدوا على اقامة الحروب واضرام الفتن وفتح البلاد واذلال الشعوب طمعًا ورغبة في الملك قلنا

من اصلح الامر هو السيدُ
لا يستوي المصلحُ والمفسدُ

وان اولئك هم الذين ضربت بحكمتهم وعلومهم امثال المتقدمين والمتأخرين وبقيت آثار علمائهم على كرور الايام والاعصار فائدة للمتبصرين وهم اهل الفلسفة غير معارضين ومنشئو الطب غير منازعين ومخترعو فن الروايات غير مسابقين وموجدو صناعة التاريخ غير مسبوقين ومنهم رجال الاهوال وعظماء الابطال واكابر الخطباء واعاظم الحكماء وفحول الشعراء وهم الذين رفعوا في الارض الوية التمدن ونكسوا فيه اعلام الجهل وان هؤلاء وان ظهر فيهم الخطباء والعظماء وكثر منهم الامراء والشعراء وبلغوا من التمدن غاية قاصية ووصلوا من العلوم مكانة عالية الا انهم في معظم ذلك مقلدون وفي كثير منه لاهواء النفوس تابعون قلنا

بين المقلد والمقاد نسبة
تحكي التي بين التكحل والكحل

نعم ان الرومان قد نشروا انوار العرفان في كثير من جهات الارض وهذبوا الفنون والصناعات والشعر والخطابة احسن تهذيب وان منهم فرجيل المداني لهوميروس وشيشرون المضارع لدمستين وغيرهما ممن تضن بمثلهم الايام ولكنهم مع ذلك لاحقون لليونان غير سابقين في شيء من تلك المحاسن فالفضل الاكبر لاساتذتهم على كل حال

اما اساليب الحرب واحكام العسكرية المعدودة من بدائع الحرب فلم يكن اليونان من قبلهم ذاهلين عنها على تقدير ان تكون من المنافع الانسانية كيف وفي اليونان امثال القائد اباميننداس الكبير

وجملة القول ان اليونان والرومان من بعدهم امتان تجارتا في مضمار المجد والسؤدد وتبارتا في مجال العز والنجاح وكانت كل منهما مظهرًا للفنون البهية والعلوم السمية والتمدن الانساني حتى امتلأت صحف التواريخ باخبارها وتزينت بقاع الارض المعروفة بآثارها وما برحت علماؤها اساتذة العالم وحكماؤها ادلاء الانسانية اعوامًا تليها اعوام وهم في المنزلة الاولى من الفضل الى هذه الايام غير ان الامة الاولى كانت الى غايات الفضل اسبق وفي نسب المدنية والمعارف اعرق فالقول الحق انها بالتقدم احق والله اعلم

رسائل وشذور

نص كتاب
بعث به على لسان جمعية مصر الفتاة الى
الامير عبد القادر الجزائري
عام ١٨٧٩

كتابنا ايد الله الامير الاعز ونحن عصبة تذكر ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر

رأينا ما المَّ بهذه الاقطار من الاضرار ناشئة عن تخالف القلوب وتنافر الافكار حتى صار الود مداجاة والحب عدوانا فقلنا يا قوم لا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانًا ورأينا بوادر البلاء وطلائع الشقاء فخفنا المصاب الاعظم ينقلب به الخير الى الضير والمغنم الى المغرم ويزول بهاء الامة ثم تغضب الارض التي سقاها السلف

الكرام بالدم ننهضنا نروم حفظ الباقيات
الصالحات بوسائل السلم والسلم اسلم وذكرنا
خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم

ورأينا فقيرنا يتعثر باذيال ناقته وعظيمنا
لا يأمن على راحته او على ما في راحته ومثل
ذلك سائر اخوان الوطن الذي ولدنا فيه او
نزلنا بساحته فنزعت انفسنا الى اعانتهم ومن
كان في حاجة اخيه كان الله في حاجته

ورأينا انوار فضل الامير على طور تجلي
الحكمة توقظ الراقد وتنبه الغافل من هاته الامة
فتكشف عنها كل ملمة فعلمنا ان لا بد من
التماس مساعدته في هذه المهمة فرفعنا اليه الصحيفة
التي هي لسان حالنا لتنوب لديه عن لسان مقالنا
أمل الحصول على القبول شأن الامير في معاملة
من امه ورجاه وورود الجواب بما يراه في امر
هذه الخدمة وله في تشريفنا بذلك رأيه العالي
مسدداً وامره الكريم مؤيداً ان شاء الله

نص كتاب

بعث به الى المغفور له سلطان باشا بعد النفي من
مصر وكان قد ارسل اليه رسولاً فاكرم
مثواه وواعده وعداً جميلاً

سيدي وعمادي وسندي وعتادي

كتابي اطال الله بقاء سيدي الاوحد وانا اذرف
دمع الامتنان والشكر على ما اظهر لرسولي من
الانعطاف اليّ والشفقة عليّ والرغبة في كشف
ظلامتي والميل الى اعادة كرامتي حتى لو بذلت
بقية الشباب في سبيل خدمته ووقفت سائر
العمر على شكر نعمته واوتيت مع ذلك عزيمة
الاقوياء ومنحت بلاغة الفصحاء لما سلمت في
الواجب من التقصير ولا ادركت منه غير النزر
اليسير على انني القيت بباب مولاي القلب رهن
اخلاص وولاء وقليل تحت سمائنا قلوب
الاصفياء

ولقد بشرني الرسول بكتاب من السيد
السند يجبر الخاطر ويقر الناظر ويشرح الصدر
فيصفح عن هفوات الدهر فاعتقلت باسباب
الاماني والآمال ورجوت لسوء الحال حسن
المآل ثم رددت النفس عن هاوية اليأس
فالحمد لله ما خلت الارض من الفضل والحمد
لله ما عفت في مصر آثار العدل ويمين الله
ان غاية الامل رضى السيد عن عبده ونهاية
الرجاء حسن ظنه بحافظ عهده فان رضي
فليغضب الانام وان احسن الظن فما على
الدنيا ملام

وعلمت من كتاب رسولي اسباب الابعاد
وما تخلل الامر من دسيسة وفساد فما عجبت
لتصديق التهمة كما اني لم اندم على صدق
الخدمة او ليس ان السيد اعزه الله يذكر
ذلك مني ولا ينساه وكفى بهذا جزاء وشكورا
وكفى به قبلا موفورا ولا ازيد وان كان
المجال فسيحاً والحق ظاهراً صريحاً فالنتائج
معقودة بمقدماتها والامور مرهونة بأوقاتها ولسوف
ينكشف الغطاء ويبرح الخفاء ويعلم الشك
من اليقين ويغلب امر الحق ولو بعد حين
والله ولي الصادق الامين

هذا وقد بعثت الى مصر من يبيع اثاث
المنزل بما يتيسر واتاني ان السيد حفظ الله
معاليه قد رسم بتأخير ذلك الى اجل غير
معلوم ولكن الحاجة ملزمة والضرورة مبرمة

والخادم على ذلك البيع باعثان الاول سد الحاجة بما يحصل منهُ وان قل والثاني رفع اجرة المنزل عن كاهله المثقل ومع ذلك فالامر للسيد في كل حال وما على الخادم سوى الامتثال

ثم اني مشتغل في هذه العطلة بتاريخ المسألة المصرية على ما رأته العين ووعاه الذهن وسمعته الاذن وحققه الخبر وايده الاثر مبينًا احوالها منصلاً اجمالها كاشفًا اسرارها واصفًا اثارها ذاكرًا كل امرء بما استحق منصرفًا في كل ذلك عما يخالف الحق ليعلم منهُ فضل ذوي الشهامة واهل الكرامة كما يعلم نقص ارباب السفالة واهل النذالة ممن غرّهم الجهل فطغوا ودعاهم الجبن فاطاعوا ثم اضاعوا البلاد واي نفيس اضاعوا وساقدم لمولاي ما ابيض من هذا الكتاب ليرى فيهِ رأيه الموافق للصواب ان شاء الله حفظ الله السيد السند ورعاه وادام مجده وعلاه وابقى للخادم عنايته ورضاه سنة ١٨٨٣

وكتب اليهِ ايضًا يهنئه بعيد الاضحى

ونيشان ورد اليهِ من دولة الانكليز

ما العيد الا ان تكون سعيدا
فيعيد مجدك كل يوم عيدا

لبيت للنفس الكريمة داعيًا
لا الوعدَ رام ولا استهال وعيدا

فجعلت بعد منى السعادة دانيًا
وجعلت قرب اذى الفساد بعيدا

حتى اذا صنت المقام من الاذى
ووقفت فيهِ الطائفين شهودا

اضحى على عرفات عزمك كل من
ضحى لفضلك مبديًا ومعيدا

التهنئة للاكفاء ولمن يدّني من البعداء فغاية الخادم اخلاص الدعاء فحبذا العيد السعيد سلامة السيد السند وحبذا النيشان ذو الشأن مجده الذي لا يحد ومآثره التي لا تعد وفضله الذي لا يدانيه احد . ولئن ابى الدهر اسعاف العبد في نفسهِ وقد اسعفه في مولاه فالحمد لله ثم الحمد لله

وكتب الى صديقه عزتلو عبد السلام بك المويلحي

بعد النفي من مصر وقد انقطعت عنه رسائله

عام ١٨٨٣

لولا دلالة القلب على صفاء الوفاء وهداية النفس الى بقاء الاخاء لغالبت الشوق في استطلاع اخبارك منك ووقفت القلم عن شكوى هجرك اليك مخافة املالك بما انت غني عنه وكراهة اعناتك بما انت زاهد فيهِ ولكني عهدت بين جنبيك قلبًا لا يحوّله تغير الاحوال ولا يبدله كرور الايام والاحوال فانا مخاطبه بما يمليه الشوق عليَّ رضيت ام غضبت وسكت ام اجبت

اي قلب من نحب ونكرم ونجل ونعظم لقد اتصلنا منك باسباب مودة واعتلقنا فيك باهداب صداقة فهل انت ذاكرٌ معاهدنا بذات الوفاء ليالي هجرنا الرقاد اليك وقصرنا الوداد عليك ورضيناك من الدنيا نصيبا واخترناك من العالمين حبيبا كيف لا وقد لازمك الصفاء وصافاك الوفاء فصفوت على كدورة الايام ووفيت على خيانة الانام فان عدلت وما عدلت فعلى الدنيا السلام . اه

ولما الغيت جريدتا مصر والتجارة عام ١٨٧٩ وُعد بتناول الرخصة في انشاء جريدتين غيرها باسم

العصر الجديد والمحروسة ثم طال المطال

في ذلك فكتب الى سعادة علي باشا

مبارك ناظر الاشغال يومئذٍ

يتقاضاه وعد الحكومة

وهذا نص الكتاب

اتجرأ على فضل الوزير غير جاهل ان وقتهُ اثمن من ان يضاع في مثل موضوعي الحقير ولكن جرت عادة امثالي بقصد اولي الفضل وما اولو الفضل في الدنيا بكثير فعساه ان يكون لضعفي نصيرًا فاقول نعم المولى ونعم النصير

ولقد صار العصر الجديد قديمًا بما مرَّ عليهِ من مؤثرات الانتظار واصبحت المحروسة على قدم اليأس تستجير بالاولياء والانصار وتتلو وهي في عالم القوة بين المخاوف والاخطار اذا ما الفكر حار واذا ما الزمان جار اتنسى مصر مزية البر بالجار ام لا يسمع بين براياها صدى نداء المستجير

بل اعيذ مصر ان تخني بها الايام على البررة الصادقين وان لا يلبي موعودها تاليًا آتنا بما تعدنا انك من الصادقين اقول هذا وما كنت معرِّضًا بسوءٍ وما كنت من المعترضين ولكني امأل النجدة احسانًا ولا سبيل على المحسنين والله لهُ ملك السموات والارض وهو على كل شيءٍ قدير

فلا ينسَ مولاي امر الجريدة موعدا فقد اجتاز الخادم في هذه العطلة عقبة كؤودا وعالج الصبر جهده ثم عاد عنهُ مجهودا افيلوذ باليأس

وقد ام قومًا جؤودا ام ترد اليهِ اشارة الفوز ورودًا عتيدا فتسر وايا حقبا وتسوء عدوًا لدودا . اجل ترد فيشكر الخادم صدورًا كما شكر ورودا ثم يحمد الله الى المولى الوزير

وكتب الى جمعية الخواتين البيروتيات

المسماة بزهرة الاحسان جوابًا على

كتاب ذكر وشكر وتهنئة ورد

منهنَّ اليهِ

سيداتي . حمل النسيم اليَّ تهنئة زهرتكن الزهراء فكانت هي عين الهناء فمن لي بنفحةٍ من طيبها انشرها اليكنَّ شكرًا ومن لي بلمحةٍ من حسنها اجلوها لديكنَّ حمدا ولكن وسع النفس دون الامنية ومقدرة البيان اقل مما في النية وسيداتي موضع العفو وسيداتي زهرة الاحسان فليتقبلن مشكورات غير مأمورات تحية خادم لا يمنعهُ البعد من اداء الفرض والخدمة وما كانت خدمته الا الدعاء وما كان فرضه الا الثناء . اه .

وكتب توطئة رسالة في مدح احد

الصادقين من عمال

الدولة

اذا انا لم امدح على الخير اهلهُ
ولم اذمم الوغد اللئيم المذمما
ففيمَ عرفت الخير والشر باسمهِ
وشق لي الله المسامع والفما

اجل فما تحرّك بنان ولا جرى قلم ولا نطق لسان باحسن من الثناء الحق على نصراء الحق فهو سبيل الوفاء ومنهج الاقتداء تجزى بهِ الانفس الطاهرة بما كسبت من الخير فيحسن

اجتهادها ويدوم في الفضل ازديادها ثم تكون قدوة في الحسنات يسلك الناس ما تنهج سراطًا مستقيما فيحصل النفع كاملاً عميا

ولقد تأثرت المحسنين كشفًا واستعلاما وما آليت المجتهدين عناية بشأنهم واهتمامًا فلم ارَ فيمن رأيت احق بالشكر واولى بالثناء واخلق بالحمد واجدر بالاطراء من مصلح في زمان فساد ومسدد في مقام اختلال ومقوّم في حالة اعوجاج وممن تدوم عفته اليوسفية بين اسباب المفاسد وتثبت نزاهة نفسه الابية بين انواع المكائد تراوده الدنيا عن نفسه فيدرأ شيطانها ويقطع بسيف العفاف اشطانها ومن تعرض له الدنيا فيعرض عن بهارجها وينكب عن مناهجها فانة لافضل في العفة لمن يعف اضطرارًا وانما الفاضل من استطاع الرغيبة ثم عافها اختيارًا

فكيف لا ينطلق اللسان وكيف لا ينطلق البنان بمدح من استكمل تلك الصفات واستجمع هاتيك الحسنات فاستحوذ على البابنا حبـًا وامتلكنا قالبًا وقلبا الا وهو الخبير بشؤون السياسة البصير بامور الرئاسة النبيه الذي عرف صاحب الامر قدره فاعزه واعلاه وتبين فضله فقربه وادناه فلان ايده الله فقد ولي هذا الامر فاصلح وقام بالحكم فعدل وسار في مسلك الحكمة فهدى حتى صار البلد به كمدينة الحكماء متألف السكان على العلم والعدل والاخاء ثم صان فيه النعمة ودرأ عنه النقمة واجتلب اليه النافعات واجتنب فيه الشبهات وكان حكما عدلاً لا يلين حتى يطمع المسيء ولا يخشن حتى يجزع البريء فتألفت القلوب على ولائه واجتمعت الالسنة على ثنائه والسنة الخلق اقلام الحق .اهـ.

وكتب مقدمة لرسالة انشأها في رحلته الى اوربا عام ١٨٧٩ وكان في العزم طبعها بعد ذلك

جرت عادة المؤلفين في كل عصر ومصر انهم اذا فرغوا من تأليف الكتاب وتحريره جعلوا في صدره مطلبًا مؤخر الوضع يسمونه بالمقدمة وهذه مقدمتي لهذا الكتاب الاّ انها منسوجة على غير ذلك المنوال فقد انشأتها قبل تسويد شيء منه ونزهتها عن كلفة السجع وبرأتها من اعذار قد تكون اقبح من الذنوب

فاما تقديمي لانشائها خلافًا لما جرت به عادة المصنفين فلأني علمت من النفس انها لا تكون بعد الفراغ اعلم منها من قبل ولأني اكره دخول البيوت من غير ابوابها واما صيانتها عن السجع فالباعث عليه قه الخاطر وغثاثة النفس من هذه الفقر التي مضغها الاقدمون ونلمظ بها المولدون ولا تزال تكررها الاقلام الى هذه الايام ثم العلم بعجزي عن الجيد الجديد واما تبرئتها من الاعذار فلأنها لا تغني عن المؤلف شيئًا فقد علمت من نفسي اني ما قرأت اعتذار مصنف بما شاء ما عساه ان يكون في سفره من الخطاء الاّ قلت اما ان يكون هذا الرجل معتقدًا بنفسه الاجادة ويقول ذلك تمدحًا فهو متكبر مغرور. واما ان يكون مصدقًا ما يدعي في جانب ضعفه ثم الف واستهدف فهو احمق مختل الشعور

فهذا الكتاب قد الفته في اعوام واصلحته في اعصار وضمنته كل ما علمت في بابه وهو

خلاصة اخبار وزبدة خواطر وحكاية احوال ما رأيت وسمعت في بلاد الافرنج ففيه كلام في المدن وما هو في الجغرافية وعن الامم وما هو في التاريخ وعن الدول وما هو في السياسة وعن الجماعات وما هو في الاقتصاد بل هو في كل ذلك وليس في شيء من ذلك فان احسنت فيه فالى الاحسان قصدت وان اسأت فذلك غير ما اردت والسلام

وكتب الى احد امراء مصر

جعلت وسيلتي الى اعتاب ولي النعمة وباب السيد السند كتابًا رفعته اثر الحادثة الى حضرة المولى فلان ثم جاءني ان المولى المشار اليه منحرف المزاج فجرؤت بنفسي على باب السيد الامير احمد الله اليه مؤديًا واجب الثناء عليه ثم استمنحه نعمة الجواب عما اذا كنت اصلح لشيء من خدمة ولي النعمة في اوقات هذه الغمة فقد رأيت السنة الكاذبين طائلة بما يقصر هم الصادقين ولم اجد من مضاء في سيوف من رأيت من المدافعين فهزني واجب الخدمة لمز صمصامة الذود عن الحق فطرقت باب المولى مستأذنًا فيما دعاني الواجب اليه فان رأى له محلاً ورأني له اهلاً فله في الامر بذلك رأيه العالي والاّ فحسبي منه انعطافة رضى والتفاتة اهتمام وكلمة تنبئ بوصول عريضتي اليه وان تفضل سيدي اعزه الله بذكر الخادم في الحضرة العلية داعيًا بتأييد الاريكة السنية كان ذلك تمام الفضل وله الامن وعليّ الشكر في كل حال

وكتب في زواج احد نبلاء اليونان بالمشخصة الفرنسوية المشهورة

ساره برنار

خلِّ المعارف فالمعازف سوّدت
بيض الثنـايا الغانيات تغنيا
ودع العوالي فالمعالي وسدت
للسائدات على الغصون تثنيا
الراقصات الواقصات القانصا
ت قلوب ارباب الغرام تجنيا

او ما انبأك سمار الملاهي ورواة احاديث الصبابات ان المليح التياهة المشخصة للابصار بما تشخص في الملاعب تمثيلاً بهجة التياترو الفرنسوي وزينة مشخصات الغرب من لا يزال رأس وكتور هيكو الابيض يطأطئ لقبلة كفها كلما انشدت كلمة من شعره البديع الفتاة المادموازيل عنوانًا (ساره برنار)

من آل اسرائيل فتاة
قد عذبت اهل الهوى تيها
قد انزل السلوى على قلبها
وانزل المن على فيها

اجل فقد اتصل بها في هذه الايام فتى من نبلاء اليونان وذوي الثروة الواسعة منهم فانضم الى فوج تشخيصها يطوف معها البلاد وينقاد لاحكامها ايما انقياد معجبًا بفنها اكثر من اعجابه بحسنها فان ساره (وما نريد بالهيف سوءا نحيلة نحيفة بالمحة من الحسن لا تكاد تلمع) ولكن اول الحب التام وغايته التزام

والحب اول ما يكون مجانة
فاذا تحكم صار شغلاً شاغلا

فصاحبنا ابتدأ باستحسان المشخصة فانتهى

بعشق الذات والمنية واحدة ولكن الوسائل مختلفات فابدى لها الغرام فسمعت فطلب الملازمة فما منعت فرام الانصال فامتنعت الا ان يكون حليلاً ولا سكنًا ولا خليلا فاجاب وداعيات الوجد تخفيه من عاديات الصد

يا قريب الصدود والاعراض

انا راض بما بو انت راض

مختارات اشعاره

قال لواقعة حال جرت عام ١٨٧٢

في حب بانتنا لا بانة العلم
بديع نظمي اضحى اي منتظم
فخلِّ سلعًا وسل عن حال عاشقها
فتلك نار الغضا لاحت بذي سلم
يا بارق الليل ان جزت الجزيرة قف
فثمّ اول عهد الوجد والالم
ويا نسيمًا سرت من روضنا سحرًا
تحملي وجد صبٍّ فاقد النسم
وان مررت بغربيّ الدبار على
معاهد الحب والاشواق فانعدمي
فثمّ انفاس من اهواه مغنيةٌ
عن كل ما في رياض الارض من نسم
هناك هلت براعات الغرام لنا
ومنه هلت دموع العين كالديم
وركَّب الحب في قلبي قوالبه
قسرًا فهان دمي فيه وها ندمي
حبٌّ اصاب شغاف القلب اسهمهُ
فبات مغرى متى يعذل به يهم
لم انسَ انسَ نهارٍ بالرياض مضى
مجانسًا لنعيم الصفو والنعم
دارت به الراح من كف الحبيب ولم
نحفل بعودٍ بزيل الغمّ بالنغمِ
وهيأ الراحُ اسباب الغرام لنا
والجمر ان تأتِه الارواح يضطرم
حتى اذا تمّ ما ابدته اعينها
من الجوى منذرات فيه بالسقم
روَت لعاشقها معنى الهوى فنسي
حديث قومٍ قديمٌ عهد حبهم

وقال

بابي افديه لحاظًا وفمًا
اوردتني منهُ سلمى كوثرا
لا تلوموني في اصحابي فمن
لام لا يدري ومن ذاق درى
يا لهُ ثغر لطيف قد اذا
قَلسيع الصدع ترياق الشفا د
قد صفا حتى نفى عني الاذى
يا خليليّ فبالله صفا د
يا مهاة الخدر لي قلبٌ اذا
ما غزاه الغدر يحميه وفا ه
ايد الايمان في الحب وسن
سنة العشاق ما بين الورى
وعيون قد أبت وصل الوسن
فهي لا تعتبه ان هجرا

دور

بابي افدي التي قالت سلوا
هل رأى العشاق مثلي في الملا ل
ان يكونوا رسلَ الحاظي سلوا
فيجذبه للذي يهوى بلا ل
سحرتهم لحظاتي فابتلوا
بهواها يالهُ سحرًا حلا ل

وجمالي كل ذي قلبٍ فتن
ولارباب النهى قد قمرا
وسلوا في الحب شيخًا وفتىً
برعيان الليل فيَّ القمرا

وقال

بروحي هيفاء اذا ما تمايلت
تقول نسيمٌ مرَّ في دوحة العطرِ
اقول لها عيناك شفعًا اصابنا
فؤادي وهذا القد بالطعنة الوترِ
فيابانةً بانت فبان سرورنا
وبانت فبان البان في الحلل الخضر
نصبتِ شراك الحب واصطدتني فلم
جزمت بان يبنى فؤادي على الكسر
وعهد الهوى وعدٌ ووصل مؤمل
وعهدك وعدٌ مطله طائل العمر

وقال وفيه سلامة الاختراع

مدحتك لا املاً في النوال
وان كنت ممن ينيل الامل
ولكن رأيتك فذًّا بارضٍ
بها كل فضلٍ بها للهمل
تقول وتفعل ما قلته
وما كل من قال قولاً فعل
وشمتُ القريض كثير الكذاب
ونجم الحقيقة عنه أفل
فجئت بمدحك اصدق فيه
ارادة اصلاح هذا الخلل

وقال في رواية عن لسان ذي فتوّة

كلمت افئدة الرجال بصارمٍ
تقوى به الدعوى وان لم ينطقِ
راع المقاتل هزه ومضاؤه
حتى تمنى انه لم يخلقِ

وقال في مثل ذلك

ضياء الشجاع ظلام الوغى
بسمر الرماح وبيض الظبى
وبرق الحسام غداة الصدام
لغيث الحمام نعيم الغنى
ومجد الشجاع الذي لا يراعُ
بيوم القراعِ اختطاف اللوا
اذا قدَّر الله موت الفتى
فما من مردٍّ لذاك القضا
وانا لقومٌ نعدُّ الحياة
مع الذل دون البلى والفنا
نبيد الجموع ونشفي الربوع
ونجري دموع العيون دما
فان لم نبارز فمن للنزال
وان لم نناجز فمن للوغى

وقال يرثي فقيد الادب والاجتهاد
سليم افندي الخوري احد صاحبي
آثار الادهار عام ١٨٧٥

جار دهري فمدمعي منه جارِ
واصطباري ما ان يواري اواري
اي ندبٍ وجيبنا فيه فرضٌ
فجعتنا به يدُ الاقدار
عهدنا في دياره يأنس الأُنـ
ـسُ ونشدو على الغصون القماري
ونرى الآن وحشة الحزن فيها
بنواح الحمام في الاسحار
يا هلالاً في القبر ما كان قبرٌ
قبلُ ذا من منازل الاقمارِ

لم تغب عن بصائر الناس لكن
غيبتك العليا عن الابصار
فبكتك العيون وهي عيون
فائضاتٌ عن واسعات المجاري
بل بكتك الطروس نظما ونثرًا
فهي للثاكلات فيك تجاري
ورثاك التاريخ فينا فابقى
في القلوب الآثار للادهار
نحن نبكيك والمعارف ترثيـ
ـك على اثرنا مدى الاعصار
طاب فيك الثناء نشرًا ففاحت
نفحاتٌ من ذكرك المعطار
وتولى لسان حالك عنا
ذكر قول يفيد للتذكار
ان آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا الى الآثار
فهو سفرٌ انشأته بعد طول
بحث والجهد فيه والاسفار
وقضى الموت ان قضيت ولم تُـ
ـجزهُ والموت حاكم ذو اقتدار
يا صديقي سقت ثراك الغوادي
او عيوني فانهنّ جوار
بنت عنا فما خلا قلب خلٍّ
في حمانا من حرقةٍ واوار
كلنا مذ دهاه خطبك باكٍ
نائحٌ طول ليله والنهار
وبك الآل والرفاق استووا في
الحزن جودًا بمدمعٍ مدرار
لبسوا بعدك السواد ولاحت
بحدادٍ حديقة الاخبار
ولئن اكثروا البكاء وناحوا
دهرهم لم يلمهمُ ذو اختبار
فعلى مثل من اضاعوه يبكى
لا على درهمٍ ولا دينار

وقال ارخًا له

يا بني الخوري على كل الورى
حكم هذا الموت جارٍ فاصبروا
يؤجر الصابر في المحنة ان
ارخوه او بفوز يظفرُ (١٨٧٥)
قصفت ريح الوبا من دوحكم
غصنًا فيه المعالي تزهرُ
فتلونا فيه بالتاريخ ان
قصف الغصنَ هواءٌ اصفرُ (١٨٧٥)

وقال في جواب كتاب ورد اليهِ
من عبدالله افندي كحيل
نزيل دمشق عام
١٨٧٣

حمل الريح سلاما واملأ الارض غراما
واجعل الاشواق كأسًا واشرب الدمع مداما
واصحب الذكر نديمًا ان تكن ترعى الذماما
وخذ النجم سميرًا وامنع العين المناما
هجر الحب فصار النوم والانس حراما
ملني مذ بتُّ فيه مستهامًا مستهاما
ايها الظبي الى ما البعد عني وعلى ما
قد نسيت العهد والودَّ وغادرت الوئاما
ان تكن تؤثر بعدي يا اخا الحسن سآما
فانا يا مالكي عبدٌ على العهد اقاما
زادني البعد على ما فيَّ وجدًا وهياما
كلما هبَّ نسيمٌ اسكب الدمع سجاما
اسهر الليل كئيبًا وارى الناس نياما

وانا راضٍ بما تقضي فلا تخشَ الملاما
قد سلبت البدر والغصن محيا وقواما
وتخذت الراح والبر قَ رضابًا وابتساما
وجعلت الفرق والفر عَ صباحًا وظلاما
فلذا تهدي وتغوي بمعانيكَ الاناما
ايها العاذل لا تستمطر الغيمَ الجهاما
لمْ وفنــد ولِ لاء الدنيــا ملامًا وانهماما
لا ارى عنهُ عدولاً فليذب من فيهِ لاما
سائق الاظعان يطوي الا بيدَ جدًا والتزاما
كرمًا بلغ مهـاة الحي عن ميتٍ سلاما
واختصر في شرح حالي والثم الارض احتشاما
يا لقومي ان وجدي اتلف الجسم وداما
نزعت نفسي الى حيٍ بهِ الظبي اقاما
من مجيري من غرام ارهن الجسم سقاما
في سبيل الله نفسٌ فقدت آما وعاما
ترتجي في الحب خلاً لا يرى فيهِ اصطراما
ذاك عبد الله من قد تخذ الود وساما
لسنٌ قد بات للفضلِ مقامًا وقواما
جاءني منهُ كتابٌ شامة الطرف فهاما
اخجل الدر ابتداءً وازدرى المسك ختاما
يا كثير الفضل قد ذللت للشعر الكلاما
فرأينا لك شعرًا علم السجعَ الحماما
كان لي منهُ سميرٌ ومدامٌ ونداما
بأبي انت فقد اصبحت في القوم إماما
يا صديقي والليالي تلبس الرأس الثغاما
كيف ترجو النظم ممن زوّد العشق سلاما
وتناسى عهد ظبيٍ سلب الرشد الاناما
سدل السترَ فقالوا التحف البدر الغماما
فغدا يبسم حتى فتق البرق الظلاما
قد مضى عهد غرام كان في القلب ضراما
وهجرت الشعر لما ان تضمَّ العمر اهتضاما
وعجيب شأن طفلٍ رام في المهد الفطاما
فاعفُ عني وتقبل يا اخا الودّ السلاما
رفع الله بكَ العلا مَ واعلاك مقاما
وارانا منك بدرًا في سما المجد تماما

وقال على لسان بعض الاصدقاء في
زفاف الخواجا خليل والخواجا
عبدالله ابو شقره

أرياض أُنسٍ فتحت ازهارها
وشدت على اغصانها اطيارها
حيا الربيع بنوره ارجاءها
فتوقدت من نوره انوارها
وغدا يطارحها الهوى متسترًا
فبدت بالسنة الهوى اسرارها
ام جنة ولدانها قد غافلت
رضوانها غلسًا وجدَّ فرارها
فسعت الينا حورها في اثرهم
اذ عز من بعد البعاد قرارها
وبدا ضياء وجودها في دارنا
ليلاً كما كانت تضيءُ ديارها
ام نحن في افق وهذي انجمٌ
قد ضل في جنح الدجى غرّارها
هنئتم فلقد اصبت حقيقةً
هذي السماء وانتم اقمارها
دم يا خليل مهنًا بعقيقةٍ
من للربيع بما يضم ازارها
واهناء بإميلي اعبد الله ما
وافاك من سحب الدعا مدرارها

وقال

فدنك نفسي تثبت في مقاطعتي
ان التثبت منجاةٌ من الخطلِ
ولا تدعني وليل الريب اسهره
مقلب القلب بين اليأس والامل
او كن كما شئت في الحالين ممتدحاً
فالشمس رأد الضحى كالشمس في الحمل

وقال مادحاً فقيد مصر المغفور له محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب المصري وذاكراً هجوم ضباط الجند على منزله في خلال الفتنة العرابية وبعض هذه القصيدة نظم قبيل السجن والنفي وبعضها في سجن المحافظة بالاسكندرية في ١٦ ايلول سنة ٨٢

هو الوجد حتى لا تجف النواظرُ
وحتى تغيب الروح والجسم حاضرُ
وما الوجد الا النار قد شبها الهوى
فما اطفأتها الدامعات المواطرُ
فلا حل جسماً لم تذبه صبابة
ولا ذاقه من لم يمت وهو صابرُ
ولا درّ درّ الوصل فيه لطالبٍ
يخالف منه باطن الامر ظاهر
ساحمل ضيم الوجد حتى يجود لي
بخيلٌ وحتى يأنس الحب نافر
وبي وابي من لو بدا نور وجهه
لعاد عذولي في الهوى وهو عاذر
مليك جمال عز نصراً بحسنه
له حاجب يحمي لماه وناظر
فيا ثغره اني حمتك لحاظه
وانت برود والحاظ فواترُ
ويا قده عوّذ بعدلك حسنهُ
الست تراهُ وهو في الناس جائرُ
خليليّ والايام لم يبقِ صرفها
خليلاً يواسي او صديقاً يوازرُ
اما في سبيل الله عون على الهوى
ولا في سبيل الحب للقلب ناصرُ
أم الدهر آلى ان يضيم كريمة
فدارت على اهل الوفاء الدوائر
وكيف وسلطان الوفاء محمدٌ
مؤيد امر الحق بالله ظاهرُ
همامٌ اذا لاذ الضعيف ببابه
تحامتـه فيه الحادثات الدواغر
ولو رامه الليث القوي بنظرة
لرد اليه طرفة وهو حاسر
غمام اذا اعطى حمام اذا سطا
فمنه يباح العرف والعرض وافر
له همة من دونها السيف ماضياً
مضارعه في الدهر ناهٍ وآمرُ
ورأيٌ هدى اهل السرى بضيائه
كما ارشدت ركب السفين المناور
وما شئت من فضل نظيم وسؤدد
عظيم عليه من تقاه شعائر
وجد مباري مجده فيه خاسىءٌ
ومجد مجاري جده فيه خاسر
وعزم مداني نصفة عنه خائرٌ
وحزم معاني وصفه منه حائر
اقام على تلك المحاسن حجةً
من الفعل اعيا ردها من يكابر

فمل عنهُ نوابًا رأوا نور رأيهِ
فضاءت بهِ ابصارهم والبصائر
وسل عنهُ اهل البغي اذ رد كيدهم
وقد غرهم فيما بغوه التكاثر
ولم يألهم نصحًا ولكن اضلهم
ادلاء في ليل الغرور عواثر
فآبوا بخسران وباَؤا بحسرةٍ
وكسر قلوب ما لهُ الدهر جابر
ويا يوم وافوا لاجيين كانما
قد انحل نطق البحر والبحر زاخر
عليهم من اليأس المبين علائمٌ
تعلم خوف الهول من لا يحاذر
وجوه علتها صفرة الغيظ مثلما
تنمّ عن اهل القبور المقابرُ
فالفوه طودًا لا يبالي بعاصف
وليثًا هصورًا لم ترعه المخاطر
وقرمًا باسرار السريرة ظاهرًا
وحرًا باضمار الضمير يجاهر
ومستهلكًا في الله لا يرهب الردى
اذا رهبته في النزال العساكر
فعادوا سكارى لا بخمر سوى التي
ادارت عليهم في الديار المحاجر
ولولاه ما هلت بدمعٍ عيونهم
سوى ما اعدت يوم تأتي البشائر
الى هنا ما نظم قبل السجن
وما يليه منظوم فيهِ
امولاي أهذا نظم حرّ وتلوه
كلام سجين اوثقتهُ المآثر
انوه بنكر وهو للعرف مرتج
وجازوه بالخذلان وهو مناصرُ

وما وجدوا ذنبًا لهُ غير انهم
اضاعوا لهُ عهد الوفاء وما دروا
أيبعد ذو فضل ويدنى منافقٌ
ويسجن وافٍ حين يطلق غادر
ويكرم جاسوس عن الصدق حائدٌ
ويظلم هام على الحق سائرٌ
ويرفع نمامٌ عن الريب كاشفٌ
ويخفض كتامٌ على العيب ساتر
بذا قضت الايام ما بين اهلها
معائب قوم عند قوم مفاخر
على انني والشيب تأباه همتي
لراض بعقبى ما وفيت وصابر
فان لم تفدني للوفاء اوائل
عقدت رجائي ان تفيد الاواخر
وما ارتجي فيهِ من الناس نائلاً
ولكنني للبرّ والعرف ذاكرٌ
فيا من تولاّني فنلت بقربهِ
امانيّ عنها جهد غيري قاصر
مقام اخي فضل وشهرة كامل
وصيتًا لهُ نشر من الطيب عاطر
وصحبة سادات كرام بمثلهم
اذا كثر الاعداء بت اكاثرُ
ساشكو زماني شاكرًا ما حبوتني
فها انا طول الدهر شاك وشاكر
وما صغرت نفسي لامر يريبها
ولا انا مما نابها متصاغر
كفاني من الدنيا وجودك سالمًا
وحسبي من الايام انك ظافر

وكتب اليه يهنئه بعيد الاضحى بعد انقضاء
الفتنة المصرية عام ١٢٩٩ وقد جاء
في مطلع رسالة تقدم اثباتها

ما العيد الا ان تكون سعيدا
فيعيد مجدك كل يوم عيدا
لبيت للنفس الكريمة داعيًا
لا الوعد رام ولا استهال وعيدا
فجعلت بعد منى السعادة دانيًا
وجعلت قرب اذى الفساد بعيدا
حتى اذا احصنت المقام من الاذى
و وقفت فيه الطائفين شهودا
اضحى على عرفات عزمك كل من
ضحى لفضلك مبديًا ومعيدا

وقال في جمعية زهرة الاحسان عام ١٨٨٠
ما كان للمسكين من تأساء
في الفقر كالاحسان من حسناء
تجلو سواد زمانه منها يدٌ
بيضاء تشكر من يد بيضاء

وقال

الى مَ الدلال وفي مَ الملال
فخلي المطال وعودي عن الصد
لقد كفرت ادمعي الهاطلات
ذنوبًا جناها حسامي المهند
وان كان ذنبي عظيمًا فهذا
حساب الذنوب بدمعي مسدد
هجرت المنام لفرط الغرام
وسامرت في الليل بدرًا وفرقد
فؤادي عشيق وفيه خفوق
ودمعي طليق وقلبي مقيد
وما زلت عبدًا ولا خنت ودًا
ولا سمت صدًا وعهدي مؤيد

وقال قدًا

جور دهري لا يبالي بتلافي ووبالي
بات جسمي منه بالي وهو بالاوجال جال
قد جار بي دهري فحرت في امري
وما من الدهر مجير
يا الدهر من اذاه طاب للجسم بلاه
كيف انجو من بلاه وهو بالفصال صال
يا خالق الكون كن في البلا عوني
فانت لي خير نصير

وقال

الان انت كما ترضى العلى رجلُ
يلقى الصروف بقلب ما به وجل
قد نلت نصرًا على نصر وخيرها
نصرٌ بغيرك فيه الاعين النجل

وقال

في سما الانس لدينا قمر الاصلاح لاح
وبها اهدى الينا طائر الافصاح لاح
قد نأى شر العناء واذى الاتراح راح
فسكرنا بالهناء انما الافراح راح

وقال عاقدًا بتشطير بيت للمتنبي

نالت مزيد الهناء انفسنا
من بعد ما كاد يقطع الاملُ
ندمت يا بدر يا غمامة يا
عالي الذرى يا همام يا بطل
يا شهم يا سهم يا مهند يا
ليث الشرى يا حمامُ يا رجل

وقال

وهو مفاد ابيات تقولها اندروماك زوجة هكتور لمربيون زوجة بيرس مستشفعة عندها في ابنها وهي من رواية اندروماك المعربة بقلمهِ عن اصلها الفرنسوي لراسين

مهلاً فاني في حماك ومالي
من ذلة كي تقطعي امالي
غادرت بعلي في القتال وبالي
والدهر لي كاس المذلة مالي
لله من ذل العزيز الغالي
قد صنت امك يوم راموها بشر
ومنعتها من ان يدانيها بشر
فاحمي فتى الف الكآبة والكدر
حيران ما بين السلامة والخطر
من سقمهِ اضحى خيال خيالِ
ابكي على ولدي ودمعي جارِ
كالغيث لكن ليس يطفئ ناري
سلبوا بما طلبوا يسير قراري
لا تسلموهُ فان حفظ الجار
فرض على اهل المقام العالي

وقال

اتنكر حبي والمدامع تبديهِ
وينشره سقمي وصبري يطويهِ
اتيتك والآمال ملء خواطري
وقلبي صافٍ والزمان مصافيهِ
ووافى بانواع الوفاء الهوى وما
فهمت بواديهِ فهمت بواديهِ
فبات الجوى نحو الجوانح جانحاً
فحل بنادي القلب وهو ينادبهِ
وما زال قلبي وافياً في شفائهِ
متى انت تشفيهِ وحتى م تشقيهِ

وقال

مذ تردّى الافق ثوباً من رقيق الغيم لاذ
وكسا الروض قباء لؤلؤيا من رذاذ
قلت للصحب وقلبي من اذى الحب جذاذ
خانك البدر لهذا بذيول السحب لاذ

وقال في السجن بالاسكندرية عام ٨٢

لئن حبست بلا ذنب ولا حرجٍ
فلي يراع بغير العرف ما انطلقا
ولي فؤاد امين قد صفا ووفا
ولي لسان بغير الحق ما نطقا
ما للمؤذن لم يسجن بارضكم
ان كان يسجن فيها كل من صدقا

وقال

وارخص دمعي للضعيف اذا شكا
ودمعي لنفسي في النوازل غال
علوت بذم السافلين كما بدا
بمظهر طعن الناقصين كمالي

وقال

من حاجبيك مقانبٌ وحبيبُ
ومن اللواحظ مسقمٌ وطبيبُ
غازلنني وغزونَ قلبي فانثنى
وله الصبابة بالعذاب تطيبُ
وجوارحي ان لاح حسنك السنٌ
تبدي الغرام وكلهنَّ قلوبُ
ولهنَّ من جفنيك سهمٌ قاتلٌ
ولهنَّ من نصب الهيام نصيبُ
لم انسَ انسك يوم عقد عهودنا
والوجد داعٍ والوفاء مجيب

اقسمتِ ان لا تنسي جمع الهوى
وطرحت قلبي حين كاد يذوب
يا من على قلبي تولت لا نوث
صبري على هذا الصدود عجيب
لا تعدلي عنا وفينا فاعدلي
فالعهد في عهد الوفاء قريب

وقال
في مشكلة سياسية وقعت بايطاليا
من جراء خلاف جرى بين
بعض السياسيين في
احد المراقص

فيارب حتى في المراقص عندهم
مشاكلُ فيها للانام شرورُ
يدورون بالغيد الحسان رواقصاً
على نغمٍ والدائرات تدور

وقال مخمساً

غرامي غريمي والهوى باعث الجوى
وقلبي بنار الوجد فيه قد اكتوى
على انني والقلب تتلفه النوى
كتمت الهوى حتى اضرَّ بي الهوى
وباحت دموعي بالغرام وما بحتُ

وقال

يا قلب صبرًا فان الصبر محمودُ
وان عدمت المنى فالاجر موجودُ
قد بت احسد من ذاق الكرى وانا
في ظاهر الحال عند الناس محسود
رُشدي وقلبي ما قد منيت به
دون الاماني مفقودٌ ومفؤود
والصدر والقهر في ضيقٍ وفي سعةٍ
والضر والصبر موجود ومفقود
والطرف والشوق في ماءٍ وفي لهب
واليأس والانسُ مقبولٌ ومردود
لا اتقي طربًا لو راح ينشدني
لحنَ الزبور على الاوتار داؤود
كيف السرور لقلب أُنسهُ ابدًا
بالغم والهم معقولٌ ومعقودُ

وقال في مليحة دعيت الى المخاصرة
في احد المراقص

وهيفاء تعدو الى الحرب رقصاً
على نغم العود ثم الكمنجه
بقدٍ كرمحٍ ولحظٍ كسهمٍ
وجفنٍ كسيفٍ ونهدٍ كطبنجه

وقال

فقًا بمهجة صبٍ	اضناه هجرٌ وصدٌّ
ثلاثة تيمتــه	شوق ووجد وبعدُ
ثلاثة هيمتــهُ	نوح وذكر وسهدُ
يهوى وما لهواه	ولا لمن يهوى ند
نقده الغصن فيه	طير المحاسن تشدو
ووجهه البدر منهُ	نور الملاحة يبدو
وشاهد الحسن فيه	ريق لمن ذاق شهد
ابدى لنا الروض منهُ	قدٌّ وثغرٌ وخدٌّ
واين في الروض منها	غصن اقاحٌ وورد

وقال

ايها السامي الى اعلى العلا
ملِكٌ انت عظيمٌ ام مَلَك
عزمك الماضي تولى الناس ام
سلب الالباب منهم ام ملك
لحماك المجد وافى وانبسا
والعلا دون الملا قد امَّ لك

جئت ارجوك سلامًا ورضىً
لا تخيب ظن من قد املك
وقال
احن لذكر الدار والقصد اهلها
فاشتاقهم والحب شوق وتذكارُ
اقول اذا لاح العذول موريًا
عليك سلام الله ايتها الدارُ
وقال
يا رسول الحبيب اهلاً وسهلاً
ورسول الكريم عندي كريم
كرر الذكر فهو ما مر يحلو
واعد ما حملت فهو نسيم
يا رسول الرضى افي الحي مولا
ك على الانس والهناء مقيم
ام شجاه من الجوى ما شجاني
فهو منهُ في كل وادٍ يهيم
وقال على لسان ناكلة قدًا لموشحة
« يا غزالي كيف عني ابعدوك »
مزقوا قلبي ولا تبقوا عليّ
واندبوني واندبوا قبلي بنيّ
مات صبري بعده والجسم حي
ساعدوني يا لقومي بالدموع
***
يا لخطب من اذاه في القلوب
نار حزن زادها الدمع شبوب
ما كفى في مثلهِ شق الجيوب
اسفًا يا قوم بل شقوا الضلوع
وقال في مثل ذلك
ابكي على فقد الحبيب فرجعوا
ان البكاء لغيره لمضيع
مات الحبيب فاي قلب لم يذب
اسفًا واية مقلة لا تدمع
مات الحبيب وقد تحجب بالثرى
ومن النسيم عليهِ كنا نجزع
فعصى الفواد بهِ التجلد آيسًا
والدمع فيهِ لمن بكاه طيع
والبدر تحجبه الغيوم كأنها
ثوب الحداد فلا تراه يسطع
والشمس يخبرنا السحاب بانها
مانت عليهِ اسىً فليست تطلع
أحمامة الوادي لقد اسعدت من
قبلي الكئيب فرجعي وارجع
نوحي عليهِ فانهُ غصن على
ما ليس يعدلهُ الحمامة تسجع
ولأنت يا قلبي لمصرعه احترق
حزنًا ولو هطلت عليك الادمع
ونقطعي يا مهجتي لمصابهِ
قد خانهُ من فيهِ لا يتقطع
وتجعوا يا قوم ما شاء الاسى
فالخطب فيهِ يعذر المتجع
وذروا الجيوب فما نشق لفقده
فلمثل من نبكي نشق الاضلع
وقال لواقعة حال
دردحة شوهاء لا تسمع في
بغائها عذلاً ولا ملاما
هذا وفي الدار فتىً ذو نعمة
فكيف لو كانت من الايامى
وقال في معاهدة عقدت على
منع بيع الرقيق
ابرموا العهد ايما ابرامِ

واذا سامــر نجماً ورعى

لم يفلْ حسبي دمعي وكفى

دور

مذهبي في الحب هجرٌ ووصال

ولكلٍ في هواه مذهب

اعشق المعجب ما صال وصال

واذا مال فمالي مذهب

وهو في القلب على الحالين صال

نار وجدي باصطباري تذهب

وبهِ روض غرامي امرعا

فائقًا وصف معانٍ وصفا

فهو روحي صد عني ام رعى

وجفاني ام وفى لي وصفــا

وقال عام ٧٣

الا ناصر من اعين سدن بالكسرِ

فهنَّ اثرنَ العشق من حيث لا ادري

عيون وقى الله القلوب سهامها

فكم نفذت في القلب من داخل الصدرِ

عيون هي السوداء ان جن عاشقٌ

او البيض هزتها قدودٌ من السمرِ

حمت في المحيا الثغر وهي فواترٌ

وكم قد شفي من غلة بارد الثغرِ

فلله من ثغرٍ بدا في عقيقــهِ

عقود اذا اقللت قلت من الدرِّ

يطارحني منهُ التبسم لؤلؤًا

فالقيه من دمعي واجلوه من شعري

وما الشعر في حكم القياس نتيجةٌ

لاهل الهوى الاَّ مقدمة الفكرِ

يحاول فكري نظمه عفوَ خاطري

وتدفعهُ عنه معارضة الدهرِ

ويأبى بهِ الاَّ التغزل عفةً

فان رحت اشكو لم الاقِ سوى الشكرِ

ويبدو عليهِ حين ينشد كلفة

اذا خمن الشكوى من الضر والعسرِ

وكنت متى اقصده يسهل فصرت ان

اشا نظمه لاقيت اعسر من يسري

ولولاك لم ينقد الى الانس نافرٌ

ولا شيد بالايمان ما هد بالكفرِ

ولولاك لم يسبق الى الشعرِ خاطري

على جريها الاقلام مع انملي العشر

ولم تنتسق في نظمهِ من سليقتي

معانٍ حكين العقد في عنق البكر

ويارب يوم همت فيه تفكرًا

فرحت طروبًا بالتفكر والذكرِ

جنحت الى روض كأن غصونهُ

قدود لها ميل السكارى بلا سكرِ

وكان هدو الصبح يحكي متيمًا

خلا قلبهِ من لوعة الصد والهجرِ

فمرت بنا شكوى الجوى في نسيمه

فرحنا نبث العذر في عشقهِ العذري

وخلنا الدجى والصبح يفتق جنبهُ

فواد عدو يظهر الود عن مكرِ

فكان جمال الكون في جنب قبحهِ

وفاء مداج قد تبطن بالغدرِ

ولاح لنا الانسان جيشًا مقاتلاً

تلاطم كالامواج في لجب البحر

نعفنا الغواني في المغاني عرائسًا

تجلين كالاقمار في حللٍ خضر

ولذنا بذيل اليأس من كل لذةٍ

سوى العلم ان اللذة الصرف للغرّ

فيا من غدا مستعبدًا بودادهِ
اخلاء صدق من رقيقٍ ومن حرّ
تكلفني هذا القريض وليس بي
من الوجدِ ما يدعو القريحة للشعرِ
ولكنني لما ذكرتك هاجني
اليهِ اشتياقي وانثنى نحوهُ فكري
فدونك بكرًا ان تبدت لراهبٍ
جرى خلفها جري المطهمة الضمرِ
تزينها هذي السطور عن الحلى
وقد سكنت هذي الطروس عن الخدرِ

وقال

انا ما بين مطربٍ ونديمٍ
ومدامٍ صافٍ وناي وعودِ
وسرورٍ وافٍ فوافي جمانا
وعن الصد يا مليحة عودي

وقال

هجرتَ وما ذنبي لديك لتهجرا
فما عفت معروفًا ولا جئت منكرا
جرحت فوادي بالصدود وهادمي
بجدك مسفوكًا فلا تكُ منكرا
وبتُّ وما للقلب من راحة ولا
لعيني ان جنّ الدجى فيهِ من كرى
وشاهد وجدي سقم جسمي ومدمعي
فان رمت تحقيق الشهادة منك رَ
تبرأت من ذنبي وهجرك قد برى
عظامي وعذالي يقولون من برى
وجرت بقدٍ عادلٍ كلما انثنى
اقولُ للوّامي تبارك من برا
فما ضرَّ لو كلمت قلبًا مكلمًا
وانت ترى فيهِ لذاتك منبرا

وقال على لسان بعضهم برسم امير افرنجي
قدم بيروت عام ١٨٧٤

ضاءت بك الدنيا واشرق نورها
وبدت لك العليا وانت اميرها
فتلألات زهر الكواكب وانجلت
بطارف الاعجاب منك بدورها
وزهت رياض الانس في احيائنا
فترنمت فوق الغصون طيورها
فالوقت صاف والكؤوس يديرها
من راحتيهِ ووجنتيهِ مديرها
قمر على غصن يطوف بانجم
تخفى الشموسُ اذا تبدى نورها
فاليك منا انفسًا مسرورةً
ناجاك منها بالهناء ضميرها
علمت بانك في المعالي مفردٌ
لك سرّها دون الملا وسريرها
ورأتك بيروت البهية وافدًا
فتبسمت لك بالسرور ثغورها
ولو السحائب أُخبرت بك اقبلت
واتاك منها بالثناء مطيرها
يا ابن الاولى كرموا وعزّ نظيرهم
بمآثرٍ في الناس عزّ نظيرها
حملتك اجنحة البخار وربما
عرفتك فاهتزت لديك بحورها
وسريت في اقطارنا متنقلاً
وكذاك تفعل في السماء بدورها
فانيت ارضًا معظم التاريخ من
اخبارها قدمًا وانت خبيرها
تلقاك صيدونُ القديم بهاوها
وبراك من صور العظيمة سورها

والشيخ لبنان الذي ما هالهُ
فيما علمت من العصور كرورها
وتريك يروت السرور بثغرها
ويريك ابهج ما رأيت سرورها
وترى القوافي الباسمات قوادمًا
هذا القصيد الى علاك سفيرها

وقال

يقول حرٌّ الكلام متحمِلٌ
وقد رآه عليهِ ممتنعـا
ومثل ذا قالهُ ثعالةُ في اا
عنقود لمـا ألفاه مرتفعا
فليهذُ ما شاء في جهالتهِ
للحرِّ اذنٌ لا تسع القذعا
وليبقَ كالداء في المريض الى
ان يذهب الله عنهما الوجعا

وقال

رآني اصوغ الكلام عقودًا
فقال سرقت وما كان صادق
فقلت خمولك صانك فاهنأ
فليس يظنُّ بانك سارق

وقال

ظلبت هذا الذي القيتُ من أدبِ
بلا دليلٍ على جسرٍ من التعبِ
فان اصبتُ فما لي من يقاسمني
صفوي ولا كدري ان كنت لم أصبِ

وقال راثيًا بعضهم

جرّد الموت حسامًا ماضيًا
كان بالظلم علينا قاضيا
حاضرًا مستقبلاً او ماضيًا
ما احتيال الناس في هذا القضا

وقال

قد قضى من كان ما بين العباد
خير قاضٍ برشادٍ وسداد
لبس الفضل لهُ ثوب الحداد
وعن الناس نراه معرضا

خطبة في الناس تاريخ أليم
فعليهِ رحمة الله الكريم (سنة ١٢٩١)
بارعنا ناحيًا نحو النعيم
ولنا افتدٌ فوق الغضا

اين من كان امام المعرفه
ان يكن اتصفهُ من وصفه
قُلْ لمن عرّفه ان عرفه
هو ذا الجوهر اضحى عرضا

بل هو الجوهرُ لكنَّ الممات
حاكم فينا بتغيير الصفات
هكذا الانسان قد يمسي نبات
فوق قبرٍ حلّه فيما مضى

فذر الدنيا اذا رمت الهنا
فارتضاء المرء في الدنيا غنى
كلما نحسبهُ فيها لنـا
سوف نبقيه على غيرِ رضى

دأبنا جمع ثراء وحطام
واكتسابٌ من حلالٍ وحرام
نبدأ الامر ولا ندري الختام
ليتنا نبدأ امرًا مرتضى

وقال وارسلها الى سليم افندي شحاده

سدل الظبي حين لحت لثامه
فبدا البدر ظللتهُ الغمامه
وتثنى كالغصن فوق كثيب
تقتدي ميل قدهِ كل قامه
لست اشكو صدودهُ او جفاهُ
يا عذولاً يقول عني سلامه
بأبي افتديه ظبيًا غريرًا
منهُ ارضى كلامهُ او سلامه
متُّ وجدًا في حبهِ ما احتيالي
ما لاهل الغرام منهُ سلامه
مرَّ حلوًا لا شيء املح منهُ
رافعًا من جمالهِ اعلامه
ورآني اسوم تحت القوافي
فلحاني فقلت خلِّ الملامه
ان ود السلام عهدٌ فمالي
لا افيه حقوقه والتزامه
ظنَّ قوم ان القريض دهانٌ
عند من سامهُ لما منهُ رامه
كذبتهم ظنونهم فهو عندي
آية الصدق في كتاب الشهامه
وأبى الله ان اداهن فيهِ
لست ممن يبيع كلاً كلامه
قلت ان السليم سالم خلق
وسم الفضل ذاتهُ بعلامه
شبَّ في الحلم وهو في العلم شيخٌ
نال من رتبة الكمال وسامه
ايها الالمعي النجيب ويا من
ردَّ في ودهِ الوفاء الندامه
انَّ آثارك التي قد رأينا
ما رأتها عيون اهل الامامه
لو تبدَّت لابن الاثير لنادى
كم تركنا لمن غدونا امامه
او رآها الوردي وهو امامٌ
قال ذا العيسويّ ابدى كرامه
اقبل العام بالسرور فلا زا
لتَ بخيرٍ مستقبلاً انعامه
وحباك الاله عمرًا مديدًا
شهره بالهناء تقضي وعامه
ما تثنى غصنٌ وازهر روضٌ
نقط المزن ورده وبشامه
واديب اسير ودك نادى
كل عامٍ وانتم في سلامه

وقال

اضوى الغرام فؤادًا غاب عاذرهُ
واتلف الشوق جسمًا عزَّ ناصرهُ
الحب مصداق قول العارفين بهِ
السقم اولهُ والموت آخرهُ

وقال

اصبرٌ وما للصبر عندي وسائلُ
وكم ودمع العين هامٍ وسائلُ
امال الهوى عني الحبيب فملني
وقلبي لحفظ الود راجٍ وسائلُ
اسائل عنهُ كلما لاح بارقٌ
فمن لي بان القاه عني يسائلُ

وقال

تداهمني الاهوال من كل جانب
فمن منقذي من داهمات النوائبِ

الى كم الاني نكبةٌ بعد نكبةٍ
وحتى متى يا دهر انت محاربي

وقال

اذا رمت وردًا عن ظمى ينضب النهرُ
وان رمت نورًا في الدجى يكسف البدرُ
وان راق لي في الصيف حرّ هجيره .
ارى السحب تتلوه فينهمر القطرُ
سعيت وان السعي فرض على الفتى
وليس عليهِ ان يساعده الدهرُ

وقال مضمنًا

ايا اهل ودي قد نكثتم عهودنا
فكيف جرى هذا وانتمُ انتمُ
احاول سلوان الغرام وحبكم
تولى فؤادي وهو فيهِ محكمُ
وان كان خصمي في المحبة حاكمي
لمن اشتكيه او لمن اتظلمُ

وقال من مقالة وطنية بعد نثر ينتهي : « يا لثارات الاوطان »
وهما من احسن ما نظم في معناها

هو الثأر حتى يحجب الشمس عثيرٌ
تساوى بهِ العين الصحيحة والرمدا
فلا وقفت اقدامنا عن طلابهِ
اذا لم تقم اشلاؤكم دونهـا سدا

وقال

نصحتك لا ترحم من الناس ظالمًا
فمن يرحم الظلام لا شك يظلمُ
وما العدل الاَّ في ثواب لمحسنٍ
برى وعقابٍ للذي راح يجرمُ

وقد كان حكم الله المرء انه
يرى سعيه والله اعلى واعلمُ

وقال

هجم الضياءُ على الظلام بعسكرٍ
من فجره فغدا يجد رحيلا
واشابه خوفًا لذاك نجومه
هجرته طالبةً سواه خليلا

وقال

يا نعمةً ما حييتُ اذكرها
ومنةً للزمان اشكرها
جاء فلم يبقِ للفؤاد سوى
بقيةٍ للوفاء اذخرهـا
ومذ وفى استحكمت على نسقٍ
دوائر الانس وهو محورها

وقال وهي مما كتب في البحر عند العودة من باريس الى بيروت عام ٨٠
اثر الداء

غبنا وكانت اليك اوبتنا
يا وطنًا لم يغب عن الفكر
ما برحت نفسنا على ولهٍ
تغالب الشوق فيك بالصبرِ
يهدهـا اذ تكاد تهدمهُ
حتى بدت منهُ علة الصدرِ
فاحتملتنا اليك جاريةٌ
كأنها بالذي بنا تدري
يكاد ماء العباب يغرقها
وقلبهـا مثلنا على جمرِ
وتنبري كالسحاب نحسبها
نسري اليها الربى ولا نسري

كالارض تجري ونحن نبصرها ساكنةً كالعقول في مصرِ

(وفي هذا البيت اشار الى ارتباك الاحوال في مصر اذ ذاك لا الى عقول المصريين من حيث هي فقد كان رحمهُ الله من اشد خلق الله كلفًا بهم)

وقال

اصبرٌ وقد ذاب الفؤاد من الوجدِ
ونوم وعين الصبّ وقفٌ على السهد
وكيف اصطباري والغرام محاربي
بسيف الجوى والشوق في الهجر والصد
فيا زمن اللذات هل انت عائدٌ
ويا مالكي هل انت باقٍ على العهد
أأحبابنا لم يبقِ لي هجركم سوى
حشاشة قلب من هواكم على وقد
ألفت سقامي بعدكم فاذا نأى
اسفت وقد عوّضت بالغيّ من رشدي
فهل عندكم اني على العهد ثابتٌ
وهل عندكم من غصة الشوق ما عندي
وذا شرح حالي في الصبابة بعدكم
فبالله قولوا كيف حالكم بعدي
قنعت لما شاء الزمان بذكركم
ويا ليت هذا الذكر يغني من الوجد
وشحذت سيف الصبر والوجد قاتلي
فاصبحت شحاذًا واقبلت استجدي
وهمت بكم في القرب والبعد وحدكم
على انني ما همت في حبكم وحدي
وفي الحب ذو شأنٍ وفيهِ مقلدٌ
وشتان ما بين الثعالب والاسد

ولهُ رحمهُ الله من المواليات قولهُ

في طرفهِ يا لقومي تكمن الآجال
وان دنا او تثنى اورنا اوجال
حلت باهل الهوى من فتكهِ اوجال
يا ظبي واصل فقد اضنى الهوى جسدي
وارحم واعجل فخير البرّ في الاعجال

وقال

ما نلت في حبهِ من وصلهِ اوطار
ولست اعدل عنهُ ان عدا او طار
لاقيت من جفنهِ لما رنا اخطار
فجال من طرفهِ بالابيض الماضي
وصالَ من قده بالاسمر الخطار

وقال

ظبيٌ من الترك جافاني بلا تركِ
ذو ناظر ناظرًا الصمصام بالفتك
وقامةٍ جرحت قلبي بلا شكِ
ووجنة وردها قد عمّ فيها الخال
بدت فدان لها في الحب اهل الخال
واشغلت بالهوى مفتونه والخال
فكيف أستر فيها بالجوى هتكي

وقال

حلو اللمى مرّ بي مستملح الاعطاف
فقلت لما انثنى يا مفرد الالطاف
زمزم فحول مقام الراح قلبي طاف
فصدّ واستلّ لي من لحظهِ خنجر
والشي بالشيء في امثالنا يذكر
فقلت يا قدّه الطعان يا اسمر
أعد ضعيف الجوى من طرفهِ السياف

وقال لواقعة حال

قلت اسقني قال هاك الماء في العينِ
فقلت واصل فقال العين بالعين
فقلت والحب عندي راجح العينِ
مالي وروحي ايا روحي فدا عينك

خذ ما تروم فنادى هات من عينك
فقلت يحييك ربي قال من عينك
فقلت خذ واعطِ وصلاً قال من عيني

وقال من بحر السلسلة

في خدك خالٌ يسبي المتيم والخال
والخصر يسيلُ بين تيهك والخال
يا عاذل ذر عنك الملامة والخال
عوّذه وقل الله اكبر من خال
كم حبة قلب مغرمٍ قد سرقا
قدمتُ ظما وما لثغرك وردُ
بل متُّ جوىً وما لحسنك ندُّ
من طرفك نرجسٌ وخدك وردُ
ولذاك يفوح ان بدوت الندُّ
فانطق ليقال بدر تمّ ٍ نطقا

وقال مداعبًا احد الاصدقاء وقد التحى
وفيهِ تضمين المثل السائر

جرى الماء ماء الحسن في روض وجههِ
ليسقي نضير الورد في صفحة الخدِ
فنال مع الورد العذار نصيبهُ
كذلك يسقى الشوك في حجة الورد

وقال

قلت للماء وهو في ثغر حبي
منك ارجو لله يا ماء وردي
قال ان كنت ذا ضنىً هاك خدي
يا معنىً فماؤه ماء ورد

ومثلهُ

قلت للثغر قد ظمئت اشتياقًا
فاشفِ قلبي فمنك يا ماء وردي
قال ذي خمرة فان رمت وردًا
هاك خدي فماؤه ماء ورد

وقال في سفر مليحة لقبوها بام العيون

فطمت عيوننا من غير صبرٍ
فسال الدمع منها كالعيونِ
بكت كالطفل سارت عنه امٌّ
فما اقساك يا امّ العيون

موشح

غرّد البلبل في روض الحما
فوق بانٍ تحت جنح الغلسِ
عندما اقبل معسول اللما
يتثنى في رياض السندس

دور

بابي ظبيًا علينا شفقا معربًا عن مبسمٍ كالشفقِ
وانى نحوي فلما رمقـا لم يدع للصب غير الرمق
ذا جبينٍ كهلالٍ اشرقا فهدى بالنور اهل المشرق
ولحاظٍ كنبالٍ حيثما رشقت كانت نذير التعس
وخدود بعد سقياها الدما
غرست بالورد ابهى مغرس

دور

قم بنا ياصاحبي نحو الغدير
نغنم اللذة من قلب القدح
لذةٌ تهزم اشجان الضمير
فاطرح من لام فيها وقدح
ولنا ساقٍ اذا قام يدير
كأسهُ ابدت لنا قوس قزح
اغيدٌ لاح كبدرٍ بسما
ضاء فانشقّ فؤاد الحندسِ
قلتُ لما عن لآلٍ بسما
هوذا الثغر الشهيّ اللعس

دور

وعلى طرف البها لما استوى
رمت الاسياف ابطال المقل
يا خليلي كل من لام غوى
في هوى الاهيف من افنى الحيل
لا تسل عن شرح حالي في الهوى
في الهوى عن شرح حالي لا تسل
نصب الحسن لديه علما
حولهُ العشاق مثل الحرس
فارتدى بالعجب لما علما
انهُ سلطان تلك الانفس

ولهُ قطعة من موشحة مفقودة

رسول وجدي وانت قصدي
ان رحت تشدو في الحي ليلا
بلغ سلامًا لمن سلا من
روى الهوى عن مجنون ليلى

ولهُ قطعة من قصيدة

نزع المشوق لمربع الفيحاء
وصبا لروضة حسنهِ الغناء
وتمثل الريم النفور مغازلاً
بالانس فيهِ غزالة الاحياء
هيفاء قد عذر العذول محبها
لما بدت كالبدر في الظلماء
جلبت لنا بدقائق الاعطاف تحـ
ـت رقائق الاوصاف تحت قباء
كالورد بين شقائق النعمان تحـ
ـت سرادق النعمان تحت لواء
بيضاء اما خدها فمضرج
بلحاظ اهل العشق والرقباء
رفت لنا فتأثرت في خدها
وعلتهُ منهم حمرة استحياء
وبخدها في الحالتين نضارةٌ
تحكي شعاع الشمس فوق الماء

وقال وقد اقترحت بعضهنَّ عليهِ
ان يصفها وصديقة لها مرتجلاً

واذا الفريض اردت وصفكما بهِ
لم يدرِ ايكما بحسنٍ تفضلُ
ما فيكما عيبٌ يشين وانما
كلٌ باعين عاشقيهِ اجملُ

وقال واصفًا امواج البحر من ابيات كثيرة

تدحرجت الامواج تترى كأنها
جيوشٌ سعت للفتك والقائد الريحُ
تصادم ابطال الصخور وتنثني
مدمدمةً تشكو العنا وتصيحُ
تلوح اذا هاج الرغاء دروعها
لها خذقٌ بيضٌ تحاذرها الروحُ

وقال مخمسًا

هو الغرام وفيهِ الصبر قد فرضا
فكن لهُ غرضًا ان رمتهُ غرضا
وقل لمن سامني فيما مضى وقضى
للعاشقين باحكام الغرام رضى
فلا تكن يافتى بالعذل معترضا
ان مسني كل يوم في الهوى مضض
ونالني حرقٌ من دونهُ الرمض
أقل وليس لقلبي منهم عوضُ
روحي الفداء لاحبابي وان نقضوا
عهد المحب الذي للعهد ما نقضا
يامن يلوم بهم قد قلت الحيلُ
الغصن مثلهمُ من شأنهُ الميلُ

فان تكن جاهلاً للحب يا رجلُ
قف واسمع سيرة الصب الذي قتلوا
فراح في حبهم لم يبلغ الغرضا
روى لهُ الناسُ عنهم بعض ما سمعوا
فراح يسأل لقياهم فما منعوا
حتى اذا زاد في افكاره الطمعُ
رأى فحبٌّ فرام الوصل فامتنعوا
فسام صبرًا فاعيا نيله فقضى
وقال مشطرًا
قومٌ حفظت لهم عهدي فما حفظوا
ودّي وديناز حبي عنهم صرفوا
انجزت وعدي لهم لكنهم نكثوا
عهدي وما انصفوني مثلما انتصفوا
آنستهم نفروا اوفيتهم غدروا
سالمتهم اسروا ادنيتهم صرفوا
امّنتهم حذروا اوردتهم صدروا
قلت اعطفوا هجروا رمت اللقا انصرفوا
وقال من قصيدة
صادت فؤادي بلحظ نالهُ الكللُ
غزالةٌ في سواها يحرم الغزلُ
رنت غزالاً وماست بانةً وبدت
شمسًا بنور سناها تبهر المقلُ
يا قاطع البيد يطويها على عجلٍ
الى حماها لقصدٍ دونهُ الاجل
حاذر ففي الحيّ من ارامهِ نفرٌ
تحوي المنية منهم اعين نجل
وثمَّ ابطال حسنٍ من قبيلتهم
تخشى الاسود فتاهم قبل ينفصلُ
كالبدر ان سفروا والغصن ان خطروا
والظبي ان نفروا والليث ان حملوا

حملوا حمام فلو ارسلت من شغفي
مع النسيم كتاب الشوق لا يصلُ
وبي من الوجد داءٌ لا دواءَ لهُ
فليس ينفعني كتبٌ ولا رسلُ
وقال مؤرخًا لحكاية حال
لما تجدد عهد ودّك بيننـا
من بعد ما في الليل طلّقت السنة
اصبحت في تاريخه بك ناشدًا
عهد المحبة تمَّ في رأس السنة
سنة ١٨٧٥
وقال يرثي صديقه الفقيد الفاضل
منويل فيليبيذس
على القلب ماء العين ينهلُّ ساجمهُ
ومـا برحت نار المصاب تلازمه
تعزّيه احوال الزمان فيلتقي
جيوشًا من الاهوال منه تصادمه
يرى ان في الدنيا زحامًا فيرتجي
مكانًا بهِ لا يلتقي من يزاحمه
يرى حيوانًا يأكل النبت رابضًا
عليهِ ومنهُ النبت صارت مطاعمه
ويلفي نباتًا ناميـًا متغذيـًا
بجثة حيوانٍ مضى وهو لاقمه
وذاك هو الدور العجيب نظامهُ
وجودًا وحفظًا جلَّ من هو ناظمه
فما حَزَنُ الانسان الاَّ بحادثٍ
من الطبع قد لا يستطيع يقاومه
ومـا هو الاَّ الفةٌ مدنيـةٌ
وحبٌّ اجتماع كيف مال يلازمه
وما اجتمع الانسان الاَّ ليتقي
جموعًا من الوحش النفور تهاجمه

فكان عيالاً ثم صار قبائلاً
برد وحوشا في الفلاة تقاومه
وزاد ائتلافا صار فيه كواحد
فمنه له خير ومنه مآثمه
وعاش على حب الاخاء مرجيا
دواما لما لا يرتجي قط دائمه
وهي طويلة فقدت الا هذه الابيات

وقال

هو العلم حتى يدرك المرء غامضا
ولا يختشي فيما يقول معارضا
وما الشعر الا شاغل عن نواله
فهذا قريض بات العلم قارضا
نسوّد قرطاسا بوصف وصيغة
ونعلق ذا حسن ونعشق عارضا
وقد صرفت افكارنا نحو صرفنا
وفي النحو بات الوقت والذهن غائضا
فذا ناصب منا يخالف رافعا
وذا جازم منا يغاير خافضا
سفاسف اقوال تقادم عهدها
ولم تبد مستورا ولم تجل غامضا
ملأنا بها الاوراق وهي فوارغ
من النفع الا بارق مر وامضا
كما قبض الدينار في النوم حالم
واصبح لم يلق الذى كان قابضا
وقال ناظما هذه الاغلوطة السفسطائية
تركب الجسم سطوح وهي من
تألف الخطوط من غير شطط
والخط منها ركبته نقط
فالسطح اخطاط وهذي من نقط
وعندنا النقطة لا شكل لها
وهمية لا تدخل التعيين قط
كذلك الوهمي يبدي مثله
فالخط والسطح على هذا النمط
وهكذا جسومنا اضافة
موجودة في عالم الوهم فقط

وقال طيب الله ثراه

لزمت الصدود فاين الوعود
واين عهود الليالي الأول
وعقد اليمين لعقد اليمين
بحفظ الوداد ورفض البدل
حنثت واخلفت هذا وذاك
وملت وطبع الغصون الميل
وخلفت قلبي اسيفا عسيفا
قوي العناء ضعيف الامل
فان مت فيك فلست اقول
خذوا قودي من اسير الكلل
فحسب القتيل من العاشقين
بسهم الغرام رضا من قتل

وقال

يخاطبنا الزمان بلا لسان
ولا كذب لديه ولا مراء
يقول اذا الم بكم بلائي
فلا يبقى الوداد ولا الاخاء
وما الدنيا سوى اضغاث حلم
فان جادت وان بخلت سواء
دفعت عناءها باليأس حتى
تساوى البؤس عندي والهناء

وقال بعنوان

رثاء ورجاء

وهي قصيدةٌ طويلةٌ نظمها بعد حوادث عام ٨٢ في وصف تلك الحوادث ثم رفعها الى دولتلو شريف باشا معرضًا فيها بذكر بعض احوال خصوصية وقد اثبتناها في الجزء الخامس من تاريخ مصر للمصريين حاذفين فيه ما لا يلائم منها مقام التاريخ

عج بي على تلك الطلول وناد
انى تحمل اهل هذا النادي

هل صادم شرك الردى فأبادهم
صرفٌ اناخ على ثمود وعاد

ام غادروا الاوطار في اوطانهم
مذ حاذروا غدر الزمان العادي

وسل الرسوم وان عنت عنهم وما
فعلوا قبيل رحيلهم بفؤادي

خلفته في حبهم ميتًا فهل
احياهُ ام حياهُ اهل ودادي

ام حملوه رديف صبري والمنى
وتجلدي وتعللي ورقادي

ام غادروهُ رفيق وجدي والضنى
وتلهفي وتذللي وسهادي

يا وارد الاسكندرية طامعًا
بمنافع الاصدارِ والايرادِ

أقصورها خفيت عن الانظار ام
آثار لقصر في القفار بوادِ

ام تدمرٌ قد دمِّرت وعمورةٌ
ما عمرت ام دار ذي الاوتاد

هذه عروس الشرق ماتت فاكتسى
حزنًا عليها الغربُ ثوب حداد

بالامس كانت والبياض دثارها
واليوم صارت أرسماً بسواد

كانت ملاذ الخائفين فأصبحت
والخوف منها مبعد القصّادِ

كانت موارد للظماء وقد غدت
ما أن بها من موردٍ للصّادي

كانت مراتع نعمة فغدت وما
فيها سوى البأساء للمرتادِ

كانت وكان الدهر يسعد أهلها
فاصابها بالاهل والاسعادِ

كانت وكنا لا ينام حسودنا
صارت وصرنا راحة الحسادِ

كانت وما تخشى بوادر ضدّها
فغدت ترجّي رحمة الاضدادِ

قامت على اقوى العماد تزين ما
تحتَ التي رُفعت بغير عمادِ

فأبادها جهلٌ خفيٌ ما بدا
مثلٌ له من حاضرٍ او بادِ

جهلُ الذي رامَ الاماني وهي في
قمم الجبال وكان دون الوادي

وعدا وما لقيَ الثعالب عمرهُ
يبغي اقتحامَ عرائن الآسادِ

وسعى الى الشورى ولكن خالها
لما تهتّكَ برقع استبدادِ

وعلى المساواة ابتنى هدم المنا
لما تساوى حزبهُ بفسادِ

وقد ادّعى في عسفهِ حريّةً
يا من رأى حريّة استعبادِ

والى الاخاء دعا فنال بفعلهِ
من قومهِ ما لم ينله العادي

شقيت بزلتهِ الجموع وطالما
أشقت جموعًا زلة الافرادِ
وتلاهُ في سبل الغواية معشرٌ
زلوا وضلوا حيث ضلَّ الهادي
غرسوا الجناية في الجنون فما جنوا
ما جنوهُ غير شوك قتـادِ
وسعوا فسادًا في البلاد كأنهم
والحادثات أتوا على ميعادِ
خلعوا الشعار المستعار من الحيا
فتقمصوا عارًا الى الآبادِ
وتخيلوا أنَّ الطريق خلت لهم
فسعوا فكان العدل بالمرصادِ
فاتاهمُ رعدُ المـدافع مبرقًا
فنبوا عن الابراق والارعادِ
وسطوا على المستأمنين خيانةً
لم تشف منهم غلة الاحقادِ
ورموا بنارهم الديار وبددوا
ما استجمعت من طارف وتلادِ
نكرٌ عرفنا منهُ ان لبغضهم
بزَّ اللصوص وبزّة الاجناد
ونقيصةٌ يسعى بها ابناؤهم
لمقابر الآباء والاجدادِ
أسفًا على تلك القصور فانها
كانت منى الورّاد والروّاد
أسفًا على من قادهُ استئمانهُ
للفاتكين ولم يجد من فادِ
أسفًا على قومٍ أتاهم فجأةً
صوت المنادي بالبلاء ينادي
فتسارعوا طلب النجاة من الردى
بنفوسهم والاهل والاولادِ

يا هولها من ساعةٍ مرت بها
زهقت بهِ الارواح م الاجسادِ
كم حامل خرجت بها محمولة
فوق الكواهل او على الاعواد
ومصونةٍ نُفسا تقولُ لصحبها
يا ليتني قد متُّ قبل ولادي
لطخت باثار الولاد وما درت
جسدًا تضمخ قبلهُ بجساد
ومبأباء يدميهِ لمس حريرهِ
طفل قريب العهد بالميلادِ
ومعمَّرٍ لم يبقَ في الدنيا لهُ
غير السكينة من منىً ومرادِ
ومريض قومٍ غاب عنهُ طبيبهُ
وجفاه أُنس الاهل والعوادِ
خرجوا وهم لا يهتدون سبيلهم
والنائباتُ روائحٌ وغوادِ
ودموعهم والنار في احشائهم
حلَّت محل مزادهم والزادِ
فكأنهم ابلٌ بدوٍّ نالها
ألمُ السغوب وحاد عنها الحادي
تعلو وتهبطُ جانحاتٍ لا ترى
من بلغةٍ في النجد ووهادِ
او انهم قصدوا الصبوح فجاءهم
في فجأةٍ منهم طريد طراد
شهدَ الوبال ولم يجد من منجدٍ
فأغذَّ في الاتهام والانجاد
فتفرقوا والهول ملء قلوبهم
يقتادهم زمرًا بغير قياد
او أنهم اهل القبور تيقظوا
سحرًا بنفخ الصور بعد رقاد

نشروا عراةً واجفين فيومهم
يوم المعاد أتى بلا ميعاد
والنار موقدةٌ سرت من خلفهم
فكأنها حيات بطن الوادي
والجند شردهم قتال عدوهم
فرقًا فلم يتجلدوا للجلاد
ونضوا على اهل السبيل بواترًا
في الحرب ما نضيت من الاغماد
قد حدّدت شفراتها لكنها
كانت على الاعداء غير حداد
ولربَّ عادٍ منهم في رعدة
ما أن تلمّ بصائد الرّعادِ
سكنت فرائصهُ على نهب الحمى
من قبل تسكنَ رعدة الصياد
ومرأسٍ حث الجواد وخلفه
ما حباه النهب حمل جواد
عدمَ الرّباط فشدّهُ بنجاده
واتى معسكرهُ بغير نجاد
فهم اللصوصُ وان همُ قد اوهموا
أن ليس ما ارتكبوهُ غير جهاد
وبلادهم قد نالها من عارهم
ما لم يحق في عهدنا ببلاد
عيبت فلولا السابقون ومجدهم
وبقاه من ولدوا من الامجادِ
ونؤيدٌ ملكٌ اميرٌ عادلٌ
أربى بمفرده على الاعداد
وعصابةٌ كانت قلائد فضلهم
أبهى من الاطواق في الاجياد
لم تلقَ في مصرٍ ومصرُ عزيزةٌ
من قائل هذه البلاد بلادي

اما وقد وليَ الشريف أُمورها
فلها بحول الله خير معاد
مولىً لهُ في النفع رغبة طامعٍ
وعن المضرّة عفةُ الزهاد
وهو الذي يخبأ ليوم كريهة
وسداد ثغرٍ من طريق سداد
واذا بدا في ليل خطبٍ رأيهُ
أزرى بنور الكوكب الوقاد
يا حائز المجد الرفيع وجامع ا
لفضل الصديع وواحد الآحاد
يا جالب النعم العظام ودافع ا
لنقم الجسام وموئل القصادِ
حاشاك أن تبقى على اغلوطةٍ
يسعى اليك بزورها حسادي
فلانت من دون البرية موئلي
ولأنت من دون الأنام عتادي
ما خلت انك قاطعي بسعاية
للكاذبين ضعيفة الاسناد
حتى رأيتك معرضًا متغاضيًا
عني وانت ذخيرتي وعمادي
أقدحت للساعين في زنادهم
فاستأسدوا ورجوا خبوَّ زنادي
فاذا رأوني في جنابك أصلدوا
وامنت فيهِ خجلة الاصلاد
بيضت بالنعماء ايامي وما
حالت فاصبغ عرفها بسواد
وبلوتني فرأيت مني صادقًا
ما شاب ورد صلاحه بفساد
وحميتني والنائبات ملمةٌ
ونصرت ضعفي والزمان معاد

وظهرت فيك بكل مدح صادق
صرف وما جمري كمين رماد
لا تقبل الحسنات سحنًا همتي
وسواي يأكلهن اكل جراد
وقد اعتذرت وما وراء تنصلي
في القلب غير امانة ووداد
فاذا صفوت فذاك غاية مقصدي
واذا رضيت فذاك كل مرادي
يا صبح كل مؤمل يانجح كل (م)
توسل يا مورد الامداد
لولاك ما احييت ليلي ضاربًا
في الشعر بالاسباب والاوتاد
وصنًا لما يجرب الدموع اقله
ويقل فيه تفتت الاكباد
فلقد هجرت الشعر لما ان رمى
ضعف السليقة سوقه بكساد
واستامه من ليس يفرق بين ما
يفنى وما يبقى على الانشاد
لكن رأيتك يانصيري جامعًا
نقد البصير ودقة النقاد
فنظمته نظم الفرائد مثلما
نظمت لديك قلائد الاوفاد
ورأيت حسادي عليك قد افتروا
في جانبي ما لم يكن من عادي
زعموا بان سر برتي قد كدرت
فلمن يصافي بالجميل تصادي
فبعثت صافي الشعر يثبت صفوها
ولو استطعت جعلت فيه فؤادي

مختارات أقواله من جريدة مصر التي انشأها في المحروسة عام ١٨٧٧

ثم نقلت ادارتها الى الاسكندرية

كتب، رحمه الله، اثناء الحرب التي شبت نارها بين العثمانيين والروس فقال بعنوان

الملك والرعية

الملك اما استبدادي او شوروي والشورى اما جمهورية او ملكية وهذه مراتب الملك منذ كان القانون ووجب حفظه وخرج عن هذه المراتب الحكومة الفوضى ان صحت تسمية الفوضى بحكومة

وما كل ملك بملائم لكل قطر وما كل قطر بصالح لكل ملك فالجمهورية لا تصلح للصين كما لا تصلح الملكية الاستبدادية لانكلترة فان تلك وهي حكومة الشعب بالشعب لا يحسن ان تكون في قوم تولاهم الجهل وهذه وهي حكومة الشعب بواحد منه لا يصلح ان تكون في قوم بلغوا من التمدن والمعرفة غاية نبيلة وان كانت فلا تلبث ان تنقلب شرّ منقلب كما جرى لحكومة لويس السادس عشر وشارل العاشر ونابوليون الثالث في فرنسا فان حكومات هولاء الملوك وان وسمت بالشوروية ظاهرًا فقد كانت استبدادية باطنًا وذلك مادعا الى نقضها وثل عروشها

ومعلوم ان مصلحة الملك متعلقة بمصلحة المملكة فلا بد للملك الحريص على مصلحة نفسه ان يحرص على مصلحة بلاده لان عمرانها يقضي برفعة شأنه وتوطيد ملكه والعكس بالعكس وعمران البلاد ينشأ عن حسن قانونها والعدل في انفاذه وهذا وذاك متعلقان بالحكومة فهي التي اذا أرادت عمران بلادها جعلت لها قانونًا

يلائمها واقامت على انفاذه قومًا لا تأخذهم في الحق لومة لائم ومن الحكومات من تراخي ذلك فتجريه ايثارًا لمصلحة بلادها وحرصًا عليها ومنها من تمتنع عنه فتكره عليه ومثال هذه حكومة انكلتره وفرنسا واسبانيا ومثال تلك حكومة الدولة العلية والحكومة الخديوية فانهما ايدهما الله قد جعلتا حكومتيهما شوروية ولا حامل لهما على ذلك الا الرغبة في عمران البلاد واحياء العباد شأن الحكومة الحكيمة من قبلهما ومن بعدهما وليس الشورى في الحكومة او الحكومة بالشورى بدعة جديدة فان شواهد النقل مؤيدة بدلائل العقل تثبت قدمها فمن ذلك التواريخ على علاتها وقوانين الامم على اختلاف عاداتهم ومشاربهم وكتب الشرائع واقوال الشارعين العظام وفي (وشاوروهم بالامر) نعم الدليل

ولقد عرف الناس الان شرور الاستبداد وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضى به وصار الامر شورى عند جميع الدول المتمدنة الا الروسية وذلك ان صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقًا بدولة متمدنة

ولم يكف الروسية بقاؤها مستبدة على حين تحوّل سائر الدول الى الشورى حتى كانت سببًا في توقيف غيرها عن ذلك القصد النبيل فانها قد منعت الدولة العثمانية حينًا عن انجاز ما شرعت فيه من اصلاح داخليتها وتنظيم شوراها بهذه الحرب العنيفة التي دعا اليها الغرور على ان الدولة العثمانية لم تكن ليمنعها من ذلك مانع فانها لم تهمل ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها ولم تغفل عنه ساعة مع انهماكها في نازلتها المهمة وحسبنا على ذلك دليلاً ما رأيناه في مخاطبة مولانا السلطان الاعظم للعساكر المحافظة التي عرضت عليه حيث قال (لقد ملأ قلبي سرورًا ما رأيته من اهتمامكم وانتظامكم وارجو ان يكون لكم مثل ذلك بعد الحرب حين اجراء الاصلاح) واصرح من هذا ما حكاه مكاتب (الدالي تلغراف) حظي بمقابلة مولانا حفظه الله فلاطفه بكلام شف عن حسن النية ودل على نبالة القصد وقد رأينا ان نعرب كلام هذا المكاتب مشرفين هذه المقالة بتعريب ذلك النطق اثره قال المكاتب ما مفاده

تمكنت من اجتياز خطوط الروس الى صوفيا ومنها قصدت الاستانة فبلغتها واستأذنت في الدخول على السلطان الاعظم فاذن لي فرفعت اليه ما عاينته من شجاعة العساكر العثمانية ورئيسهم في بلفنا فسر بذلك وآنسني كثيرًا ولاطفني بالمحادثة ثلاث ساعات متواليات فاذهلني ما رأيته من الدعة في سلطان امة عظيمة متصرفة وادهشني قوله كلما ادى الكلام الى ذكر الانتصار ما النصر الا من عند الله وما توفيقي الا بالله وقد خلا كلامه بجملته عن كل ما يشف عن الكبرياء او ما يدل على الحقد واني ناقل منه ما يأتي . قال مولانا . جاءني اللورد سالسبوري قبل الحرب بلائحة تتضمن صنوف الاهوال التي تتعرض لها الدولة العثمانية برفضها قرار المؤتمر فاجبته الك يا عزيزي لم تجعل لله مقامًا في لائحتك ولم تفتكر في انتقامه للعثمانيين على حين بؤسهم ولقد كان لساني حينئذٍ يترجم عن قلبي فاني كنت على يقين من حسن ظني بالله وتوكلي عليه

وقد جاءت الحوادث بما اثبت لي الاصابة

على اني مع التوكل على الله كثير العناية بامري شديد الاهتمام به ولا اغفل عنهُ ساعة

واوّل ما في نيتي اجراؤه بعد ابرام الصلح تنظيم المالية لوفاء الدين واصلاح حال الزراعة وغيرها من اسباب العمران وغاية ما ارجوه ان ارى حكومة الدولة العثمانية حكيمة شورية والله اسأل ان يؤهلني لصنع الخير في قومي ويجمع على محبتي قلوبهم ويعينني على ان اقيم في بلادي بعد هذه الحرب الظلمية حكومة جيدة تضمن لها مستقبلاً حسنًا

فكيف لا تجتمع قلوب الرعية على ولائهِ ولا ينتظمون تحت لوائهِ وهو يعدهم بما لم تعدهم بهِ الاماني من جعل حكومتهم شوروية حكيمة لا تأخذ بالوجوه وتصرف عنايتها الى اصلاح شأنهم باستخراج المعادن من ارضهم المهملة وصيانة اراضيهم الصالحة للازدراع من افساد المعتدين وجلب الصناعات ونشر العلوم وكيف لا تحب سلطانها امة كالعثمانيين رأت في الكثير من سلاطينها المتقدمين كبرا وانفرادا حين ترى فيهِ من الدعة ولين الجانب ما ادهش الاوربيين فضلاً عن الشرقيين ودعاهم الى الثناء عليهِ

فهذه الصفات مضمومة الى ما تقدم ذكره من حسن النية ونبالة القصد ايدت ثقة الامة بسلطانها وجدّدت قديم همتها وسابق فتوتها واحيت في قلوبها حب الوطن بعد موته فبادرت الى بذل النفوس وكل نفيس لتدرأ عنهُ من رامه بشرّ ولقد وهم من حسب هذه الغيرة محض تعصب للدين فان العثمانيين جميعًا على اختلاف مذاهبهم ومراتبهم قد جادوا بالارواح والاموال للدفاع عن وطنهم ولو صح ما قيل من انهم فعلوا ذلك تعصبًا للدين وحده لما قام بهِ غير فئة منهم فان قيل ان الجائدين بالارواح مكرهون على ذلك بالقرعة العسكرية والجائدين بالاموال مكرهون عليهِ بالفرض المحتوم قلنا فاين المتطوّعة الذين تسارعوا الى الانتظام تحت اللواء العثماني قادمين من جهات شتى واين الاعلانات المرسلة من كل ناحية ليستعان بها على نفقات الحرب بل اين جمعية الصليب الاحمر في ضمن الهلال الاحمر التي انشئت في ازمير لجمع المتطوّعة والاعانات فجمع فيها من اولئك عدد غفير ومن هذه شيء كثير بل اين متطوعة الارمن والروم وغيرهم من العثمانيين أكان تطوّعهم في الجندية العثمانية تعصبًا للدين ام اكرهوا عليهِ لعمري انهم لم يكرهوا وما كانوا بمتعصبين وانما هي غيرة وطنية تجددت فيهم بما رأوه من حسن مقاصد حكومتهم على اننا لا ننكر ما هاجته هذه الحرب من عواصف التعصب في افكار بعض الناس ولا سيما الجاهلين غير ان جاهلنا قد تعوّد الانقياد للعاقل بخلاف جاهل بعض الاجيال فانهُ مع جهله شديد التمسك برأيه ولذلك لا يتعذر على العاقلين منا ان يزيلوا آثار التعصب من افكار الجاهلين فنكون جميعًا امة واحدة لا تتعصب الا لوطنها ولا تطلب الا صيانته وتنقش على صفحات قلوبها (فليحيَ الامة) (فليحيَ الوطن)

وكتب رحمه الله في الحرب
وجرحاها واعانتهم فقال

الحرب

عرف الانسان مضار الحرب ولم يجتنبها فهل تلك طبيعة وجدت في كيانه الحيواني ام عادة

تمكنت فيهِ بالاستمرار فصارت ملكة يتعذر التخلص منها وهي مسألة تؤدي الى النظر في هل طُبع على الخير او الشر او كان من عجائبهِ ان اجتمع فيهِ النقيضان

يجني على نفسهِ الحرب وهي بلية حتى اذا بلغت منهُ مبلغها بادر الى تخفيف مضارها فمنهُ الداء والدواء والسم والدرياق وهو بالجملة ابو العجب أَما تراهُ قد فتح في القرن التاسع عشر سوق حرب راجت فيها النفوس ولم يكن سببها السباق ولا البسوس وانما هي ثمرة الهوى ونتيجة الغرور فلما انشبت فيهِ اظفارها واضرمت في حماه نارها طلب الماء لاطفاء اللهيب فهو الهادم والباني والزارع والجاني

يحمل على ابن نوعه مقاتلاً ثم يدعو الى اعانته فهو يجلب الداء ويطلب الدواء ويجرح باليمين ويضمد باليسار او ما تراه في جنوبي البلقان وفي اسيا الصغرى مضرمًا نيران البلاء وفي سائر الارض طالبًا اخمادها

فلو رأيته وهو في ساحة القتال يطلب قرنًا يصاولهُ وخصمًا يطاولهُ وفارسًا ينازلهُ وبطلاً يقاتلهُ لانكرته وهو في ديار السلم يطلب ذا مروءة يساعد من جرحه وينهض من طرحه فهو في الجهة ينادي الانسانية الانسانية وما اداراك ما هيه صفة نقوم بمن ضعف فيهِ الميل الحيواني فقوي الميل الانساني وهو الترفع عن الحاجات الحيوانية الى المطالب العقلية وتجريد النفس عن دنئ شهواتها لرفعها الى سامي غاياتها وفي جهة ينادي الحرب الحرب وما ادراك ما الحرب هي باعث الهول والكرب اولها شكوى واوسطها نجوى واخرها بلوى او هي كما قيل فيها

الحرب اوّل ما تكون فتيةً
نسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا حميت وشب شرارها
عادت عجوزًا غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت
مكروهة للشم والتقبيل

جرحى الحرب

في معترك اومضت فيهِ بروق المرهفات ولعلعت رعود المدافع فتلتها غيوث الكرات وسكرت السيوف بخمر من الدم فعربدت في الرؤوس وعقد العثير لملك الموت سرادق مطنبة بالقنا والخيل ساغبة تقبل ثقالاً وتعود خفافًا وكأنها وقد اعياها الفارس حنًا قد غضبت على الانسان فداست هامهُ انتقامًا وقد استحيت الشمس من خشونة الانسان فاحتجبت بحجاب الضباب وتململت الارض من اعماله فزلزلت زلزالها وكادت تخرج اثقالها فارتعد الرعديد وثبت الصنديد ونادى منادي الحرب من فر من الموت في الموت وقع ومن كان ينوي اهله فلا رجع . طريح على الارض جريح ذو كبد حرّى يستجير باحدى يديه وفوق الكبد الاخرى يذكر خاطبة او حليلة المه فراقها مع أَمل الرجوع فما الظن بهِ وقد اختفى نور ذلك الامل ووالدة تأَلمت بهِ جنينًا وارضعتهُ طفلاً وربتهُ يافعًا وسهرت عليهِ حالمًا ووالدًا واساه في كآبته وسلاه في حزنه وتوجع له في مصابه ثم تجلي لهُ الدنيا بزخرفها وزينتها فيرى مرير عذابها حلوًا وكدر مشاربها صفوًا فهذا هو الانسان الجريح بسلاح الانسان المطلوبة مساعدته من الانسان

اعانة الجرحى

من يسير ما تنفقهُ على الملاذ في المطاعم والمشارب ومن قليل ما تصرفه في اقتناء الملابس الفاخرة جد على ابن جنسك الساقط في ساحة البلاء حيث ينكر الاخ اخاه والابن اباه ايها المعطر اردانه المفاخر اخوانه المعجب بلباسه الجائر على ناسه الراكب العربة يقودها زوج من الخيل العتاق الساكن القصر المشيد اللابس الحرير الآكل الفالوذج الشارب انواع الراح ومن قليل ما تنفقين على باطل الزينة وزائل التحسين ونزر ما تبذلين في اقتناء الحلى والحلل ايتها المفاخرة بزينتها المنافسة في حلتها جودي لجريح يحارب عنك ويحمي حماك وابسطي يدك البيضاء بالعطية البيضاء واحسني وانت حسناء فخير الحسن ما كان مع الاحسان وخير الاحسان ما كان في اعانة الانسان

ولهُ في

الامة والوطن

الامة الجيل من كل حي ومن الرجل قومه وفي عرف اهل السياسة الجماعة المتجنسة جنسًا واحدًا الخاضعة لقانون واحد وليس المراد بوحدة الجنس التوفيق بين الانساب لتعذر ذلك في كثير منها ولما طرأ على انساب الناس ولا سيما الحضر من المفاسد الكثيرة ناشئة عن تخالط الاقوام مختلفة انسابهم وتوالي الحروب والغارات وتوطن بعض الفاتحين فتوحهم وتزوجهم في اهلها الى غير ذلك مما جهلت بهِ الانساب وخفيت بهِ الاحساب الا ما حفظ بمناعة اهلهِ عن ان يدانيهم فاتح غريب وهو قليل لا يقاس عليهِ وانما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاء الى جنس واحد يتوالدون فيهِ ويتسمون بهِ كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة الاميركية سواء كانوا انكليزًا او فرنسويين او اسبانيين او اميركانيين اصلاً والعثماني لسكان البلاد العثمانية في اوربا وآسيا سواء كانوا تركًا او عربًا او تترًا اصلاً والاوستري لسكان سلطنة اوستريا سواء كانوا المانًا او صقالبة او ايطاليين اصلاً وهلم جرًّا

وقد زعم بعض الناس ان من لوازم وحدة الامة وحدة لغتها وهو وهم لانهُ اما ان يراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس اولاً فان كان الاول فهو فاسد لانهُ قد يلد الانسان بين قوم وينبت فيهم فيتكلم بلغتهم وهو بعيد عنهم نسبًا ولان ما ذكرنا من تخالط الاقوام واغتراب الفاتحين قد احدث في لغات كثير من جماعات الناس فسادًا بحيث صارت مزيجًا يعجز ابرع الكيماويين عن تحليله كما في لغة اهل مالطة مثلاً فامتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس وان كان الثاني فهو من قبيل ايجاب ما ليس بواجب ولو اقتصر اهل هذا الرأي على استحسان وحدة اللغة في الامة لاحسنوا

فقد ثبت بما ذكر ان الامة هي الجماعة من الناس تتجنس جنسًا واحدًا اي تتسم بسمة واحدة على اختلاف اصولها ولغاتها وتتعارف باسم تنتسب اليهِ وتدافع عنه

اما الوطن فهو المسكن يقيم بهِ الانسان وفي عرفهم البلاد يتوطنها سواد الامة الاعظم ويتوالدون فيها ولا يشترط فيهِ مساحة معلومة

بدرجات معينة او اقليم واحد بتخوم معروفة وانما نعريفه ما ذكر من نوطن معظم الامة بهِ وقد يضاف الى الوطن بلاد لم تكن منهُ وهي اما ان تكون فتوحاً ضمت اليهِ عنوة واما أن تنضم اليهِ برضا اهلها فان كان الاول فاما ان يكون ضمها قديم العهد وتكون معاملة حكومة الوطن لها معاملتها لسائر اهلهِ فتثبت الملكية واما ان لا تكون هذه ولا ذاك فلا تثبت وان كان فلا مشاحة في صحة الانضام

وقد اختلف في سبب حب الوطن فقيل ان السبب فيهِ الالفة فان الانسان اذا الف شيئاً احبهُ واجيب بأنهُ قد يخرج الانسان من وطنهِ صغيراً فينبت في آخر ولا ينسى مع ذلك حب وطنهِ وقيل ان حب السكان يورث حب المكان كما قيل

وما حب الديار يهيج وجدي
ولكن حب من سكن الديارا

واجيب بانهُ قد ينتقل الانسان عن وطنهِ بمعظم اهله واصدقائهِ ولا ينفك موثراً وطنه بالحب وعندنا ان ياء الاضافة في قولي وطني هي السبب في حبي لوطني كما ان ياء النسبة في قولنا فرنسوي هي السبب في حب الفرنسوي لامتهِ فتأمله . فلله من ياءين ياء نسبة وياء اضافة يدعوان الى فضيلتين حب الامة وحب الوطن

ولقائل انك قد جعلت مصدر حب الوطن والامة الانانية (حب الذات) وهي نقيصة فكيف صح في قياسك صدور الفضيلة عن نقيضها وجوابهُ ان الفضيلة هي الدرجة الرفيعة في الفضل والفضل ضد النقص اما الانانية فهي نسبة لضمير المتكلم على غير قياس وفي عرفهم ايثار الانسان نفسه بما يراه خيراً سواء جنى بذلك على غيره خيراً ام شراً وليس في حب الوطن او الامة شيء من ذلك كما ترى

اما وجه كونهما فضيلة اي درجة رفيعة في الفضل فهو لانهما يقضيان على صاحبهما بخدمة الارض التي يغتذي بخيراتها والانسانية التي جعلتهُ في جماعة من نوعه يعينونه على استحصال حاجاته ويدفعون عنهُ اذى سائر الانواع ولعلك لا ترضى بهذا تعليلاً فنقول ان خدمة الانسانية والارض لا ينبغي ان تحصر في جماعة من الانسان اوفي جهة من الارض وانما يجب ان تكون عامة فيهما والجواب انهُ لما رأى الانسان من نفسهِ عجزاً عن القيام بجميع حاجاتهِ الطبيعية ودفع اذى سائر الحيوان تألف جماعة تفرقت فيها تلك الحاجات فصار هذا زارعاً وهذا حاصداً وذاك طاحناً وذاك عاجناً والاخر خابزاً وهلم جرًّا وكل منهم في شأنه ساع فلما كبرت هذه الجماعة عن ان يسعها قسم واحد من الارض تفرقت فيها فصارت جماعات منفصل بعضها عن عن بعض حساً مع تواصلها بالنوعية واقبلت كل جماعة منها على الاشتغال في الارض التي اختارتها مقاماً استحصالاً لحاجاتها واخذ كل من اهلها في الاشتغال بما ارتضاه لنفسه من الصناعات ليعين بمصنوعه رفيقه مستعيناً بما يصنعهُ ذلك الرفيق ولو حاول الانسان الاشتغال في جميع الارضين بجميع المهن والمشاغل لفني عمره ولم يأت بفائدة تامة بخلاف ما اذا اقتصر على الاشتغال بهمتهِ في جماعته اذ تتيسر لهُ اسباب الاعانة والاستعانة فتحصل الفائدة التامة في

الجماعة وينتهي ذلك الى حصولها في النوع لما بين الجماعات من علاقات الانسانية وهذا وجه الفضيلة في حب الامة وحب الوطن فليرسمن اسمها على صفحات كل قلب وليلهجن بذكرها لسان كل انسان فانما المرء باصغريه القلب واللسان

ولهُ في

حركة الافكار

اری خلل الرماد وميض نارٍ
ويوشك ان يكون لها ضرامُ

بل هي شعلة اصلاح كانت في كمون الدهر في عالم الضياء والنور فساقتها يد الحكمة بمعدات الحركة الى عالم الظهور وسرت في اوربا من جانب الغرب الاقصى وكمنت في ما وراء المانش اياماً واعواماً متنقلة من صورة الى صورة ومن كيفية الى كيفية حتى اعدت لها طريق البروز فظهر ضرامها بعد الخفاء وانبعثت منها جراثيم الضياء فغيرت هيئة الارض وحالة الناس وطهّرت ذلك الجانب من الارجاس: تلك ثورة الفرنسيس: برزت الى عالم الفعل عام ١٧٠٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ودفعت سطوة التقليد فضعضعتها ورفعت عن العيون نقابها وعن النفوس حجابها فآنست من جانبها نور الحرية وخلعت جلابيب الرق والعبودية واجتمعت على ولائها وتألبت تحت لوائها لتدفع عنها من رام اطفاء نورها وافساد امورها فتصدى لها اعوان الرق وانصار العبودية وما آلوا في قتالها جهداً فلقيتهم وهي ترى الموت في الحرية حياة والحياة في الرق موتاً فلم يبلغوا منها قصدا ورسخت في عالم الوجود قدمها وكثر الملأ من حولها وادهشت الدنيا بشدة حولها ثم مرّت عليها الشهور والاحوال وتقلبت الامور والاحوال ورأى العدو منها غفلة فدهم واغتنم من الزمان فرصة فهجم وغلب امره وتأيد واستقام ملكه وتوطد الى ان ساقته يد القدرة الى التهور في ما جرّ اليه واليها البلاء الاليم فتسنى لها ان تدفع عنها شرّه ورب شرّ يجيء بالخير العظيم ثم عادت الى سابق عزها والعود احمد فانفتحت في بلادها؛ نعني فرنسا: كنوز الثروة وتوفرت اسباب القوة والسطوة وصفت موارد السعادة والهناء وانتفت اسباب المتاعب والشقاء وهي الان على ما نرى من العز والمناعة والتقدم في الزراعة والتجارة والصناعة ثم سرت تلك الشعلة من الجانب الغربي الى الشمالي وهي فيه كامنة تحت رماد الاستعداد وانّا

نری خلل الرماد وميض نارٍ
ويوشك ان يكون له ضرامُ

فان النهلست في الروسية والسوسيا لست في المانيا طائفتان قد استفحل امرها وعظم شأنها وحسبك ان فتاة من النهلست يقال لها «ساسوالتش» قد تجاسرت وهي في ارض السلطة تحت سماء السطوة ان ترمي والي الشرطة بالرصاص عمداً وانهُ قام لها بين قومها نصراء ومحامون وشفعاء ومدافعون وان فتىً من الطائفة الثانية يسمى «لهمان» قد تجراء وهو في ارض القوة تحت سماء العظمة ان يرمي الملك الفاتح الكبير بالرصاص ثلاثاً وان هاته الطائفة قد اصابت من الفوز والسطوة والتقدم والقوة ما اوقع في قلب الدولة هيبتها وحملها على الامر باستئصال شافتها وتعطيل جرائدها واعنات الداعين اليها والقائمين بامرها ولا لوم عليها في ذلك

فان تلك الشعلة قد سرت نارها وارتفع منارها وصار لها من الخاصة نصراء وفي الدولة ظهراء غير انها لن تستطيع اخماد تلك النار وان منعنها من السير حينًا ما فان الاسباب اذا اعدتها الحركة اللانهائية وتسنت لها المسببات القابلة حصل الوجود وجوبًا

ثم ذكرت تلك الشعلة وطنها القديم فحنت اليهِ ولا غرو ان يحن الغريب الى وطنه « نعني الشرق » مقر جراثيم الحركات الدينية والسياسية التي غيرت هيئة الارض واحوال الانسان فسرت اليهِ تنبه غافلة وتنقه جاهلة وظهرت في بلاد «اهورا مازدا» بين ابناء « زرودشت» تحت سماء التقاليد «نريد بلاد الفرس» فان مذهب البابيين نسبة الى السيد علي محمد الملقب « باب المهدي » قد ظهر في تلك البلاد من مدة تقرب من ثلاثين سنة وعلق بقلوب الناس فتمذهب بهِ جمع كثير منهم واثاروا الفتنة على الحكومة وابرزوا من الجسارة والاقدام ما لم يسمع بمثلهِ و بعد مقتل امامهم رمى بعضهم الشاه بالرصاص ولم يصب وقد كان من اعمالهم الاخيرة ان جماعة منهم تشبهوا بالجند وقصدوا الشاه وهو سائر الى مدفن شاه زاده عبد العظيم للزيارة ثالث افريل (نيسان) سنة ٧٨ وقالوا لهُ انا من جندك وقد طال علينا زمن الخدمة ونروم الانصراف الى منازلنا فوعدهم ان ينظر في امرهم بعد الرجوع الى القصر ثم انهم هجموا على عربته ورموه بالحجارة الكبيرة وجرحوا جماعة من رجال حرسه وكان على مقربة من مكان الحادثة طائفة من الجند فطير الشاه اليهم الخبر فجاءوا مسرعين وقبضوا على جماعة من اهل الفتنة وعلم الشاه انهم من البابيين . هذا ملخص تلك الحادثة وسنورد تفصيلها في غير هذا المقام مع بيان حال تلك الطائفة ومذهبها وكيفية سيره وتقدمه وانقسام امامته بين يحيي صبح ازل واخيه البهاء المقيم الان بعكاء منفيًا مستمدين جميع ذلك من بحر معارف استاذنا الكبير الفيلسوف الشهير درّة تاج الحكماء وواسطة عقد العلماء الفضلاء السيد جمال الدين الافغاني نزيل المحروسة

وما افضنا في الكلام على آثار تلك الحركات الفكرية التي سرت من اوربا من جانب غربها الاقصى الا لاننا نحسب الحركة التي ظهرت اخيرًا في الاستانة حلقة من سلسلتها وهي الحركة التي ظهر اثرها الاول في عزل محمود نديم باشا اثر فتنة البلغار وخلع السلطان عبد العزيز وتنصيب السلطان مراد وقد كثر عدد الداعين اليها في الاستانة واجتهدت الدولة في خفض منارها واخماد نارها بابعاد زعمائها ونفي رؤسائها مع كثرة الشواغل وتواتر النوازل وقد جاءنا بالتلغراف واردًا من الاستانة بتاريخ ٢١ مايو سنة ٧٨ ان جماعة من العامة قد هجموا على سراي جراغان مقرّ حضرة السلطان السابق فحاول رجال الحرس صدهم واعياهم ذلك فاطلقوا عليهم الرصاص وقتلوا منهم نفرًا وجرحوا طائفة فاوجسنا من ذلك الخبر شرًا وخفنا ان يكون نتيجة ما سبق من المقدمات في عهد ساكن الجنة عبد العزيز ثم جاءنا في غد ذلك اليوم بيان ازال ذلك الخوف وابعد الايجاس وهو ان الذين هجموا على السراي كانوا من المهاجرين فترددنا بين تصديق الاول والثاني ورجحنا جانب الثاني

بدليل ما جاء بعده من ان جماعة من اولئك المهاجرين قد ساروا الى الباب العالي يطلبون الاعانة وحملنا فتنتهم على الحاجة والفاقة . ثم ما لبثنا ان جاءنا بالتلغراف ما افسد الظن واعاد الايجاس من ان علي سعاوي افندي احد زعماء تركية الجديدة كان في مقدمة الهاجمين على السراي وان رجال الحرس قد قتلوه فايقنا ان هذه الفتنة هي من آثار تلك الحركة المتعلقة بسلسلة الحركات الفكرية التي ستغير لا محال عاجلاً او آجلاً هيئة الكرة الارضية ونظام الجمعية الانسانية

ولهُ في الكلام على سنة «مصر» الاولى

سـنة مصر

تنطلق الايام تباعًا وتسير الاعوام قطارًا ونحن بين وداع ولقاء وكدر وصفاء وهذه جريدتنا بين عامها الاول تودعه وهي تقول (يا راحلاً عني رحلت مكرما) وعامها الثاني تلقاه وهي تنشد (يا نازلاً عندي نزلت معظما) وفي صفحتها ما رسم الاول «العدل لا يكون للحقيقة ضدًّا» وما نقش الثاني «الفكر لا يكون للرغيبة عبدًا»

وقد كان لها في عامها الاول حركة سير بينة لغاية معينة أدّت بها حق الخدمة وفرضها وقضت الواجبات او بعضها فانتقلت الى ثغر الاسكندرية تنشد بها ضالة الرجاء وتنتجع سحابة النجاح فشبت على صغر وانجلت بابهى من الحلى وابهج من الحبر وعارضها اوّل العين من المعاذير ما دفعتهُ عنها المقادير وسلكت من القصد منهجا لا تخاف فيهِ من لام ومن هجا فاقبل عليها من كان معرضًا وصدَّقت ما كان معترضًا فبلغت من النجاح مكانة يحسدها القاصر عنها ومنزلة يغبنها الطامع فيها وارتسم عليها بحروف من الضياء منتخب الشكر ومنتقى الثناء لمن اكتسب منهم جمالاً واصابت احسانًا وكانوا لكسرها جبرانًا (فضاءت وجوه وسيئت وجوه) ومن جزموا بظهور فضلها وقطعوا بوجوب وصلها (ولا يعرف الفضل الاَّ ذووه)

غير ان تكامل الشيء لا يكون دفعة فان الطفرة اي الانتقال بغير قطع مسافة محال واسباب الاعمال لا تتوفر الاَّ تدريجًا وانا لا نجهل ان من فروضنا ما لم نقضهِ ومن واجباتنا ما لم نأت على بعضهِ ولا ننكر والصدق منجاة ان بضاعتنا من العلم مزجاة ولكن غاية الفضل جهد المقل ومنتهى القصور نقص القادر على التمام ومن كان فاعله الارادة وقابلهُ حسن النية حصل فعله كاملاً ان امكن الكمال وتم لهُ صلاح الحال وحسن المآل اما الارادة فلم تتجاوز بنا جانب الجهد ولم تخرجنا عن السبيل القصد وهو استكمال اسباب التقدم لهاته الصحيفة والاهتمام بشأنهـا اصلاحًا وتحسينًا واما حسن النية فقد اوجب علينا شرب التحامل على كدورته ولبسه على خشونتهِ والتزام امور لا تخرج عن حد الفائدة ولا تتجاوز خط الاعتدال

فمنها حسن الاختيار في النقل وهو من اهم واجبات الجرائد ومنهُ تقديم الاهمّ على المهم وانتقاء الاخبار الموجبة لاحياء الهمم والتعاون والتوازر على استجلاب العزّة ودفع المعرّة وانتخاب الاقوال المؤيدة للحقائق الناقضة للاوهام الداعية الى الائتلاف المبعدة عن الشقاق والاختلاف رجاء تقوية الروابط الانسانية بين اهل هاته اللغة على اختلاف مشاربهم وتنوّع مذاهبهم مع العلم بان

بماء المشرق لا تصفو لمن يسير هذه المسيرة ولن ارضه لا تنبت خيرًا لمن تكون له هذه السريرة ولكن للافكار حركة مستمرة نقطع بها عقبات الاوهام لتدرك غايتها وهي الحقيقة وللنفوس آمال منوطة بالاستقبال .

ومنها تهذيب العبارة وتقريب الاشارة ما امكن الجهد وتنقيح الكلام وتقرير المعنى في الافهام واطراح ما يجافى من اللفظ عن مضاجع الرقة وما كان منه غريبًا تنفر منه الخواطر وتشمئز النفوس فانه لاعذر لمن يقول عقنقل وفي اللغة كثيب وقدموس وفيها قديم والشهر المنصرم وفيها الماضي والسابق والغابر والمنسلخ والمنحسم وكثير غيرها وذلك مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه واطراحنا فاسد التركيب وعاميه فانه حاجز اذا سرى في عامة الناس امات اللغة واغلق على الطلبة معاني كتب العلم ولا ازيد بها القارئ علمًا انها كنوز لا توصف نفاسة ولا تعد كثرة

على اننا لا ننكر ان لحركة العصر حكمًا قاطعًا وللاصطلاح لاهله قضاء نافذًا ولان كاتبنا في هذا الزمان لا يستطيع ان يتلو تلو السابقين من المولدين والمتقدمين فان علمهم كان زائدًا عن حاجات عصرهم اما هو فحاجات عصره تزيد عن علمه وذلك فضلاً عن الترجمة وتشعب مذاهبها فانها الغاية التي يتبارى اليها كتاب هذا العصر ويتسابقون ولكن قليلاً ما يدركون

ومنه السعي الى جنة الحرية مع ثقل سلاسل العادات وقيود القوانين والاشتلاق باهداب الصدق والتشبث باذيال الاعتدال والتنزه عن الغرض الموجب للانحراف والميل الباعث على الارجاف مع التثبت في القول المنقول والتدبر للرأي المعقول كراهة ان ننقل من الروايات ما هو مجروح ومن الاراء ما هو مرجوح ملتزمين في جميع ذلك ان لا نتكلم بما لا نعلم ولا نماري في ما علمنا مجتنبين ما كان من الالفاظ موجبًا لنفور النفوس وانكسار الخواطر وجملة الامر انا لم نأل الجريدة خدمة والمشتركين امانة والاعتدال انقيادًا والصدق طاعة فان لم يكن في جميع ذلك قضاء للواجب واداء للفرض فلا اقل من امتزاجه بحسن النية وسلامة الطوية وان لم يكن فيه فائدة كاملة ومزية ظاهرة فان اول الغيث القطر وما لا يستطاع كله لا يحتقر جله على اننا لولا الحذر من الغرور لما رضينا للجريدة بما نرضاه لنا من القصور فانها قد بلغت وهي في سن الطفولية مقام الكهول وصار لها من الراغبين في مدة اشهر ما لم يجتمع لغيرها في مدة اعوام فقوي بهم عضدها واشتد عزمها ولم تنس انس اقبالهم عليها وانعطافهم اليها فهي تشكر لهم ما تحسن وتثني عليهم بما تعلم واين ذلك من الولاء وواجب الثناء وتذكر لوكلائها فضلاً ممنونًا وتشكر لهم سعيًا محمودًا

اما نحن فغاية ما نبديه من شكرهم الاعتراف بالقصور عنه فانهم

ما روضة وشع الوسمي بردتها
يومًا باحسن من آثار سعيهم

ومنتهى ما نجليه من وصفهم الاقرار بالعجز فيه فانهم

ما العود ان فاح نشرًا او شدا طربًا
يومًا باطيب من تفريع وصفهم

وقصارى ما نتلوه من ثنائهم انهم

ما الدوح تفريعه بالزهر متسق
نظمًا باطيب من تفريع ذكرهم

ومسئولنا ان يتجاوزوا عما يرونة لنا من خطاء ادنى اليه الوهم او قصر عنه الفهم وان يقابلوا بالعفو ما يرون من السهو ويديموا ما عودونا من التفضل والمساعدة والنجدة والموازرة لننهض من الخدمة بما يزلفنا اليهم فان لنا في قضاء واجباتها رغبة تدفع الرهبة من تخطئة الغائبين وانا على حد ما قال (روسو) ننطق عن غيرة وان فاتنا العلم او على حد ما تقول نستخدم اللسان للقلب ولا نعكس . والله ولي التوفيق وهو الهادي الى سواء الطريق

وكتب بعنوان

اماني وطنية

اذا دهمت الفتن قوماً فاما ان تكون قد اخذتهم على غرة وفجأتهم على حين غفلة عن الاستعداد لمقاومة الحوادث فلم يتمكنوا من دفعها ولم يقووا على ردعها حتى بلغت منهم مبلغًا واما ان تكون قد اخذتهم على يقظة واستعداد لما يتوقع من الملمات فصادموها ما استطاعوا ولكنها غلبت عليهم فاودت بقومهم وذهبت باستعدادهم

فهاتان حالتان تساويتا غاية واختلفتا مبدأ اما الحالة الاولى فالمفتونون بها فريقان فريق يستولي عليه الهم والغم ما حل به وبقومه وفريق يشارك الفريق الاول في همه وغمه من وجه وينفرد عنه بما يعتريه من الفرح بنزول تلك الحوادث علمًا منه بان الحوادث من شأنها انها اذا دهمت غافلاً نبهته او نائمًا ايقظته او آمنًا اخافته او مطمئنًا اقلقته او ساكنًا حركته او خليًا شغلته فهي الباعث على الخير كله والداعي الى سبيل الاستقامة بالحكمة والموعظة وذلك انها اذا نزلت بقوم اعوزتهم الى حوائج شتى والحاجة من شأنها ان تقود المحتاج طبعًا الى الحصول على ما مست اليه كما نرى في اصل الفطرة وكيف قيد كل نوع الى التماس ما فطر محتاجًا اليه في قوامه وكمالة النوعي وهذا الفريق وان امتاز عن الاول بما تقدم من عروض فرحه في عرض الآمة ولكن قد يعرض له ما يزيده كدرًا وحزنًا بما يراه بمرآة خاطره من نوازل الاستقبال وموانع الاصلاح فان الانسان وان نبهته الحوادث وكشفت له الحجاب عن اسباب نزولها ودعته الحاجة بعد ذلك الى لم شعثه ورقع ثوبه الا انه قد يفقد الاستعداد ويحرم الاسباب والوسائل فلا يستطيع الى الاصلاح سبيلاً ولا سيما اذا خيف من اضمحلال العصبية والوقوع في العبودية كما جرى على كثير من الامم التي اخذت في احدى تينك الحالتين فصارت اثرًا بعد عين

وعلى هذا فنقول ان الامة العثمانية قد اخذت على غرة واغتيلت على غفلة اذ نبذ بعض اوليائها الشرائع والقوانين ظهريًا بل اتخذوها لعبة لاعب وآلة عامل وصنعة مقامر لما يمكن تأويله منها اولوه وما لا يمكن تأويله نبذوه وانتهكوا فيه حرمة الحق حتى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على بصرهم غشاوة فلا يفقهون الحق ولا يسمعون الصدق ولا يبصرون الخير ولا يخافون الشر . حتى اذا قيض الله لنا من يهدينا سواء السبيل خذلوه ونفوه وعوضونا منه مضلاً يتزلف اليهم بالتملق والنفاق فخامرت قلوبنا الامراض وبلغت منا الآلام فالتمسنا الدواء بعد الاحساس بالداء وعالجنا انفسنا

بالاجتهاد في جلب المصالح ودرء المفاسد فلم يقوَ على ذلك لضعف النفوس وقلة الاستعداد فعمدنا الى التقليد شأن المعترف بعجزه وقصوره ولكن لم نتخذ فيهِ الطريق القصد بل اعتسفنا وضللنا السبيل ونحن نحسب لجهلنا انا على صراط مستقيم نترقى في درجات الكمال الى اعلى عليين ولم نشعر بهبوطنا الى اسفل سافلين الا بعد الوصول الى غيابة الهاوية فكان مثلنا كمثل معتوه القى بنفسهِ من علٍ فلم يشعر بالم السقوط الا بعد ان صادم ارضاً رضت عظامه رضاً فتشخص لنا الداء وعلمنا انا جنينا على انفسنا بما كان من سوء سيرتنا وفساد سريرتنا وتفرّق كلمتنا وتمزّق عصبيتنا واستبداد خاصتنا ناشئاً عن الطمع والشره وضعف نفوس عامتنا صادرًا عن الجهل والغفلة وان بقاءنا على هذه الحال لا يجدي نفعاً فضلاً عن كونه يدلي الى الفناء والاضمحلال

فهذا شرح حال تلك الامة الراهنة التي انقبضت بها النفوس وانكسرت الخواطر وقد انبسطت لنا اسبابها وعللها وذقنا نتائجها وعواقبها فتعين علينا مداركتها بالوسائل الحاسمة لاسبابها القاطعة لعلائقها ولكن بقي ان ننظر ما هي هذه الوسائل وهل يمكن الوصول اليها والحصول عليها قبل تمكن الغصة وفوات الفرصة فنقول لا هاديَ اهدى من الاحتياج وارشد من الافتقار فالظمآن يدعوه ظمأه الى التماس الماء والمريض يبعثه الالم على طلب الدواء وحالتنا هي التي تهدينا الى الوسيلة التي ينبغي ان نعتصم بها وما هي الا الطبيب النبيه والحكيم النزيه يداوي علل نفوسنا ويعالج مرض قلوبنا ويصلح منا ما فسد ويروّج ما كسد نريد رجالاً على قدم صدق في الحكمة بصيرين باساليب السياسة يقومون بين الرفق والعدل فلا يرهقون ضعيفاً ولا يطمعون قوياً ويستوي لديهم الناس في الحقوق فيقربون اصحاب المزية ويخذلون ذوي النفوس الدنية لا يخشون الحق في الناس اولئك هم الذين تمنينا بهم النفوس وتمثلهم لنا مرآة الاماني فنحيا على امل بعثهم فينا وان يكونوا من انفسنا حريصين علينا رحماء بنا يجددون من آثارنا ما اندرس لا اجانب يسرّهم ما يسوءنا حرصاً على ضعفنا وطمعاً في حقوقنا حتى ترسخ قدمهم في اوطاننا وتنفذ كلمتهم فينا فيكونوا علينا اضر منا على انفسنا ولكن اين منا هولاء وقد اصبحنا اليهم فقراء فالعثمانيون والحالة هذه بين امرين احلاهما امرّ من المرّ اما الصبر على مضاضة القهر وغضاضة الضعف حتى يقيض لهم الله من يقوم بامرهم ويقيم اودهم واما الالتجاء الى اجانب يسلمون اليهم زمامهم ليدبروا امورهم ويدبروا مصالحهم ويقولوا فيفعلوا ويأمروا فيمتثلوا وياحبذا الاول على مرارته فان الثاني متوقف على وجود رجال اشرب في قلوبهم حب الانسانية فكل الناس عندهم سواسية لا يفرق بين شرقي وغربي ولا يوثرون قريباً على غريب بل اذا ولوا امر قوم من اي جنس ومشرب كان حسبوا انفسهم من ذلك الجنس ومشربهم ذلك المشرب وعملوا بصدق نية وحسن طية على جلب المنافع ودرء المضار ولكن اين الرجال الذين اذا الجأت الضرورة اليهم فتولوا الامور راعوا الانسانية فيها وسلكوا بالناس منهجاً قويماً وسراطاً مستقيماً واذ لا سبيل الى الامر الاول فان الصبر على الضعف زمناً يتهيأ فيهِ من يرجى من

الامة لمداواة دائها ربما قضى عليها قبل ظهوره فيها فلابد لها من الاخذ بالامر الثاني طوعًا اوكرهًا ومن نكد الدنيا على الحرّ ان يرى

عدوًّا له ما من صداقته بدٌّ

ولكن بعض الشرّ اهون من بعض على انهُ لا شرّ لو شئنا وكان في اولئك القوم غيرة انسانية وحمية وطنية ولهم قلوب تشعر بآلام النقص وارواح تدرك معنى الكمال ونفوس تؤثر النار على العار وترى المنية اهون من الدنية فان لهم مندوحة عما أكرهوا عليهِ اذ لم يعدموا رجالاً وان كان قليلاً عديدهم كفوءًا للم شعثهم وسد خللهم واهلاً للقيام بمصالحهم لو اطلق لهم التصرّف قولاً وفعلاً

وكتب رحمهُ الله في ولي النعم اميرنا الحالي خديو مصر المعظم وكان ولي عهد الخديوية اذ ذاك فقال بعنوان

توفيق مصر

لابناء الزمان فيهِ خلة مألوفة وخصلة معروفة يستخفهم الطرب للشنشنة يرونها ويستفزهم العجب للطنطنة يسمعونها يعظمون الشرّ ان فاز صاحبه ويحقرون الخير ان اخنق طالبه ينعتون بالرجل العظيم والشهم الكبير من دمر البلاد واهلك العباد فيرتفع لديهم قدر الاسكندر وقيصر وأتيلا وجنكيز وتيمور وغيرهم من الصواعق التي نقمصت الابدان وانقضت على هام بني الانسان وما هم الاّ اعوان الشرّ واعداء الخير نزلوا بالانسانية فجعلوا ابناءها بين شريد بادٍ وموجع ثكلان وحاربوهم حتى ملوا ونازلوهم حتى ذلوا بل قاتلوهم حتى قلوا فاستبدّوا بامورهم واستقلّوا ونصبوا الحجاب على النعمة ورفعوا ستور الصيانة عن الحرمة ولو فطن من يغرّهم هذا المجد الخلبي والفخر السرابيّ لما جنى عليهم اولئك المَرَدَة لنبذوا ذكرهم نبذ النواة وطرحوه طرح القذاة وعظموا من لا يخطرون ببالهم خطرة ولا يمرّون بفكرهم مرة من الذين اطاعوا في الارض امر العفة والعدل والاستقامة والفضل

فمن لنا بذي همة علية ونفس ذكية ينصب قسطاس العدل في محكمة الانسانية ليعلم الناس على اختلاف مراتبهم وتنوع مشاربهم ان من اصلت سيفه واعلن شره وقاد الرجال وسلك بهم مسالك الاهوال لحطام ينتهزه او ثأر يدركه او حقد يفوده فجعل رؤوسهم صوامع تصلي عليها رهبان الغربان واجسامهم مطاعم للعقبان لا يقاس بمن اصلح من امر قومه ما فسد وروّج من احوالهم ما كسد ورضي من الاجر حصول الخير ومن المغنم اندفاع الشر وان الاسكندر بمجدهِ اللامع وصيته الشائع لا يقاس بسنسنّاتوس الاكار الروماني الذي انتخب قنصلاً لجمهورية رومه عام ٤٦٠ قبل الميلاد فنهض باعباء الخدمة وحمى اطراف الدولة والامة ولما اتى من ذلك على ما في الرغبة والنية عاد الى مهنته يطلب منهـا رزقه ثم المت بقومه الاخطار فانتخبوه لحكومتهم رئيسًا وذلك عام ٤٥٨ قبل الميلاد فدفع الاذية عنهم ورد الراحة اليهم ورجع الى شأنه الاول لستة عشر يومًا من رئاسته وفي عام ٤٣٨ انتخب مرّة ثالثة لرئاسة الجمهورية وعمره يومئذٍ ثمانون عامًا فنهض باعبائها واصلح خللها وجدد بها نظام الامن والراحة ثم استقال منها لواحد وعشرين يومًا من عهده بها ومع ظهور فضله

ومزيته في ما اجرته لم يقبل عنهُ مكافأة ولا اجرًا

فما اجدر مثل هذا الرجل بالثناء والاكرام وما اولاه بالاطراء والاعظام بل ما اظهر الشبه بينهُ وبين ولي العهد توفيق مصر اعزّه الله في ظل الجناب الوالديّ الخديوي حفظ الله وجوده وصان علاه وذلك في ماحصل لهُ من المزية والشأن المنيف بتخليه عن التالد من المال والطريف اقتداء بحضرة ولي النعم وتمهيد الاقتداء الانجال اهل الشيم والآل ذوي الهمم وتفرده بعدم قبول العوض واستبدال الجوهر بالعرض وهي مزية انبأت بعلو همته ودلت على طهارة فطرته وتناهت فلا نرى لها جزاء غير الاخلاص في شكره والاغراق في حمده ولا يخفى ما يترتب على هذه المحمدة من الآثار التي يجل موقعها ويرتفع موضعها فانها توجب انشراح الصدور بصفاء الحال واستبشار النفوس بحسن المآل والاعمال وقف على سبيل الآمال وبعبارة ثانية ان للانسان في سيره المعنوي حياتين احداهما متعلقة بالحال والاخرى منوطة بالاستقبال فمن فقدهما جميعًا فاولئك هم الاشقياء الذين لا يعرفون طعم الهناء بل هم الموتى في عالم الاحياء ومن حظي بالاولى دون الثانية فاولئك هم الاحياء في اليومين السعداء في الحالين

فليحيَّ اهل مصر بما آتاهم الله من فضلهِ العظيم وليسعدوا بما افاء عليهم من ظلال جوده العميم وليشكروه في العشي والابكار ويحمدوه اناء الليل واطراف النهار وكيف لا يحمدونهُ وقد خصهم بمليك

ذُكر الانام لنا فكان قصيدة
وهو البديعُ الفردُ من ابياتها

واميرٍ

رأيت جميع الناس دون محله
فايقنت ان الدهر للناس ناقد

وقد علم قرّاء صحفنا ان ليس من شأننا الاطراء استجداء ولا الوقيعة افتراء واننا ننظر الى الفعل لا الى فاعله والى القول لا الى قائله فانهُ ليس وراء الصدق رفعة وليس بعد الكذب ضعة والحق ملك لا ينكسر لواؤهُ وان قلّ اولياؤهُ فان لم يشرب هذا الماء على صفائهِ ولم يلبس هذا الثوب على بهائه فربّ نفيس رمي بهِ من حانق وربّ حسناء طالق

وهذه صفحة ثناء تنزهت عن الملق يقال لمن تلاها اصاب وصدق ذكرنا بها محمدة امير ان ذكر الشرف كان بذروتهِ او الفضل تمسك بعروته وما القصد الاّ خدمة الحقيقة وزفع منارها وان تظهر للعيون محاسن آثارها فتكون باعثة على الثناء داعية الى الدعاء وقد جاء في الاثر الكريم من نشر معروفًا فقد شكره ومن ستره فقد كفره

اذا انا لم اشكر على الفضل اهلهُ
ولم اذم الوغد اللئيم المذمما
ففيمَ عرفت الخيرَ والشرَّ باسمه
وشقّ لي الله المسامع والفما

ـــــــ

وقال عام ٧٨ من كلام سياسي في احد فصولهِ الافتتاحية :

تحدق بالمرء النوائب وتحف به المخاوف والمصائب فينسدل على فكره حجاب الوهم وتغرب عن سمائهِ شمس العزم ويأفل نجم الفهم ويلتمس سبيلاً الى النجاة مما هو فيهِ فلا يجد فيسلك

بنيات الطريق وذلك ما كان عليهِ اهل السياسة قبل ائتمارهم في برلين فانهم لما اشتدت عليهم الازمة وخافوا تعاظم النقمة وتلاحم مادة الفتنة وتضافر اسباب البلاء رضوا بالمؤتمر منجاة من تلك المهالك مع العلم بما يكون فيهِ من تضارب الاراء وتعاكس الاهواء وتألفوا على دخل ومداجاة فطارت الخواطر اليهم على اجنحة الآمال راجية ان يرتسم في لوح خيالهم صورة المرهوب ومثال المطلوب فتحملهم القوة الباعثة على دفع الاول وجلب الثاني باقامة الامور وتنظيم الاحوال فكانت كالسائر غرّه القمر والرائد اعجبتهُ خضرة الدمن فان اعمال المؤتمرين ماثلت ظلمات في بحر لجي واجلت عن مصاب مشتدّ وبلاء ممتد في نتائج لم يرض بها الغالب ولا المغلوب ولا الطالب ولا المطلوب ولا يدفع ذلك ما يبديه اندراسي ويعيده بكونسفلد وغيرها من الخطب الضافية الذيول المضروبة مثلاً في سلطة الفكر على الفكر فان الفعل يبطل ما يقولون والامر الواقع يدفع ما يدّعون

وهذه الروسية قد كشفت نقاب الكتم وازالت حجاب الوهم فظهر من خلال اعمالها انها وافقت على قسم البلغار كارهةً وان لها من وراء ذلك مقاصد خفية اذ اوعزت الى مأمورها في الروم ايلي ان يضع لها قانونًا مماثلاً لقانون امارة البلغار لتحصل بينهما الوحدة الادارية الموجبة للانضمام وبثت الدعاة في ارجائها يذكرون لاهلها عناية الروسية بهم ويجمعون قلوبهم على ولائها واقرّت بينهم عساكرها ونقلبت في الاحتجاج لذلك بين دعوى الخوف عليهم والرغبة في صيانتهم وابرام عهدة الصلح النهائية او اثبات ما لم تنسخه عهدة برلين من احكام عهدة سان ستيفانو وما القصد الاّ ان يرسخ قدمها ويستفحل امرها في تلك البلاد وان نغرس فيها من الثقة بها والاعتماد عليها ما تجني ثماره بعد حين

وهذه اوستريا تكلفت الحلول ببوسنه وهرسك فاهلكت في ذلك مالاً كثيرًا واهرقت دمًا غزيرًا فضاقت ذات يدها وفسدت عليها قلوب رعيتها وانكر النواب سياستها فصارت بين خلاف داخلي تخاف سوء مغبته وفتح خارجي لا تقوى على القيام بنفقته وسيبدو لنا ما نجهل من احوال سياستها بعد ان تعرض على دار ندوتها

وهذه انكلترة يوهم وزيرها انها بلغت الامنية وصارت في مأمن لا تخاف بهِ دركًا ولا تخشى اذ حلت بقبرص ونشرت لواء سطوتها على الخليجين وآسيا الصغرى ومصر فامنت سبل الهند وحفظت مصالح امنها ولكن الحوادث الاخيرة قد كشفت عن احوالها الغطاء وازالت الخفاء فابدى بها الصريح عن الرغوة وظهر من قول نفس وزيرها انها لا تأمن على هندها الاّ بعد تسوية تخومها وبديهيّ ان ذلك يفضي بها الى حرب تحتدم نارها وترتج لها جبال حملايا بل ربما ادت الى فتنة صماء تومض فيها بروق المرهفات وتلعلع رعود المدافع فتنهمر غيوث الكرات وتكون بها اواسط آسيا معركة يعقد من عثيرها لملك الموت سرادقات وقد انبأنا التلغراف واردًا من لندرة ان وزراءها قد اتفقوا على اصدار الاوامر الى عساكرهم بالحملة على افغانستان لانقضاء مهلة الانذار قبل ورود جواب الامير بالاعتذار

وهذه الدولة العثمانية قد اكرهت على ما

نكره وتطامنت لحكم الزمان فتقلص ظل مجدها وافل نجم سعدها واصبحت بين الروسية وانكلترة كالسفينة بين عاصفتين فلجأت الى الثانية رجاء ان تشد ازرها وتؤيد امرها فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار اذ استولت انكلترة على احسن جزائرها وقبضت على زمام الادارة في بلادها الاسيوية والقت الوحشة بينها وبين دولة اسلامية مهمة وجعلتها بين داخلية ممزقة بالفتن وخارجية مشوّهة بالعداوات والاحن حتى اذا اضعفت عزمها ونزفت مادة ثروتها اوعزت اليها ان احفظي الراحة في البلاد وانني ما اروم من الاصلاح واياك الاهمال فهو مفسدة للاعمال فصح فيها قول القائل

القاه في اليمّ مكتوفًا وقال له
اياك اياك ان تبتل بالماء

واما اليونان والصرب والرومانيون والبلغار وغيرهم من الطوائف التي تعلق لهيب الفتنة باطرافهم فقد كان مثلهم في المؤتمر كمثل من كره ما لديه ورام عنه عوضًا فسمح به ثم لم يصب العوض ففاته الاول ولم يدرك الثاني فندم ولات حين ندامة فاما اليونان فقد اطعمهم المؤتمر في امانيهم ولم يمهد لهم سبل نوالها ولم يجعلهم على بينة من الامر فهم كالمفاجأ بالشرّ يطلب النجاة منه الف سبيل ولا يسلك منها سبيلاً فتارة يجندون العساكر ومرة يثيرون الفتن وطورًا يعزلون الوزراء وآونة يستغيثون بالدول وقليلاً ما يهتدون واما الصرب فقد غرّهم الامل في حسن نيات الدول فتهوروا في الحرب رجاء اصابة المغنم ورأوا وهم في مفازة الاوهام سراب الوعود فظنوه ماء حتى اذا اتوه

وانقضت الحرب لم يجدوه شيئًا فعادوا راضين من الغنيمة بالاياب بل حصل لهم استقلال نحسبه مدرجة للاستعباد وما ذلك الاّ لانه سيكون وسيلة لتداخل الروسية في امورهم قصد ان يظلهم جناحا نسرها رحمةً بهم انهم من اهل جلدتها ولا ينقم الناس على من يصل الرحم ويقدم العشيرة . . واما الرومانيون فقد عدموا نفوسًا ونقدوا نفيسا ولقوا في امرهم نسيسا فموّهوا هذه النوائب بالاستقلال وصبروا عليها صبر العاجز على المكروه واظهروا الرضا بالموجود الاّ انهم لم يستطيعوا اخفاء الاسف على المفقود واما البلغار فقد ساءهم انفصال جانب منهم عن امارتهم الجديدة فاطالوا النجوى وصرّحوا بالشكوى وجملة الامر ان المؤتمر قد ذرّ على الجرح ملحًا ثم لم يحكم الضماد فتواترت من بعده النوازل وتوالت المشاكل وزادت المخاوف وصار السلم على شفا خطر مبين وهي ظنون قصارى ما نتمنى فسادها فقد كفى ما اهريق من الدم هدرًا وما بذل من المال عبثًا ولا ريب ان الصلح اصلح والسلم اسلم

ولله ما كتب عام ٧٨ في شأن الافرنج بمصر اذ قال .

امانيّ

من رآنا نذكر الافرنج تارةً باللوم وطورًا بالتظلم ونطلق اللسان في بيان سوء معاملتهم لنا وانهم في بلادهم خراف ترعى الرفق وتألف العدل وتتفيأ ظلال الحرية والمساواة وفي بلادنا اسود تقضم لحم الحيوان وتأوي الى غاب القسوة

والجفاء والزهو والامتياز بحسب اننا ممن يتكرون
فضلهم ويبخسونهم اشياءهم ولا والله لسنا من
ذلك في شيء فانا نعترف لهم بالمزية والفضل
ولا نجحد سبقهم في مجال العلوم والفنون واجتهادهم
الجدير بان يقتدى به وان قدومهم بلادنا عاد
علينا بالفائدة المعنوية عارضة في خلال اعمالهم
المبنية على آمالهم وذلك يقضي بالشكر لهم وان
كنا على يقين من انهم لم يجلبوا لنا الفائدة التماسًا
لمصلحتنا بل توسلوا بها الى ادراك الغايات الدينية
و المقاصد السياسية وكيف لا نشكر لهم وقد
كنا منغمسين في الضلالة تائهين في مفاوز
الجهالة حتى صارت مدارسنا دارسة لا دارس
بها ولا دارسة وارض افكارنا بالخنا لا تنبت
شيئًا فلما ان وردوا علينا واقاموا بين اظهرنا
صار فينا جماعة كثيرة يحسنون ما لم يحسنه نزر
من السلف ونفر سبقوا الى الغايات وبلغوا من
المعرفة مبلغًا لم تحم عليه افكار آبائهم وانشئت
عندنا صحف الاخبار فاستنارت بها الافكار
واقيمت الملاعب التياترية الموجبة لانتظام الاحوال
الاجتماعية وتليت في مدارسنا الدروس بعد العفاء
والدروس غير ان ذلك لا يمنعنا من امتياز
الافرنج عنا في الحقوق المدنية والسياسية ولا
يردعنا عن التماس المساواة التي يسكنون انها
ويحرصون عليها فان قيل انهم حقيقون بالامتياز
لتفضلهم علينا بما علمونا وفي الكلام المأثور من
علمني حرفًا كنت له عبدًا قلنا انهم لم يبادئونا
بالاحسان ولكن ادّوا الامانة ووفوا الدين
وهم به معترفون ثم طلبوا مكافأةً على ذلك
امتيازًا في الحقوق وعفوًا عن الواجبات فاذعن
لهم اولياء امرنا رهبة من مقاواتهم ورغبة في
موالاتهم فلما استنارت بصائرنا وانفضّ الختم
عن قلوبنا رأينا ان لا تكافؤ بين الحالين ولا
تعادل بين الجارين فرفعنا اصواتنا المنخفضة الى
مقامات الرؤساء نطالب مالنا المنهوب وحقنا
المسلوب

وقد آن والله للامة ان تطلب وللدولة ان
تجيب بل آن للاوروبيين ان يتكفّوا عن
الطمع في الاثرة ويعدلوا عن الحرص على الامتياز
فقد ابطلت الحجة التي اثبتوا بها لانفسهم ذلك
الحق وما كانت حجتهم الا الاحكام مسلمةً الى
من يخافون منه الخيانة ولا يعتقدون فيه الامانة
والادارة منوطة بمن لا يرونه اهلاً لانزال
الامور منازلها وترتيبها في مراتبها وقد ابطل
الوجه الاول بما كان من تشكيل مجالس الحقانية
من اعضاء لا ينكر الافرنج استقامتهم ولا يجحدون
اهليتهم فان منهم الاوروبي البحت والوطني
الذي ارسل الى بلادهم فنبت في مدارسها وربي
على عاداتهم ثم عاد الينا وهو افرنجي المعرفة
شرقي الاخلاق فلم يبق لهم الا الاحتجاج على
الادارة وقولهم ان نسبة القضاء للحكم الاجرائي
كنسبة القوة للفعل فان لم يكن بينهما تقارب
وتناسب بقي الامر في عالم القوة زمنًا تعفو رونقه
ويذهب بجدته فصبرنا على ذلك مكرهين غير
مشكورين ولا مأجورين وظلت اعناقنا لهم خاضعين

ثم حصل ما كانوا يطلبون وتم التناسب
بين القضاء والاجراء اذ تشكلت النظارة او
الوزارة من اجانب ووطنيين يثقون بهم جميعًا
ويعتقدون فيهم العدل والاستقامة وعلو الهمة
والشهامة فتوجه الحق على حجتهم فدمغها فاذا
هي زاهقة ولكنهم في ما نرى يستكبرون عن

معادلة من كانوا يفضلون ومساواة من كانوا يمتهنون ولا تثريب عليهم في ذلك لما فيهِ من المصلحة لهم ولكن يؤخذ عليهم بكون استحصال النفع بمضرَّة الناس مكروهًا بالاجماع

ولا ريب ان امتياز بعض الناس عن بعض في وطن واحد يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حسًا ومعنى ووجه الضرر الاول ان معاملة سفلة الافرنج بما لا يعامل بهِ . وجوه الوطنيين من الاكرام لغير علة والعفو عن الذنب الواضح قد بعثهم على التمرد فاعتسفوا وافسدوا ما شاؤا بحيث لم يمض علينا يوم ولم نسمع فيهِ بان فلانًا الايطالي او المالطي ضرب وطنيًا بخنجر فحمل الجريح الى المستشفى والجارح الى دار قنصلهِ فاودع فيها غرفة رفيعة ياكل بها عيشه رغدًا هنيًّا ثم لم يلبث فيها ان اطلق فازداد بما اكل شرهًا ونهمًا وعاد الى مثل حاله السابقة فكانت الثانية شرًا من الاولى فاذا تكرر صدور ذلك منهُ قُذف بهِ الى اطراف بلاده فسار اليها ثم عاد مبدلاً اسمهُ مغيرًا شارته ورسمه كأن يكون بلحية ثم يحفوها او يختار لها شكلاً هندسيًا لم يكن لها ولا يخفى ما ترتب وما يترتب على ذلك من الاضرار بهذه الاقطار

واما وجه الضرر المعنوي فهو ان انحطاط منزلة الوطنيين وانخفاض جناح ذلهم بالنسبة الى الاجانب يولد فيهم الحسد والكسل ويشرب قلوبهم التهيب والخوف فلا يحتملون الرغائب في طلب الرغائب بل ربما كان الرجل منهم ذا مروءة تبعثه على علي التماس الرفعة والمجد ثم لا يجد من يشد ازره فيبقى خافض الذكر خامل المنزلة ولو رأى من الدهر انصافًا لركب العظيم وطلب الجسيم ومات موت الكريم

ولقد حان لهذه البلاد ان تنتعش من عثرتها وتنفلت من ربقتها بعد ان ضربت عليها الذلة وتطامن اهلها للرق صاغرين مئات بل الوفًا من السنين حتى ضربت الامثال بطاعتهم العمياء للامراء والروساء وكيف لا وهم الذين احتملوا ظلم الفراعنة وقسوة الرعاة وعسف اليونان وجور الحاكم بامره الذي لعب بهم لعبه بالكرة والصولجان فكان ينهاهم اليوم عما امرهم بهِ امس ونصرف بامورهم الروحية والبدنية فتارة يلبسهم الابيض ومرة يرسم بالاسود وحينًا يحملهم على التشيع وآونة يأمرهم بالسنة وفي جميع ذلك لا يسأل عما يفعل ثم صبروا بعد ذلك على عتوّ المماليك وجندهم وناهيك بهِ صبرًا لا تحمله الجبال بل لا تقلهُ الجبال ولا نحمدهم على ذلك

فغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه

وانا لنجلهم عن ان يكونوا قد الفوا الذل فرضوا بهِ او خافوا ان يكون الاكداء مع الكدّ والخيبة مع الطلب فقالوا ان رزقنا سوف يأتينا نسعى لهُ فيجهدنا ثم نسكن فيأتي ولا يعنينا مع انهُ لا يجوز في الوهم ولا يصح في القياس ان نجني الثمرة بغير غرس ويثمر المال بغير طلب وقد

بصرت بالحالة العليا فلم ارها
تنال الاَّ على جسرٍ من التعب

بل ليس في الامر عناء او تعب فانا لا نلتمس العزيز الذي لا يملك او الغاية التي لا تدرك ولكن قصارى مرامنا ان تحصل لنا المساواة فيكون علينا ما على الاجانب ولنا ما لهم سنّة الانسانية في بنيها والحرية في ذويها

منتخبات جريدة مصر الفتاة
المنشأة في الاسكندرية عام ١٨٧٩

ليس لادبينا في هذه الجريدة اقوال جديرة
بالاثبات فانهُ لم يكن محررها المطلق او
صاحبها المسئول فيما فيها من آثاره انما هو
معرّب الفصول التي كانت تنشر في
القسم الفرنسوي منها فلم نؤثر عنها
لذلك الا المقالة التاريخية الآتية
معرّبة بقلمهِ عن الاصل
الفرنسوي وهي

الامة المصرية بازاء التاريخ

لا يستطيع الواقف على التاريخ الا ان يتعجب
من سكون الشعب المصري في خلال القرون
والاجيال التي توالت فيها على الامم والممالك
ادوار عمارة شادت لها قصور المجد في رياض
التمدّن وادوار دثار ذهبت بتلك الآثار

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
انيس ولم يسمر بمكة سامر

وما بينها الانسان يسير الهوينا الى الغاية
المفروضة له متقلبا بين البداوة والحضارة والشدة
والرخاء فقد كانت هذه البلاد في خلال تلك
التقلبات نظير صنم ممنون واقفة صامتة ساكنة
في وسط الامم السائرة الى النجاح في سبيل التقدم
فما علة هذا السكوت وما سبب هذا السكون

(١)

فلنبحث فان البحث من حقوق كل انسان
فاكر وهو شعار هذه الجريدة الجديدة فاذا اتضحت
اسباب الداء سهل تحصيل الدواء

انهُ بعد الاعصار التي يقصر التاريخ عن
بيان احوالها والتي تحصر اخبارها في الروايات
الخرافية والابحاث الاكتشافية قد كان بزوغ
انوار العلم في بلاد مصر اولاً وكان الناس الى
ذلك العهد في حالة الخشونة لا صناعة لهم ولا
علم ولا ادب فان الآثار القديمة الماثلة التي
اكتشفها الباحثون في اواسط بحر الروم لا
تدل الا على ما كان للانسان وقتئذٍ من
الغلاظة والقسوة واما الصنائع والعلوم والآداب
فمنشأها في هذه البلاد تنطق بهِ اخبارها وتثبتهُ
آثارها واذا انتقلنا من الادلة المادية الحسية
الى دائرة الافكار المجرّدة الفلسفية رأينا ان
الطريق التي سلكتها الامة المصرية في ذلك
العصر القديم ليست باقصر ولا اسهل من غيرها فان
الكهنة المصريين كانوا وقتئذٍ يعتقدون بوجود
الله وخلود النفس وان المهم الذي كانوا يسمونهُ
يبر وهي غير منظور مستقل غير متجسد غير متغير
غير متناه ازلي ابدي وهو كالاله الحق اله
اليهود والنصارى والمسلمين وكانوا يقولون بالنفس
الخالدة بدليل ان افلاطون اخذ عنهم حكمتهُ
التي تناقلها الناس عنه وصارت على نوع ما
انجيل التمدن الفلسفي في النصرانية ويضيق بنا
المقام عن جمع سائر الادلة الحسية والمعنوية على
قدم التمدن المصري وعن ذكر جميع الفوائد
التي اخذها اليونان عنهم والقوها الى العرب
فالقاها هولاء الى اوربا على اننا في غنىً عن
جميع ذلك بما نقرر في التواريخ وثبت في
التقاليد من ان منشأ التمدن انما هو مصر
وانها مصدر الاشتغال بالصنائع والعلوم
ولا يتيسر تحديد ذلك الزمن لان الآثار الخالدة
المنتشرة في بلاد مصر والتي علمنا شمبوليون ان

نقرأ المكتوب عليها بسهولة وان كانت بالغة من العمر ٦٠٠٠ سنة الا انها حديثة بالنظر الى الخمس وسبعين الف سنة التي تكونت فيهـا الذلتا كما يستفاد من اخبارهم القديمة على اننا نستغني عن ادلة الاخبار الخرافية ونكتفي بالنظر الى عظمة الاهرام وجمال هيكل لقصر لنتيقن ان هذه الاعمال هي نتيجة تمدن عظيم لا نتيجة طاعة ناقصة ومما يدلنا على تقدم مصر العجيب في الاعصر القديمة صناعة البناء وتفننهم في ذلك فانه لما كان وقوع النور على السطوح الصقيلة المتساوية يجعل في منظرها تقعيراً جعل المهندسون المصريون سطوح المسلات محدبة وجعلوا احديدابها موازياً لذلك التقعير الذي تتوهمه العيون بسبب النور وهذا دليل واضح على ان العلوم والصنائع كانت وقتئذٍ متقدمة جداً بين المصريين

(٣)

فتبين من ذلك ان العقل لم ينمُ اولاً ولم يسع ليولد الافكار العظيمـة ويجمع المعارف المكتسبة ويحفظها وينقله الى الخلف ويفهم معنى الجمال ويسير في طريق الكمال الا في هذه البلاد

ولكن في هذه البلاد ايضاً قد انطفأ فجأة نور ذلك العقل المولد الذي بلغ فيما سلف اعلى درجات الكمال ثم تواردت عليها الامم المختلفة والشعوب المتنوعة فاتاها الرعاة ثم الحبشة ثم فارس ثم العرب ثم الاتراك فمنهم من اكتسب منها التمدن ومنهم من كان من المفسدين اما المصريون الحقيقيون فلم ينهضوا بعد ذلك السقوط فان بلادهم لم ترَ في جميع تلك القرون التي تخللتها تلك الحوادث والحروب يوم مجـد ولا يوم سعادة فما هي الاسباب المعنوية او الحسية التي وقفت حركة هذه البلاد تلك المدة المديدة الزائدة على الالف اعوامها هل جفت موارد ثروتها ام نضب ماء نيلها ام تغيرت عقول سكانها . . وهي مسائل لا يفصح لنا التاريخ عنها بل غاية ما نعلمه الامر الواقع وهو وقوف حركة التقدم

ولقد اخذ اليونان اصول التقدم المصري وادركوا في الصنائع غاية التقدم كما تدل على ذلك آثارهم الجميلة وبقاياهم الجليلة وبلغوا في العلوم منتهى النجاح فنشأ فيهم ارسطو وابقراط وارخميدس وبتاغوروس ونالـوا في الشعر والانشاء اعلى مقام فنبغ فيهم هوميروس وافلاطون واصابوا من الحكمة احسن نصيب فظهر فيهم سقراط وامثاله

ثم قام الرومان من بعدهم فوضعوا القوانين ونشروا التمدن في اقاصي الارض وما برحت الاجيال تتعاقب والايام تتوالى في اعصر الظلمات المسماة بالاعصر المتوسطة حتى استرشد الناس بالاطلاع على علوم اليونان والعرب واستيقظت الهمم فاكتشفت اميركا ثم جاء عصر الانتعاش وبعد تناقل المسائل الفلسفية بقرنين شبت الثورة الفرنسوية التي دفعت التمدن الى الحالة الحاضرة .

وفي كل هذه الازمان لم تتغير حالة مصر بل تأخرت وتقهقرت متقلبة بين ايدي الفاتحين ومطامع الطامعين وكيف لا نستغرب مع علمنا بان بلاد مصر هي مهد العلم ومصدر التمدن وانها فيما سبق نالت الحظ الاوفر من النجاح المادي والعقلي وان الباقي من آثارها لا يزال

الى الان موضوع تعجب اهل هذا العصر مع ما هم عليهِ من سعة الافكار والتفنن في الاعمال العظيمة والمفيدة .

ولكن اذا علمنا ان الامة المصرية قد فقدت حريتها منذ اعوام واعصار وان حكامها كانوا سادتها وانها كانت عرضة لغاياتهم وغرضًا لاهوائهم مع فقد اسباب الادارة و وسائل العمارة سهل علينا ادراك سبب تأخيرها وفقد قوتها الادبية وبقائها ساكنة كل هذا الزمان الطويل فيا ايتها الحرية يامصدر كل امر جليل في الارض لقد علمنا انهُ لانجاح بدونك ولا سعادة مع البعد عنك فان الامة الحرة تكون كفرس غير مقيد يسير رافعًا راسهُ ويتنشق ملءَ صدره الهواء النفسي ويسرح في المرعى النضير واما الشعب المستعبد فهو كفرس يدور حول الرحى مغمض العينين يسير السنة بتمامها ولا ينتقل من مكانهِ

ويا ايتها الامة المصرية انهضي من عثرة الغفلة وانظري الى الذين نالوا السعادة فانك أهل لاعظم المواهب ولاسيما بعد ان تولاك اميرك الجديد الذي اتخذ الحرية شعارًا ورفع للعدل منارًا فلا ريب انهُ يمهد لك طرق الاصلاح و يسلك بك مسالك النجاح

مختارات مصر القاهرة

التي انشأَها في باريس عام ١٨٨٠

***

على ما سبقت الاشارة اليهِ في مقدمة هذه المنتخبات نثبت في هذا القسم ما خلا من آثار الحدة ونزق الشباب في فصول هذه الجريدة ومقالاتها مختارين من شذورها ما اعتلق باهداب البلاغة واتصل باطراف البراعة في البراعة

وهي

اوربا والشرق

قضي على الشرق ان يهبط بعد الارتفاع ويذلّ بعد الامتناع ويكون هدفًا لسهام المطامع والمطالب تعبث بهِ ايدي الاجانب من كل جانب فمنهم من يغير عليهِ بحجة الغيرة على الانسانية ومنهم من يتداخل فيهِ بدعوى اقامة المدنية ولم نرَ منهم من صدق في دعواهُ بل كلهم تابع في ذلك قصده وهواه

فقد استولت انكلترة على الهند والافغان وجنوبي افريقيا وقبرص وتداخلت في تركية اوربا ومصر وسورية ومراكش وزنجبار والبرمان بحجة الانسانية ودعوى المدنية ولم تؤيد في جميع تلك البلاد غير الخشونة والاستبداد استبقاء لاهلها على حالٍ يسهل معها اخذ اوطانهم واستخدام ابدانهم بما فطرت عليهِ من الاثرة

تحملها على كراهية الفضل الا لبنيها وبغض السعادة الا لذويها بل بما تقرر في اذهان اهلها من ان الخارج عن جزائرها الثلاث منحط عن درجة الانسانية لم يوجد الا لخدمة الذين اتتهم الطبيعة لخشونة طباعهم على صخور منقطعة عن اليابسة محرومة من الطيبات محجوبة الشمس والنجوم مستمرة الضباب والغيوم

وفتحت الروسية القريم وداغستان وارمينية وسجستان وخيوى وخوقند وتركستان وسمرقند واغارت على الدولة العثمانية فانتزعت منها معظم بلادها الاسيوية وفصلت عنها الصرب والمملكتين والجبل الاسود والبلغار وجعلت الروم ايلي شركًا لفتنة تثيرها وارب تناله ثم القت على جميع ذلك حجاب حسن النية وموّهته بالغيرة الدينية والقيام بامر الضعيف ورفع منار المدنية ولو صدقت في شيء مما تدعيه لرأينا بوادر هذه المآثر في بلادها ولما رأينا ولي عهد دولتها يطلب من ابيهِ الاصلاح واهل ندوتها يسألونهُ فتح ابواب النجاح وقادة الجند يدعون للحكومة الشوروية وعامة الرعية يرومون رفع لواء الحرية واهل الثورة يخرجون عن الطاعة ويشقون عصا الجماعة وجلالة القيصر غير مبالٍ بجميع ذلك حتى قيل انهُ الى التنازل عن الملك اقرب منهُ الى الرضا برأي ولي العهد بل جاء بالتلغراف انهُ قد استشاط غيظًا من تجرؤ ابنهِ على التماس الشورى فامر بهِ ان يسجن ولولا ان شفعت فيهِ والدتهُ لكان في جملة اهل الحبوس

على ان الروسية وان كانت مطلقة الاحكام الّا انها ادنى الى الرحمة والعدل والرفق والفضل من دولة الانكليزا التي لا تبقي على حياة الخاضعين لها الا للانتفاع بجدهم فهي كالجزار لا يطعم الضائن الا ليذبحه سمينًا ثم يجعل من جلده سوطًا يسوق بهِ الانعام . على مثل ذلك طبعت حكومة الانكليز وعلى مثلهِ نراها في الهند فقد جعلت امراءها غلمانًا واتخذت نبهاءها عبدانًا واستخدمت عامتها فيلة وبعرانًا

اما سائر الدول فانها اقلُّ من تلك الدولة شرًّا واكثر منها رفقًا وبرًّا تعامل الخاضعين لها بالتي هي احسن حتى يكادوا يحمدون وفادتها ويشكرون ولايتها لولا العلم بان الاستقلال حياة الامم فاذا فقدتهُ فقد صار وجودها المعنوي في جانب العدم .

التردّد

اذا كنت ذا رأي فكن فيهِ مقدمًا
فان فساد الرأي ان تترددا

ووالِ الزمان اذا والاك وخذ منهُ ما اعطاك فهو ملول يألف الصد ويجبل لا يأنف الرد وانتهز فرص الحوادث فالعمر وان طال قصر من ان يسع المطال .

واعتبر بالذين يقتلون الايام بين الاحجام والاقدام ويؤجلون للغد ما امكن بالامس الى ان يمتنع الامكان بما يحول دونهُ من مصاعب الزمان كيف تلاشت احوالهم وساء مآلهم فصاروا الى الضعف بعد القوة والهرم بعد الفتوة والخمول بعد النباهة والخسف بعد الوجاهة حتى عاد مجدهم صغارا ومسخ فضلهم عارًا

وانظر الى الذين يبيطون الافوال باطراف الاعمال ويستلبون الاوقات من مخالب الآفات وينتهزون الفرص كيف سنحت ويدخلون

ابواب السعي متى فتحت هل زلّت بهم الاقدام ام ندموا على الإقدام ام أسفوا كما يأسف المهملون ام خسئوا كما خسف المترددون

او ما نراهم في ذروة المجد وربوة النعمة وعفوة الحرّية لا يبلغ شأوهم الساعون ولا يمسهم الشقاء ولا ينالهم الظالمون بسوء فهم القادرون اذا رغبوا والمدركون اذا طلبوا والعالمون اذا اذا نطقوا والسابقون اذا لحقوا تبتسم الحياة لشبوخهم كما يبتسم الموت لفتياننا وبروق الوجود لفقرائهم كما يروق الغنى لاغنيائنا حتى كأنّ الزمان عاهدهم على الراحة وواعدهم باستمرار الهناء كما وأثقنا على الجهد واستقرار البلاء

فبتنا نعاني صنوف العناء

ولسنا نرى في الانام معينا

ودارت علينا رحى نكبةٍ

تظلّ الحجارة فيها طحينا

فيا قوم : لقد مرّت بكم الايام باسباب النعمة والنقمة والراحة والتعب واليأس والرجاء فلم تستوقفوا الرغائب ولم تجتنبوا النوائب ولكن وقفتم بين الجزع والكسل والامل والملل ففرّ المرغوب وقرّ المرهوب فلم تخيبوا خيبة الساعي لتعذروا ولم تصيبوا اصابة المتثبت لتنكروا ولم تدركوا الارب اتفاقًا لتذكروا

وتلك حالكم شاهدة بما اقول فقد بليتم بما يذيب الشحم ويقرض اللحم ويبري العظم وانتم صابرون ومنيتم بما وفر النقم وغير النعم واهلك النَعَم وانتم صامتون ورزقتم بما جلب المصاب وهتك الحجاب وابرز الكعاب وانتم خاشعون فما الذي تخافون .. بل اي عناء لم تعانوه واي بلاء لم تقاسوه واي فناء تحذرون

بعد هذا الوجود ام اي وجود ترجون مع هذا الفناء

لاجرم ان مثلكم في الصبر على هذا النكر كمثل بخيل ينفق العمر في التماس المال ثم يحبسه عن نفسه وعن العيال راضيًا باسواء حال

ومن ينفق الساعات في جمع ماله

مخافة فقرٍ فالذي فعل الفقرُ

تقولون لا نرضى بهذا الخسف ولا نقوى على احتمال الذل فقد صار تاجرنا عاملا ونبيهنا خاملاً وعالمنا سائلاً فلم يبقَ فينا غير الاجير والتابع والشحاذ والزارع والجندي منخفض الجانب والشرطيّ منقطع الراتب

بل زارعنا الذي يدفن مع الحبة قوّة بينه ويسقي الغرس بماء جبينه نزيل في دار ابيه وغريب في ارض ذويه يحصد ما زرع ولكن لسواه ويجني ما غرس ولا يذوق جناه

وجملة الامر ان الشدة قد بلغت في امرنا حدّ الحدة فصار ومن دونه الخوف بعد الامن والسقم بعد البرء واليأس بعد الرجاء والفقر بعد الغنى حتى لو استزدنا الدهر بلاء لما وجد الى ذلك من سبيل وحتى عذب الموت بافواهنا والموت خيرٌ من مقام الذليل

تقولون هذا وانتم في مراتع الاهمال ومرابع الآمال تحرصون على القناعة حرص البخيل على درهمه وتضنون بالاقدام ضن الجبان بدمه

وهل ينفع الخطي غير مثقف

وتظهر الاّ بالصقال الجواهرُ

وكيف ينال المجد والجسم وادعٌ

وكيف يحاز الحمد والعزم فاترٌ

بل ما اجدر القائلين من غير فعل بان

يفعلوا من غير مقال . أجل ولسوف تفعلون
وكأني بكم عصابة من اهل الهمة والاصابة
ترفعون الاصوات في طلب الحق المسلوب
وتمدون الاكف لالتماس المال المنهوب وتجعلون
الابدان للوطن سورًا يردّ عنهُ العدوّ مذعورًا
وانتم الكلمة المتحدة والقوّة المتجمعة هي
اقوى من العدد الكثير
الا انكم تترددون
يأخذكم فيما تروموت عذل الخائفين
فتنسون ماضي الزمان على رجاء آتيهِ
فيومكم ابدًا مستهلكٌ في غده والغد فيما يليهِ
فيا حليف الصبر ويا نضوَ العناء نداء مشارك
في بلواك وسامع لنجواك دع التردد ان اردت
النجاح والنجاة واقدم فرب حياة تكون في طلب
الموت ورب موت يجيء من طلب الحياة

ولا تبع عاجلاً منها بآجل ما
ترجو فذلك امرٌ شأنهُ الطولُ
ولا يصدك عن امرٍ هممت بهِ
من العواذل لا قالٌ ولا قيلُ
فخير يوميك يوم انت فيهِ اذا
ميزت والناس محمود ومعذول

ولهُ تحت عنوان

خواطر سياسية

اي : مصر : لا بد من الكلام في السياسة
وان كانت حقيقتها وراء حجاب الغيب فهي دندنة
تنفر لها الاسماع وشنشنة تألفها الطباع فاقترحي
بابًا للمحاورة ومطلبًا للمذاكرة ووجهًا للبيان
فانما نحن في موضوع كيفما انقلب صح فيهِ القياس
او ما ترين كيف اختلفت الجرائد في
اوجه المسائل بين السلب والايجاب والنفي
والاثبات وهي جميعًا فيما يراه كل فريق وما
يوهمهُ كل دليل على حق فيما تقول وعلى هدىً
فيما ترى . .

فان كان رأيها الحرب فلا ايسر من ايجابها
ببيان اسبابها اوليس ان الدول مدججة بالسلاح
قائمة على قدم الكفاح اعدت العساكر وجمعت
الذخائر ومرّنت الجند على حب القتال فظمئوا
لدم الابطال وقدموا لحم الرجال حتى لو امرهم
القائد بالسير تعليماً وتعويدًا ثم اشتغل عن امرهم
بالوقوف لاستمروا على سيرهم حتى يبلغوا اقرب
العواصم الى بلادهم ويلاقوا ابعد الناس عن
ودادهم . او ما شكت الخزائن من اثقال
النفقات واحتاجت المزارع الى ايدي الجند وطال
على الناس توقع المكروه وانتشبت الفتنة في
جميع الممالك ما بني منها على الشورى وما بني
على الاستبداد فالعدمية في بلاد الروس والاجتماعية
في ديار الالمان والاباحية في قطر الفرنسيس
والناشدون للضالة في مملكة الايطاليين
واحزاب ارلنده في جزائر الانكليز والكارلية
في اسبانيا وهلمّ جرًا . افلا يدل ذلك
على وشك وقوع الحرب شفاء لمطامع الرؤساء
وتوسلاً لاطلاق الجند واخمادًا لفتن العامة . .

وان كان ما تراه السلم فهو الظاهر للعيان
الغني عن البرهان اوليس ان ملك الايطاليين
وملكة الانكليز وقائد الالمان ووزيرا النمسويين
وسائر زعماء الدول يصرّحون على المنابر بين

الاملاء بحرصهم على السلم ونفرتهم من الحرب وان الامم قد رأت مساوئ القتال فانكرته ومحاسن السلم فآثرته فاذا رأت من رجال الدولة ميلاً الى الحرب تصدَّت لمعارضتهم فكان الصواب ما نقول فانما نحن في زمن لا قوة فيه الاَّ بالامة ولا حكم الاَّ لها اما الفتن في الممالك والمنافسات في بلاد الشرقيين فما هي الاَّ سحابة صيف عن قليل تقشعُ

صدق السلميون وما كذب الحربيون

فالامر بيد الامم ـ في البلاد التي تبينت بها الحقوق وتعينت الواجبات ـ والامم كارهة للحرب راغبة في السلم ولكن للامم زعماء يأخذون بالملاينة ان لم تنفع المخاشنة ولا يعارضون سيل الاراء غير انهم يقتادونه من جانبيه فيتبع فان رام هولاء الزعماء حربًا فلا يعجزهم طلابها ولا تمتنع عليهم ابوابها ولكن اكثر الناس من ذكر الحرب حتى قلَّ خوفنا من قرب وقوعها فانها اقرب ما تكون الى القول وابعد ما نراها عن الفعل ولا يرد علينا بان السنة الخلق اقلام الحق فلكل عصر حكمة ولكل مجال مقال

الحرية

ابدأ مقالي بالثناء على جرائيم الضياء التي بعثتها يد العزمة من افق الحكمة فانشق بها ستر الظلام عن ذات جمال كللها الحسن بتاج الكمال فجرَت على هام الاوهام مطارف ثوب نسجته يد الصبح بغزل شعاع الشمس فانبهرت بها مقل الظلاَّم ورآها نبهاء الناس نورًا على نور فرفعوا لها بينهم منارًا واوقدوا من حولها نارًا تهدي قومًا وتحرق اخرين وما يحترق بها الا المكابرون الذين يقاومون الحق بسيف الباطل وبئس ما كانوا يفعلون

ثم اسرّح طرف المقلة في روضة تلك الطلعة واجعل تلوّ استهلالي في رقعة إهلالي غزلاً ارق من الصبا واحن من عود الصبا في قدٍّ لا يحاكيه الغصن وطرف لا يماثله النرجس وخد لا يعادله الورد وثغرٍ لا يقارنه البرق وفرق لا يباريه الصبح وفرع لا يماريه الليل من صورة من تعشقها النفس ولا يدركها الحس فهي مفردة بصفاتها لا تشبه الاَّ بذاتها يموت في حبها العشاق غيرة عليها ثم لا يمنعونها عن المشتاق اليها فهي المورد يراه الظمآن والمأمن يجده الخائف والسبيل يلقاه التائه بل مقصد الساعي يناله بعد اليأس وكلمة العفو يسمعها من كان على النطع بل هي فوق ما يصف الواصفون وينعت العارفون بل هي: الحرية: وكفى بذلك وصفًا لقوم يعقلون

ثم اشنع ذلك بخبر ما ايدها بعد ما ضعفت وجدد ربوع مجدها بعد ان عفت اريد الثورة التي وضعت احكامها ورفعت مقامها ونشرت على الناس اعلامها .

ولقد بدئت هذه الثورة في بلاد الفرنسيس عام تسعة وثمانين بعد السبعمائة والالف من التاريخ الميلادي على عهد لويس السادس عشر اذ اختلت امور المالية بما كان الروساء ينفقونه من غير حساب على حين كانت خواطر الناس منتبهة من رقدة الغفلة بما سمعوا من نداء الخطباء واقوال النبهاء وتقارير العلماء فكان ذلك الاختلال كاشفًا عن احوال الظالمين ما بقي عليها من سجوف الخداع والتمويه

فهاجت بهِ بحار الافكار وخاف اهل الدولة الغرق فرأوا ان يجمعوا مجلس الولايات للنظر في امور بيت المال وكان ذلك المجلس ضعيف الكلمة مغلوب الامر الا فيما يلائم الرؤساء لكثرة عددهم وغلبة رأيهم فيهِ فقد كان الثلث الاوّل منهُ للشرفاء اي الذين تقرّبوا من الملوك فيما سلف او اغنالوا بعض الناس واغتصبوا شيئًا من الارض فامتازوا بذلك عن سائر القوم والثلث الثاني لاهل الكهنوت اي لرؤساء الدين الذين خالفوا احكامه بما تداخلوا فيهِ من امور الدنيا حتى انشأوا مملكة في وسط المملكة والثلث الباقي لسائر الامة اي لاهل التجارة والصناعة والزراعة ممن تقوم الدولة باموالهم ويتأيد الملك بابدانهم ويعمر القطر بما يشتغلون فكانت لذلك غالبية الاراء في جانب اعوان الدولة من النبلاء والرؤساء فدار بين الناس قولٌ يتناقلونهُ همسًا لا نرضى بالمجلس الاَّ ان تحصل فيهِ المساواة بالعدد بين وكلاء الامة والرؤساء فاتصل ذلك القول برجال الدولة فخافوا عاقبة المخالفة شأن الخائن المريب فامروا ان يكون الانتخاب على ما تروم الامة فانتخب من النبلاء مائتان وسبعون ومن اهل الكهنوت ٢٩١ ومن الرعية ٥٨٧ واحتشد جميع هولاء الوكلاء في مدينة فرسايل خامس شهر ايار (مايو) من العام السابق الذكر وفي اليوم الثاني وقع بينهم الخلاف على الحدود والحقوق اذ رام وكلاء الامة المساواة وابى النبلاء والرؤساء الاَّ حفظ ما كان لهم من الامتياز ثم انفصل هولاء عن الجمع فتألف اولئك وقالوا لا حاجة لنا بهولاء الاغرار انا جماعة كافية بقوة الحق الا ان الملك عارضهم في ذلك واقفل عنهم باب المجلس فاجتمعوا في ملعب المدينة واقسموا يمينًا غموسًا : انهم لا يفترقون قبل ان يضعوا للبلاد دستورًا : ولذلك سمي مجلسهم بالجمعية الدستورية واني لاسميه مبعث الحرية فانهُ قد احياها بعد وشك الفناء

ولهُ من فصل

في العدمية

زعم البعض ان العدمية قد استجمعوا للموبقات وانفردوا بالمنكرات فمن مذهبهم المثبت لفساد مشربهم انهم لا يؤمنون بالله . .

نعوذ بالله من هذا الكفر المبين . ولكنا لا نحسب العدمية شيعة دينية فان كان اولياؤها على الجحود فلا يكون ذلك من لوازم مشربهم وانما هو فيهم كالنفور من خدمة الدين في احزاب الجمهورية . .

ومن ذلك المذهب انهم يقولون بالاشتراك في العرض والاموال وهي بدعة جديدة لم يسبقهم اليها احد من الناس . .

عفوًا ان العدمية لا يحسبون العرض مشاعًا بل العرض لا يحتمل الشيوع فهو النفس او النسب او الشأن ولا نعلم لهُ من معنى يصح فيهِ الاشتراك فان كان الزاعم يكني بهِ عن النساء على وجه جديد من المجاز فالقول منقوض عليهِ من وجهين الاوّل ان العدمية لا يجيزون الاشتراك في الزوجات والثاني ان هذه البدعة غير جديدة بين الناس فالمرمون في اميركا يشتركون في نسائهم والكومون في فرنسا يوجبون تقاسم الاموال

اما العدمية فهي الطرف المقابل للاستبداد في الهيئة السياسية . قاله وكتور هيكو ولعله اعرف بالحقيقة ممن ذهبوا ذلك المذهب

ومشربها مقاومة الشر بمثله فالعنف بالشنق والعسف بالغيلة والشنق بالطعن والنفي الى سيبريا بالحبس بين جدران القصور

ومقصدها اعنات المستبد وتنبيه الخواطر وتحصيل الحقوق ورفع لواء الحرية وكسر شوكة الاستعباد . ونعم القصد لولا ان وسيلته آخذة بشيء مما يبعث عليه

وقال في فصل سياسي

من تأمل احوال الممالك تأمل بصير يقرأ ما بين اضعاف السطور ولا تشغله الظواهر عن حقائق الامور علم ان منافسات الدول ومحاورات اهل السياسة ومناقشات صحف الاخبار وتجهيز العساكر وحصول المحالفات ووقوع المخالفات كل ذلك يدور على اربع مسائل مهمات — الاولى في اواسط اسيا وموضوعها عند الانكليز : حفظ الهند من طوارق حدود الهند : والثانية في السلطنة العثمانية والايالة المصرية وموضوعها عندهم : حفظ الهند من عوارض طريق الهند : والثالثة بين الالمان والفرنسيس وموضوعها : الالزاس واللورين : والرابعة بين اوستريا وايطاليا وموضوعها : التيرول وغيره من البلاد الايطالية الباقية في ملكية النمسويين : — . وفوق هذه الامور مسألة الجنسية الكبرى الا انها لا تزال في عالم الخيال مع المدينة الفاضلة التي يتصورها الحكماء

ولذلك فانا نترك النظر فيها لشعراء الالمان واللاتين والصقالبة ونورد من خبر المسائل الواقعية لمعاً بجملة هذا المقام فنقول

ما توجهت خواطر الانكليز الى اواسط اسيا ولا تهورت حكومتهم في قتال الافغان لاخضاع قوم صلاب القلوب كبار النفوس يرون العزّ في خلال الصفوف والمجد بقتال الالوف والجنة تحت ظلال السيوف ولكن رأت سطوة الروسية منتشرة فيما وراء تخومها الهندية تسري في تلك البلاد الفيحاء سري النار في الحلفاء فرامت ان تجعلها اقساماً يتولاها الموازرون للانكليز المنافرون للروس فتكون عقبات وحصوناً في طريق الروسية

وما حرصت دولة الانكليز على الكلمة الغالبة والسطوة النافذة في البلاد العثمانية والايالة المصرية الا لصيانة بحر الاستانة وخليج السويس فشأنها في السلطنة التركية ان تهدم بقايا الاطلال وتشيد على آثارها حصوناً انكليزية الاساس بريطانية القواعد تركية الصبغة تقيم عليها من الحماة والمرابطين من تثق بهم وتعوّل عليهم ودأبها في الامارة الخديوية ان تنصم عروة الاستقلال وتطفئ نور الوطنية وتجعل الامر مطلقاً بيد من يكون اطوع من نعلها واتبع من ظلها بمعنى ان تجعل ولايات الدولة وفي جملتها مصر اقساماً سياسية مائلة للانكليز مناوئة للروس . ولهذا كان هم الروسية في المسألة الاولى ان تعارض سعي الانكليز فيما يحاولون من التقسيم او تجعله ملائماً لمصلحتها مؤيداً لسطوتها وشأنها في المسألة الثانية ان تجمع تحت لوائها ما انفصل وما سينفصل عن الدولة العثمانية

من بلاد الصقالبة لتكون بذلك موازنة لدولة الانكليز غالبة على امرها في تلك الجهات . غير انها لا تأمن في ذلك معارضة الدولة النمسوية لما تعلم من اتجاه سياستها الى الشرق يأسًا من السلطة الغربية فهي بين الاحجام والاقدام والرغبة والرهبة يحوّم نسرها على ذلك القصد ولا يستطيع الوقوع عليهِ

كطوف الغريبة وسط الحياض
تخاف الردى وتريد الجفارا

وهذا الذي اوضحناه من احوال هاتين المسألتين انما هو الوجه الشرقي من السياسة العمومية واما الوجه الغربي فهو في مسألة الالزاس بين الالمان والفرنسويين ومسألة التيرول بين الايطاليانيين والنمسويين فاما المسألة الالزاسية فان اختلاف مظاهرها بعد الحرب لا يدل على ضعف آثارها في خواطر الفرنسيس فانهم على اتفاق في وجوب ادراك الثار وكشف العار واسترجاع الالزاس واللورين من يد الالمان وانما يختلفون على الوقت الملائم لحل هاته المسألة فهي من هذا الوجه كالبركان تختلف مظاهر النار فيهِ بين السكون والاضطراب والوميض والالتهاب والنار في جوفه مستمرّة الضرام .

واما مسألة التيرول فهي عند الايتاليين كمسألة الالزاس عند الفرنسيس لا ينتظرون لحلها الاّ القوة الكافية والفرصة الملائمة فالامتنان على اتفاق في القصد مع اختلاف الموضوع فلا بدع ان يكون حصول المحالفة بين الالمان اعداء الامة الاولى والنمسويين اعداء الثانية موجبًا للتقرب والتظاهر بين جمهورية الفرنسيس ودولة الايتاليين كما يشف عن ذلك مسير ولي العهد الالماني الى رومية لتأييد روابط الوداد توجسًا من تقرب دولتها الى الفرنسويين وكما يدل عليهِ ما تنشره الصحف المهمة من سعي الوزارة الفرنسوية في تمكين علائق الود بينها وبين الدولة الايتالية

فاذا تقرّر ما بسطناه من احوال هاته المسائل علمنا ان لا بد من حسمها على اي وجه كان فلم يبق الاّ ان نبين كيفية ذلك الحسم وهل نراه عما قريب ام يكون بعيد الوقوع مستمدين ما نبديه من اراء ذوي النقد مستدلين عليهِ من طبيعة تلك المسائل ومن احوال الدول في هذه الايام

فمسألة الحدود الهندية تبعث الروسية ودولة الانكليز على التوغل المستمر في اواسط آسيا بحيث يفضي بها الامر الى التماس والتلاحم فيقدح الزندان نار القتال . ومسألة الخليجين توجب استمرار المنافسة الدولية والمناظرة السياسية في سلطنة الترك وايالة مصر حتى يتمكن الضعف من تينك الحكومتين فتختل منهما الاعضاء على صورة تستلزم الفصل والتجزئة فتقع نسور المطامع وغربان الاهواء على تلك الاشلاء قطعًا بالمناشر وتمزيقًا بالمخالب فتقوم بينهما ثائرة الخلاف والمحاشدة فترفع الامر الى مجلس المدفع الاكبر فتقضي كراته بينها ويكون الحق ما تقول . واما مسألة الالزاس ومسألة التيرول فان لها في خواطر الفرنسيس والايتاليانيين مكان العبادة من قلوب اهل الدين تظهرها اقلامهم ولا يسترها كلامهم ولا تخلو منها احلامهم فان ضعفت هذه العبادة بما يعظهم اهل الاعتدال

واحباء السلم فان الجرائد المتطرفة من احزابهم تضمن تهييج الحقد في صدورهم وتحريك الدم في عروقهم

واما حالة الدول فهي السلم في ساحة النزال او الحرب من غير قتال فانها تزيد عدد العساكر ونفقات الزخائر ولا تألو الجند تجهيزًا وثغورنا والحدود تمكينًا وتحصينًا فقد زادت الروسية مقادير عسكرها مع اختلال ماليتها بما انفقته في الحرب الاخيرة وما برحت اوستريا تطلب القرض بعد القرض لنفقات الجندية ولا تزال ايطاليا تنشيء الدوارع العظيمة والمدافع الجسيمة اما فرنسا فقد بلغتها نفقات عسكرها تسعمائة مليون من الفرنك ولم تكن من قبل سوى خمسمائة مليون. واما المانيا فقد صارت بما استكثرت من الجند والات القتال كمدينة احاط العدو باسوارها واقام على حصارها

فهل يصح في قياس العاقل بل في وهم الجاهل استمرار هذه الحال وهل تصبر اوربا على دوام الحرب من غير قتال وانقباض الوف الوف من الايدي عن الاعمال وهي مسألة لا تحتمل الجواب

فاذا لاحت البداهة في الامر فان السؤال عنه جواب

ولهُ في مجاعة حلب عام ١٨٨٠ بعنوان

بعض البلاء ينتهي الى بعض

هو الظلم حتى تمطر السماء بلاء فتنبت الارض عناء فلا تجد على سطحها الا جسومًا ضاوية في ديار خاوية وقلوبًا تحترق في بلادٍ تحت رقّ

وهو الجهل حتى تضيع الاخطار وتنفى الاقدار وتبطل الهمم وتزول القيم ويعفو العلم ويدرس الفهم ويستعلي الخامل ويستولي الجاهل وتنخفض الاروس وتنقبض الانفس وحتى ترى بكل ارض في شرقنا اممًا

ترعى بعبدٍ كأنها غنمُ
يستخشن الخزّ حين يلمسهُ
وكاد يبرى بظفرهِ القلمُ

قف بالربوع الدارسة المعاهد العافية الآثار وانشد هنالك عزمًا اضاعه الاهمال ومجدًا اخفاهُ الخمول الا بقية آثار في المعالم كبقايا الوشم في المعاصم وابكِ العز وبنيه والفضل وذويه حتى ينبت الآس على القبور وحتى تسمع اصواتهم من وراء حجب العصور بل دع النشد والبكاء في هاته الخطوب الفادحة فلا نفع للثكلى بنوح النائحة واقصد بنا مرابع النعمة ومصانع الرحمة نسأل فيها الاعانة والاحسان لأسدٍ عضها كلب الجوع وارام وقعت في حبائل الفاقة واطفال يتلقون دموع المراضع يحسبونهُ اللبانًا فقد الف الغريب الاحسان ونعود اعانة الانسان

واتلُ على كرامهِ ما جاءنا من خبر المجاعة في حلب وما بين النهرين فقد بلغت الحاجة من اهل الشهباء ان النساء هتكن الستور وخرجن من وراء الخدور وطفن بالقلعة صائحات معولات مولولات يلتمسن القوت لرجال اضواهم الجوع فلزموا البيوت فخرج الوالي اليهنّ بوعود لا تغني عن الجائع ولا تدفع آلامه فرجعنَ عنهُ آيسات وطفن بالاسواق يبعثن الرجال على الفتنة قنوطًا من زوال المحنة فانقض هؤلاء على الافران

يلعهمون الخبز لا ينتهبونهُ

اما ديار بكر وماردين وسائر ما بين النهرين من المدن القديمة الشأن فلم تقف بها الشدة عند هذا الحد بل اتصل الموات باطرافها على مثل ما سمعناه منذ عامين من اخبار المجاعة في بعض الهند وامِركا حتى أكلت اطراف الغصون واصول الاشجار

فعسى ان يكون لصوتنا الضعيف صدىً تردده الصحف الوضاء في هاته العاصمة الزاهرة فيقبل اهلها على مساعدة المصابين ولا يضيع الله اجر المحسنين

«وقد ترجم هذا الفصل عائئذٍ ليثبت في بعض»
«جرائد باريس على رجاء ان تفتح الاكتتاب»
«للاعانة على ما تعودته في مثل هذه الحال»

ولهُ ايضًا

تأملٌ

بلادنا احسن البقاع تربة وهواء واصفاها سماء وماء واوسعها مرتعًا وفناء . كانت فيما سلف تقلّ الملايين من ذوي النعمة والرفاهية يستخرجون منها ما يحتاجون اليهِ ويفضل عنهم ما يتجرون بهِ وذلك مع توالي الحروب وتواتر الغارات واستمرار المنافسة بين الامراء والدول

ونحن ذوو ابدان شهدت بقوتها حوادث الايام واهل صبر دل عليهِ ثباتنا في المتاعب وارباب اقدام اقرّ بهِ الاعداء وحلفاء قناعة اثبتها الجور والفقر . كنا اهل السطوة غير معارضين وارباب الثروة غير منافسين تزين بضائعنا الامصار وتعمر صنائعنا الاقطار وتنير معارفنا الافكار

فما لتلك البلاد التي وسعت الوف الالوف تضيق عن المئين وكيف صارت قوّة اهلها ضعفًا ومسخ مجدهم ذلةً وخسفًا

هل انقلبت الارض ام غضبت عليها السماء ام فسدت القلوب ام عميت الابصار ام هذه سنّة الزمان في ابنائهِ . .

كلاَّ . ولا عتب على الزمان فهو النهار تضيء شمسه والليل يطلع بدره والربيع يزين الارض بازهاره والشتاء يروي المزارع بامطاره ولكن هي البصائر غشيها وهم الكمال في العادات ودعوى العصمة في التقليد فاحتجبت عنها حركة الخواطر في بلاد الغرب فسار الناس ونحن واقفون وحركتهم عوامل الغيرة وضمائرنا مبنية على السكون

فمن لنا بذي غيرة يهتك سجوف الاوهام عن البصائر ويجلو حقائق الامور للابصار فترى نفعنا في اعتقاد الكمال وخطأنا في ادّعاء العصمة فننبذ ما جناه علينا السلف من اسباب التيه والصلف ونتقرب للنعمة بوسائل الاجتهاد فان قصر العمر عن الوصول الى غاية النعمة ودرجة الهناء فلا اقل من ان يموت الشرقيّ عن سعي يشكر واثر يذكر

فمن عاش في ذلّ فذلك ميتٌ
ومن مات عن فضلٍ فذلك خالدُ
ومن لم يمت بالسيف مات بغيرهِ
تنوعت الاسباب والموت واحدُ

فذلكة

قائد الغفلة الأمل والهوى قائد الزلل
قتلَ الجهل اهلهُ ونجا كل من عقل

فعلى مَ الوقوف في ساحة العجز والكسل

ولهُ مطلب مطوَّل في

الشرق

قال .

تمهيد

قد التزمت لهذا المطلب اسلوب التقرير وعدلت فيهِ عن منهج الخطابة الشعرية لاعتقادي بان الاسلوب الخطابي وإن كان اسرع تأثيرًا في القلوب واحسن وقعًا في الاذهان الاَّ انهُ قد يميل بالكاتب الى جانب التخيل الوهمي في مكان التقرير العلمي فيرتفع بيانهُ عن المدارك التي سبقت اليها الملكات الصناعية الحسية فلم تبقِ بها من محل لملكة الخيال المسماة شعرًا فيفوت الغرض المقصود من البيان والبلاغة وهو تقرير المعاني في الافهام من اقرب وجوه الكلام وجعلتهُ اقسامًا متناسبة وفصولاً متوالية ارسل فيها الكلام ارسال مقرّر مبين ولا أتكلفهُ تكلف منمق مزيّن فان احكام التقرير منافية لهذا التمويه الذي يتمونهُ بديعًا وانما يؤخذ بهِ عند رسم التخيلات عسى ان يكون مغنيًا عن محاسن الحقيقة بل ربما جاء التخيل في غنى عنهُ بما يزينهُ من المعاني فكان وقوعه فيهِ كالصبغة في الوجنة الحمراء والخضاب في اللمّة السوداء يبعثان على الظنون ولا يزيدان الوجه حسنًا

القسم الاول

فصلٌ

ما هو الشرق

ليس من شأني البحث اللغوي لاعرف الشرق بكونهِ المشرق ولا البحث الفلكي لا قول هو الجهة التي نخالها مطلعًا للشمس وانما انظر في هذا المطلب الى التاريخ السياسي في البلاد المسماة شرقًا فشأني في تعريفه ان ابين حدها الطبيعي والجغرافي وكيف عمها اسم الشرق مع اختلاف مواقعها وتباين جهاتها وتباعد اقاليمها فاقول

لم ار في شيء مما قرأت من كتب السلف الكرام ما يشعر بورود هذا اللفظ في كلام العرب بمعناه المعروف في هذه الايام وانما اطلقوهُ بعد الاسلام — بصيغة ظرف المكان — على جانب من فتوحهم تمييزًا لهُ عن بلاد البربر والاندلس التي دعيت مغربًا . الاَّ ان سكان الجانب الغربي من اوربا قد اطلقوهُ على البلاد الواقعة في جهة الشرق بالنظر اليهم فعم الصين واليابان والمغول والهند والعربية وإيران وفينيقية وغيرها من اقطار اسيا بل اتصل ببعض البلاد الاوربية كالروم والبلغار والصرب ثم توسع فيهِ من تعالم منهم باللغات الشرقية ومن بحث في الاثار القديمة فعم جزائر المحيط وافريقية ولكنهم لم يتفقوا فيه على حد معين او تعريف معلوم . قال لاروس اللغوي الفرنسوي في مطلب الشرق من قاموسهِ الكبير ما معناه : لم ارَ من كلمة اضيق سبيلاً واوسع غاية واضعف تحديدًا من هذا الذي يسمونهُ شرقًا . اه . وقال اصحاب الانسكلوبيذيا اي جامعة العلوم في هذا المطلب ما مفاده : قد اختلفت مذاهب الكتاب في تعريف الشرق وتنوعت فيهِ اقوالهم بين التخصيص والتعميم حتى تعذر تعيين حدهِ وتعسر تحديد معناه فمن موارد هذا اللفظ في اقوالهم

على وجه التخصيص انهم يسمون دولة الرومان بالقسطنطينية دولة الشرق — كما كانوا يسمون دولة الالمان بدولة الغرب — ويكنون عن مذهب الروم في تلك العاصمة بكنيسة الشرق — كما يسمون بيعة رومية كنيسة الغرب — ويعبرون عن اميركا بالهند الغربية كما يصفون الهند بالشرقية — . ومن موارده على وجه التعميم انهم يطلقونهُ على افريقية وبلاد الاوقيانوس وغيرها مما ليس بشرق بالنسبة اليهم . اه

وجملة الامر ان تعريف هذا اللفظ عرفي لا ينطبق على حكم علمي او حدّ جغرافي والمشهور فيهِ انهُ يطلق على بلاد اسيا من دون القسم الروسي وعلى بلاد الروم من اوربا والقطر المصري من افريقية . وربما اناط بهِ الغربيون معنى الخشونة جريًا على سنن القدماء من الرومانيين في حسبان كل من خرج مسكنهُ عن حدود مقاطعتهم بربريًا بل هم في ذلك اشدّ كبرًا وازدراءً بالناس من ابطال روميه فان هولاء لم يزيدوا على ان وصفوا الاجنبي بالبربرية اما اولئك فيحسبون لفظ الشرق متضمنًا معناها مع اعتقاد كثير من علمائهم بان اصولهم ولغاتهم ومذاهبهم وعلومهم انما هي مستمدة من الشرق

على ان الاوربيين وان اختلفت آراؤهم في تعريف الشرق وتحديده فقد اتفقوا على الاعتقاد بانحطاط الشرقيين عنهم في رتبة الوجود وتألفوا على السعي في اذلال شأنهم وخفض مكانهم كما يدل على ذلك ما نسمع من اقوال خطبائهم وما نقرأ من تصانيف علمائهم وما نشهد من اعمال زعمائهم فهم والحالة هذه عصبة على الشرقيّ من اي محتدٍ وعلى اي مشرب كان يصرفون عنايتهم الى استخدامه واستعباده ومحو استقلاله وفتح بلاده فاذا اختلفوا فعلى تقسيم الغنيمة بين الفاتحين لا على وجوب الغارة (التمدنية) على القوم (المتوحشين) فان كره الشرقي ان يكون مصدقًا لما يزعمون ومقرًا لما يلتمسون تعينت عليهِ المدافعة عن استقلاله تحت لواء الاتحاد ولا يكون الاستقلال جديرًا بالصيانة الاَّ ان يكون مقترنًا بالحرية ولا حرية الاَّ بالحق المعين والواجب المبين ولا حد للحقوق والواجبات الاَّ بالعلم ولا علم الاَّ بالحقائق ولا حقيقة الاَّ في البحث المطلق ولا اطلاق للمقيدين بسلاسل الاوهام . فان تعذر الاتحاد العمومي بين الشرقيين فلا اقل من حصوله بين الشاعرين بقرب الخطر من بقايا دولة الشرق العظيمة المعروفة بدولة العرب وما ادراك ما دولة العرب

(تنبيـــه)

لم نعثر فيما لدينا من اعداد جريدة «مصر القاهرة» على تتمة هذا المطلب فاضطررنا على اسفٍ منا الى اقفال بابهِ على خلوّه من البقية ولو لم يكن فيما نشرنا منه فائدةٌ تؤثر لما رضينا به غير بالغٍ حد التمام

ولهُ مقالة في

انتخاب النوّاب بانكلترة
عام ١٨٨٢

لا تلمهُ فالانسان مظنة الخطاء وموضوع النسيان لا عصمة لهُ في المحصور من اعماله والمشهور من اموره فما الظنُّ بهِ متوليًا من امور الناس ما لا تحصى دقائقهُ ولا تدرك حقائقـه

ولكن وجه اللوم على الراضين بالاستبداد ذهولاً عن مزايا الحكم الشوروي فقد رأيت الخطأ في هذا الحكم مشفوعًا بالاصلاح متصلاً بطرف الاصابة يقع من الوزير او الامير عن سهو او فساد رأي فيصلحهُ الحكم العمومي بما يتضح لهُ من اوجه السداد ورأيتهُ في الحكم الاستبدادي راسخًا مستحكماً كالقضاء المرسل فان الآمر المستبد يَقضي بما يشاء مستأثرًا برأيه معرضًا عن النصحاء يصرُّ على الخطاء ذهولاً عن الصواب او يظهر لهُ وجه الحق فتأخذه فيهِ عزّة النفس فيقول تزول الارض والسماء وكلامي لا يزول ..

اوليس ان خطأً ملومك الوزير بكونسفلد قد اتصل بطرف الاصلاح اذ رُفع لمحكمة الرأي العموميّ فدفعته بحكم الانتخاب ليوسد الامرُ الى من يسلك طريق الاصابة فلو كان ذلك — وهو كائن لا محالة — في ايّ البلاد المستبدة الحكام لما استطاعت الامة محوَ خطاء الرئيس الاّ بدم الرجال يهراق على رجاء الصلاح ويكاد الاّ ..

بلى فقد ظهر للانكليز تيه اسرائيليهم في مفاوز السياسة فكرهوا عبادة عجل العناء واهتدوا بنور الحكمة والرشاد فقاموا بامر اهل الحرية في انتخاب النواب فكان ذلك بمنزلة الحكم القاطع بضلال رأي بكونسفلد وفساد سياسته

وقد بشرتنا روائد الانكليز وجرائد الفرنسيس بحصول الغلب لحزب الحرية في مجال الانتخاب اذ كان مبلغ المنتخبين عند كتابة هذه السطور نحوًا من اربعمائة ثلثاهم من الاحرار او يزيدون عن ذلك . وافادتنا تلك الجرائد والرسائل ان الباقيات من لوائح الانتخاب ستزيد الاكثرية نوابًا وتؤيد حزب الحرية على صورة تفوق الرجاء لكون الكثير منها لاهل ارلنده المعروفين بالنفرة عن رجال المحافظة بما وجدوا فيهم من العنف والغلظة فبتنا على يقين من انقلاب الوزارة الانكليزية

غير ان سرورنا بهذا الانقلاب لا يتجاوز حد الامل لتعلقه بامنية نرجو الحصول عليها ولا نضمن الوصول اليها فانا لا نكره وزارة بكونسفلد لشيء في النفس من رجالها وانما حملنا على ذلك فساد اعمالها ولا نتمنى الوزارة لغلادستون او لهرتنتون او لدربي او غيرهم من زعماء حزب الحرية الاّ على رجاء عدولهم عن سنن الوزارة السالفة فيما يتعلق بالسياسة الشرقيـــة

وكتب رحمهُ الله بعنوان

خاطر ملاحظ

اذا هبت عواصف الفتنة فذرت رماد

المداجاة عن جمر ضغائن الدول وصار الشرق من اطراف الروم البحر الاحمر محشرًا للعساكر يتنازلون فيهِ ويتجاولون على ارض يملكونها وغنيمة يصيبونهـا وسطوة يؤيدونها وقوم يستعبدون

واذا انقضت صقالبة الشمال على بقايا الاناضول واندفعت المان الوسط على فضالات البلقان ووقعت حيتان بريتانيا على سواحل مصر وجزائر بحر الروم وترامت نسور الفرنسيس على فينيقية وبلاد السوريين وتداعى ابناء الرومان الى تونس الغرب وما يليها ورجعت عساكر الاسبانيين الى الغرب الاقصى

فماذا يحل بالشرقيين وكيف يتقون البلاء وهم على ما نرى من ضعف القلوب وقوّة الخلاف وتفرّق الكلمة واختلال الاحوال ضئلت نفوسهم وانقطعت اسبابهم واحتجبت عنهم سبل النجاح فهم في غفلة الساذج وخدر السكران وكسل المهوّم لا ينتفعون بما يعلمون ولا يسألون عما يجهلون

بل اذا جادت سماء الحكمة بماء السلم فاهمدت ذلك الجمر وعاد الشرق من جهاته الاربع مجتمعًا للتجار والصناع من جالية الغرب يخبرون فيهِ ويتسابقون الى بقعة يزرعونها وثروة يجمعونها وسلطة يوطدونهـا ورجال يستخدمون

واذا انتشرت جالية الالمان في شبه جزيرة البلقان تحيي الموات وتنقل الصناعات وانبث تجار الانكليز والفرنسيس والايطاليين وسائر الامم الغربية في بلاد الشرق يتصلون بمن تقدمهم من طلائع جيوش العز ويجمعون الثروة بما يتجرون وبما يستخرجون من كنوز الارض وما يخترعون من الصناعة وما يجلبون من المخترعات وما يتولون من الامور والادارات

فاي مكان واي شأن يكون للشرقيين في عالم الوجود وهم على ما نشهد من وهن العزم وشدة الشهوة وضعف الهمة وقوة النهمة واهمال القادر وطمع المهمل يتسابقون الى اللهو ويصرفون الزمان بين دخان يقتلون بهِ الوقت وشراب يميتون بهِ الافكار وطعام يهلكون بهِ الابدان

وهي مسألة نرفعها الى نبهاء الشرق التماس الجواب فانها — فيما نظن — احق بالبحث والنظر من مكان ظرف وظرف مكان واجدر بالاهتمام من جناس قلب وقلب جناس واولى بالعناية من ديوان تقريظ وتقريظ ديوان واحرى بالاجتهاد من تحجيل لفظة ومن لفظة تحجيل

وكتب في المسألة الارلندية قال

قد ارتنا دولة الانكليز من عجائب التناقض ما ينبذ بهِ المنطق مشدودًا بالقياس وما يحمل بهِ المطبوع على موضوع الانعكاس فانها تجمع الصدقات للبائسين ولا تبالي بجوع الارلنديين وتستعبد الاحرار في كل قطر وتلتمس الغاء الرقّ في الاستانة ومصر كما قيل فيها « بالتجارة » شعرًا

تحرّر العبدان من رقهم
ونسترقّ الحرّ بالدرهم

أمطعمُ الايتام سحتًا جنى
ليتك لم تجنِ ولم تطعمِ

وقد رأينا في احدى الصحف الباريسية رسماً يدل على حقيقة ما قدمناه فقد مثلت فيهِ ارلندة بصورة كهل بالي الثياب رث الجلباب جعد الاهاب قد اضعفهُ الجوع وانحلهُ الضعف حتى شفَّ جلده عن الادمة وادمتهُ عن العظم وجيء بانكلترة على صورة بطينٍ ملأَ جوفهُ شحماً وافعمهُ مدامًا فاشبهَ نحي سمن او زقَّ خمر ورأى بين يديه ذلك الصعلوك فتاه عليهِ تيه الملوك. فقال لهُ الارلندي رحماك بالورد رحماك فقد اشرفنا من الجوع على الهلاك فاجابهُ لا بأس لا بأس فان الذاهبين يفرغون في دائرة المرحمة مكانًا للمقيمين ...

وجاء بالتلغراف من لندره ان الفاقة قد انشبت مخالبها في اهل الجانب الغربي من ارلنده فمات فيهِ كثير من الناس جوعًا ـ ذلك بما عمهم من عدل دولة الانكليز بتمتع لورداتها وامراؤها ورجال دولتها بالملايين ويموت سائر الرعية جوعًا .. يموتون غير مأسوف عليهم فقد ملكهم الوهم حتى منعهم من دفع الموت ولو بالموت

وكتب من مدينة نيويورك ان بارنل النائب الارلندي قد خطب في (بوفالو) بما معناه : ان ارلندة جديرة بان تنال الاستقلال وانهُ من واجبات اهلها ان يبذلوا دمهم في المدافعة عن بلادهم ثم قال انهُ لا يعلم ان كان بالامكان حصول التراضي بالصورة السلمية ولكنهُ يرى ان لا بد من طرد كبار اللوردات على اي الاحوال . وهذا النائب الارلندي من زعماء بلاده المعروفين بالحمية والغيرة الوطنية هاجر الى اميركا ليستحث الارلنديين المقيمين بتلك البلاد على مساعدة اخوانهم بما ينقذهم من جور الانكليز .

ولهُ من مقال سياسي

في سفير الصين ببطرسبرج

كن كيف شاء نكد الطالع طبيبًا في سويسرة او قسيسًا في باريس او شحاذًا في ايطاليا او فلاحًا في مصر فذلك خير لك من ان تكون سفيرًا لابن السماء سلطان الصين ـ خصوصًا في بطرسبرج ـ

فقد اوحي الى الجرائد من اخبار السلطنة السماوية ان (هنك تنك . بالضم او بالكسر او بهما جميعًا على لغة الانكليز) عاد من سفارته في الروسية مسرورًا بما تم على يده من الوفاق راجيًا ان يرى نور وجه السلطان وينال من انعامهِ ما يتيه بهِ على الناس فرأى ولكن وجه الشرطي على باب المدينة ونال ولكن قيد السجان

ثم امر ابن السماء بعقد ديوانهِ الكبير للحكم على هنك تنك فقال احد الوزراء يعلق من رجلهِ بشجرة عالية ويجعل في عنقهِ من الحجارة ما يزن ثقل المال الذي عاهد الروس عليهِ وقال غيره بل نجعل في محبسهِ ابرًا على قدر ذلك المال عددًا وندغدغه عليها حتى يموت وقال اخر بل نربط يدهُ الحجارة ونجعل في الطريق الابر ونربطهُ من جلده برجل مهر جموح ثم رفعت هذه الاراء للمقام السلطاني ليختار منها ما يوافق رأيهُ الكريم

اما هنك تنك فلا يزال في السجن مجردًا من رتبته ووظيفته معلق الحياة بما سينطق به السلطان

ولكن قتل السفير شنقًا معكوسًا او دغدغة على الابر او تلاً بارجل الخيل لا ينقض العهدة التي ابرمها ولا يمنع الروسية من مطالبة الصين بالخمسة الملايين

وقد تبين ذلك لدولة ابن السماء فرامت مداركة الشر قبل وقوعه فوجهت فريقًا من الجند الى التخوم الروسية ارهابًا وانذارًا

اجل ان السلطنة التي دخل الفرنسويون عاصمتها ببضعة عشر الف مقاتل تروم ارهاب القوزاق بذوائب جندها وتدويخ بلاد الروس باخفافهم الصفراء

وكتب في

اهل الكهنوت

في فرنسا

قضي الامر وجفّ القلم . فقد صدر الامر من رئاسة الجمهورية الفرنسوية بنفض رهبانية الجزويت وبحظر التعليم على سائر الرهبان الاّ من كان مرخصًا له في ذلك او من التمس الرخصة ونالها في خلال ثلاثة اشهر وما ادراك ما رهبانية الجزويت طائفة من اهل الكهنوت على مذهب الكاثوليك يبلغ عددهم ثمانية الوف او يزيدون ومنهم نحو الف وتسعمائة راهب في البلاد الفرنسوية

وهم اهل العلم والسياسة والذكاء والاجتهاد والهمة والفضل والثبات والبأس لا يعارضهم في ذلك معارض ولا يدرك شأوهم فيه

ينشئون المدارس ويجلبون المنافع ويكتشفون الغوامض ويستخرجون اسرار العلوم منتشرين في اقطار الارض واصلين بياض النهار بسواد الليل سعيًا في تعليم الجهلاء وتهذيب المتوحشين وتمدين الاقطار وجمع آثار المعارف

فمن تدبر مزاياهم الظاهرة وآثارهم الباهرة لم يتمالك من استنكار ما تعاملهم به الدول من العنف والغلظة فقد نفتهم اسبانيا غير مرة وابعدتهم المانيا واقصتهم فرنسا على عهد ملوكها المعروفين بالتعصب في المذهب الكاثوليكي وحظرت عليهم الروسية دخول بلادها وجافتهم الدولة العثمانية في صدر هذه المائة ولم يسلموا من مناواة البابا في بعض الاوقات على كونه رئيس مذهبهم

غير ان اعداءهم يحتجون على مقاومتهم بما نذكر بعضه على سبيل الحكاية متبرئين من تبعته وغير قاطعين بصحته فمن ذلك ان هاته الفرقة تشبه ان تكون جيشًا منظمًا بما ينذر رجالها من الطاعة العمياء لرئيسهم المسمى قائدًا بحيث تجتمع قواهم المتفرقة في وحدته الرئاسية فهو في كلهم وكلهم فيه

وان لهذا العسكر قصدًا لا يتحولون عنه ولا يتوجهون لغيره وهو تأييد السطوة الكهنوتية عمومًا والجزويتية خصوصًا وتقييد الخواطر بآرائهم بحيث يكون مشربهم محجة الافكار ورؤساؤهم ائمة الناس

وانهم لا يبالون في اي وعاء تخرج الواسطة التي يتخذونها لبلوغ ذلك القصد بحيث يجيزون الكذب ويتسامحون في السرقة ويحللون القتل

ويفسدون بين الوالد وولده والاخ واخيهِ والزوجة وحليلها وبالجملة انهم لايعبأون بشيء من المنكرات على شرط ان يمكن توجيه غايتهِ لما يلائم ذلك القصد

وذلك بعض ما يدّعيهِ اعداء الجزويت وما اعداؤهم بقليل فان فرقة البرونستنت وهي الوف الوف وجماعة الماسون واهل حرية الضمير اي الذين لا يدينون بدين كل هؤلاء لو تمثل لهم الجزويتي في الماء لما وردوهُ وان كانوا ظماء

وانا لنبرأ من موافقتهم على جميع ذلك او على بعضهِ ولا تبعة علينا في الحكاية فانما نحن نقلة وليس على الناقل من سبيل

وكيف كان الامر فقد صدر حكم الجمهورية بنفض جمعية الجزويت وتعطيل مدارسهم وهو بمنزلة النفي لامتناع ان يقيموا بهاته البلاد افرادًا متفرقين مع فناء وجودهم الذاتي في الوجود الاجتماعي على ما نقدم بيانه الا ان تؤيدهم القوة القضائية فيما عزموا عليه من اقامة الحجة او ان يقوم ارباب العقيدة بنصرتهم ناشرين لواء الثورة كما تنذر بهِ جرائدهم

غير ان نفوذ امر الدولة ادنى الى الامكان من ذينك الوجهين فان الوزراء لم يصدروا ذلك الحكم جزافًا وانما بنوه على الاحكام السالفة والقوانين السابقة وغير ذلك من الاسانيد التي لا بد للقضاة من تأييدها اما ثورة اهل العقيدة فلعلها لا تتجاوز حد الوعيد اذ الغالب على هؤلاء في البلاد الفرنسوية انهم من اهل النعمة وابناء القصور من كل من

خطرات النسيم تجرح خدَّيـ ـهِ ولمس الحرير يدمي بنانه

فاذا تبين ذلك علمنا ان لا بد للجزويت من الهجرة الى غير هذه البلاد . وعندنا ان الاقطار الشرقية عمومًا والولاية السورية خصوصًا لا تحرم من وفودهم عليها

اقوال متفرّقة

لم تجيء هذه الاقوال مثبتةً في الجرائد التي تولى اديبنا تحريرها وانبثت فيها نفثات يراعهِ البليغ فهي بعض فصول ومقالات متفرقة عثرنا عليها بين آثاره مخطوطةً ببنانه ومنها ما كتبه في آخر ايامهِ الزاهرة كترجمة السيد جمال الدين الافغاني التي اثرناها عنه في المقدمة الاولى من تاريخ مصر للمصريين اعتمادًا على كون الفقيد من اعرف الناس باحوال ذاك الرجل الحكيم وقد اثبتناها في هذا القسم معدودةً لدينا في ترتيب هذه المنتخبات من اقواله المتفرقة وكتاباته المنثورة التي لم تجمع في حياته ولم تُطبع

قال

في جمال الدين الافغاني

هو الحكيم الخطيب البالغ الحجة النبيه المتوقد الذكاء الجريء الذي لا يعرف الخوف النسيب

السيد جمال الدين الحسيني الافغاني ولد بكابل في بيت شرف وعلم وعمره الان نحو ٤٥ عامًا وطلب العلم بالفارسية والعربية على ما جرت بهِ عادة الامراء والعلماء في بلاده فتبحر في المنقول والمعقول وغلبت عليهِ مذاهب قدماء الحكماء فداخلهُ في ذلك بداءة بدء شيء من التصوف فانقطع حينًا بمنزلهِ يطلب الخلوة لكشف الطريقة وادراك الحقيقة حتى صار لهُ في القوم كثير من الاتباع والمريدين كل ذلك وهو دون العشرين سنًا ثم خرج من خلوتهِ مستقر الرأي على حكم العقل واصول الفلسفة القياسية ومات عامئذٍ امير الافغان عن ولدين وهما شير علي خان ومحمد اعظم خان فاقتتلا على الولاية فانتصر جمال الدين للثاني فقرّبهُ وجعلهُ من رؤساء جنده فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جراءة واستخفافًا بالموت واقام على ذلك تسعة اعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان حتى دارت الدائرة على محمد اعظم خان فانصرف الاولياء عنهُ الا جمال الدين ونفرٌ غيره من الامناء فسار بهم الى الهند فلم يلبثوا ان اوجست حكومة الانكليز خيفة من صاحب الترجمة فعاد الى افغانستان ثم هاجر الى الحجاز على قصد المجاورة فلم يلائمهُ ثمَّ الهواء فقصد الاستانة واقام بها مجهول المكان حتى اهتدى اليهِ بعض اكابر الوزراء فعرف قدرهُ وفضلهُ فجعلهُ من اعضاء مجلس المعارف العالي ثم اقترح احد الامراء عليهِ ان يخطب في دار الفنون فاجاب وكانت خطبتهُ في الصناعات فانكر مشائخ العلم اشياء منها واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيرًا على صاحب الترجمة لواقعة حال جرت لهُ في مجلسه فالتمس من الدولة ابعاده فارسلتهُ الى الحجاز فاقام فيهِ مضطرًا وكان قد عرف بالاستانة رياض باشا احد وزراء مصر واتصل منهُ باسباب مودة فقصد وادي النيل عام ١٨٧١ فاجرت لهُ الحكومة الخديوية رزقًا كافيًا على ان يكون من المدرسين فجرت بينهُ وبين بعض علماء الازهر مناظرة افضت الى المنافرة فانقطع الى منزلهِ وصار لهُ فيهِ حلقة تدريس يحضرها كثير من الطلبة بل من المدرسين ثم صارت حلقته ملتقىً للنبهاء من رجال الحكومة والوجهاء فكان يكاشف بعضهم بآرائهِ الحرة ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل على انهُ بقي مجهول الشأن عند العامة حتى ظهرت آثارهُ وآثار مريديه في جريدة مصر فاظهرت شأنهُ وصارت تنشر لهُ بعض المقالات تارة باسمهِ ومرة تحت حجاب اسم مصنوع مثل «مظهر بن وضاح» فطار صيته وعظم نفوذه

وكان السيد جمال الدين كثير التطلع الى السياسة شديد الميل الى الحرية قوي الرغبة في انقاذ المصريين من الذل فلما عظم التداخل الاجنبي في مصر واختلت امورها المالية علم ان لا بد من تغير احوالها فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع الكلمة على مبداء الحرية فدخل الماسونية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء ثم انشاء محفلاً وطنيًا تابعًا للشرق الفرنسوي ودعا مريديه من العلماء والوجهاء اليهِ فصار اعضاؤه نحوًا من ثلاثمائة عدًا وعظم اقبال الناس عليهِ حتى ان توفيق باشا ولي العهد حينئذٍ طلب الدخول فيهِ وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة الانكليز جهر بذلك غير مرة ونشر في

جريدة مصر فصولاً ناطقة بهِ خصوصًا بعد اعتداء الانكليز على ابناء ابيهِ فهاجوا عليهـا وترجمتها جرائد لوندرة واهتموا بها كثيرًا حتى ان المستر غلادستون تولى بنفسهِ امر الجدال في موضوعها فلما عظم شأن محفلهِ داخل الخوف منهُ قنصل انكلترة فوشي بهِ الى الحكومة وبث الرقباء في المحفل فسعوا فيهِ فسادًا وفي خلال ذلك بلغت احوال مصر نهاية الارتباك والاختلال فظهر للسيد جمال الدين ان الخديو اسمعيل مخلوع لا محال فكشف الغطاء عن مقاصدهِ السياسية واخذ يسعى في انفاذ اغراضهِ فلقي الموسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا ومكاتب التيمس وكلهما بلسان حزب كبير فهال امرهُ بعض امراء المصريين فقويت بذلك حجة وشانه ونفذت سعاية اعدائه فامر الخديو الجديد بنفيهِ اواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق لشهر سبتمبر سنة ١٨٧٩ فأُخذ غلسًا وقبض على من كان في حلقته وارسل هو وخادمه الامين « ابو تراب » مخفورين الى السويس ومنها الى ابو شهر « فرضة في العجم » وهو الان بحيدر اباد مرفوع المكان عالي المقام وبقيت كتبهُ واوراقهُ في مصر وقيل ان روجرس بك اخذها ثم اعيدت لصاحبها

قال اديب . عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مريديه وخاصة محبيه طول مدة الاقامة بالمحروسة والاسكندرية فكلامي في ترجمة حالهِ عن علم واختبار على انني ملتزم فيهِ جانب الصدق بريء من الهوى يعرف هذا كل من عرف السيد جمال الدين والله على ما اقول وكيل

والعهد بهذا الحكيم انهُ اسمر اللون ربعة ممتلئ قوي البنية جذاب النظر نافذ اللحظ خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زي علماء الاستانة وانهُ عزب عفيف النفس قانت كثير القيام لا ينام الاَّ الغلس الى الضحى ولا يأكل غير مرة واحدة في اليوم على انهُ يكثر من شرب الشاي والتدخين وهو قوي العارضة ميال الى المعارضة طويل الحجة واسع المحفوظ نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك استار السرائر ولكنهُ على فضلهِ لا يسلم من حدة المزاج ومن عجائب ذكائهِ انهُ تعلم اللغة الفرنسوية او بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئًا كثيرًا في اقل من ثلاثة شهور بلا استاذ الاَّ من علمه حروف هجائها يومين ومن غرائب فضلهِ انهُ كان يتبع حركة المعارف الاوربية والمكتشفات العصرية ويلم بما وضع اهل العلم وما اخترعوهُ جديدًا حتى كأنهُ قرأ العلوم في بعض مدارس اوربا العالية . ومن مدهشات احوالهِ الدالة على ثبات جأشه وعفة نفسه انه قبض عليهِ لما لا نعلم من الشر فكان سائرًا الى الخطر سير الشجاع الى الظفر وانهُ انزل الى البحر في السويس منفيًا خالي الجيب فاتاه فيما يقال السيد النقادي قنصل ايران بذلك الثغر ومعهُ نفر من تجار العجم وقدموا لهُ مقدارًا من المال على سبيل الهدية او القرض الحسن فردَّهُ وقال لهم احفظوا المال فانتم اليهِ احوج ان الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب

ولهُ مطلبٌ في

صناعة الكتابة

قال

حد الكتابة واقسامها

الدرس (١)

الكتابة صناعة موضوعها التعبير عن الخاطر برسوم معلومة . وفي اللغة الجمع وهي مصدر قولهم كتب يكتب كتابة وكتابًا ومنهُ قيل لجماعة الخيل كتيبة . ووجه المناسبة بين المعنيين ان الكاتب يكتب اي يجمع الحروف والالفاظ لتأدية ما يمرُّ ببالهِ من المعاني وما يشعر بهِ من الانفعالات

وقد جعلها المتقدمون اقسامًا شتى بقدر مواضيعها والخطط الدائرة عليها في ايامهم فقالوا كتابة الحسبة وكتابة المال وكتابة الانشاء وهلمّ جرًّا وجعلوا تحتَ كل من هذه الاقسام فروعًا كثيرة يتيه الذهن في حدودها على انهم توسعوا في معنى الانشاء حتى اطلقه الكثير على مجمل تلك الاقسام فقالوا صناعة الانشاء وهم يريدون الكتابة على الاطلاق

والانشاء في اللغة مصدر قولهم انشأ الشيء ينشئهُ اذا ابتدأ واخترعه فلعلَّ السبب في اطلاق لفظهِ على الكتابة ان اختراع المعاني هو الشرط الاول في اتقان هذه الصناعة كما سيجيء في بابهِ . وهو اي الانشاء عند كتّاب لغتنا الشريفة نوعان مختلفان وهما النثر والسجع ولكل منهما اصول معلومة وقواعد محدودة وصفات مميزات تذكر في مواضعها تفصيلاً

الدرس (٢)

النثر والسجع

النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة ولا صنعة الا ما يكون من وضع الكلام في مواضعهِ وإيثار ما يألفهُ السمع والطبع منه فهو من هذا الوجه مقدّم على سائر انواع الكلام بل هو الاصل في الانشاء وما سواه فرعٌ منهُ فانهُ طبيعيٌّ اصيلٌ وما دونه صناعيٌّ حادث والاصل في الطبيعة لا محالة . يدلُّ على ذلك ان هذا الكلام المقفى الذي يسمونهُ سجعًا لا يكاد يوجد في غير اللسان العربيّ فلو كان طبيعيًا لوجب ان يكون في جميع اللغات او في المعدودة منها اصولاً لا اقلّ

اما السجع فهو الكلام المقفى على حد الارجوزة من الشعر الاّ انهُ غير موزون ولقد سمي بذلك استعارة من قولهم سجع الحمام اذا هدر وسجعت الناقة اذا مدّت حنينها على جهة واحدة . وهو وان حسن في بعض الاماكن كصدور الخطب ومقاطع الكلام بما فيهِ من تناسب الالفاظ وتماثل الفواصل التي يحسن وقعها في الاسماع الاّ انهُ في الجملة دون المرسل البليغ بهجة وصفاء وموافقة لمقتضى الحال لتقيد الكاتب فيهِ بلفظ لا بد منه او من اخيه فلا ينبغي استعماله في بيان الحقائق العلمية ولا في ايضاح الاصول الادبية ولا في غير ذلك من مواضع النقد والسرد الا اذا جاء عفوًا غير مقصود بالذات

الدرس (٣)

لابن خلدون فيما نحن بصدده كلامٌ جدير

بالنظر والتأمل والاعتبار وهو قوله . السجع هو الكلام الذي يؤتى بهِ قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منهُ قافية واحدة والمرسل هو الذي يطلق الكلام فيهِ اطلاقاً ولا يقطع اجزاءه بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها وقد استعمل المتأخرون اساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الاغراض وصار هذا المنثور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن . واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيهِ وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً اهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليهِ وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من احوال المخاطب والمخاطب . وهذا الفن المنثور المقفى ادخل المتأخرون فيهِ اساليب الشعر فوجب ان تنزه المخاطبات السلطانية عنه اذ اساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب والتزام التقفية ايضاً من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباين والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسلهُ الملكة ارسالاً من غير تكلف له اما اجراؤها على هذا النحو الذي هو من اساليب الشعر فمذموم وما حمل عليهِ اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل وولعوا بهذا السجع يلفقون بهِ ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب حتى انهم يخلون بالاعراب والتصريف في الكلمات اذا دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان مع صحتها . اه .

الدرس (٤)

هذه نموذجات من الكلام المرسل والسجع نوردها تذكرة وبياناً . فمن اطائب ذاك قول ابن خلدون . ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء والسبب في ذلك والله اعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل . والاعتمار انما هو عن جدة الامل وما يحدث عنهُ من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليهِ من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل . اه

وجلُّ كلام ابن خلدون ولا سيما في مقدمة

تاريخه على هذا النحو من السلاسة ومناعة التركيب . ومن بليغ الكلام المرسل قول علي ابن الرماني في وصف البلاغة (البلاغة ما حط التكلف عنهُ وبني على التبيين وكانت الفائدة اغلب عليهِ من القافية وجمع سهولة المخرج مع قرب المتناول وعذوبة اللفظ مع رشاقة المعنى)

ومن مستكمل البلاغة قول الفرزدق لحسين بن علي رضي الله عنهما وقد سأله عن الناس في العراق عند المسير اليه فقال القلوب معك والسيوف عليك والنصر في السماء

ومن جيد السجع مقامات الامام الحريري ورسائل بديع الزمان والهمذاني وقطع كثيرة للقاضي الفاضل وجملة غير يسيرة لكتاب مصر من بعدهم الى انقراض الدولة الفاطمية

ولم يدخل هذا السجع كلام القدماء في الجاهلية وصدر الاسلام الاَّ ما كان منهُ عفو القريحة فواصل غير مقفاة او ما يعزى الى الكهان والمشعوذين ما يراد بهِ الايهام والابهام فلما استولت العجمة على الالسن وضعفت قوة الاختراع في الاذهان سرى داءه في المكاتبة الى هذا العهد فعدل الكتاب عن الكلام الفحل واللفظ الساذج والاسلوب الطبيعي الى هذه الاسجاع الملفقة البالية يتناقلونها خلفًا عن سلف ويطيلون بها الكلام بلا طائل سترًا لقصورهم في ابتداء المعاني وايضاح وقائع الحال من طرق البلاغة والايجاز حتى صارت من العادات وحصلت بين الملكات فدخلت في في المراسلات الاخوانية والمكاتبات عن الملوك والامراء في عظائم الامور وسقط من ورائها الكلام المرسل الى غاية السفالة والركاكة فصار ما يكتب منهُ رطانةً يفهمها بعض الجهلاء وتغمض عن الراسخين في العلم

قال ابن الاصبع لا تجعل كلامك كلهُ مبنيًا على السجع فتظهر عليهِ الكلفة ويتبين فيه اثر المشقة وتتكلف لاجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل وربما استدعيت كلمة للقطع رغبة في السجع فجاءت نافرة من اخواتها قلقة في مكانها بل اصرف كل النظر الى تجويد الالفاظ وصحة المعاني واجهد في تقويم المباني فان جاء الكلام مسجوعًا عفوًا من غير قصد وتشابهت مقاطعهُ من غير كسب كان وان عزَّ ذلك فَ تركه وان اختلفت اسجاعهُ وتباينت في التقفية مقاطعهُ فقد كان المتقدمون لا يحفلون بسجع جملة ولا يتقصدونه الا ما انت بهِ الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصد ولا اكتساب وانما كانت كلماتهم متوازنة والفاظهم متساوية ومعانيهم لاصقة وعباراتهم رائقة وفصولهم متقابلة وجمل كلامهم متماثلة . اه .

صفات الكاتب وما يحتاج اليهِ

الدرس (٥)

قد اشترط بعض المتقدمين في الكاتب شروطًا كثيرة منها ما يلزم في كل انسان على الاطلاق وفي كل ذي خدمة عمومية بالجملة ومنها ما يختصُّ بالكاتب ولكن على ذلك العهد فالضرب الاول خارج عن موضوعنا لدخوله في علم الاخلاق والثاني من مطالب التاريخ اما شرطنا على الكاتب فهو من جهة الادب الاجتهاد والثبات والاستقامة ورعاية الحقوق

وحفظ الواجبات ومؤدى قول الحكيم الفرنسوي الموجه الى كل اناسي

ذاتك احفظ وتفقه واعتدل

واحيَ للناس يحيي الناس لك

ومن جهة الكتابة بالذات ان يعلم اصول اللغة ليعصم لسانه عن الخطاء ما امكنت العصمة لإنسان ويحفظ قطعة كافية من العلوم والاداب خصوصًا ما يتعلق توًا بخطة الكتابة ليكون على بينة من الامر فيما يقول اما الكتابة العالية البالغة حد العالمية فلا تقف عند حد ولا يحصرها شرط فانها هي العلم الذي يعرف اوله ولا يعرف اخره . وليست في شيء مما نحن بصدده وانما شأننا بيان صناعة الكتابة وما يشترط فيها من حيث ادخال المعاني في الافهام من اقرب واصح وجوه الكلام وهذا اوان الشروع في ذلك بعون الله

الدرس (٦)

الكتابة كما تقدم في التعريف صناعة يراد بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات بوضع صحيح واسلوب صريح فهي ذات ثلاثة اركان: الخاطر المراد ايضاحه وهو الانشاء والوضع الذي يبدو به ذلك الايضاح وهو البيان والكيفية التي يحصل بها ذلك الوضع وهي الاسلوب

فالانشاء او الاختراع هو الخاطر الذي يجده الكاتب ويقف فكرهُ عليه فيجعله موضوع كتابته فهو من هذا الوجه قوة من الفكر بايجاد الخاطر والموضوع والنصاحة هي الحكاية او التأثير او الاقناع ولا بد في كل مكتوب من احدى هذه الثلاث وقد يجتمعن به والحكاية تحصل ببيان الواقعيات والتأثير بالصور المؤثرة والاقناع بالبراهين

والوضع هو تنسيق اقسام الموضوع فانهُ لايكفي ان يكون هناك خاطر بل لا بد من ملاحظة النظام في كيفية ايضاحه فانهُ لا جلاء بلا تنسيق ويفقد الغرض وعوضًا من الافادة والاعجاب والتأثير والاقناع يتعب القارئ عبثًا وقبل الكتابة لابد من وضع رسم ولو رؤوس اقلام فانهُ اذا لم يوضع الرسم يرتبك الذكي ولا يعرف كيف يبتدئ وكذلك يدخل في تفاصيل مملة ويضيع المسألة المهمة المقصودة بالذات ويصير مظلمًا كلما اجتهد في الايضاح ومن ابن لهُ ان قارئيه يصبرون الى ان يعود ليهتدي سبيله وفي الكتابة القصيرة لا يستغنى البتة عن هذا الرسم ولكن العادة تجعلهُ مصدرًا في الذهن على الفور بحيث ان الكاتب يسلك سبيله المعلوم بلا دليل وكيف كان ففي التنسيق ثلاثة امور ضرورية وحدة الموضوع وتلاحم الاجزاء واستقلالها التدريجي

والاسلوب هو العبارة التي توضح بها الفكر ولذلك يقال لكل انسان اسلوب وهي تتعلق بانتقاء اللفظ وكيفية سرده . قال فولتير: الاشياء التي تقال تؤثر اقل من كيفية ادائها فان جميع الناس يتقاربون في الافكار التي هي بمدرك كل انسان والفرق في كيفية التعبير فانها تجعل الاشياء معتادة غريبة وتقوي الضعيفة وتجسم البسيط وبلا حسن الاسلوب لا يمكن ان يوجد كتاب جيد في اي موضوع

ويقول غيره: حسن الكتابة فهو حسن

الفكر وحسن الشعور وحسن التعبير فيقتضي الذكاء والذوق . والاسلوب يتضمن استعمال القوى العقلية جميعًا ولا يبقى من الكتب الاَّ ما كتب جيدًا فان الاختراعات والاكتشافات لا يخلد بها الكتاب ما لم يكن حسن العبارة مكتوبًا بذوق ونبالة

والاسلوب وهو النفس هو الدال بالعقل على صفة الكاتب حتى قيل انهُ مظهر الكاتب لتعلقهِ بقوى العقل والنفس وحيث ان لكل انسان صفات تميزه عن غيره فلذلك اختلفت الاساليب والانفاس

(تنبيـــه من جامع المنتخبات)

يعزُّ بالقارئ اللبيب فيما هوات فصولٌ ومقالات حال دون اتمام بعضها في حياة الفقيد موانع واعذار كمقالة « التعليم الالزامي » التي كان قد شرع في طبعها سفرًا قائمًا برأسهِ ودون بعضها الآخر طروُّ اسبابٍ من مرور الوقت الطويل افقدتها البقية كفصل « الاخلاق » وفصل « الهند » وخطبة « حاضر الخاطر » التي وردت الينا بعد انقفال باب الخطب الذي افتتحنا بهِ هذه المجموعة فاضطررنا الى اثباتها على خلوّها من البقية قصد حفظها اثرًا من اثار الفقيد قانعين بما وقع الينا منها قطرات من بحر آدابهِ الزاخر ودررًا مما نظمتهُ يـد الحكمـة في عقد فضلهِ الباهر

الهند

وهي مقالة انشأها عام ١٨٧٥

(الهند تهذب العالم بلغتها وعاداتها)

(وشرائعها واساطيرها)

ان الشاخص من اوربا الى الهند حاملاً تذكار التمدن من بلاده يندهل من اول وهلة ويخال انهُ يحمل الى هذا الشعب انقى معرفة واطهر ادب فيتكلف ذكر كلمات تنبئ بما رآه من تعصب وخشونة حيث لا يرى سوى بعض عادات ومواسم لا يدرك كنهها وتماثيل اصنام تروعه فيعود الى وطنه هازًا كتفيه وقد قل من رغب من السياح البحث في شأن الهند وندر من تنازل منهم الى النظر في ما فيها وانهم لم يروا سوى الظاهر منها فهم لذلك لا يعلمون من بعده شيئًا وزادوا على ذلك زعمهم انهُ ليس بها غير ما علموا وابدوا ذلك ببرهان غير مستقيم مخافة ان يحكم عليهم بالجهل قال جاكمون . ماذا ينفع السنسكريت (لغة الهنــد المقدسة) وافتخر بهذا الوهم فانشأ تاريخًا جديدًا للشرق تناقلهُ الناس من بعده واستقبلته خزائن الكتب وهو اليوم ينبوع الخلل الذي يؤلف ثلاثة الارباع مما يعلم اهل اوربا عن هذه البلاد ولا يزال ثمة كنوز مخفية من فصاحة وتاريخ واداب وحكمة على انهُ يكاد يكون مستحيلاً ادراك الغاية من معرفة حال هذه البلاد بدون اتخاذها مقامًا والتمكن من معرفة السنسكريت لغة البلاد القديمة والتاموال اللغة العلمية فانها الواسطة الوحيدة لمعرفة حقيقة الحال ولا بد لي من ملامة بعض المترجمين والكتاب على ثقة بوفرة علمهم حيث كانوا لا يبحثون في معنى الاشعار والمقالات

الدينية الهندية على ما يقتضيه التحرّي فهم لذلك يخطئون بقصد الاصابة ولا ينكر ان في تعلم السنسكريت صعوبة وانهُ يقتضي لادراك معانيها واستجلاءها من التوجيهات والاستطرادات والتصورات الشعرية المعترضة في صدر تلك الكتابة وزد على ذلك ان للسنسكريت اصطلاحات ونصاريف ليس ما يقابلها في اللغات الحديثة ولا يدرك كنهها الا بالاصطلاح والتقريب وذلك يقتضي الدرس الطويل الذي لا يتيسر اجراؤه الا في تلك العادات والشرائع والتقاليد وكل ما وصل اليهِ الاوريون من معرفة حال الهند ليس من العلم بشيء والوصول الى الغاية من ذلك تقتضي استئناف الاستطلاع واعادته من اولهِ فاذا تمَّ ذلك نرى ان الهند ام الجنس البشري ومهد تقاليده وانهُ لايكاد العمر يكفي لتلاوة ما ابقتهُ لنا الهند القديمة من كتب في الآداب والشعر والفلسفة والمذهب والشتى من العلوم والطب على ان ذلك سيتم بالصبر فان جماعة من العلماء تألفوا في بنغال ابتغاء جمع كتب الويدا وترجمتها (الى ان قال تعريبًا)

سلام يا ارض الهند الازلية يا مهد الانسان سلام ايتها الامّ التي لم يستطع كرور الدهور وغارات الايام ان تلقيك في حيز النسيان سلام يا وطن الايمان والمحبة والشعر والعلم . لله كم اتمنى ان يكون ماضيك مستقبلاً لقد عشت في غور غاباتك العجيبة معالجًا ادراك اسرارك فاوحى اليّ نسيم الليل وهو يزف عليها هذه الكلمات الرمزية الثلاث . زيوس جيوفا برهما فسألت البرهميين والكهان تحت الهياكل والاثار شرح ذلك فكان جوابهم الحيوة هي الفكر والفكر هو معرفة الله انهُ كل شيء وفي كل شيء واستنطقت طائفة العلماء فقالوا الحيوة هي المعرفة والمعرفة هي استطلاع صفات الحال الحسنى فقصدت حكماءك قائلاً مالي اراكم منتصبين هنا من ستة الاف سنة وما هو هذا الكتاب الذي تقلبون صحفهُ فتبسموا وقالوا الحيوة هي نفع النفس والناس وحيوة المرء حسناته ونحن نتعلم ما يجعلنا ذوي نفع وحسنات من هذا الكتاب كتاب ويدا وهو كلمة الحكمة الازلية علة كل علة المنزل على ابائنا وسمعت الشعراء ينشدون والحب والزهور والحسن تحمل اليهم وحيًا الهيًا . رأيت الفقراء يبسمون في الالم على فراش من ضرام وكأن الالم يروي الله عن الله ثم صعدت الى ينابيع الكنج وهناك الوف من الهنود يجثون للشمس المنتشرة على ضفتي النهر المقدس وقد حمل اليّ النسيم هذه الكلمات « الارزّ قد اخضرت وريقاته في المرج والنارجيل اثقلتهُ اثماره فلنشكر لمن وهب» . على اني مع صدق هذه الامانة وسموّ تعليم علمائك وحكمائك وبرهميك وشعرائك قد رأيت بنيك ايتها الام المسكينة ضعفاء خاملين منغمسين بالجهل مستسلمين بلا شكوى لما يسلب دمك وثروتك وافكارك وحريتك فكم سمعت انينًا محزنًا في الليل في زوايا الغابات وضفات الانهار والاجام فهل كان ذلك صوت ازمنة غابرة ترجع النواح على التمدن المنقوض والعظمة الفقيدة ام هو انين جنودك السباهيين السيبائيين وهم في المعترك مع نسائهم واولادهم غداة الفتنة يلومون انفسهم على ما تولاهم من الجزع ام هو صوت الرضعاء يشتكون الجوع وقد سلبهم

الموت والدائم فلله من قوم يسمون واليد بالحديد تعلو رؤوسهم ويتكلمون بالزهو والمجاعة تبتلعهم ليموتوا بغتة كابطال الرومان ويحتفرون بايديهم اجداث مجدهم القديم وإثارهم واستقلالهم فماذا عساه ان يكون سبب هذا الانقلاب فهل هو فعل القرن فقط وهل قدر على الشعوب ما قدر على الاحاد من الفناء. كيف هذا ولا ازال اسمع البرهمي والعالم والحكيم والشاعر يذكرون فضائل الاجتماع وخلود النفس والايمان بالله وارى الشعب شاكرًا لمن وهبهُ ارضًا كثيرة الخصب وسماء كثيرة النور الا اني ادركت غاية ما بهم فرأيت ان الشعب قد عرض طهارة ايمانه للتعصب الوخيم وحريته واستقلاله للرق الاليم فاردت ان اكشف الستر عن الماضي باحثًا في اصل هذا الشعب الذى بات بلا قوة في الموادعة والمباغضة غير مائل الى الفضيلة ولا الى الرذيلة كمن يشخص نتمة دوره لدى اشباح وهكذا استنطقت التقليد في الهياكل والاثار في الخرائب وتصفحت كتب الويدا التي كتبت من الوف من السنين قبل ان تخطط ثيبة ذات المئة باب وبابل العظمى فسمعت شكوى الاشعار القديمة التي كانت تنشد تحت اقدام برهما قبل وجود رعاة مصر العليا واليهودية فبرزت لي الهند حينئذ بسطوتها الاصلية فتأثرت تقدمها مستنيرًا بما القته من الاضواء على العالم فرأيتها وقد علمت ادابها وعاداتها وشرائعها ودينها لمصر وفارس واليونان والرومان ثم شهدت سقوطها حين اوهنت الشيخوخة شعبها الذي ارسل اشعة نوره الى العالم ووسم الامم بسمة لا تمحى حتى ان الدهر الذي محا ذكر بابل ونينوى واثينا ورومية لم يستطع ان يمحو ذكرها

حاضر الخاطر

وهي خطبة القاها عام ١٨٨١ في جمعية زهرة الآداب . قال

كان في خلدي منذ وصلت اليَّ نوبة الخطابة اتمام ما بدأت في موقفي السالف من بيان انفعالات الشرقي في بلاد الغرب ولكن عرض لي من المقادير معاذير فصرفت بقية العزيمة الى امر سكن البال فلم يبق معهُ من حاجة للاستعداد والف الخاطر فصار من حاضره المتبادر. على انهُ ما صدفت عنهُ اذهان حكماء الانسان وحارت فيهِ الباب رضعاء الاداب وانحطت عنهُ خواطر اهل البوادر منذ اثمرت اقلام الكتاب في رياض البيان وانطلقت السنة الخطباء في مجال المقال لا احاول بلوغ ما لم يحلقوا ولفظ ما لم ينطقوا او اصابة ما لم يرزقوا ولكني اظهر حيرتهم وابين اختلافهم ليعلم ان الحقيقة الادبية المطلقة من وراء حجاب وان العلم بها نسبيٌّ يكون صحيحًا ولا يكون على كون الحقيقة حقيقةً لا محال

فقد رأيت لاهل هذا النطق على اختلاف حكايات الاصوات كلمات يتفقون منها على مادّة التركيب مختلفين فيما يشربونها من المعاني بحسب اختلاف الاوقات وتباين المشارب وتغاير الآراء حتى يمتنع ادراك حقيقتها على الباحث في اقوالهم الا من تجرّدوا عن التقليد وترفعوا عن الاقتداء بما ارتفعوا الى ذروة

العقل الكلي والفتح المطلق واين ما هنالك مثل هذا العاجز الضعيف بل اين منهُ عقول العقلاء وعلوم العلماء

فالحق كلمة لاخلاف في الحاء ولا في القاف المضعف منها بين الناطقين بالضاد كما انهُ لا خلاف فيما نتركب منهُ في سائر اللغات انهُ ربما وقع الانفاق في الصورة التي تحصل منها في الاذهان بين اهل الخطة الواحد من كل جماعة من الناس ولكنهُ ممتنع بين ذوي خطتين متغايرتين او ما نرى الحق العمومي يدّعيهِ كل احد من الناس على تباعد مقاصدهم فهو عند الامير قائم بقدس نبالتهِ وعند الغني بمحرم ثروته وعند الرئيس بمظهر الهامهِ وعند الحكيم بنفاد حكمته وعند القوي بحفظ ميزته وعند الضعيف الفقير التابع المعدم الخادم المأمور الفاعل المجهود بانصراف الميزة اليهِ ان كان ملتهب الدماغ وبقاء جلده عليهِ ان كان خامل الذهن وحصول ما ينبغي لهُ من وجه العدل ان كان من المعتدلين (والبقية مفقودة كما في التنبيه)

فصل في الاخلاق

الاخلاق مظاهر العواطف وتجليات السرائر وآثار الطبيعة والتربية فهي مختلفة في الناس بحسب اختلاف العوامل المؤثرة في قلوبهم وعقولهم وابدانهم . وهذا بديهي لا حاجة فيهِ الى البيان

وقد تنوعت آراء الناقدين في تلك العوامل الموجبة لاختلاف الاخلاق وانحطاط بعضها الى دركات السفالة والرذيلة وارتفاع البعض الاخر الى مقامات الشرف والفضيلة فرأى بعضهم الخلق الواحد منتشرًا في الجماعة الكثيرة فحسبوا ذلك ناشئًا عن موقعها من الارض او عن الاحكام الجارية عليها فعدّوا شريعة القوم وهواء البلاد مصدرًا للاخلاق . واستحكم هذا الرأي في اذهانهم حتى توهموا ان المقيم بهاته البقعة من الارض على خلق لا يحصل في المقيم بغيرها مما يخالفها هواء وان الاخذ بهذا القانون على طبع لا يكون في الاخذ بسواه مما يغايره . وهو غلوّ واغراق فان المواقع وان صحّ تأثيرها في الانفس والابدان الاّ انها لا تغير الحقيقة الانسانية في الانسان واذا لم تتغير هذه الحقيقة فحسن الاخلاق ممكن في كل مكان . اما الاحكام فانها اشد تأثيرًا في الطباع من سائر العوامل ولا سيما اذا استحكمت ومرّت عليها الايام . ولكثر ما اطفأت الاحكام القاسطة انوار فضائل كانت لولاها ساطعة تأخذ بالابصار ولطالما اوقدت الاحكام العادلة مصابيح كمالات كانت لولاها مطفأة مجهولة المكان . ولكن الاحكام وان عظم تأثيرها في الاخلاق فهي كالرماد تستر الجمر ولا تطفئهُ والغبار يخفي النصل ولا يغير جوهره فكرم الخلق ممكن الوجود في كل هيكل انساني على الاطلاق

ودليلنا على الاول انهُ اما ان يراد بالموقع المكان من حيث الارتفاع او الانخفاض واما ان يراد بهِ الهواء من حيث الحرارة والبرودة فان كان الاول فليس اهل الجبال جميعًا على خلق واحد وليس اهل السهول كذلك وانما فيهم الاخيار والاشرار والسفلاء والفضلاء وان

كان الثاني وقيل البزودة مانعة من قبول العبودية قلت اما ترون ضفالبة الشمال وان قيل الحرارة مانعة من طلب الحرية قلت اما سمعتم ببادية العرب ثم اترون ان الانكليزي السريع الحركة والالماني المتأني والصقلبي المتغافل على خلق واحد وهم في مواقع متشابهة او ترون الفرنسوي المشتغل والاسباني الكسول والايطالي المتسكع على طبع واحد

ودليلنا على الثاني ان الذين اوجدوا الاحكام العادلة كانوا من قبل تحت احكام الظلم كاهل الثورة الفرنسوية الذين خرجوا من تحت احكام الملكية المطلقة الى وضع الحكومة المقيدة وان ذوي الاحكام الظالمة كانوا من قبل تحت احكام عادلة كاصحاب خيانة عام ٥٢ تحت رئاسة نابوليون الثالث فانهم قتلوا الحرّية وداسوا رجالها وارجعوا القطر الى ما كان عليه من قبل ستين عامًا . فكما امكن وجود ذوي الاخلاق الكريمة كالشجاعة والنزاهة وحب الوطن في الذين كانوا تحت الاحكام الظالمة كذلك امكن وجود الطبيعة الرذيلة كالخيانة والغدر والاثرة في الذين كانوا تحت الاحكام العادلة

وكل هذا من باب الامكان فلا يتوهمن انا نريد القطع بعدم تأثير المواقع والاحكام في الاخلاق وانما غايتنا بيان ان هذا التأثير اقل مما يبالغون وان التربية قادرة على تعويض كثير مما يفقد الانسان بهذين العاملين

(والبقية مفقودة كما المعنا الى ذلك في التنبيه السابق)

***

التعليم الالزامي

وهو سفر غير تام شرع الفقيد في طبعه ببيروت عام ١٨٨١ ردًا على مذهب الآباء اليسوعيين في التعليم الالزامي وكان اذ ذاك محرر جريدة التقدم للمرة الثانية فوقعت بينه وبين اهل صحيفة البشير مناظرة في هذا الموضوع افرد لها هذا السفر ثم جاء مصر على اثر انقلاب الوزارة في ذلك العام فغادره غير تام

قال

«لا تكون السجون فارغة الّا اذا امتلأت»
«المدارس ولا تمتلئ المدارس الا»
«اذا حصل التعليم الزاميًا»

تمهيد

من رام الحقيقة لم ينصرف عن وجهة الحق ولم ينحرف عن مسلك العدل ولم ينطق عن هواه ولم يمل مع ضعف النفس . ان الحقيقة حقيقة لا يمسها الا المطهرون من كل دنيئة

ونحن نلتمس الحقيقة فيما نقول لا نشوبها بسفسطة القول ولا نطلي بها على الناس محالاً وانما نظهرها كما خلقت نورًا ونارًا تضيء ابصارًا وتبهر ابصارًا

وموضوع بحثنا في هذا الجزء الزامية التعليم من الوجه الذي قرّت عليه الاكثرية الغالبة في مجلس نواب الفرنسيس رابع وعشرين شهر كانون الاول عام ١٨٨٠ باتفاق ٣٥١ رأيًا يخالفها ١٥٣

وهو . ان يكون التعليم الابتدائي واجبًا على الاباء لولدهم من الذكور والاناث من السادسة الى الثالثة عشرة من سنيهم يلقى اليهم في المدارس الابتدائية او الانتصافية سواء كانت هاته المدارس ميرية عمومية او حرّة خصوصية وفي نفس بيوت الآباء يلقيه الوالد نفسه او من يختاره لذلك الشأن (البند الثالث من قانون التعليم الالزامي)

وان يكون هذا التعليم شاملاً للتهذيب الادبي والمدني . والقراءة والكتابة . واللغة ومبادئ البيان الفرنسوي والجغرافية خصوصًا جغرافية فرنسا . والتاريخ ولا سيا تاريخ فرنسا الى هذه الايام . وبعض الاصول الضرورية من علم القوانين وفن تدبير المنزل . ومبادئ العلوم الطبيعية والرياضية وكيفية استعمال هذه المبادئ في الزراعة وحفظ الصحة والمهن والاشغال اليدوية وادارة الآلات في اهم الصناعات . واصول الرسم والتخطيط والموسيقى . والتمرين البدني . والتمرين العسكري للذكور واشغال الابرة للاناث (البند الاول من القانون المذكور)

فقد رأينا ذلك في جرائدهم فطاب لنا نشره فاذعناه مستحسنين راجين ان يكون الفرنسيس قدوةً لسائر الناس في مأثرة التعليم الالزامي فكبر ذلك على صحيفة البشير لامرٍ يعلمهُ الله — والراسخون في العلم باحوال صحيفة البشير — فشددت علينا النكير وسوَّأتنا وخطأتنا كثيرًا ان التعليم من وجه الالزام ظلمٌ وكفرٌ وفحش وجهالة لا يحق للهيئة الحاكمة ولا يجب على الامة ولا فائدة فيهِ لاحد من الناس بل هو البلاء العميم يذهب بحرية الوالدين ويفسد الباب الاولاد وينقص من عدد العارفين ويزيد في عدد الجهلاء (العدد ٥٤٤ من البشير) فتعين علينا بيان حقية الالزام في التعليم وايضاح مزيته فاقبلنا على ذلك في الصحيفة نجلوهِ من اوضح اوجه البيان ونثبتهُ بالدليل والبرهان من النص الصادق والرقم الذي يكاد ينطق بغير لسان فامتنع الردّ على البشير من هذا الوجه فلاذت بجانب التحريف والتأويل وصرفت بحثنا العلمي الى وجهة العقيدة والدين حصرًا لا يخفى عن البصير وعياً ما كنا لهُ من قبل متوقعين ثم انبعثت علينا بما يأباه الادب فالتوى الامر وانقلب الموضوع وصارت المناظرة منافرة والجدال نزالاً فرأينا ان نفرد لهذا البحث الادبي جزءا برأسهِ نبثُّ بهِ رأينا فيهِ مستوعبين آراءَ ذوي النقد ونقاويم اهل الاحصاء على سبيل التقرير العلمي مجرّدين كل ذلك من سفاسف المجازفة واعراض المناقشة ضنًا بجوهر الحقيقة ان يكون عرضةً للقول الهراء ومضغة في افواه الجهلاء

وهذا اوان الشروع في البحث بحول الله

حقية الزام التعليم

الوالد مأمور من قبل طبيعة الوجود بحفظ المولود . والانسان من حيث انهُ حيوان ذو وجود بدني حسي ومن حيث انهُ ناطق ذو وجود عقلي معنوي فمن دعاهُ من حيز القوة الى جانب الفعل فقد لزمهُ حفظه في الحالين فكما انهُ يجب على الوالد ان يطعم الولد

ويكسوه ويقيه شرّ العوارض الطبيعية الى ان يشتدّ منهُ الساعد ويستغني عن المساعد كذلك يجب عليهِ ان يغذّي عقلهُ بالعلم والادب ويصون لبهُ عن مفاسد الجهل الى ان تنمو مداركهُ ويبلغ حد العرفان

فالعلم من حق الولد والتعليم من واجبات الوالد

والحكومة هي الهيئة المختارة لنصر الضعيف وانصاف المظلوم وحماية العاجز وحفظ الحقوق والدعوة الى الواجبات وهي مأمورة من قِبل وجودها الطبيعي بصيانة الوطن واعلاء شأنه وتسديد امور الامة وتنظيم احوالها بتوفير اسباب الراحة وتمهيد طرق السعادة وغير ذلك مما لا يتم ولا يحصل الاَّ بانتشار انوار العلم واضمحلال ظلمات الجهل . فاذا وجد من لا ينهض بما وجب عليهِ ومن يهمل الشأن الذي لا تكون المدنية ولا تحصل الراحة الاَّ بهِ فمن حق الحكومة ان تدعوهُ اليهِ ومن حقها ان تجبرهُ عليهِ

قال الحكيم فرنك الفيلسوف الفرنسوي المشهور في قاموسهِ الفلسفيّ ما معناه . ليست واجبات الحكومة منحصورة على حصر الشرّ في مكانه وعقاب مرتكب الشر بل يجب على الحكومة ان تسعى في سبيل الخير فتنشىء المنافع الوطنية وتعنى بكل ما يوجب نماء قوة الانسان ويضمن لهُ السعادة وعلو الشأن وكل ما يؤول الى اعلاء كلمة الانسانية .

فالزام الوالدين بتعليم ولدهم من حق الحكومة

وقد تبين ذلك للحكومات المستنيرة فسكنت اليهِ وحرصت عليهِ فتقرر في بروسية عام ١٧٩٥ وفي فرنسا على عهد حكومة المواثقة Convention عام ١٧٩٣ وفي سويسره وبلجيكا واكثر الولايات الاميركية واسوج ونروج وايطاليا والدولة العلية وامارة باد وانكلترة واوستريا والبرتغال والدنيمرك واليونان وباواريا وسكسونيا وورتمبرج واعيد تقريرهُ اواخر العام السالف في بلاد الفرنسيس وكان لهُ حيثما وجد آثار تذكر وتشكر كما سنبينهُ فيما يجيء

الاَّ ان اعداء الاصلاح لا ينظرون اليهِ من وجه الحق والمنفعة العمومية ولكنهم يكرهون النور من حيث يجيء ويخافون العدل والحق من حيث كان ولذلك وجد للتعليم الالزامي اعداء الداء يستنكرون منهُ ويستنفرون القلوب عنهُ يزعمون انهُ مخالف للحق الطبيعي ومغاير للحرّية الشخصية بدعوى ان الوالد حرٌّ في امر ولده يتصرف فيهِ كيف شاء ان علمهُ كان لهُ الفضل والمنة وان ابقاه في ليل الجهالة فما عليهِ من سبيل وما يعلمون بل يعلمون ويتجاهلون ان الحرّية تنتهي عند بداءة الحق العمومي وانها عبارة عن حق القيام بالواجبات ليس الاَّ فكلما تعدّى ذلك منها فهو عسف واستبداد فانهُ ليس من الحرية الشخصية سرقة مال الجار واغتصاب ملك الضعيف ونقض ميثاق العاجز فمن فعل ذلك فقد اعتدى وجار وخان وانتزأ

قال الموسيو جول سيمون في كتابه المسمى بالمدرسة : الحرية نبتت في المدارس ونمت . وبالمدارس تتأيد الحرية وتعمّ والحرية والمدنية متلازمتان متضامنتان

وبين الوالد ومولوده ميثاق طبيعي عقد يوم الزواج وسجل يوم النتاج ان الوالد يحفظ

الولد في وجوده الحسي والمعنوي فيطعمهُ ويكسوه
ويؤدبه بالعلم والمعارف ويقيه من العوارض في
الحالين حتى يحصل لهُ من القوة ما يغنيه عنهُ
وعن سائر الناس وان الولد يطيع الوالد صغيرًا
ويحبهُ كبيرًا ويعولهُ ان كان عاجزًا فقيرًا فاذا
نقض احدها ذلك الميثاق على ضد حق الآخر
فقد ظلمهُ واعتدى عليهِ لم يأخذ بحقهِ منهُ ولم
يكن مستعملاً حريته فيه

والحكومة منتدبةٌ لمنع كل اعتداء وحفظ
كل حق

والصغيرُ قاصرٌ عاجز لا يستطيع المطالبة
بحقه فضلاً عن ان يناله بالقوة فاذا هضم والده
حق وجوده الحسي او المعنوي فلا بدَّ لهُ من
شفيع اليهِ ومعين ناصر عليهِ . والهيئة الحاكمة
التي هي خلاصة وجود الامة وليَّة كل ضعيف
ووصية كل قاصر فهي مأمورة من قبل تلك
الولاية وهاته الوصاية بالذود عن الصغير
وحفظ حقه من كل منتزىء عليهِ فكما انها
تعاقب من يعذب الولد ومن ينبذه ومن يقتلهُ
ومن يسقطهُ جنينًا كذلك يجب عليها عقاب
من يدفنهُ حيًا بما يهمل من تعليمهِ المفروض
عليهِ ومن يقتل عقله بما يغفل من هديه سبيل
العرفان . بل قتل العقل اشنع وافظع واضر
بالهيئة الاجتماعية من قتل البدن ولأن يهلك
الرجل ولده خيرٌ لهُ من ان يميت عقلهُ بالجهل
والخشونة فيكون من المفسدين في الارض

فالزام التعليم واجب على الحكومة

وبعد فقد وجد الولد في الهيئة المدنية
ليكون وطنيًا في امته وجنديًا في وطنه يذود
عنها جميعًا ويفتديها بما يستطيع من كل حسي
ومعنوي ويجلب اليها النفع ويدرأ عنها الضر
لاتحاده بها في الوجود المدني ولقيام الكل
بالواحد والواحد بالكل حيثما وجدت امة
وحيثما كان وطن صحيح فينبغي من هذا الوجه
اعداده لمراتب الانسانية واشرابه الفضائل المدنية
ليكون عضوًا نافعًا في جسم الهيئة الاجتماعية
فلا يحي وجدانه المدني فيحصل كاليد الشلاء
كلاً على عاتق اخوانه ولا يظهر بما يلحق بهم
الضرر او العار فربما وزرت الامة وزر واحد
منها وعيرت بهِ مدى الاعصار فالحكومة الجامعة
للكلمة الوطنية المنتدبة لحفظ الهيئة المدنية مأمورة
بالاشراف على افراد تلك الهيئة تصون لضعيفهم
حقهُ كما تصونهُ للقوي وتلزم عظيمهم بما يجب
عليهِ كما تلزم بهِ الحقير فان دعت الوالدين الى
وفاء اولادهم حقهم من التعليم لم تكن الاَّ آخذة
بحق لها بل قائمة بواجب عليها وما احسن ما
قال في ذلك النائب الفرنسوي الموسيو بول
برت وهو « متى وجد الامر متعلقًا بمعاملة
الاحداث في زوايا المدارس بكلام يثبت في
اذهانهم اللينة صورًا وآراء فللهيئة الحاكمة
المندوبة لجلب المصالح ودرء المفاسد حق
التداخل فيه والزام ما نقضيه»

فصلٌ

نظرنا فيما تقدَّم بيانهُ الى حقية الزام التعليم
من الوجه الطبيعي والمدني على صورة عمومية
فبقي ان نحصر الكلام في دائرة البحث من

حيث هو فننظر في حقيقة الزام الوالدين بتعليم اولادهم في امة من مثل الفرنسيس فان آثار الاحكام والقوانين المدنية تختلف بحسب اختلاف الاحوال والمعدَّات بحيث يكون اللازم منها في بعض الامكنة غير لازم في بعض والحاجي في بعضها كماليًا في بعض بل ربما كان الحكم نافعًا مصلحًا في بلد وضارًّا مفسدًا في غيره من سائر البلاد

فالامة الفرنسوية امة انتخاب عمومي يشارك افرادها في الحكم الكلي فكل احد منهم ينتخب النواب وكل احد يصلح ان يكون نائبًا الا الذين اضاعوا حقهم المدني بما كانوا مجترمين والنواب هم الذين ينتخبون رئيس الدولة ومنهم تتألف الوزارة وبارادتهم يتعين مقدار الدخل والخرج وبحكمهم توضع الضرائب وتفرض الوزائع وهم هم اهل النهي والامر والنقض والابرام فالامة هي الحاكمة في بلاد الفرنسيس فان لم يكن كل فرد منها عارفًا بما يحق له وما يجب عليهِ لم يصلح ان يكون رقيبًا ناظرًا على الحق والواجب العمومي . قال احد ادبائهم في هذا الباب لا بد من حصول المساواة في الممالك على ما نرى في الجمهوريات بحيث تكون في الروسية كما في سويسرة فيزداد بذلك عدد الذين يشاركون في احكام بلادهم بواسطة الانتخاب — ان لم يكن انتخاب نوّاب فاعضاء مجالس للادارة والجزاء والحقوق والبلدية وهلمَّ جرًّا — وقد حصل الانتخاب عموميًا في كثير من البلاد وهو على قدم الحصول في سائرها وحيث انهُ لا يمكن ردّ هذه الحركة ولا وقفها فلا بد من جرها الى جانب الخير والعرفان بحيث لا يدبر اعمال الهيئة الاَّ من كان قادرًا على ادارة اعمالهِ الذاتية ولا يتولى مصالح الناس الاَّ من كان على علم بمصلحتهِ الحقيقية فان الغبي الجاهل لا يصلح ولا يجدر بهِ ان يتولى امور الكل ومن أُعطي حق الانتخاب فكأَنما ولي هذا الامر فلا يصح ان يكون جاهلاً . ان حق الانتخاب مع الجهل يجعل الامة فوضى ويقيدها الى الاستبداد ومع العلم يؤيد شأْنها ويتم عليها نعمة الحرية فلا سلامة ولا كرامة لامة عمومية الانتخاب الاَّ اذا دخل العلم آخر كوخ في آخر مزرعة من بلادها . اه .

وقال الفيلسوف الفرنسوي الموسيو كوزين في مجلس نبلاء الفرنسيس في ٢١ اذار سنة ١٨٤٣ « ينبغي ان تكون الامة الراغبة في الحرية مستنيرة بالعلم والاَّ التوت عليها الامانيّ وانقلبت اضرارًا لامكان ان تزيد حقوقها على معارفها فتسيء التصرف في احقاق تلك الحقوق . اه .

فمن تأمل هذا الذي قدَّمناه تبين لهُ وجه الحق في الزامية التعليم في بلاد الفرنسيس . وبعد فمن ذا الذي يبلغ منهُ عمى القلب الى حدّ ان لا يرى ان تقدُّم الامم يكون على قدر انتشار المعارف العمومية فيها بعد اذ قام على ذلك من العقل والاختبار الف شاهد ودليل قال احد علمائهم « حسبنا في بيان لزوم التعليم قول باكون الذاهب مثلاً « العلم هو القوة » وما اصحهُ من مبدإ ولا سيما من وجه الاقتصاد فان معرفة القوانين الطبيعية هي التي تجعل الشغل كثير الثمر فالانسان الفطري على كونه اصح من المدني حسًا واقوى بدنًا واصبر على المتاعب يحيا شقيًا ويموت في الغالب من العوز

تغلب عليهِ القوى الطبيعية فتقتلهُ بجهلهِ اما الانسان المدني فقد كشف كثيرًا من اسرار هاته القوى فاستخدمها فيما يحتاج اليهِ فملك عالم المادّة وعاش رغدًا ناعم البال » وما برح تأثير العلم في تحصيل الثروة على نماء واتساع يزداد يومًا فيومًا الى ان يقال هاته الامة اعم معارف واقل جهلاً من غيرها فيعلم من ذلك انها اغنى واقوى . وكما ان المعارف لازمة لتحصيل الثروة كذلك لابد منها لحفظها وحسن استعمالها من وجه ما ينبغي وانا لنرى الفاعل والماهن حيث ما كان لا يصيب من الاجرة ما يفي بالضروري من حاجاتهِ ونجده مع ذلك ينفق منها فيما لا يلزم وفيما يضر وما ذلك الا لان عقلهُ محدود بالحاضر من اموره فهو لا ينظر في العواقب ولا يدرك منافع الادّخار فتتمو فيهِ وتغلب عليهِ الشهوات الحسية فلا يجد على الغالب من لذة الاّ في غيبوبة السكر فان زاد كسبه فما يزداد الاّ انعكافًا عليهِ . فمن رام ان تكون زيادة الاجرة منجاة للفاعل والماهن من الحاجة وسوء الحال فليفتح له باب العلم لتحصل فيهِ قوة التبصر وملكة اللذة الفكرية فالمرء لا ينتج ما يعمل كثيرًا ولا يحسن استعمال ما ينتج الا ان يكون متعلمًا قال المؤرخ مركولاي كان الايكوسي (ساكن ايكوسة) فقيرًا جاهلاً فما تقدم في القرن الثامن عشر على الانكليزي في جميع الاعمال والخطط الاّ لأن اهل الندوة بادنبرج وضعوا لايكوسة قانون تعليم وطني عمومي . ويقول اصحاب المعامل في الولايات المتحدة الاميركية ما نقوى على مناظرة البلاد الاوروبية بمصنوعاتنا على كوننا نؤدي من الضرائب ضعفي ما يؤخذ من الاوروبيين الاّ لان فعلتنا اوسع من فعلتهم علمًا واكثر معارف فهم لذلك اسرع منهم عملاً واحسن صنعًا واقدر على اجتناء النفع من الآلات

وقال الموسيو فرستر السياسي الانكليزي في عرض بيانهِ لمزية التعليم الالزامي ووجوبهِ في انكلترا ما تعريبه « نعلم ان العلم غير الفضيلة وان التعليم وحده لا يوجد القوة الكافية لمقاومة الشهوات الفاسدة ولكن اذا كانت المعرفة غير الفضيلة فلا شك ان الجهل ضعف والضعف في هذه الحياة الدنيا هو الشقاء والشقاء مؤدٍ الى الرذيلة . ومن ذا الذي لا يرى في المدن والقرى صغارًا يشبون سالكين على الغالب مسالك الجريمة وعلى الاغلب مسالك الشقاء لرداءة تعليمهم او لعدم التعليم . فكيف نرى ذلك ونصبر عليهِ » ا . ه .

فصلٌ

تبين بادلة من العقل حقية الزام التعليم في الهيآت الاجتماعية عمومًا وفي البلاد الفرنسوية خصوصًا فبقي ان نؤيد ذلك بشواهد من النقل الصادق وبراهين من الرقم الناطق افحامًا للمغالطين وافهامًا

ففي عام ١٨٦٢ اقيم في لندره عاصمة انكلترة معرض عمومي وأُفرد فيهِ مكان فسيح لمواد المدارس وآثار المعارف وتقارير التعليم لمعرفة نتائجهِ في جميع الاقطار والفت للنظر في ذلك لجنة من عظماء اهل النقد تحت رئاسة المركيز

دي كافور فاجتمع اولئك النقدة في الثالث عشر من شهر حزيران من العام المذكور للمذاكرة فيما رأوه من تلك الآثار والتقارير ثم اصدروا الحكم الآتي معرّبه

«لقد ظهر اليوم لجميع الامم المتمدنة انهم»
«اذا راموا وقاية المستقبل وتأييد ونشر المبادئ»
«التي هي اساس الهيئة الجديدة وموضع افتخارهم»
«بها فلا بد لهم ان يعدّوا تعليم الاحداث»
«بمنزلة مصلحة اجتماعية من الدرجة الاولى»
«وتبين لنا ان بروسية وغيرها من الممالك»
«الزلفرينية التي حصل فيها التعليم واجبًا»
«قانونيًا وكذلك الممالك السكندناوية وجمهورية»
«سويسرة هي في المقام الاول بين البلاد»
«الاوربوية بالنظر الى المعارف العمومية .اه.»

وفي عام ١٨٦٧ اقيم معرض عمومي آخر في باريس على عهد الموسيو دوروي المؤرخ المشهور في نظارة المعارف الفرنسوية وكان القسم العاشر منه معينًا لآثار العلوم وتقارير التعليم ولهُ لجنة نقد وحكم مؤلفة من رؤساء العلماء فكان ما ورد في تقرير تلك اللجنة ما تعريبهُ

«اول ما يتوجه الخاطر اليهِ عند رؤية»
«هاته الآثار وتصفح تقارير التعليم في هذا»
«القسم من المعرض انهُ ينبغي تعليم كل ساكن»
«بلد يدعي لهُ المدنية مبادئ القراءة والكتابة»
«والحساب في مدارس النهار والليل وان»
«هاته المزية السنية قد حصلت على وجهٍ»
«العموم في البلاد التي تقرر فيها الزام التعليم»
«اما في سائر البلاد الا النادر الذي لا يقاس»
«عليهِ فنتائج التعليم لا تعادل مقادير النفقات»

اه. عن لائحة اللجنة المذكورة في الصحيفة ١٠ من الجزء الثالث عشر

وفي عرض ذلك المعرض انتدب الموسيو مفراس كاتب السر في بعض السفارات للنظر في احوال المكاتب وبيانها من وجه الواقع فكان مما كتب في ذلك ما تعريبهُ

«لا بد لنا في هذا المسلك ان نعترف»
«وان ساءنا هذا الاعتراف ان فرنسا متأخرة»
«في المعارف عن المانيا واميركا وانكلترة وغيرها»
«وان نجاح هاته الدول وان كان بعضهُ ناشئًا»
«عن همم الافراد وعواطف الانفس الا ان»
«موجبه الاول في البلاد الالمانية انما هو»
«القانون الذي يجعل التعليم اجباريًا» .اه. عن اللائحة المذكورة في الصحيفة ٧٤٥ من الجزء ١٣ ايضًا

وفي سنة ١٨٧٣ أُقيم معرض ويانا العمومي فاجتمع فيهِ وجوه جمعيات الفعلة على اختلاف الانساب والاوطان وقدموا لديوانه تقريرًا يقولون فيهِ ما ترجمتهُ» لا كفاء ولا غناء في كون المدارس مفتوحة الابواب لكل طالب بل لابد من ان يكون دخولها لازمًا واجبًا على الكل ثم ينبغي ان تكون عالمية محضًا وقاية لحرية العقائد»

ولما ولي الموسيو دوروي السابق الذكر وزارة المعارف الفرنسوية عام ١٨٦٣ صرف اجتهاده في بيان احوالها ورفع الى الامبراطور تقريرًا اجماليا يقول فيهِ ان الاميين من البالغين عمر الدراسة ينيفون على ٦٠٠٠٠٠ عددا فكان هذا التقرير مناقضًا لما كان يطليه وكلاء الدولة من محالم على مجلس النواب

والشيوخ على كونه دون الحقيقة بمراحل كما يتبين من التقرير المرفوع الى الامبراطور المنشور في صحيفة المونيتور الرسمية (وقتئذٍ) سادس شهر اذار عام ١٨٦٥ فقد ورد فيه ان مائتي الف ممن جاوزوا الحادية عشرة عراة عن كل معرفة وان ثمانمائة الف ممن هم بين الثامنة والحادية عشرة لا يأتون المدارس ولذلك قال الموسيو جول سيمون من خطبته في الهيئة المشترعة Corps législatif سادس عشر اذار عام ١٨٦٤ ان عدد الاميين من البالغين عمر الدراسة في البلاد الفرنسوية ١٢٣٠٣٠٢ لا ٦٠٠٠٠٠ كما ورد في تقرير دوروي

بل لانحسب كثرة عدد الجهلاء هي الموجب الفرد لالزام التعليم فلو لم يكن في الامة غير معشار المعشار من الجاهلين للزم الهيئة الحاكمة تعليمهم قال الموسيو بردو وزير المعارف الفرنسوية الاسبق من خطبة فاه بها في مجلس نواب الفرنسيس في السادس عشر من شهر كانون الاول الماضي ما تعريبه «لئن لم يكن في فرنسا غير عشرة الاف او الفين او الف ممن لا يأتون المدارس فمن الواجب اقتيادهم اليها . وعندي ان الدول التي قضت بالزام التعليم لم تمس عقيدة الولد ولا حرية الوالد ولا ارى الذين يتقاعدون عن المدارس الا ثلاثة خاملاً سائلاً وفاسداً سارقاً وفقيراً عاملاً فالفريقان الاولان ليس في الزامية تعليمهما موضع للخلاف واما الفريق الثالث فيمكن في امره التوفيق بين الشغل والدرس كما نصّ عليه في تقرير لجنة الالزام . ولا ريب ان لفرنسا على كل احد منا ديناره ودمه ورأيه وان لنا على فرنسا التعليم » .اه .

الا ان المداجين المداهنين الذين كانوا يضربون من دون الحقائق حجباً مستورة ويموّهون مشوّهات الاحوال تزلفاً الى الامبراطورية ومخافة ان تبدو معائبهم للامة فنقول بعداً لكم وسحقاً ان هولاء المنافقين قد اعترضوا على تقرير دوروي وزوقوا الامر المزرق بالاباطيل وانكروا الزام التعليم من وجه مخالفته للحرية على كونهم اعداءها الالدّاء مستهزئين بالالمان من هذا الوجه ضاحكين منه كثيراً الى ان جاؤا بهم الى عاصمة بلادهم فاتحين فابكوا الفرنسيس بكاء غزيراً وتبين حينئذٍ لهم جميعاً صدق الوزير بسمارك حيث قال . ما بلغت بروسية هذه المنزلة العلية الا بشيئين الزام الجندية والزام التعليم . .اه . عن مقالة للموسيو اوجين رندو مفتش التعليم الابتدائي نشرت في جريدة كنستيتوسيونل في شهر حزيران عام ١٨٧٠

وكان اهل ستراسبرج قد شرعوا قبيل تهوّر الامبراطورية في حرب الالمان بجمع الآراء على تقرير يطلبون فيه التعليم الالزامي فاجتمع لهم ٣٥٠٠٠٠ توقيع ثم كانت الحرب فانفصلوا عن الوطن الذي افتدوه بارواحهم فنشطت عصبة التعليم الباريسية لاكمال مشروعهم فتلقته الامة بالقبول والاقبال حتى اجتمع في ذلك التقرير ١٢٦٧٣٣٧ توقيعاً وعرض لدار الندوة فأعرضت عنه بما كان في رجالها من كراهية الحرّية وخوف انوار العلوم ولكن علم الالباء ان لا بد بعد ذلك من حصول التعليم الزامياً في بلاد الفرنسيس فان صوت

الامة صوت الحق والامة اذا قدرت ان تقول قدرت ان تفعل

مجانية التعليم

ثبت للحكومة حقُّ الزام التعليم من وجه ان الهيئة الحاكمة المشرفة على امر الجمهور منتدبة لجلب المصلحة كما هي مأمورة بدفع المفسدة فكما انهُ يجب عليها ازالة الضرّ ونفي الاذى وردُّ الشقاء وكفّ العدوان ومنع الظلم كذلك من واجباتها تحصيل النفع واثبات السلامة واعادة الهناء وتأييد السلم ورفع منار العدل والانسانية بالفضيلة التي لا تماثلها فضيلة والمزية التي لا تعادلها مزية فضيلة المعرفة ومزية العلم

والعلم يحيي قلوب الميتين كما
تحيا البلاد اذا ما مسها المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبهِ
كما يجلي سواد الظلمة القمرُ

ولكن ليس في الوجود الطبيعي ولا المدني من واجب الاَّ بحق يماثلهُ وليس فيهِ من حق الاَّ بواجب يقابلهُ فاذا وجب على الوالد للهيئة المدنية تعليم ولده فقد حقَّ لهُ امكان ذلك التعليم على قدر الكفاءِ واذا حقَّ للهيئة الحاكمة اجباره عليهِ فقد لزمها توفير اسبابهِ وتمهيد سبيلهِ على قدر الامكان فان كان الوالد من الذين اصابهم النظام المدني باختلالهِ او الذين المَّ بهم من عوارض الوجود ما لا يستطيعون لهُ دفعاً فهو فقير معدم او ضعيف عاجز لا يقوى على تعليم ولده بقدر ما يحتاج اليهِ وما توجبهُ احوال الزمان عليهِ فالهيئة الحاكمة مأمورة من قبل حقية الالزام بان تيسر لهُ ما لا يستطيع فتجعل التعليم بلا قبل. قال ساي الاقتصادي الشهير ان مركز المحترف العامل يدني مقدار دخلهِ الى حدٍّ انهُ لا يكاد يفي بحاجتهِ الاَّ بشق النفس فاذا استطاع تربية الولد وتعليمهِ حرفتهُ فهو لا شك عاجز عن ان ينيلهم من العلم القدر الذي يقتضيهِ حسن الحال في الهيئة المدنية فان رامت هذه الهيئة التمتع بنفائع هذا القدر من العلم في الفئة المحترفة العاملة وجب عليها ان تبثهُ فيهم على نفقتها بانشاء المدارس المجانية (الاقتصاد الكتاب ٣ الفصل ٦)

فالمجانية في التعليم واجب مترتب على حقية الالزام

الاَّ ان لزوم المجانية مستلزم للعسر او الضعف او العجز في جانب الوالد فاذا سقط الملزم بطل اللازم قياساً بمعنى ان المجانية غير متعينة على الالزام الاَّ لمن ثبت عجزه عن التعليم فان كان قوياً عليه فقد لزمهُ لزوماً لا ريب فيهِ كما تبين في ابواب الحقية ولم تكن المجانية واجبة لهُ على الهيئة الحاكمة

فالمجانية المطلقة غير ملازمة لالزام التعليم الاَّ ان الكثير من علماءِ تدبير المنزل وحلفاء الحرية والعدل ونصراء المساواة والاخاء والذين لا يميزون بين ابناء الانسان الاَّ بمزية العقل وفضيلة النفس كل هولاء قد كرهوا حصر مجانية التعليم في اولاد الفقراء ولم يرضوا بوجود الامتياز بهذه الحيثية على مقاعد المدارس علمًا منهم بما ينشأ عن ذلك من الاحن والعداوات وما يترتب عليهِ من فساد النفوس وتنافر القلوب اذ ينقسم الصغار فرقاً ودرجات متناصلة متباعدة فاذا شبوا كان

بعضهم عدوًا لبعض يتربصون بهم ريب المنون كما كانت الحال في اعصر الظلمات المساة بالمتوسطة وما احد يجهل تلك الحال وما احد لا يعلم ما ادّت اليهِ . قال الموسيو غلتز نائب بريغ في مجمع فرنكفرت « من الواجب الضروري اجتناب كل ما يحمل الصغير المعوز على الاعتقاد بوجود حد فاصل بين الغني والفقير ولا يكون ذلك الاَّ اذا جلس المعوز منذ الحداثة على مقعد المدرسة بمثل الحق وفي نفس الدرجة التي لابن الغني » . اه . (الصحيفة ١٦ من مفاوضات مجمع فرنكفرت)

وقال الفيلسوف جول سيمون في كتاب المدرسة ما معناه . يحسن ان يعيش ابن الغني وابن الفقير على مقعد واحد ويجب ان يعلما انهما شرَع بان ينزع اولاً من مخيلة الفقير وهم الفقر لا كما هي الحال في كثير من مدارس الاناث حيث لا تعلم المدرّسة الاَّ بنات الاغنياء واما الفقيرات فيقرأن على عريفة منهنَّ . اه .

فمن عجائب ما ينشأ عن الاهواء ومن غرائب ما ينتج من الآراب النفسانية ان يرى للمجانية اعداء ينكرونها اصلاً وفرعًا ويحسبونها البدعة الشنعاء وان يكون اولئك الاعداء هم الذين اوجبوا على انفسهم فتح المدارس لكل دارس والذين كانت مدارسهم الخارجية مجانية محضًا . فهل نسوا ام هم يتناسون ما ورد في تاريخ فرنسا القديم عن منع المدرسين غير مرّة من اخذ رواتب الدراسة من الطالبين (تومانين المجلد ٣ الصحيفة ٦٢٣) ام لا يذكرون ان المجانية ما برحت ناموسًا مقدسًا عند اخوة المدارس المسيحية

ولكننا نضرب عن المقابلة بين ما يفعلون وما يقولون والموازنة بين ما يعتقدون وما يوهمون فلسنا في مقام الحكم عليهم وليس من قوة الحجة وحسن الدليل ان يقال فعلت من قبل غير ما تقول الان فانت انت حجتنا عليك وانما الحجة الدامغة ان يجرّد القول من علاقة مصدره ومن الحامل عليهِ فيرد بالنظر اليهِ من حيث هو هو ردًا معتلقًا باهداب النزاهة آخذًا باطراف الوضوح فنحن لذلك نمرُّ على الانظار اعتراضاتهم على مجانية التعليم واحدًا بعد واحدٍ ثم نكشف عنها الحجاب ليتبين الخطأ من الصواب ان شاء الله

وقد انحصر اعتراضهم على المجانية في اربعة لأبرّ قسمنا بالحق ان كنا ندري ايها اخفى حقيقة واظهر فسادًا وادنى من الخطاء وابعد عن الصواب من البقية وهي اولاً ان المجانية المطلقة موجبة لمزيد النفقة فهي من هذا الوجه ضريبة فادحة تزيد تكاليف الامة انثقالاً . ثانيًا انها بدعة مستحدثة لم تفد خيرًا ولم يأخذ بها الاَّ القليل من الدول . ثالثًا انها من آثار الاباحية من حيث انها تتعلق بالاشتراك في الاموال . رابعًا انها انما وضعت لاعانة الفقير وهي حيف عليهِ فقد كان يحصل العلم من قبل مجانًا فاذا أُطلقت المجانية لزمته الوزيعة فيلتوي الامر عليهِ . اه . وانا لنرد بحول الله وقوة الحق كل اعتراض من هذه الاغاليط فتزهق جميعًا كأن لم يكن بها عهد ولم تكن شيئًا مذكورًا .

***

باب ..

يقولون المجانية المطلقة موجبة لمزيد النفقة فهي ضريبة فادحة للامة ومثلهم في هذا القول كمثل من يأبى الدواء الشافي وينكر اسباب الراحة ويهمل وسائل الوقاية بما تقتضيه من النفقة ومثل من يترك الارض بورًا فرارًا من كلفة الزرع . ومن كان ذلك خد ما تصل اليه مداركه فهو بالشفقة والرحمة اجدر منه بالملام

قال جول سيمون يجب ان ينفق على التعليم الابتدائي كل الملاوين التي يقتضيها غير ما سوف عليها ثم فصل (في كتاب المدرسة) ما يترتب من النفقة على تقرير الالزامية والمجانية من كل الوجوه مائلاً في كل ذلك الى جانب الزيادة فقال ان ثمانية عشر مليونًا فرنكًا تكون كافية للمجانية فاذا اردنا انشاء مدارس جديدة وزيادة اجور المدرّسين فتضعف بذلك هذا المخرج فغاية ما يكون مع نفقة المدارس الاصولية المعدّة للترشيح للاستاذية خمسين مليونًا فرنكًا . اه. فاذا علم ان ولاية نيويورك باميركا تنفق على التعليم ٣٢ مليونًا ريالاً في حالة كون سكانها لا يزيدون على ٣٨٥١٥٦٣ نفسًا عدًّا وان ولاية ماساشوتس وعدد سكانها ١٢٣١٠٦٦ تنفق خمسة عشر مليونًا وخمسمائة الف تبين ان فرنسا وان انفقت مائة مليون فرنكًا بل مائتين لا تكون في الدرجة الاولى بين الممالك ولا في الثانية

فعلى تقدير ان تكون النفقة المتعينة على مجانية التعليم اربعة امثال ما حسب الفيلسوف المدقق جول سيمون فكيف يأسف الفرنسيس على انفاق مائتي مليون في سبيل التعليم الابتدائي على كونهم ينفقون نحو الف مليون في سبيل الجندية وكيف يضنون بالمال فيما يضيء الالباب وما ليس للعقول من لذة الاّ به وهم هم الذين انشأوا ملهى غنائهم بستة وعشرين مليونًا والذين نرى في برنامج دولتهم في كل عام مليونًا ونصف مليون للتياتر واربعة وعشرين مليونًا للسجون وهلمّ جرا . قال سيمون . كيف لا نموت خجلاً ونسبة برنامج التعليم عندنا الى برنامج الحرب نسبة ١١ : ٢٩٥

فان قيل ان الامة تنفق الالوف المؤلفة في سبيل الجندية لوقاية شأنها واعلاء مكانها ورد العدو وصيانة ماء الوطن وليس في التعليم شيءٌ من ذلك فالذي يلزم في الجندية لا يلزم فيه قلنا اي شأن اجدر من الفضل بالوقاية واي ماء اولى من الذهن بالصيانة واي مكان احق من العلم بالاعلاء واي عدو اعدى من الجهل . .

أليس هو المضعف للقوة الذاهب بالراحة المخني على السعادة الداعي الى المفسدة المدني من البلاء المبعد عن الكمال المساوي بين انسية الانسان ووحشية الحيوان

او ليس هو الذي ينسف معاقل المجد ويدكُّ اطواد العزّ ويقلع قلاع السطوة ويمحو آثار الفخار ويجعل البلاد عرضة لكل طامع اوغرضًا لكل هادف وعرضًا لكل سائم

بلى . فكيف تنفق الامة اموالها وتبذل الارواح لرد طارق خارجيّ ثم ينكر عليها صرف معشار تلك الاموال لدرء هذا العدو الداخلي المقيم . لا جرم ان الذين يحاولون

صرف خواطر الامة عن هذا الواجب المدني انما هم نصراء العدو عليها . لا يرومون رفع الواجب رحمة بها ان تحمل انفسها ما لا تسع ولكن ليستأثروا بالحق المتعين عليه . او هم احباؤها ولكنهم يجهلون حقيقة المنفعة والعدوّ العاقل ايسر ضرًّا واصغر شرًّا من الصديق الجاهل . فنفقة التعليم واجبة على الامة وجوب نفقة الجندية ونفقة القضاء ونفقة الضبط والخفارة عليهم بل هي اوجب من حيث انها اساس قوة الجندية وعماد عدل القضاء ودعامة حسن الضبط . قال تاليران في تقريره على مجانية التعليم الابتدائي في بلاد الفرنسيس عام ١٧٩١ — يجب على الامة ان تقوم بادئ بدء بما يلزم للدفاع والحكم فان واجبها الاول انما هو العناية بحفظ وجودها الذاتي من كل عارض ثم النهوض بما تصون به الحرية والملك لتدرأ عن مجموعها النوازل التي لا يمكن اتقاءها في حالة الانفراد فتحصل لهم المنافع الوطنية الناشئة عن حسن الاجتماع . بل ما وجدت الامة الاّ لمنع الغاية فان لم تدركها فقد اهملت حكمة الوجود . ولما كان التعليم بلا ريب خير تلك المنافع اثرًا وجب على الامة ايما وجوب بذل كل ما ينبغي لتيسيره لاعضائها كلهم اجمعين . اه .

***

المجانية بدعة مستحدثة لم تفد خيرًا . ولم يأخذ بها الاّ قليل من الناس . — وهو من بداهة الفساد وظهور الضعف بحيث يقف القلم عن ردّه استخفافًا وازدراء ولكنّ سائر ما يدعيه اعداء الالزامية والمجانية والعالمية في التعليم لا يخرج عن هذا الحدّ . فلو صحّ الاقتصار على ردّ القوي منه لما وجد المناظر منا للمقال مقامًا فنحن لذلك نتنازل معهم الى تبيين البين وتحصيل الحاصل ليزول اللبس عن افهام العوام

فليست المجانية من البدع وانما هي سنة الفضلاء والرؤساء وارباب السياسة وخدمة الدين واهل التدريس النزهاء في هذه الايام ومن قبل النزهها في فرنسا اخوان المدارس المسيحية وكانت الى هذا العهد مفخر الآباء اليسوعيين في مدارسهم الخارجية وطلبت في بلاد الفرنسيس منذ القديم كما رويناه عن تومانيين فيما تقدم وتقرّرت في تلك البلاد عام ١٧٩١ مبنية على تقرير تاليران السابق الذكر وفرضت من بعد ذلك في البند ٢٤ من القانون المسنون خامس عشر اذار عام ١٨٥٠ ومفاد ذلك البند « التعليم الابتدائي مجاني لكل الاولاد الذين لا يسع آباؤهم اداء نفقته » . ولم يسمع ان احدًا من علماء الاسلام تقاضى القارئين عليه والآخذين عنه اجرة وهذه آثار مدارسهم في العراق والشام والحجاز ومصر والاندلس وسائر المغرب ناطقة بذلك بل هذه مدرسة الازهر بالقاهرة والزيتونة بتونس وغيرها بسائر البلاد الاسلامية شبعة بلسان الوف من طلبة العلم

وليس اولياء المجانية عددًا قليلاً فهي مقرّرة في جميع الولايات المتحدة الاميركية ولا ازيد البصير بهذه الولايات علمًا انها احسن البلاد حالاً واسرعها نماء واشدّها حرصًا على الحرية وحفظًا لحقوق الانسان

وهي مأثورة في هولندة والدنيمرك وايطاليا وشيلي والبرتغال . وقد ظهر ارتياح سائر الامم

اليها في هذه الاعوام الاخيرة حتى انصلت باسبانيا والمانيا على ما بهما من عجف المال فابطلتا رواتب التعليم في المدارس الابتدائية تلك بحكم قانونها المسنون عام ١٨٦٩ وهذه بمقتضى البند الرابع والعشرين من دستورها الحاضر . ـ وما كانت هذه الدول والامم على ضلال ولكنها فتحت قلوبها للحق فصدقت (لاف) حيث قال . ان البلاد التي يبطئ فيها امتداد المعارف والتي تكون الالزامية فيها حديثة عهد لا بدّ لاهلها من جمع المجانية الى الالزام . اه . وخفضت رؤوسها للحقيقة فاخذت بما حكم به جلة العلماء واعاظم الفضلاء واكابر الاساتذة في مجمع فرنكفرت عام ١٨٤٨ حيث قالوا في المطلب الرابع من تقرير ذلك المجمع الشهير ما ترجمته « يمنع اخذ ايّ راتب في المدارس الابتدائية وما دونها من المدارس المعدّة للحرف والصناعات وتكون المدارس المخصوصة بالفقراء ملغاة رأساً . اه .

وقد عمت المجانية المطلقة في الولايات الاميركية كما قدّمناه فارتقت بها ذروة الكمال المدني وصارت آية العصر بالقوة والثروة ومعجزة الايام بانتظام الاحكام واعجوبة الدنيا بنماء السكان . لم يكن سكانها عام ١٨٦٢٠ سوى ٣٩٩٠٢٠٠٠ نفس وهم الان خمسون مليوناً او يزيدون . وهذا برنامج التعليم الابتدائي فيها العام ١٨٧٥

	دولار
دخل التعليم من خزينة الدولة واوقاف المدارس واموال المجالس البلدية بحساب الدولار الذي هو عبارة عن ٥ فرنكات و٢٠	٨٣١٥٨٩٠٥

النفقات

للارضين الموقوفة والابنية والاثاث	١٥٠٤٥٩٠٨
رواتب المفتشين	٠٠٩٣٤٧٧٣
رواتب المدرّسين	٤٦٧٠٣٢٩٥
نفقات شتى	١١٧٠٣٠٩٥
	٧٤٣٧٦٠٧١

فجملة ما ينفق على التعليم الابتدائي في اميركا اربعة وسبعون مليوناً وثلاثمائة الف دولار وكسور اي نحو ثلاثمائة مليون وثلاثة وتسعين مليوناً فرنكاً فلو بذلت فرنسا فيه ما تطلبة الدولة مضعفاً عشرين مثلاً لما فضلت به ولايات العالم الجديد

ولا نجد بنا بعد هذا البيان من حاجة الى الاستدلال على رفعة شأن المعارف العمومية في الولايات المتحدة وسائر الاقطار المتمدنة وان الدول والامم البصيرة بعواقب الامور لا تبالي بالالوف المؤلفة تبذلها في سبيل اضاءة البصائر بانوار العلوم على اننا نورد الجلاء الآتي قطعاً للحجة وحسماً لاسباب المغالطة فهو بيان واضح يتضمن المقابلة بين نفقات المعارف وسائر المصارف العمومية في سبع من الولايات المتحدة نموذجاً نأخذه عن تقرير الناظر الرئيس (جون ليتون) على عام ١٨٧٠ وهو

الولاية	نفقة المدارس	النفقات العمومية
مين	٨٠٥٣٦٩	٠٤٠٣٦٠١
بنسلفانيا	٥١٦٠٧٥٠	٣٨٥٣٣٣٦
أهيو	٤٨١٦٤٩٥	٣٩٧٨٩٩٥
كليفورنيا	١١٧٨٣٤٨	٠٤٧٥٩٧٨
نيوجرسي	١٣١٣٣٥٨	٠٤٧٣٨١٥

وسكنسين	١٧٧٤٤٧٣	٠٩٤٦٥١٩
إلنوا	٦٤٣٠٨٨١	١٠٦٣٥٣٥

ثم أن ولاية نيويورك التي كان سكانها عامئذ ٦٤٨٢٧٥٩ عداً كانت نفقة المعارف الاولية فيها ١٠٨٧٤٩١٠ من الدولار اي ثلاثة اضعاف ما تحتاج اليه الدولة الفرنسوية لتقرير المجانية المطلقة في التعليم الابتدائي .اه. عن الاصلاح الاقتصادي Réforme économique المجلد ٨ الصحيفة ٣٥٦

***

وصلنا موقع دندنة اللفظ الذي يصيب الاذان ولا يمس القلوب وطنطنة الكلام الذي يخرج من الشفاه ولا اثر له في النفوس . وصلنا موضع ذكر الاباحية ونفي الملكية وشيوع الاموال دليلاً على فساد المجانية يقوم ولكن عند الذين يبيحون ارتكاب الخطاء على قصد صواب يتوهمون ويصح ولكن عند الذين ينفون العدل فيما يثبتون . فما مجانية التعليم الابتدائي في شيء من الاباحية الاّ أن تعدّ وزائع انارة المدن وضرائب طرق العربات ومغارم توزيع المياه وعوائد انشاء المرافئ وجبايات سائر المنافع العمومية من هذا القبيل . أليس ان بعض الناس يستفيدون من المصابح اكثر من بعض او ليس ان العربات لبعضهم دون بعض وهل تتساوى حاجة الناس الى الماء ام يستوي صاحب السفينة ومن لا يملك رأس سارية فيما يحصل من نفع المرافئ فما بال النفقة تكون واجبة مشروعة ممدوحة الموضوع مشكورة المحمول في كل ذلك وتعدّ الاباحية منكرة ذميمة الوضع والحمل فيما هو اهم من ذلك نفعاً واوجب عرفاً وشرعاً . في استنقاذ الالباب من محابس الجهالة . في اخراجها من ظلمات الضلالة . في اعلاء شأن الاوطان . في احياء قلوب السكان . في التعليم الابتدائي العمومي . أرايت لو قال احد من الناس لا ادفع مغرم الانارة فاني ابيت مع الدجاج واسري مع النعاج فمالي باضاءة الشوارع من حاجة ألا يحسب ذلك القول سرساماً او لا يقال لصاحبه ان لم يكن بك من حاجة للنور تأمن به عثرة المدلج فهو يقيك شرّ السارق ياخذ ما تضنّ به على منفعة العموم فان اصرّ على جهله أما يقال له اعتزل الناس ان رمت مخالفة جميع الناس

يقول المخالفون ان الغني وان حصلت له المجانية فلا يعلم ولده الاّ بدينار يجذب اليهم بمغناطيسه عناية الاستاذ فالمجانية لا تفيده خيرًا ولا تكفيه نفقة فان ضربت عليه وزيعتها فذلك ظلم من وجه انه يلزمه النفقة فيما لا عوض فيه . واباحة من حيث انه يشرك سائر الناس فيما ملك . ونقول لا يحظر على الغني تعليم ولده في المدارس المجانية ابتداء فان اباه صلفاً وتكبرًا فليكن ما ينفق من المال مزيدًا ثمن الكبرياء وليس في ذلك شيء من الاباحة فان الذي تستفيد عامة الناس من المجانية يعود على سائر الامة بالنفع العظيم بما ينشأ عنه من حصول المصلحة الكلية وزوال المفاسد واستقرار الراحة والامن ونماء الثروة العمومية فالامة كالأسرة الواحدة يسعى كل نسمة منها وسعه ويكون مرجع الكل اليها . بل الغني احوج الناس الى انتشار المعارف واضمحلال الجهل فتلك تلين القلوب وتطهر النفوس

وتدمث الاخلاق وتوسع موارد الرزق فيقلّ معها الطامعون في اموال الاغنياء ويندر المعتدون على ابناء العرض فتصان بذلك الحقوق وتحفظ الملكيات وتطمئن نفوس المتموّلين وهذا يجعل القلوب فظة والنفوس دنيئة والاخلاق جافية والارزاق ناضبة الموارد فتكثر بهِ الاطماع وتحمل الفاقة على الكبائر فلا يأمن المالك على الملك اغتصابًا ولا المتموّل على المال استلابًا وانتهابًا . وكما ان الغني يبذل المال لنفقة الشرطة والبدل العسكري للجند او يتجند بنفسهِ حيث لا يقبل منهُ البدل لوقاية ما يملك من العدوّ الخارجي كذلك يلزمهُ من وجه مصلحتهِ الذاتية فضلاً عن الواجب المدني ان يبذل ما يفرض عليهِ من نفقة التعليم الابتدائي لصيانة ذاته وملكه من العدوّ الداخلي المسمى جهلاً . بل هذه النفقة اوجب عليه وانفع لهُ من وزيعة الشرطة وضريبة الجندية فان قوّة الحامية لا تزيد على ان تدرأ الشرّ عنهُ

(تنبيه)

الى هنا انتهى قلم الفقيد في تحرير هذا السفر الناطق بصحة مذهبه في التعليم الالزامي ولا حاجة للقول ان المعترضين عليهِ لم يكن لهم في هذا المجال نزال وانهُ لو لم يقضَ عليهِ في ذلك العهد بالامساك عن العمل مضطرًا اليهِ بالارتحال والانتقال وبما كان يحول دون مشاغلهِ من موانع الاعتلال لما ترك هذا المقال خلوًا من البقية

استيفاء بعض رسائلهِ الى بعض اصدقائه

قال في كتاب ارسلهُ من بيروت الى حضرة الصديق يوسف افندي جباره بالاسكندرية

جاءني كتابك مذكرًا منبهًا لحفظ ودك فما اذكر ناسيًا ولا نبه غافلاً ولا زادني شوقًا لامتناع المزيد ولكنهُ اتاني من انفاسك بما نفس الكربة ومن آثارك ما تمثلت بهِ العين فلله انت من صديق في القرب والبعد والصفو والكدر والسرّاء والضرّاء

وبعد فاني مرسل اليك رسمي تذكرة وداد وتقدمة فؤاد يثمن لو كان حقيقة في ذلك الرسم على انهُ لديك من قبلهِ ومن بعد ثم اسألك يا خليل الوفاء ووفيّ الاخلاء تقديم شعائر سلامي وواجبات اكرامي لآلك جميعًا صفوة الكرام وان تقبل مني مثل ذلك جعلني الله فداك ولا زلت خادمك واخاك

***

وكتب من بيروت الى حضرة صديقنا اديب افندي نظمي بدمشق بعد عودتهِ من تلك المدينة

اشكو اليك سعة فضلك عن ان يحيط بهِ بياني وعظم منتك عن ان يلمّ بشكرها قلبي او لساني فاجعل رقتك شفيعي لديك وعفوك وكيلي في الثناء عليك

وبعد فقد وصلنا بيروت لاهجين بذكر محامدك هازجين بحديث محاسنك فلم تنلنا مشقة ولم نشعر بطول الشقة ثم لقينا الاهل والاخوان

فكانت حفلتنا مجلس انس ندير فيهِ من احاديث فضلك مداما ونتخذ من معاليك كالك ندامى ثم لا نلهو بسكرها عن شكرها ولا نذهل بعدّها عن حمدها

فاجعل ايدك الله ضعف الشكر في جنب قوة العذر وتنفضل بعرض هاته السطور في مجلس سادتي فلان وفلان وفلان تحسب صادرة اليهم بما نقصد بهِ جنابك الكريم من الشكر والثناء فقد اتحدتم حبًا وتألفتم قالبًا وقلبًا حتى امتنع الاختصاص فيما بهِ تخاطبون لا زلتم عصابة فضل تعقد على مدحكم الخناصر وتختم على حبكم السرائر

وارسل اليهِ جوابًا على كتاب فقال ٠

يا سيدي بل يا اخي فالاخاء واجب عرفناه والسيادة حكم ما اعترفناه والادب رحم نقطعها الكلفة والكلفة لبسة تمنعها الالفة والالفة بيننا معقودة اسبابها بالصفاء عالقة اهدابها بالوفاء

فيا الف اخي خطابًا لا املّ لفظه ولا اهمل حفظه لقد سمتني بكتابك ما لا اطيق واستعبدتني بحرّ كلامك الرقيق فمن لي بالرقة التي حويت والمزية التي ملكت والفضل الذي اصبت والكمال الذي ادركت لاخاطبك بلسانك واكاتبك بمثل بيانك . ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ولكلٍ درجات مما عملوا

فما تجود يدٌ الاّ بما وجدت
ولا تكلف النفس غير ما وسعت

ولست اعتذر اليك فيما كان ظهوره منك ولكن الوذ بحلمك من حكم علمك واعوذ بفضلك من سهم عذلك

اما الصديق فلان فقد جعلت صحيفته البيضاء ميثاقًا عليهِ انهُ اتخذ محبه صديقا ورضي بهِ خليلا لا يمله ولا يروم عنهُ عدولا ثم سجلتهُ في محكمة الوفاء تسجيلا واشهدت عليهِ من اهل العهد شهودًا عدولا (١)

واما الصديق فلان فقد عددت سكوته خطابا يكون لكتابي السابق جوابا لا يؤاخذني فيهِ على ان وحدت ثالوثكم وما افردت لاقنومه كتابا بل يعدّ ما صدر عن واحد منبثقًا عن الكل بالاتفاق وان لم يكن من القائلين بكلية الانبثاق (٢)

فتفضلوا جميعًا بقبول سلام يمتزج بهِ القلب وتتحد بهِ النفس شوقًا اليكم يا احب الناس الينا ويا اكرم الخلق على الله

***

وكتب من باريس الى يوسف افندي فارس بالاسكندرية

الى الله اشكو لظىّ في الفؤاد
يسمى اصطلاحًا عذاب البعاد
وما للبلاد اشتياق الفؤاد
فعهد الوداد لاهل البلاد

---

(١) المكنى عنهُ بفلان في هذه الفقرة نعمان افندي الشرابي وسر الصحيفة البيضاء المشار اليهِ في الكلام عنهُ انهُ بعث الى دمشق بكتاب لا يتضمن سوى اسمهِ في مكان التوقيع

(٢) المقصود بهذه الفقرة جبران افندي لويس والنكتة فيها ان الفقيد ارسل لهُ ولنعمان افندي واديب افندي كتابًا مشتركًا فاجابهُ الاخيران وامسك هو عن الجواب

أجل ولكن كيف انسى مرابع انسي ومراتع نفسي في مجالس صفوٍ وهناء بين معاشر فضلٍ ووفاء ام كيف لا اذكر اياماً مرّت بنا كالاحلام فان لم تعد فلا كانت الايام وعلى الدنيا السلام

فيا رسالة الود ان وقفت بباب الصديق مسلّمة عليهِ مبينةً بعض شوقي اليهِ فانشدي عني بين يديه

فالوا التباعد يوجب الهجرا
كذبوا ومن ذاق النوى ادرى
فالحب ذكرٌ والمحب اذا
عزَّ اللقا لم يعدم الذكرا

***

وكتب من بيروت الى صديقهِ
الياس افندي القدسي بدمشق

ما ترك القصور للعذر وجهاً ولا ابقى الذنب المغفرة سبيلاً

فمالي حيلةٌ الا رجائي
وحلمك ان عفوت وحسن ظني

ولست بزائدٍ على هاته السطور حرفاً حتى يجيئني من لدنك ما يشعر بالرضى وبالعفو عما مضى فان فعلت عددت ذلك فضلا وان ابيت كان اباؤك عدلا

ولك الامر فاقضِ ما انت قاضٍ
فعليَّ الوداد قد ولاكا

*

وكتب من باريس الى الخواجا يهودا كوهين
بالاسكندرية

نعم النسب الادب ونعم اللقاء التذكار وان بيننا من ذلك النسب لرحماً لا تقطع وان لنا من هذا اللقاء لشملاً لا يصدع فاذا استعتك فقد استعنت نسيبا واذا ذكرتك فقد لقيت حبيبا وهذه صحيفتي ارسلها اليك حاملة نفحات تسليمي عليك

فهي الرسول الى الصديق وليتني
كنت اتخذت مع الرسول سبيلا
تأتي فيقرؤها الوفا ويجلها
نعمى ويقطعها رضىً وقبولا

والسلام من محب رضي من دنياه بصداقة احباه

***

وكتب من باريس الى حضرة الصديق الدكتور
مملوك بالاسكندرية

الالفة قد نفت الكلفة والوداد جعل الحديث للفؤاد فجرّده عن زخارف الكلام وابعده من سفاسف الاحتشام فدع ميم الكرامة ونون العظمة يستبقان الى حيث سار القارظان وتلقَّ من اخيك كتاب وداده متضمناً خطاب فؤاده

سار يسعى اليك سعي رسولٍ
اخرتهُ عوائق الايامِ
واجفاً بين رهبةٍ ورجاء
فهو بين الاحجام والاقدامِ
فتبسم لهُ دليل قبولٍ
وتقبل منهُ جزيل سلامي

***

وكتب من بيروت الى عزتلو خليل
افندي الخوري بدمشق

ان الذي سوّده الفضل وميزه الادب قبل ان تعليه الرتبة وترفعه اللقب لغنيٌّ عن التلقيب في الخطاب وصدور الكتاب فان

الرفعة قائمة بذاته والعزّة صفة من صفاته والسيادة لفظٌ وفضلة معناه والسعادة مآل سعيهِ ان شاء الله

وبعد فقد وصل من حضرة سيدي كتابه الذي اثبت لهُ المزية واوجب عليَّ الشكر وكنت في امر الجواب عنهُ على انتظار رقيم الولاية يرد فانهي بوصوله وانهض بواجب الثناء ولكنه تأخر حتى اوجست ان يكون تأخير جوابي مظنة اهمال ومحل مؤاخذة فكتبت هذا على نية الاعتذار وقصد الاذكار ملتمسًا من عناية سيدي اتمام ما بدأ من المساعدة بتعجيل ذلك الرقيم ولهُ في تحقيق الرجاء كرم الخلق موفقًا بهِ للمأثرة تذكر في كل مكان والمحمدة تشكر بكل لسان

***

وكتب من بيروت الى بطرس افندي منصور تيان ببيروت (ايضًا)

وقد اتاها من دمشق ونزل بدار شقيقته فلم يستطع زيارته فارسل اليهِ يقول

يدعوني الواجب الى ناديك ويحبسني اللائق عنهُ فيا شوقي الى لقائك ويا اسفي على امتناعه . فتقبل غير مأمور فروض التحية القلبية ممن رضي بالمراسلة من المقابلة رضى العاجز بالقليل الموجود من الكثير المفقود

***

وكتب من باريس الى الصديق اديب افندي نظمي بدمشق قبيل العودة

علمت بان عتبك موصول باسباب حلمك فكنت على يقين من عفوك وذكرت سابق ودك وموثق عهدك فاراحني حسن الظن بك من تكلف الاعتذار اليك فامط ايدك الله نقاب العتب عن محيا الرضى فالعمر اضيق من ان يسع وحشة العتب وفترة العذر وتقبل سلام صديقك سفيرًا يصلح ما افسده القصور ورسولاً ينهي اليك بقرب وفود المحب عليك يبثك مشافهةً ما لم يستطع بالمراسلة فينال لديك من القبول ما يكون فوق المأمول

***

(اعتذار عن اقتصار)

من جامع هذه المنتخبات

نقتصر في هذا القسم على بضع هذه الرسائل الغراء التي تحصلنا عليها بعد اقفال الباب الوارد بعنوان (رسائل وشذور) فان ما بقي لدينا من مثلها كثير العدد يستغرق مجلدًا مخصوصًا على حدتهِ ويتخلل اكثره شروح متعلقة باشغال الفقيد الخصوصية كرسائلهِ الى فقيدنا الآخر الصديق المرحوم سليم نقاش وكبعض منها مما راسل بهِ صديقنا البارع اسكندر افندي العازار وغيره من اصدقائهِ وفيهم جامع هذه المنتخبات فلزم من ذلك ان نكتفي بما اوردناه منها مغنيًا عن سائرها بما فيها من شواهد البلاغة البالغة حد الاعجاز

اما رسائل المدح التي وردت اليهِ في حياتهِ فقد افردنا لها بابًا مخصوصًا في آخر هذه المجموعة نضمنهُ ما رقَ منها وراق

منتخبات جريدة التقدم

(للمرة الثانية التي تولى فيها)

(الفقيد تحريرها)

لم يسعدنا الحظ بالحصول على مجموعة

هذه الجريدة لاول مرة خطّ فيها بنان الفقيد سطوره الاولى بعد ان ترعرع وشبّ على حب الآداب وتحصيل المعارف فقد التمسناها غير مرةٍ من حضرة صاحب امتيازها فضنّ بها علينا لما لا نعلم فاضطررنا على اسفٍ منا الى ان نكون في غنيّ عنها بما اجتمع لدينا من آثار الفقيد التي لو شئنا استيعابها جميعًا لما صبر علينا طلاّبها الى ان نفرغ من جمعها على ما نروم فيهِ من زيادة الانتظام في الترتيب والتبويب

***

قال في مقدمة العدد الاول

تتعدد مظاهر الوجود في الكائن الموجود فيتدرّج في مراتب الكمال بما لهُ من معدّات الكون والبقاء والحركة والنماء

فلا تأسف على الحبة مدفونة في الارض شتاء انها ستنبت في الصيف نامية تتوجًا ولا تبكِ الشجرة مجرّدة في الخريف انها ستبدو في الربيع خضراء ناضرة تسرّ الناظرين

ولقد اتى على هذه الصحيفة حين من الدهر دُفنت حبة قصدها وجرّد غصن نفعها بما طرأ عليها من حوادث الايام وعاديات الحدثان ثم انجلت بهذا المظهر لم تنشأ من العدم البحت ولم تبدُ بعد المحو المطلق ولكن تقمصت من الحياة ثوبًا جديدًا

فهي الان رسول رجائنا الى الذين عرفنا والذين عرّفنا من احباء الادب تصدر اليهم يوم الاثنين ويوم الخميس من كل اسبوع مشتملة على المهم من اخبار السياسة والراجح من اراء ذوي النقد والنافع من شذور الآداب والمأثور من خطرات الالباب

نجمع فيها السياسيات تحصيلاً ونبسط الادبيات تفصيلاً لا نسوّد منها بالرياء وجهًا ولا نملأ لها بسفاسف القول وطابًا ان سطرًا مما يؤلف بين القلوب لخيرٌ من فصلٍ مما تختلف عليهِ الاراء وإن كلمة مما تدعو اليهِ الحكمة لانفع من كتاب مما تبعث عليهِ الاهواء

وقد اخترنا لها ما يرى في هذا المثال من الترتيب والتبويب معوّلين فيهِ على عذوبة المورد وسهولة المقصد وجودة الايضاح لا نتكلف لجميع ذلك الا الافهام ولا نعتمد غير تقرير المعاني في الافهام من اقرب وجوه الكلام

وما ندعي في هذا الاسلوب كمالاً ولا احسانًا ان هو الاّ جهد مقلّ ينطق عن غيرة وان فاتهُ العلم — ولو فعل كل امرء ما يستطيع من منفعة لما رأينا على سطح الارض شقيًا

فاذا بلغنا المأمول من القبول فتلك يدٌ عندنا لذوي الفضل والحلم من اهل العدل والعلم والاّ فحسبنا من العذر بذل الجهد ومن التأساء حسن القصد — نرجم مقضيًا علينا بالعجز ولا نرجم محكومًا علينا بسوء النية . نعرف بالضعف في جملة كثير من الانام ولا نرمى بنقص القادرين على التمام

على اننا في ايام ليست كالايام وموقف ضنك المقام . نعم ان دولتنا العلية حقق الله بها آمالنا واصلح بعنايتها احوالنا قد وضعت للمطبوعات قانونًا لينًا في غير ضعف ووازعًا في عنفٍ يؤمن المستعصم بعروة الحق والصدق ولكننا بين امور عظام ومشاكل جسام لا يغني في مباحثها حسن النية ولا تكفي سلامة القصد

فربما انحبس عنا القول من حيث لا نعدم مقالاً وربما ضاق علينا المجال من حيث نرى مجالاً

بل لا ينحبس القول ولا يضيق المجال ان للتقدم انصارًا من اهل الغيرة العلمية واولياء من اهل النجدة الادبية لا يضنون عليهِ بما يجدون من فرائد فوائدهم وفواضل افضالهم وليس ما يجدون من ذلك قليلاً

ولهُ مطلبٌ في

الحقوق والواجبات

تمهيد

اقدمت على البحث في هذا المطلب والساذج الفطري مقدام

اعلم من نفسي العجز ومن ذهني الضعف ولا اجهل صعوبة البحث واختلاف الطرق وتنوع المذاهب فيهِ الا انني اجد من النفس ارتياحًا اليهِ ومن الفكر انبعاثًا عليهِ واخال ولعلني من المصيبين ان على كل من الناس واجبًا من النظر والبحث في كل ما يتعلق بذاتية الانسان والهيئة الاجتماعية بما يأمل منهُ حصول النفع لهما جميعًا وان وجوب هذا الامر مستلزم لحق القيام بهِ

فانا فيما احاول اخطأت فيهِ او كنت مصيبًا ذو واجب ينهض بما وجب عليهِ وذو حق يأخذ بما حق لهُ

ولا التمس لنفسي عذرًا فيما عساه ان يؤخذ عليَّ من ضعف حجة او فساد بيان او ضيق معرفة او التواء معنى اني اعرض لاخواني في الانسانية ما علمت وما علمت وليس الذي علمت وعلمت كثيرًا فان اصابوا بين السقط الذي يلفظ شيئًا يحفظ فلا اسف على الجهد والا فلست اول مخطئ في الناس ان اوّلم اول ناس

المبحث الاول

في تلازم الحقوق والواجبات

البقاء من لوازم الوجود. فالانسان من حيث انهُ موجود مكلف بحفظ ذاتهِ ترشده البداهة الى معرفة نواميس الطبيعة الضامنة لذلك الحفظ

والحيوان الناطق داجن مؤالف بالطبع فالانسان من وجه انهُ مدني مكلف بحفظ نوعهِ تهديه القوة العاقلة الى الاحكام الادبية الكافلة لذلك الحفظ

فذلك هو الواجب الذاتي وهذا هو الواجب النوعي وهما طبيعيان لازم وجودهما في الناس لزوم العلة المبقية للعلة الموجدة

فاذا تبين ذلك علم انهُ لا بد للانسان من الحرية الطبيعية في القيام بذينك الواجبين فثبت لهُ بذلك حق واضح وهو حق اجراء ما وجب عليهِ

فالحق والواجب من حيث الطبيعة متلازمان لا يقوم ولا يكون احدهما بدون الاخر فمن استلب ذلك الحق نريد الحرية الطبيعية فقد منع الانسان من قضاء الواجبات واهان النوع البشري وخالف ارادة الخالق الحافظ سبحانهُ وتعالى اذ كيف يستطيع المرء حفظ ذاتهِ اذا منع مما لا بد منهُ للبقاء وكيف يحفظ نوعه اذا

قطع عما لا ندحة عنه في الاستبقاء

وهذا الحكم وإن كان ظاهره منصورًا على الواجب والحق الطبيعيين في حفظ الوجود الانساني ذاتًا ونوعًا الا انه يتناول لا ريب الواجبات والحقوق في الحالة المدنية فان احتياج الانسان الى هاته الحالة في حفظ الذات والنوع قد اوجب عليه صيانتها بقانون ادني على مثال الناموس الطبيعي فكانت احكام ذلك القانون كما قال منتسكيو حكيم الفرنسيس بيانًا للصلات الضرورية الناتجة من طبائع الاشيا فلزم من ذلك ان يكون على المرء في مدنيته واجب يقضيه بحق يعينه على القضاء

فاتضح من هذا الذي بسطناه ان الواجب غاية واسطتها الحق فمن اوجب الاول لزمه اعطاء الثاني . ان الله تبارك وتعالى لم يمنح الانسان حقًا الا من حيث انه فرض عليه واجبًا فالحق ملزم بالواجب والواجب مستلزم للحق

المبحث الثاني

في اقسام الواجب والحق

تبين مما سلف ان الحق والواجب متلازمان لا يكون احدهما بدون الآخر في حال من الاحوال فكل ما نعينه من واجب يتناول حقًا وكل ما نبينه من حق يحتمل واجبًا

ومعلوم ان كل موجود عاقل كلف بذاته حريص على حفظها فان اول ما يظهر من عواطف النفس الشاعرة بالوجود انما هو حب الذات ومن احب شيئًا حرص عليه

وان حفظ النوع من احكام الطبيعة . فطر الانسان على الرغبة فيه كما هدت البداهة سائر الحيوان اليه . فهذا الحكم الطبيعي منتج بالضرورة للحالة الزوجية التي ينقاد الانسان اليها بالفطرة الحيوانية ثم يراها من حيث انه عاقل فرضًا واجب القضاء فتبث في قلبه ميلاً جديدًا يتحد بحب الذات فينشأ عنه في النفس لذة لا تنال ولا تدرك في العزلة نريد الحب الجامع بين الجنسين الواصل بين الزوجين الذي تنوعت مظاهره في عالم الوجود وإن على اختلاف تجلياته بكل موجود فهو في الزوج عشق وفي الوالد حنوّ وفي الولد برّ وفي الاخ وداد وهو هو في كل حال يفعل في النفس الطاهرة ويؤثر في القلب السليم الى حد ان يلتبس امره على الانسان فلا يدري أكان قائمًا بواجب من الطبيعة ومتوليًا من ذلك الواجب حقًا ام كان مائلاً مع الشهوة ساكنًا الى اللذة آخذًا بما يجلب له الرضى والسعادة

فهذا الحفظ النوعي وذلك الحفظ الذاتي يتعلقان بالانسان من حيث هو اي من حيث انه من النوع البشري . فهما منشأ الحق والواجب الطبيعيين وهذا هو القسم الاول من الحقوق والواجبات

وظاهر ان للانسان في الحالة الاجتماعية شأنًا جديدًا ينتقل فيه من الزواج الى الاسرة وهي العائلة ومن الاسرة الى الامة ومن الامة الى الانسانية فله من هذا الوجوه حقوق معينة وعليه منها واجبات معلومة . فما يختص بالعائلة من هذه الحقوق والواجبات من وجه المعاملة الشخصية والحدود الملكية . وما يمس الامة من حيث اقامة الامور وصيانة الاستقلال ووجود المساواة . وما يتعلق منها بالانسانية من حيث

تقريب الصلات وتأمين الوفود وتيسير التجارات وتمكين السلم وحفظ المصالح العمومية . كل ذلك يعرف بالواجبات والحقوق السياسية

وما كان من هذه الحقوق والواجبات متعلقًا بالمعاملة بين الافراد من وجه كف الظلم ومنع الاعتداء وحفظ الحق وصيانة الضعيف من القوي ووقاية الفقير من الغني وردّ المال المسلوب ومعاقبة الظالم وارضاء المظلوم واجراء سائر انواع المعاملة على محور الاستقامة والعدل . وكل هذا يسمى بالحقوق والواجبات المدنية

ولهذه الاقسام الكلية فروع كثيرة نذكرها في عرض ما يجئ تفصيلاً او تحصيلاً

المبحث الثالث

في الحقوق والواجبات الطبيعية

وهي احكام الشرائع الطبيعية النافذة في النوع الانساني مستقلة ومنفصلة عن كل شريعة دينية وكل سياسة مدنية

وقد وجد لهذه الاحكام في كل زمان ومكان اعداء الداء من اهل القوة الحسية والقوة المعنوية ممن يتسلطون بايديهم على الابدان وممن يستولون بالسنتهم على الاذهان . اولئك لم يعترفوا بغير الاحكام التي هم اربابها وهولاء لم يأخذوا بغير القوانين التي هم اصحابها . وما بين الفريقين معظم النوع الانساني حاشية يتبعون او عبيد يطايعون حتى استنارت الافهام ونشدات من ربق الاوهام فصار او كاد يصير لكل من الناس حدٌّ لايتعداه وخط لايتخطاه

ومن المعلوم ان الخالق الحكيم القادر العليم منزه عما يخالف الحكمة ويغاير القدرة ويناقض العلم الحق . فالاحكام الطبيعية الناشئة عن عنايته الازلية ان هي الاَّ كلمته الحق المعروفة من ازل الباقية الى ما لا يزال الكافلة لحفظ الوجود بوقاية كل موجود ولذلك عرفت في كل زمان ومكان وما اختلف فيها اثنان . فقد بدت لارسطو كما ظهرت لبسكال ورآها افلاطون كما شهدها نيوتن وتبينت لشيشرون كما علمها فولني وانجلت لسائر المتبصرين فائقةً على القدرة الانسانية غير متغيرة في حال من الاحوال حيةً في قلب كل انسان منقوشةً على الواح الصدور واحدةً في كل الازمنة والامكنة والاشخاص بقدرة الذي اوجد الازمنة والامكنة والاشخاص

فهذه الاحكام الطبيعية المقدسة تصل الانسان بذاته صلة قوية ينشأ عنها واجب الحفظ الذاتي فتصدر عنه العاطفة المسماة بحب الذات وتصل بين جنسيه فينشأ عن هاته الصلة واجب حفظ الجنس فتصدر منه العاطفة التي اذا كان موضوعها الزوجين سميت حبًا وان كان موضوعها المولود سميت حنوًا او حباً والديًا وان كان موضوعها الوالدين سميت برًا او حبًا ولديًا . وتصل بينه وبين ابناء نوعه فينشأ عن هذه الصلة واجب حفظ النوع فتحصل منه العاطفة المسماة حب الانسانية

فما اعظم حكم خالقه وما اعمَّ العناية الرحمانية ان الله سبحانه وتعالى ما فرض علينا الواجب الاَّ من حيث تميل النفس وتنعطف الارادة ويسكن الطبع فقد كانت شرائعه الطبيعية عواطف نفوس وشهوات قلوب قبل ان تكون احكام

فكر وعقل فهي الحب الجاذب الواصل الحافظ الذي ذكره الشارع الثاني في (وليحب بعضكم بعضاً فهذه هي الشريعة وهذه هي النبوات) ولا ريب انهُ جدَّد النواميس القديمة جملة بهذه الكلمات

وايضاً فقد وصلت الاحكام الطبيعية بين الانسان والاشياء. فكان المرء حرًّا في استعمال ما يحتاج اليهِ في واجبات الحفظ فهو في حالة الطبيعة مالك للعالم باسره الأَ ان هذا الحق غير مخصوص بواحد من النوع وإنما الناس فيه سواء لكل منهم ما للآخر بلا فرقٍ ولا استثناء. فالعالم من حيث انهُ للكل لايكون لواحد منهم بالذات وإنما يتمتعون بهِ على حد سوى. ولكن لما كان موضوع هذا التمتع الحفظ كان من حق الانسان استعمال كل شيء فيهِ ولم يكن من حقهِ الافراط في شيء

هذه اصول الاحكام الطبيعية متضمنة لما يختص بها من الحقوق والواجبات اوردناها مجملة كما رأيت وسنفصلها في المباحث الآتية كما سترى

المبحث الرابع

في الحقوق والواجبات الذاتية

فصلٌ

تبين في المبحث السابق ان حفظ الذات رأس الحقوق والواجبات الطبيعية فثبت بذلك ان الانتحار اي قتل المرء لنفسهِ مخالف للحكم الاول من القانون الطبيعي. الأَ ان هذه القضية وإن كانت مسلمة لانطباق نتيجتها الصريحة على المقدمة الصحيحة فلم نسلم من اعتراض الفلاسفة المغالطين فقد رأينا منهم جماعة يجيزون الانتحار ويبرئون مرتكبيهِ بادلة ما يلائم ضعف الطبيعة البشرية فتألف الاذهان ما يقولون وإن كان مخالفًا للحق. فلولا ان تكون هذه المباحث مقصورة على المبادئ الاولية والاصول الكلية من الحقوق والواجبات لاوردنا الكثير من من ادلتهم مشفوعةً بما يظهر ضعفها من اقوال الناقدين. على اننا نذكر من ذلك ما لا يخرج بنا عن حد الاجمال والاختصار مستوعبين فيهِ اهم ما استدل بهِ على جواز الانتحار

يقول نصراء هذه الجريمة ان الحق الطبيعي قائم بالتماس الخير ودفع الشر فيما لا يضرُّ باحد من الناس فاذا صار الانسان الى الحال التي تكون فيها الحياة شرًّا عليهِ ولا تكون خيرًا لسواه حق لهُ الانتحار بل كانت واجبًا عليهِ

ونقول ان في هذا الدليل فرض محال لامتناع تجريد الانسان من خيرية الوجود في حال من الاحوال على ان هذا المستحيل بتقدير امكانهِ لا يجيز الانتحار للواقع فيما يحسبهُ شرًّا مطلقًا بما كان فيهِ من ضعف النفس وما طرأ عليهِ من اليأس فان الشقاء حادث عارض على المرء بما كسبت يداه لاجناح ولا تبعة فيهِ على وجوده الطبيعي فليس من الحق ان يؤخذ ذلك الوجود بما لم يصدر عنهُ وإن تكون الطبيعة مسئولة عما ليست منهُ في شيء

فان قيل كيف لا يجوز الانتحار للمرأة على خطر العار والرجل على خوف الاهانة والوطني على اليأس من سلامة الوطن وكيف يخطأ من مات جليلاً كراهة ان يعيش ذليلاً او ليس ان كاتون الروماني العظيم الشأن قد انتحر فرارًا من الذل وحرصًا على الشرف

الذاتي فهل منع ذلك من ان يعد من عظماء الرجال

قلنا ليس الشرف الطبيعي الا كرامة الذات فهو من هذا الوجه فرغ من الحفظ الذاتي لا يمسهُ شيء من العوارض المعنوية ولا يحق التصرف فيهِ لغير الارادة الطبيعية فاذا نصبت للمرء حبائل من الحوادث او طرأت عليهِ عاديات من الظلم او الم بهِ عوارض من الفساد المدني فانتحر بسبب من هاته الاسباب فاما ان يكون ذلك منه عن خوف من المصاب والضعف عن احتمال الالم فهو جبان يخرج من ساحة الحرب قبل انحسام القتال. واما ان يكون عن قوة الفساد الحادث فيهِ فهو ضحية للشرف المدني والرأي العمومي فما نحسب كاتون وان كان رفيع الشأن عليّ المكان الا مجرمًا مذكورًا ومخطئًا مشهورًا ولا نراه وان عدَّ شديد الوطنية عظيم الهمة الا محبًا للسطوة حريصًا علي السلطة لم يمت كراهة للحياة بعد حرية رومة وانما مات اسفًا على زوال السطوة عن مجلس الشيوخ

وجملة القول ان استبقاء الذات من الواجبات الطبيعية ترشد اليهِ البداهة وتبعث عليهِ العواطف النفسية ما يخالفهُ الانسان الاّ اذا طرأ عليهِ من الفساد ما ينسيهِ كل حق و يشغلهُ عن كل واجب

وكما ان وقاية الذات من الهلاك واجبة على كل موجود من الانسان كذلك يجب عليهِ صيانة تلك الذات عن كل ما يجلب لها الالم او الضعف او النقص او التشوّه كائنًا ما كان وفي اي سبيل كان مما يخرج عن حدّ افتداء الكل بالجزء كما سنبينه في الفصل الآتي

فصل

تقرّر فيما سلف وجوب حفظ الذات وحرمة قتل النفس ومن المعلوم ان ذلك الوجوب قاضٍ بصيانة الذات عن كل ما يجلب اليها الضعف والحطة والفساد وان هاته الحرمة ملزمة بوقاية النفس من كل ما يعود عليها بالضرر والهلاك فان حفظ الوجود يتناول لا شك معنى استبقائهِ صحيحًا كاملاً سليماً كما وجد وحرمة القتل تشمل لا ريب حرمان الافراط والتفريط في حاجات الوجود من وجه انهما متلفتان للوجود

فكل ما يؤلم البدن او يضعفهُ او ينقص منهُ شيئًا لازمًا فهو مخالف لحكم الطبيعة مباين لحكمة الخالق لان الهيكل الجسماني الناهض بالواجبات الطبيعية اما ان يكون (على رأي اهل المادة) قائمًا بذاتهِ حيًا بتركيبهِ غنيًا عن كل مدد روحاني فاضعافه او ايلامه او اذلاله مغاير لمبداء الحفظ الواجب طبعًا واما ان يكون (على رأي الروحانيين) بمنزلة الآلة لقوة روحانية تحار فيها الافكار ولا تدركها الابصار فافساده على هذا الوجه مضرٌّ بالنفس مناقض لحالتها الكمالية مباين لمبداء الحفظ المفروض شرعًا. وهذا الهيكل الحيوي على الوجهين سواء كان قائمًا بذاته او بما فيه لا يكون انسانًا ما لم يقم بالواجبات الطبيعية الانسانية ولا يستطيع ذلك ما لم تحصل لهُ الحرية فكل ما يذهب بالحرية الطبيعية تقييدًا او اضعافًا او محوًا كليًا فهو اختلاس او جهل بماهية الوجود لان العبودية اما ان تكون

اجبارية فهي من جانب المستعبد سرقة واتلاف لاقدس حقوق الوجود واما ان تكون اختيارية فهي من جانب العبد جهل وعى قلب يخرج بها عن ان يكون انسانًا

فمن عرّض نفسه لعاديات الطبيعة من الحرّ والبرد والجوع بما يوسوس فيهِ الجهل مختارًا في ذلك غير مضطر لهُ ولا ملتمس منهُ نفعًا قريبًا معلومًا . ومن عدا على البدن بما يؤلمهُ من ضرب وجلد وتمزيق واهمال بما يزين لهُ الوهم راضيًا في ذلك غير مكره عليهِ ولا مستفيد منه لهُ شيئًا . ومن شوّه الجسم او اسقط منهُ عضوًا لازمًا سعيدًا كائنًا ما كان ذلك العضو بما يموّه له الطمع او الخيال الفاسد عامدًا في ذلك غير مجبرٍ ولا مفتدٍ سائر البدن بذلك الجزء كمن يقطع اليد المتغنغرة وقاية لبقية الجسم . ومن انتزأ على حريتهِ الذاتية باللهو او الانقاص او الاضعاف بما يبعث عليه الكسل او الغباوة او دناءة النفس راغبًا في ذلك غير مقسور عليهِ . كل هولاء مخالفون لاحكام الطبيعة مناقضون للحكمة الالهية الازلية التي هي عين الجمال ومظهر الكمال ومصدر الوجود وعلة البقاء . فسبحانك اللهمّ ما خلقت فينا شيئًا عبثًا ولكن نحن بانفسنا عابثون . ولا رضيت لنا شوهًا ولا عذابًا ولا امساكًا عما لا يضرّ ولا قيدًا ولا ذلاً ولا عنتًا ولكن اكثرنا لا يعلمون

ـ . عودٌ على بدء . ـ اما الافراط الذي هو استعمال الشيء من وجه الزيادة فيهِ والتفريط الذي هو استعماله من جانب الانقاص منهُ فهما تابعان لحرمة قتل النفس بما يجلبان عليها من اسباب التلف فكل ما يضرّ بالوجود الانساني من الاطلاق والامساك والبسط والقبض والاباحة والمنع والافعام والافراغ مماثل لقتل الذات حرمةً ونكرًا فمن ترك الوسط العدل فيما يحتاج اليهِ للبقـاء والنماء واخذ منهُ بجانب الزيادة والنقص فلا فرق بينهُ وبين المنتحر الا ان هذا يهلك النفس دفعةً وذاك يقتلها تدريجًا

المبحث الخامس

في الحقوق والواجبات النوعية

فصل

تبين في المبحث الثالث من هذه المطالب وجوب حفظ النوع الانساني من وجه ملازمته لبقاء الذات . فهـذا الواجب ملزم بالتئام الجنسين على صورة يحصل منها البيت او العائلة . ولهُ في ذلك مظهران اثنان مظهر الزواج وفيهِ الواجبات والحقوق الزوجيـة ومظهر النتاج ولهُ حالتان الحالة الوالدية والحالة الولدية وفي كل منهما حقوق وواجبات

فالعائلة والمراد بها في هذا المقام جماعة الزوجين وما يلدان هي الاساس الاوّل والركن الفرد في بقاء النوع ونماء الانسان وهناء الحياة وكمال الوجود بل هي في العالم البشري بمنزلة مركز نور تنبعث منهُ اشعة الحياة فتنير القلوب وتسرّ النفوس وتحيي الابدان وترشد المرء الى المقام الرفيع المعدّ لهُ في عالم الحيوان

فهي من هذا الوجه جرثومة الكمالات الطبيعية وارومة المحاسن المدنية ومعدن الفضائل الاهلية لا تحصل بدونها في النفس عزّة ولا تنشأ غيرة ولا توجد رحمة ولا يكون اجتهاد

ولا يكمل شيء من السجايا الانسانية والمزايا الاجتماعية . بل لا يكاد الانسان يلتمس من خبايا الارض وكنوز الطبيعة وثمرات العمل ما ينفصل عن حاجته الذاتية الا ان يكون ذا عيالٍ من ضعيفات محبات صابرات وصبية صغار عاجزين آملين جميعًا فيهِ متوكلين عليهِ يخاف عليهم ان يمسهم ضيم ويسرّه ان يراهم راضين عنهُ معجبين بهِ داعين الله بالبركات

نعم ان حب الانسانية على وجه الاطلاق او المجد الخيالي على حكم التصوُّر قد يكون هو الباعث الاول لبعض الانفس الزكية والعقول السمية على اقتحام المصاعب واحتمال المتاعب في القيام بما يترتب عليهِ الاثر النافع العميم . الا ان ذلك فضلاً عن كونهِ حادثًا طارئًا على الجمعية الانسانية غير اصيل في الخلق الطبيعي فهو مقصور على دون القليل من الناس . اما السواد الاعظم فلا يعانون متاعب المعاش ولا يصبرون على شقاء الحياة الاَّ بباعث ادنى الى الحسّ واقرب من الطبيعة واظهر لعين الفطرة الساذجة . وبعبارة اوضح لا بدَّ للانسان في الحالة المعاشية من عيال يشعر بحبهم لهُ وحاجتهم اليهِ واعتمادهم عليهِ من دون سائر الناس فيخرج باجتهاده في تحصيل المنفعة ودرء المضرَّة عن حد ما يحتاج اليهِ مع ذلك الاجتهاد منحصرًا على نوع ما في الحاجة الذاتية من وجه ان الولد قطعة من ذات الوالد بل هو عين تلك الذات تقمصت رونق الشباب وأُعيدت خلقًا جديدًا فهي تقوى بهِ ما دام لها البقاء وتحيا فيهِ بعد اذ يدركها الفناء

فاتضح مما تقدم ان الزواج واجب طبيعي لازم في بقاء النوع ملازم لحفظ الوجود ولعلَّ هذا هو الاصل في جميع الاحكام القديمة المانعة من التبتل وطول العزبة من وجه ان الذين هم على من تينك الحالتين يكونون في مثل العزلة عن سائر النوع فتنمو فيهم العواطف الانوية التي لا تخرج عن حد قولنا «انا» فينشأُ فيهم عن ذلك خلق الاثرة الموجب للوحشية المعروف بحب الذات

فاذا تقرّر ذلك لزمنا بيان حد الزواج وماهية ما يجب فيهِ وما يحق للزوجين وإيضاح ما يترتب عليهِ من الحالة الوالدية والولدية وما يلزم في هاتين الحالتين من الواجبات والحقوق

فصل

ظهر مما سلف ان حفظ النوع ملزم بالتئام الجنسين على الصورة المسماة زواجًا فذلك الالتئام لا يكون الا بالارادة ولا يتم الا بالاتحاد فاذا حصل كاملاً تعين فيهِ على الزوجين ان يسعيا فيما يعود بالفائدة عليهما جميعًا فان اتحادهما بالارادة يشبه ان يكون ميثاقًا على الاشتراك في اللذة والالم والصفو والكدر والسرّاء والضراء

غير ان حفظ النوع وان كان من الواجبات الطبيعية فلا يلزم الاَّ حيثما لا يضر بالذوات شيئًا ولذلك وضعت للزواج حدود مبينة واوقات معينة في بعض القوانين وكان في الحالم الصغير والعاجز الكبير مكروهًا على الاطلاق

ولما كان حفظ النوع هو الغاية الطبيعية في التئام الجنس لزم ان يكون هو المقصود

بالذات فيه فاذا جرّد القران عنه عمدًا كان بمقتضى الناموس الطبيعي جرمًا ولذلك جاءت الشرائع الدينية بالنهي عن الزناء واقامت على مرتكبيه حدًّا من عقاب هذه الحياة علاوة على ما توعدهم من عقاب الاخرة . اما القوانين المدنية فقد اتت بمثل ذلك على حين كانت قريبة العهد من الطبيعة فلما ان تقدم الناس فيما نسميه الفة وتمدنًا رفع ذلك الحد من قوانينهم فناب الادب عنه في ذوي النفوس الزكية والاخلاق الكريمة والعلم الصادق

فاتضح من هذا الذي تقدمناه ان الزواج ميثاق اشتراك واتحاد يبرم بين الجنسين قضاء لواجب حفظ النوع فهو من هذا الوجه وعلى هذه الصورة واجب لازم بالذات كما يؤخذ من من مآل الحديث الشريف « زوّجوهم فان لا تفعلوا تكن فتنة في الارض وفساد عريض»

فاذا تقرر ان الزواج ميثاق مبرم بالارادة لزم من ذلك ان تعد مخالفة شرطه من قبيل الخيانة . فهذه الخيانة تكون في جانب المرأة افظع منها في جانب الرجل من حيث انها(١) تقضي عليه بان يعول الولد(٢) في حالة كونه ليس منهم في شيء فهي لذلك من موجبات نقض الميثاق في كل شريعة مأثورة الاَّ ان ذلك النقض يكون في بعض الشرائع طلاقًا وفي البعض فصلاً وابعادًا ليس غير

فالطلاق حكم يعيد لكل من الزوجين حرّيته الذاتية بحيث يحق له مواثقة من شاء بمثل الميثاق الاول والفصل قضاء يفرّق بين الزوجين حسًا مع بقاء الصلة المعنوية بحيث يكون الزواج محظورًا عليهما جميعًا

وليس من شأننا بيان حدود الطلاق وشروط الفصل على ما وضعت في الشرائع والقوانين المرعية فذلك يخرج بنا عما التزمناه من الايجاز في هاته المباحث ولكنا ننظر الى ميثاق الزواج من وجه الحقوق والواجبات الطبيعية مجرّدًا عن كل عقيدة دينية تحيزًا في موضوع البحث وحدود المطالب.

فالزواج من هذه الحيثية عقد معلوم الشرط والعقد المشروط فيه لا يلزم الاَّ ما دام شرطه محفوظًا فان ضيعه احد المتعاقدين او ابطله او اهمله عمدًا كان الاخر في حل من العقد وهو الطلاق على اختلاف انواعه تجيزه بعض القوانين المدنية بعد ظهور موجبه ووضوح وجه الضرورة فيه وتأمين الولد من سوء عقباه . وتحلله بعض الشرائع المطهرة صادرًا من جانب الرجل لعيب معين ومصلحة ظاهرة بعد وفاء النقد على انه ابغض الحلال الى الله . وتقف به بعض سائر الشرائع والقوانين عند حد الفصل على ما ذكرناه اعتقادًا انه ما عقد الله على لسان رجال الله ولن يحل لانسان حل ما عقد الله او مخافة ان يتقوض به ركن البيت ويفسد الولد بافتراق الوالدين ولكل ادلة من النقل والعقل فيما يختلفون عليه

فصل

بالزواج يحصل النتاج فتنشأ عنه السلطة والواجبات الوالدية وهي وسيلة استمرار النوع . فالنتاج مؤدى الطبيعة البشرية واستبقاء المولود

(١) اي المرأة

(٢) غير الشرعيين

متعين على الولادة فهو واجب تفرضهٔ طبيعة الاشياء فلا مفرّ للوالد منهٔ ولا عذر لهُ في القعود عنهٔ

ولقد وضع الحد في بعض القوانين على الذين ينبذون ولدهم ولا شك ان اهمال شأن الولد بعد الولادة يكون من ذلك القبيل فان دعوة الموجود في عالم القوة الى الوجود في عالم الفعل لهي الميثاق على حفظهِ بتيسير ما يحتاج اليهِ وإنماء قواه البدنية والعقلية الى ان يشتد ساعده فيصير كفوءًا لذاتهِ فمن اهمل ذلك بلا موجب من الطبيعة ومن اقدم على تلك الدعوة مع تحقق العجز عن المترتب عليها فقد ارتكب ذنبًا يشبه في بعض احوالهِ القتل

فاذا تبين استبقاء الولد من احكام الضرورة الطبيعية ثبت انهُ لا يوجب السلطة في جانب الولد الا بمقدار وجود تلك الضرورة ولذلك فالواجبات الوالدية تنتهي من الوجه الطبيعي ببلوغ الولد سن القوة والرشد فلا يبقى بينهما من بعد ذلك الا رابط الهيئة الاجتماعية والالفة البيتية كما سنبينهُ في مكانه

ومما تقدم يعلم ان استبقاء الولد بانماء قواه البدنية والعقلية من الاحكام اللازمة في حفظهِ فالولد كائنًا من يكون وفي اية حالة يكون مأمور من قبل طبيعة الوجود بحفظ مولوده وتوجيه العناية اليهِ وسد حاجتهِ الطبيعية بالغذاء والوقاء وإنما قوّتهُ العقلية بما يلزم من العلم والجائه الى قبول ذلك منهُ ان اباه ولذلك وضع الحد على مسقط الجنين عمدًا وفرض العقاب على قاتل مولوده وحكم بالقصاص على النابذ وتقررت في الكثير من هيئات الاجتماع

الزامية التعليم

على ان هاته الواجبات وإن كانت كثيرة الفروع ثقيلة الحمل عظيمة التبعة فلا ينبغي ان تعدل بغير اهل الثروة عن الزواج والنتاج فانهُ لم يفرض على كل والد ان يجعل مولوده من ذوي المقامات السامية وارباب الثروة الوافرة واهل العلم الواسع وإنما يلزمهُ القيام بالضروري من حاجاته المحبوبة وإصلاح شأنه وإعداد حسن المآل له بما تصل اليه يد الامكان قال منتسكيو حكيم الفرنسيس . على الوالد ان يطعم الولد ويحميه ويحسن تربيته وليس عليهِ ان يجعلهُ ذا ميراث . اه .

ولرب ماهن فقير وفاعل لا يملك شروى نقير بث في قلب ولده روح الشهامة والاستقامة ويعنى بهِ ما استطاع انماء وإصلاحًا فيكون في ذلك افضل واحسن سعيًا من غنيّ يهتمُ بالميراث ولا يهتمُ بالوارث

وقد مرّ بنا ان الواجبات الوالدية لا تقف عند حد الغذاء وسد الحاجة البدنية ولكنها شاملة لتهذيب الفكر وإنماء العقل — وبعبارة اوضح — ان للانسان من حيث انهُ حيوان وجودًا بدنيًا ومن حيث انه ناطق وجودًا عقليًا فمن دعاه الى حيز الوجود بالفعل فقد وجب عليهِ حفظهُ في الحالتين وبناء على ذلك فالتعليم فرض واجب على الوالدين بلا استثناء الى حد ما يستطيعون . ومن المعلوم ان الحالة المدنية قد وسعت نطاق الضروري من العلم بما نشأ عنها من تفرّع الحاجات وتنوع الحالات حتى عزّ على كثير من الناس ان يبلغوا بولدهم حد اللازم من المعرفة والضروري من العلم

فصار من الواجب على هيئة الاجتماع ان تعينهم على ذلك بانشاء المدارس المجانية فقامت الدول المتمدنة بهذا الواجب فلم يبقَ فيها للوالدين من عذر في التثاقل عن تهذيب اولادهم فان فعلوا عنادًا او عن قلب تعين على الهيئة الحاكمة المختارة ارشادهم الى الواجبات الطبيعية بالدعوة والحث والاغراء والالزام يجب عليها ذلك من وجه ان المولود ليس ملكًا للوالد يتصرّف فيهِ كيف شاء وانما هو لله علة الوجود ثم لنفسهِ ثم لهيئة الاجتماع وهذا هو الاصل في قوانين التعليم الالزامي

ومن الناس من لا يجد للسلطة الوالدية حدًّا فيحسب الوالد حرًّا فيما يجب عليهِ المولود يفعل من ذلك ما يشاء ويهمل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل . ومنهم من يقول ان الولد ثمرة الولادة فمن ملك الشجرة فقد ملك الثمر يريد تقرير استعباد المرأة واستبداد الوالد . ومنهم من يعد سلطة الولد قبلاً من استبقائهِ للمولود فهؤلاء جميعًا يرومون تأخير هيئة الاجتماع وارجاعها الى ما وراء قرون الظلمات الى العصر الذي كان فيهِ الوالد ملك الوالد يبيعهُ ويتصرّف في وجوده استعبادًا وقتلاً وكيف شاء . الى عصر الخشونة والجهل . الى زمن الاستبداد والظلم . الى عهد الحيف والفساد فقل يا اهل الظلمات حذار فقد جاء ملك الانوار

وكتب في رثاء المغفور لهُ الحاج حسين افندي بيهم احد عيون الاعيان المسلمين في ثغر بيروت وقد توفي ثالث وعشرين صفر سنة ١٢٩٨ و ٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٨١ فقال بعنوان

خطب عمم

لمثل هذا الخطب يعدُّ التأبين والرثاء ولمثلهِ يذخر النوح والبكاء فنجمع بما يثير الحزن ويبعث الوجد ويترك في القلوب صدعًا وابك ما استطعت بكاء وما وجدت في العين دمعًا فقد رزئ الفضل بمن كان من اعظم اهلهِ غناء واحسنهم وفاء واكرمهم خلقًا وسمتًا واطيبهم حيًّا وميتًا

مات الحسين فيالها من نكبةٍ
اضحى بها الاحسان منهدم الذرى

مات الحسين فتقوّض ركن الفضل وانثل عرش الادب وافل نجم المجد وانكسف بدر الجمال فناحت ارض بيروت باصوات الانام وبكت سماؤها بمقل الغمام

ولئن بكيناه وحق لنا
ولئن تركنا ذاك للصبرِ
فلمثلهِ جرت الدموع دمًا
ولمثلهِ نفدت فلم تجرِ

وقد استأثر الله بهِ كريمًا محمودًا طيب الآثار فانتشر نعيه في المدينة فارتجت لهُ دهشةً واضطرابًا واقبل الناس على داره مسرعين مسترجعين لم يبق الحزن في وجوههم ماء ولم يترك البكاء في عيونهم دمعًا فودّعوا منهُ فقيدًا عضدًا لقوم ونصيرًا لآخرين وحبيبًا محسنًا اليهم كلهم اجمعين

وسارت المدينة في جنازتهِ ظهر الثلاثاء يتبع

الغني فيها فقيرًا والكبير صغيرًا والرئيس مرؤوسًا والشريف مشروفًا والغريب بعيدًا والنسيب غريبًا حتى تساوى به ساكن هذه الارض على كونهم درجات بعضهم فوق بعض كانما نفخ الملك بالصور وكانما يومئذ يوم النشور حتى وصلوا به الجامع الكبير محمولاً على اكف الوجهاء من اهل الاسلام والنصرانية ممن الف بينهم الخطب وجمعتهم المصيبة فيه يخترقون الالوف ويمرّون بين الصفوف تتقدمهم تلامذة المدرسة الخيرية بألبسة خصوصية منهم حملة القرآن الشريف ومنهم المعددون النائحون ومن ورائهم تلامذة المكاتب الرشدية ومائتان وفوق ذلك من العساكر النظامية ثم رجال الشرطة جميعًا ثم مشائخ الطرق واهل القرآآت يذكرون بالله ويكرّرون لا حول ولا قوة الاّ بالله ومن ورائهم النعش يسمعون له صريفًا

وليس صريف النعش ما يسمعونهُ
ولكنها اصلاب قوم تقصّفُ

ثم تلقاه على باب الجامع افاضل اهل العلم فحملوه الى داخل المقام اجلالاً ولم يتفق ذلك لاحد من قبله ثم تلي بعد الصلاة عليه ما نظم الشعراء في ليلتهم من الرثاء له فحصل من ذلك ديوان لا يجمع لغيره في شهور واعوام ثم خرجوا به الى المدفن فبكت السماء عليه نازعًا اليها ثم ابتسمت له وافدًا عليها وواروا منهُ في التراب بحرًا واسكنوا منهُ في الارض بدرًا والناس من حول الضريح صفوف كثيرة من كل وجيه ونبيه من اهل الاسلام وسائر الملل منهم امراء العسكرية ورؤساء الملكية وقناصل الدول وكبار التجار وجماعة من وجهاء الغرباء عن البلد اتوا لقضاء هذا الواجب

وجملة الامر ان مشهد الفقيد المشار اليه يشهد بمقدار اسف الناس عليه ألهمنا الله في مصيبته صبرًا وكتب لنا بذلك اجرًا فانهُ

عمت مصيبتهُ وعم حداده
فالناس فيه كلهم مأجورُ

لمع من ترجمة حاله

ولد رحمهُ الله عام ١٢٤٩ للهجرة وقرأ العلوم العقلية والنقلية على العالمين الفاضلين الشهيرين الشيخ محمد الحوت والشيخ عبد الله خالد واتجر من بعد ذلك مدة يسيرة ثم هجر التجارة في الخامسة والعشرين من سنيه الى مقامات المجد والفضل فصار عضوًا في مجلس ايالة صيداء الكبير وتوجهت عليه من لدن الدولة العلية رتبة علمية ثم كانت حادثة عام ١٨٦٠ فصار عضوًا في ديوان (فوق العادة) علاوة على عضوية المجلس الكبير وانتخب بعد التشكيلات عضوًا فخريًا لمحكمة التجارة فوفى هذه المناصب حقها من العدل والنزاهة ولين الاخلاق وسافر في خلال ذلك الى الاستانة اول مرة ولما ان عاد منها توجهت عليه رتبة مولوية ازمير ثم صار عضوًا في مجلس ادارة اللواء ولما وضع الدستور الاساسي وفتح مجلس النواب انتخب عن سورية فتوجه الى الاستانة على ما فيه من نحافة البدن ثم لم يأخذ الراتب المعين للنيابة وانما تركه للاعانة الحربية وبعد ان عاد من العاصمة بقليل تشكل مجلس البلدية فكان رحمهُ الله من اعضائه ثم انتخب ثانية للنيابة عن سورية فمنعهُ من قبول ذلك موانع خصوصية لا ترد . ثم عرض عليه

مقام الافتاء في بيروت وغيره من المناصب السامية فتباعد عنها جميعاً

وكان عفاعنهُ الله عظيم العناية بالادب شديد الغيرة على وطنهِ مقداماً عالي الهمة في كل مهمة وملمة جريئاً في الحق لا يرهب فيهِ وعيد ظالم ولا تأخذه لومة لائم لين الجانب كريم الاخلاق مقصوداً في كل مأثرة مذكوراً في كل محمدة انتخب مميزاً للجمعية العلمية السورية ثم ولي رئاستها بعد وفاة رئيسها الاول الامير محمد ارسلان وكان لهُ نظم رشيق مطبوع ينزع فيهِ الى النكتة وحسن التضمين وجزالة اللفظ ولهُ رواية غرّاء وارجوزة وطنية ادبية تليت في الجمعية العلمية

وكانت وفاته طيب الله ثراه واكرم في جواره مثواه في الساعة السابعة والنصف من يوم الاثنين ثالث وعشرين صفر الخير سنة ١٢٩٨ بعد ان اوصى بان يطلب السماح عنهُ من الناس عموماً ولا سيما الذين لم يقابلهم من العائدين فنودي بذلك في الجامع وكانت جنازته على ما ذكرناه في خبر الوفاة والمشهد وصار محموداً الى ربهِ

رحمنا الله وإياه

ولهُ في غمبتا فقيد البلاد الفرنسوية من كلام لهُ على خطاب القاه ذاك الرجل الشهير عام ١٨٨٠ وكان رئيس نواب الفرنسيس اذ ذاك

قال

نفس عصام سوّدت عصاما

وعلمتهُ الكرّ والاقداما

صار هذا الرجل واسطة العقد ومركز الدائرة في امتهِ لم يرفعهُ الى ذلك المقام عهد سابق ولا عصبة غالبة ولا نصير قوي ولا اتفاق عارض وانما اعلاه لسان ناطق بمعجز البيان واقدام شاهد بثبات الجنان ودربة يستميل بها الالباب وحكمة تجتمع عليها الاراء ويقول اعداؤه من الاحزاب الملكية وغلاة اهل الحرية بلغ هذا الدخيل مقاماً لا ينبغي لاحد في هاته الدولة فانتهى اليهِ النهي والامر وقصر عليهِ النقض والابرام وصار الملك الحاكم وان كانت الدولة جمهورية والرئيس المطاع وان كانت العصبة ذيمقراطية . وما يطعنون عليهِ في ذلك شيئاً ولكنهم يثبتون لهُ الفضل ولا يشعرون فانهُ لا يؤخذ على الوجيه النبيه ان يكون في القوم صدراً ولا يلام على الراشد الخبير ان يكون في الركب دليلاً ولا يستدرك على مثل غمبتا ان يحصل في امتهِ رئيساً الا اذا عدت النباهة ذنباً وحسب الرشد جرماً وكان الفضل شيئاً اداً . وكيف لا تجتمع كلمة الاحرار على رجل يكشف عنهم الغمة في كل ملمة وينهض بجلّ الخدمة في كل مهمة . على القائل للامبراطور انت العدوّ اللدود لم يخشَ نسره منشباً اظفاره في القلوب حاجباً بجناحيهِ اشعة الانوار عن البصائر والابصار . الراقي بمركبة الهواء رسولاً الى حامية القلاع لم يرهب قنابر العدوّ موجهة اليهِ مطلقة عليهِ . الصائح بالمارشال مكماهون وقد اراد بالجمهورية شراً لا بدّ من الامتثال او الاعتزال . الصادع بما تأمر الوطنية ابّان الانتخاب . الجامع لكلمة اهل الحرّية على اختلاف الشيع والاحزاب . القائل غير تارك لاحد مقالاً . الفاعل غير مبقٍ لناقدٍ مجالاً . الخطيب

يهتز له المنبرُ وتنقاد اليهِ كلمات السحر متداركة متسابقة آخذًا بعضها برقاب بعض يقف وقد احدقت بهِ الابصار وحوَّمت عليهِ طائرة الافكار تلتمس منهُ طعنًا ومحلَّ اعتراض فيجيل عينهُ «الكريمة» فيهم ويلقي على المنبر يسراه ويرفع اليهم يمناه وقد سكن المتحركون وانصت المتغيظون فيتدفق بالكلام تدفق السيل ما بين الجبلين وقد صار المعترض مريدًا والنافر اليفًا والعدوّ صديقًا فما سمعنا من قبلهِ الرعد ناطقًا ولا رأينا الليث متكلمًا ولا شهدنا الجبل متحركا ولا انحصر البحر في منبر نسمع حركة هياجه ونبصر فيهِ تلاطم امواجه

ولقد اطلنا في وصف هذه الاعجوبة الانسانية وما ندرك فيهِ الغاية ولا نبلغ منتصف النهاية والقصد ان نظهر شأن غبطتنا في امة الفرنسيس وانهُ هو الاول فيها والاخر والمطاع في الباطن والظاهر فاذا قال فالفئة الغالبة منهم هي الناطقة بلسانهِ المعربة عن قصدها ببيانهِ

وقال في

حقوق المرأة

لجريءٍ مقدام لا يخاف السيوف وان كنَّ عيونا
ولا يخشى النبال وان كنَّ جفونا

مهلاً سيدي الشيخ . لا تنظرنَّ اليَّ شزرًا فلست زيرَ نساءٍ يروم المطارحة او المفاكهة او الاغراء او الاطراء التماس الزلفى اليهنَّ بما يرضيهن ولا يرضيك . ويا صديقي خدن الغانيات لا يبرقنَّ بصرك ارتياعًا فاني وان لم اكن مقطعًا متبتلاً فلا اريد المزاحمة ولا المداحمة ولا المحاشرة ولا المناظرة . ويا مولاتي العجوز المبجلة اما نسيت فيما اقول جمال ماضيك ولا ذهلت عن جلال حالك . ويا اميرتي الفتاة الزهراء ما اهملت موجود حاضرك ولا اغفلت موعود مآلك

ويا ايها الاحزاب جميعًا اني غير هازلٍ وان هزل الزمان وغير هاذر وان افاد فيهِ الهذيان ٠

وبعد فلا يحسبني الفاضلان اللذان تناظرا في النساء - بالكلام مجرَّد الكلام - في منتدى المدرسة الكلية متعرّضًا لشيءٍ مما ذكراه ولكن لا يداخلنهما الظن باني انقبضت عن ذلك بما اصاب تقرير النبيه البر افندي المذكور على تلك المناظرة فاني معترف لها بالمزية من قبل ذلك التقرير ومن بعد عالمٌ علم اليقين ان كاتبه اراد خيرًا وانهُ بريءٌ مما أُخذ عليهِ ولست في ذلك راجمًا بالغيب ولا مستخرجًا من القول ما لم يرد قائله ولكن صاحب التقرير كتب الى هاته الصحيفة يقول «نشرت في لسان الحال تقريرًا وجيزًا على المباحثة التي جرت بين الاديبين الفاضلين يعقوب افندي صروف وابرهيم افندي الكفروني في الرجل والمرأة ثم رأيت في تلك الصحيفة ردًّا اتى فيهِ صاحبه من التثريب عليَّ ما لم استوجب منهُ شيئًا وما لم اكن اتوقع من ادبه ومهما يكن من الامر فليس من قصدي المناقشة وتمهيد الوجوه ولكن اقول ان صاحب هذا الرد قد اخطأ مرادي فيما قرّرت فاني لم اقصد الوضع من شأن احد المتباحثين كما ظنَّ ولا التعرُّض لتفضيل احدهما على الاخر وانما اوردت حكمي في نفس البحث الذي كان كلام السالب فيهِ اقوى وبرهانه اوجه لما ان الوجه نفسه اقوى واصحّ ولذلك

جاءت براهين الموجب ضعيفة في الغالب من جانب ضعف الوجه لا من حيث انهُ قصير الحجة او قاصر المعرفة وإما قوله ان لا بدَّ في الترجيح بين الطرفين من كون المرجح اعلم منهما جميعًا فمع اقراري فيهِ باني لست من اقرانهما ولا ادعي في العلم مبلغ صاحب الرد أذكره ان المسألة التي كان فيها البحث ليست من المسائل العلمية التعليمية وإنما هي من المطالب الادبية العمومية التي يتأتى الحكم فيها لكل احد بعد سماع براهينها من الطرفين . واقتصر من البيان على هذا القدر امتثالاً لما نصحني الاستاذ في آخر الرد ووقوفًا عند الحدّ الذي رسم متبرئًا ما نسب الي من سوء القصد»

رحماكنَّ سيداتي فقد خرجت عن موضوعكنَّ الرفيع الى غير المقصود منهُ ولكن لاجناح عليَّ ولا تثريب فانهُ لا بدَّ لمن يتجرأ على مس الكاغد بتزيينهِ باسمكنَّ الشريف ان يطهر قبل ذلك من كل شبهة وريبة . فان لم تقبلن هذا القول عذرًا قلت موضوعكنَّ شامل عميم اراه في كل شيءٍ وارى كل شيءٍ فيهِ فالخروج عنهُ من جانب دخولٌ اليهِ من الف جانب والشغل عنهُ من جهة شغل بهِ من سائر الجهات

فاذا تمهد بذلك سبيل المغفرة قلت اروم بيان حقوق المرأة امًّا وزوجًا وامًّا لم يدعني الى ذلك داعٍ من جانب القلب ولم يهدني سبيلهُ دليل من قبل الفكر ولكن رأيت فيهِ فصلاً شافيًا جديد الوضع ظاهر النفع للفاضل (ليكوفه) الفرنسوي فعربتهُ ما استطعت وما شاء المقام خدمة للاباء ونصيحة للازواج وهدية لسيداتي النساء جميعًا

قال الفاضل المشار اليهِ . ان مسألة النساء موضوعة في هذه الايام موضع البحث في التياتر والكتب والجرائد والمنابر وان كثيرًا من اهل النظر والنقد في كل مكان يطلبون او يعرضون اسبابًا لاصلاح شأن النساء حتى ان جمعية العلماء فرضت خمسة الاف فرنك جائزة لمن تحصل لهُ الاجادة في هذا البحث ولذلك رأيت ان اجرّد المسألة عن الابحاث المتنوعة ملتمسًا وجه الحق والامكان في موضوعها الاصلي وهو المساواة فاقول

اوّل ما يعرض في هذا البحث تعريف « ما هي المرأة » وهو سؤال مهم دقيق من حيث ان بقية المسألة متعلقة بهِ مترتبة عليهِ . فلنعدْ الى الماضي عساه ان يعيننا على هذا التعريف

كان في معلوم قديم ان المرأة «ملحق» لرجل « حاوي خبر » ونراها عند القبائل المتوحشة تحمل الاثقال وتعتقل السلاح وتنهض بفادح الاعمال فهي فيهم بمنزلة « خادم الرجل » وقد سأل سائل في مجمع من الرؤساء في القرون المتوسطة « هل للمرأة من نفسٍ » واذا رجعنا الى الفلاسفة والشعراء الاقدمين رأينا بعضهم يقولون المرأة ملك كريم وبعضًا شيطان رجيم ولعلهم جميعًا مصيبون ولكن ذلك لا يحصل بهِ الحدُّ المطلوب

وقال منتسكيو في القرن الثامن عشر ان الطبيعة ميزت الرجل بالقوّة والعقل فليس لسطوتهِ من حدٍ سوى تلك القوة وذلك العقل وخصت المرأة بالبهجة فسطوتها تزول بزوالها . وهو رأي عجيب صدوره عن مثل هذا الحكيم

فان المرأة تقضي ثلاثة ارباع الحياة قبل حصول تلك البهجة او بعد فقدانها فكأنما هي موجودة «لانتظار موعود وبكاء مفقود» ليس غير .

وزاد في ذلك روسو على كونهِ من القائلين بالنفس المجرَّدة فقال المرأة وجدت لترضي الرجل فاذا لزمهُ ارضاؤها فهذا دون ذاك وجوبًا ان الرجل يرضي بمجرَّد كونهِ قويًا . واقول ما الذي يفعل الضعفاء . .

ثم بدت الثورة الفرنسوية فانتصر للنساء رجلان من كبرائها فعارضهما في ذلك خطيب رهيب . عارضهما (روبسبيار) رسول المساواة الكبير الذي لم ينسَ من رسالتهِ غير نصف النوع الانساني ثم جاء حكم الرجعة الملكية فقال حكيمها (بونال) الرجل والمرأة غير متساويين ولن يتساويا ابدًا

وخلاصة هذه الاقوال ان في السماء كواكب ثانويةً توابع ليس لها من شأن سوى الدوران حول الكواكب السامية على سبيل الخفارة كما هو شأن القمر حول الارض فالمرأة على رأي القدماء قمر الرجل ولقد يكون للكوكب الواحد من مثل المشتري بضعة اقمار وبعبارة اوضح ان القدماء يعرفون المرأة بانها كائن عاقل منخفض الرتبة موجود بالنسبة

ولكن هذا التعريف لا يليق بالقرن التاسع عشر . بل نقول جهارًا ولا نخاف انكارًا ان المرأة مساوية للرجل ولكنها غير الرجل فرفعها الى المقام الذي تستحق لا يكون بمماثلتها للرجل فان ذلك مفسد لطبيعتها مغاير لخلقها وانما يحصل بانمائها وتقديمها استمرارًا من جهة انها امرأة بحيث توجد المساواة مع الفارق

هذا مذهبنا في المسألة وسنبحث عن وجه الحق والامكان فيهِ ناظرين الى الانثى من وجه كونها فتاة ايماً ثم زوجةً ثم اماً ثم امرأة على وجه الاطلاق . اه .

(وقيامًا بالوعد اعقب هذا الفصل)

(بفصل آخر فقال)

البنت

اما ترى في الحجرة مقعدًا خشنًا عاريًا وقابلة او طبيبًا متأملاً مراقبًا ورجلاً مغبر الوجه يدعو الله فثمَّ امرأة على وشك الولادة او ما تسمع من تلك الحجرة صوتًا غريبًا يليهِ من جانب الحضور اهتمام وارتباك فهناك مولود جديد يتسآلون عنهُ فيقول قائلهم بنت ولطالما اسودت الوجوه بمثل هذا القول في العصور الخالية بل سل اليوم عنهُ فلاَّحًا ما يجبك بما اجابني مزارع بريتوني سألتهُ كم ولدك فقال «آه يا سيدي لا ولدَ لي وليس عندي غير بنات»

وما احسب هاته العاطفة ناشئة مجرَّد احتقار واستخفاف ولكن الابن في بيت الشرف والامارة هو الذي يصل النسب ويبقي الاسم بل نحن الاوساط على اختلاف الدرجات لا نكاد نرى من سدّ لحاجة الحب الوالدي الا في مولد الابن فان كنا من اهل الصناعات رجونا ان يكون متمماً لما شرعنا فيهِ او كنا من اهل التجارة رأينا بعين الامل متجرنا ناميًا متسع النطاق باسم فلان وابنه او كنا من الفعلة علمنا الابن مهنتنا واحيينا بهِ الاسم . ولا يحسبنَّ الحرص على الاسم مقصورًا على الشرفاء فان

للاوساط ايضًا نسبًا عاليًا من الاستقامة . اما مولد البنت فلا يوجد شيئًا من هذه الاماني بل المخاوف كثيرة فيهِ فان كل اب بعيد النظر يتسآل يومئذٍ ما مصير هاته المولودة فان كان فقيرًا خاف عليها الشقاء وإن كان غنيًا خشي الالم المعنوي وإن لم يكن لها من باب رزق سوى الشغل الذاتي فكيف نصيب الكفاف في هيئة اجتماع لا تكاد النساء يرتزقن فيها ما يقيهنَّ الموت جوعًا وإن لم يكن عندها نقدٌ (معكوس الوضع) فكيف يتيسر لها الزواج في هيئة قضت على النساء بشراء الازواج وإن لم تتزوج فكيف نوقي العثار فان عثرت فكيف تنعش في مجتمع تعدُّ فيهِ سقطاتها وتسجل وإذا شاخت ايماً بتولاً فذلك موضع الوحدة والحرمان والشقاء من جانبها ومحل الاستهزاء والانكار وسوء الظن من جانب سائر الناس فانهم يلتمسون لعزبتها على الغالب سببًا غير الفقر فيرمونها بالنزق وينسون موجبه ويرشقونها بتكلف العفة ويذهلون عن انهم بطهارتها عابثون على انها تكفر هاته السيئات الناشئة عن طبيعة حالتها بالف مظهر من الاختصاص والشفقة فان وجدت في اهلها كانت بمنزلة الجدَّة والخادمة المدبرة وإن كانت مقطوعة الرحم انهمكت على فقرها بانماء الزهور وتربية الداجن من الحيوان ومساعدة صغار الفقراء تعلمهم والايتام تلبسهم وتكون بمنزلة الامّ لهم جميعًا

وإنا لنرى في حياة البنت ثلاث مسائل اولية الشأن « الميراث » و« التربية » و« التصبي » فاما الميراث فلم يبقَ فيهِ محل للخلاف عندنا (الافرنج) بما حصل من السواء بين اناثنا والذكور فيما يرثون

واما التربية فالعلم موضع الخلاف عليها . ولقد كادت حجة الانثويين تكون هي الغالبة فيها عند الغربيين على اننا لا نزال نلتمس للنساء نقديًا ولا نعدم من انفسنا جماعة من المعارضين يقولون اذا علمت الانثى زال عنها رونق البهجة فانها لا تأْخذ بمجامع القلب الاَّ لكونها لا تخنج ولأَنها طائر يغرّد وطفل يعبث وقلب يحب فكيف يحصل فيها الحب اذا لهت عنهُ بشواغل العلم . فنذكر لهم مدام دي سوينيه الكاتبة المشهورة مثلاً في اجتماع الامرين فيقولون دعوها وشأنها فمذهبكم ان لم يكن مفسدًا لخلق الانثى فهو ناقض للهيئة العائلية لا محالة فانهُ كيف يصلح شأن الصغار ومن يعتني باموره اذا كانت الامّ ترصد الكواكب فالبنات على رأيكم قد يكنَّ عالمات ولكنهنَّ لن يصرنَ ازواجًا ولا امهات . فكأَنما هم يحسبون شأن الزوجة والامّ مقصورًا على الطباخة او نظارة الطاهي والخدمة او مراقبة الخادمين واهتمام بالمصلحة الحسية وامزجة اهل البيت بل لا يبلغون هذا الحد فيما يرون وانما يحسبون ذلك الشأن محصورًا في الحب والضراعة والتعزية وما يعلمون ان للزوجة والام فوق ذلك شأنًا اعظم من ذلك الا وهو الارشاد والتربية المستلزمان للمعرفة وانهُ لا ام الأَ حيث يكون علم ولا زوجة الأَ حيث يكون عرفان . على انهُ ليس المراد من كشف اسرار الطبيعة لافهام النساء ان تكون بناتنا جميعًا من علماء الفلك والطبيعة ولكن المقصود بهِ

اضاءة البابهنّ بانوار العلم اعداداً لهنَّ للمشاركة في اراء الرجال وتعليم الاولاد ويذكر هولاء المعارضون مفاسد تعليم النساء وينسون مخاطر الجهل وما تبتئس المرأة ضجرًا الاَّ انها جاهلة ولا تنفق لزوجها رزق شهر في شراء حلي ولا تقوده عند المساء الى الملهى مريضًا او مجهودًا الاَّ بذلك السبب اي لانهُ حجب عنها العلم واغلق دونها باب النباهة فلم يبقَ لها الاَّ سبيل البهرج والزبغ فربَّ رجل هزأ بالعلم على كونهِ لو حصل لزوجتهِ لكان منجاة لهُ من العار

وزاد الكاتب الفرنسوي على ذلك ان لو فرض ان العلم لا يفيدنا من النساء شيئًا فهو من حقوقهنَّ الواجبة علينا. او ليست الانثى من الخلق من عباد الله من ذوي النفس الباقية وان الحالة الزوجية والحالة الوالدية حادثتان طارئتان عليها يبطلها الموت وتقطعها الغيبة وتكونان في بعض النساء دون بعض وان لها فوق هاتين الحالتين صفة مقدمة عليها جميعًا وهي الانسانية فبهذه الصفة ومن هذا الوجه يحق لها لا محالة تهذيب فكرها وفؤادها فان حال بينها وبين ذلك عارض من احكامنا اليومية فهي تطالبنا بنور العلم باسم الابدية

واما تصبي البنات فلا نرى من حاجة لتعريب ما قال فيهِ ذلك الفاضل للفرق الذي بين حالتنا وحالة قومهِ في هذا الامر الخطير فهو عند الفرنسيس موضع نظر واهتمام من وجه ان قانونهم لا يوجب على مرتكبهِ حدًّا ولا يلزمهُ احصان البكر التي جرَّها الى الفاحشة وان نصباها بوعد الزواج خلافًا لما نص عليهِ عندنا في الشرع والقانون ولذلك نرى الفحشاء في بناتهم اكثر منها في بنات اوطاننا بل هي فوق الكثير عندهم ودون القليل في هذه الديار

الزوجة

قال الفاضل (ليكوفه) نقول ان الزوجة ونريد الزواج فهي اياه وهذا الموضوع اوسع من ان نحيط بهِ في مثل هذا المقام فلا نمسُّ منهُ الاَّ ما يتعلق بسلطة الزوج

ونعلم ان الباحث في اصلاح شأن البنات يستميل اليهِ الاباء جميعًا فاذا حاول الزيادة في حقوق النساء فقد استنفر منهُ جميع الازواج ومع ذلك فاني اسوق الحديث الى هولاء راجيًا هدايتهم الى اصلاح قانون الزواج بما فيهم من العدل والانصاف

ان سلطة الزوج تكون على الذات وعلى المال. فاما سلطتهُ على الذات فقد كان موضوعها التأديب. ذكر لنا (بومنوار) قانونًا من العصور المتوسطة من حكمهِ «يحق للرجل ان يضرب زوجتهُ على شرط الرفق» وقد أبطلت آداب الاخلاق هذا الحكم في الدرجات العالية من الناس الاَّ انهُ لا يزال مرعيًا نافذًا في العامة يأخذون بهِ وقد لا يحفظون الشرط ولكن لحسن البخت صار الرجل اذا ضرب زوجتهُ فهي تردُّ اليهِ واحدة بواحدة جزءًا وهذا من علائم النجاح ومع ذلك ما برحت اذكر اني سمعت سائق عربة يقول مشيرًا الى السوط «هذا كفيل السلم في اهل بيتي فقلت لهُ

انضرب زوجتك قال لا شك ولا ريب
قلت وفيمَ قال هذا فرسي اسوطه اذا لم يجرِ
قلت ان زوجتك لا تقاس بالفرس قال وذمتي
صدقت فانها اشد عنادًا منهُ قلت ذر العناد
اليس من النذالة ان تثور غضبًا على امرأة
قال تمهل يا سيدي اني اضربها ولا يمسني غضب
فمن ذا يصدق ان الفيلسوف (سنيك) اجاب بمثل ذلك صديقًا كان يأخذ عليهِ شدة غيظهِ من العبيد بل لا غرابة في ذلك فان الاستبداد يرمي بسهمين فيصيب العبد بالظلم والمالك بالفساد .

ثم ابان فاضلنا المشار اليهِ وجه سلطة الزوج على المال فلم ينكر ان لا بد لادارة البيت من رئيس فرد يكون فيهِ بمنزلة الملك في الامة ولم ينزع هاتهِ الرئاسة عن الرجل ولكنهُ اوجب فيها التقييد وانكر الاطلاق فاعترض على قانونهم الناطق بان للرجل حق التصرف في مال زوجتهِ ادارة وبيعًا وهبة بلا اجازة ولا استئذان وان المرأة لا تستطيع ادخارًا ولا قرضًا كائنًا ما كان ذلك القرض ولا هبةً ولا قبول هبةٍ بلا رخصة سابقة من الزوج في حالة كونهِ يأخذ ما شاء ويعطي ما شاء بلا حساب . قلت اعترض على هذه الاحكام . بما ينشأ عنها من المضارّ والمفاسد من حيث ان الرجل قد يكون دنيء النفس ضعيف الهمة ذا ملكة مفسدة من مثل القمار والسكر والفحشاء فيبدد متاع البيت ويضيع مال الزوجة ويجعلها والولد في اسوإ حال وما ذلك نادر الوجود في الرجال . ثم تصوَّر لهذا الداء دواء يحسبهُ شافيًا فقال اذا رأت المرأة من زوجها مثل ذلك الفساد فليكن لها حق رفعهِ الى مجلس من اهل البيت يكون نافذ الحكم ولتكن ادارة البيت على مثل ما قال بلوترخوس لصديقهِ بوليتيانوس اذ التمس بعيد زواجهِ رأيهُ في معاملة العروس فقال يا صاح ان اخترت الحكمة فاجعل حجرة الزواج مكان رياضة وشرف وعرفان فزين عقلك بكل نوع من المعارف الضرورية لزوجتك من كل جانب كما تفعل النحل واجلب اليها كل ما تحسبهُ مفيدًا فانك الان بمنزلة ابيها وامها وما قول المرأة الفتاة لزوجها انت ناظري واستاذي في كل شيءٍ حسن باقل نبالة من قولها لهُ انت الحبيب الاول . وقد يوجد من جهلة الفرسان من اذا ملك جوادًا كريمًا راضهُ بداءة بدءٍ على الركوع وهذا مثل الازواج الذين يقترنون بنساءٍ كرائم من بيوت نبالة فلا يعنون بجعلهنَّ اكثر احتشامًا واوفر علمًا من ذي قبل بل يؤثرون على ذلك تذليلهن من حيث يجب اعلاء الهمة ورفع النفس كما يرتفع رأس الجواد الكريم

قال فاضلنا . واني اعرض هاتهِ الحكمة لجميع الرجال فانها متضمنة لكل ما يجب عليهم فاذا تزوجت بنتًا فتاة فاعلم انك زوجها واستاذها معًا ومهد لها سبيل الادارة والحكم في الامور العمومية فانهُ من مستشنع الامور ان تكون المرأة قاصرة في الرابعة عشرة من السنين وتكون كذلك في الثامنة عشرة فعلى زوجها ان يبلغ بها حد البلوغ بما يعلمها من القوانين والاحكام ولا يخافنَّ من ذلك ضعف الميل والحنوّ فان الحب يوجب التساهل حتى

في القانون

وبعد فلا بدّ للرجل من تصوّر زوجته ايمّا ارملةً فانهُ قد يفاجئهُ الموت فتصير اليها ادارة الامور فان لم تكن معدَّة لذلك بعلم سابق واختبار سالف فـلا تستطيع النهوض بهذه المهمة بخلاف ما لو كانت من العارفات الخبيرات ولنا في ذلك مثالٌ لا ننساه ان وطنينا الخالد الذكر المنقذ الوطن ـ بريد نيارس ـ قد مات بلا عقب يحفظ لهُ اسمهُ ويحيي مجدهُ ولكن مات عن زوجة كريمة فكان بها الغناء فانها تولت ادارة ثروتهِ الوافرة وحفظ مجده العظيم فنظمت بنفسهـا مشهدًا وطنيًا لميت لا يموت لهُ ذكر ثم رفع تمثالهُ في نسبي فرأست في الحفلة بهابة الملكات وأقيم لهُ تمثال آخر في سين جرمين فسارت اليهِ فالمّ بها ثم داهها القاتل ثم جمعت اشتات رسائلهِ وخواطره فالفت منها سفرًا جليلاً حتى اذا فرغت منهُ واصلحت الصفحة الاخيرة ماتت مبقية عندنا ذكرًا وعبرة لا تموت ورأينا منها عظمة الارملة فعلمنا كيف ينبغي ان تكون النساء

ووقع في بيروت نزاع بين فئتين متضاغنتين يعرف « بحادثة الميدان » فقتل وجرح بهِ نفرٌ من الفريقين فقبض على المتنازعين وأُخذ في استجوابهم واستنطاق الشهود ثم شاع ان في اعمال الاستجواب والتحقيق ما يدعو الى الظن بانحصار القضاء في جانب التعصب وتناقلت الالسنة اقوالاً كثيرة في شأن ذلك وكان خبر الحادثة مما لهجت بهِ صحف الغرب بما جسمتهُ لها الشركات التلغرافية فكتب اديبنا في هذه الحال ما يأتي بعنوان

محل تأمل واعتبار

اثنان اهل البصيرة والبصر رجلٌ يعتبر بما يراه في ابناء جنسهِ وآخر لا يعتبر حتى يرى العبرة في نفسهِ فلا تكوننَّ صاحَ ثالث الرجلين

ولقد رأينا الذين تولاّهم التعصب والجهل والذين أُلقيت بينهم الاحن والعداوات كيف طمع فيهم الاعداء وتجافى عنهم الاحباء حتى انحى الزمان عليهم وتوجه الحيف اليهم وانقلب عزمهم خسفًا وعاد حولهم ضعفًا وجنت بهم النوائب من حيث يعلمون ولا يعلمون

ولم نجهل ان العدوَّ لنا بالمرصاد ينتظرنا الى فرصة ينتهزها وريبة يظهرها وعثرة يذكرها وثغرة يدخلها وعيب يجعل حرفهُ سفرًا وخطاء يثل قطرته بحرًا فما بالنا نمهد سبيله ونرشـد دليله ونمكن لهُ في ارضنا مقامًا

ويقول بعض الوجهاء منا لا جناح علينا فيما تفعل السوقة وما يقترف الجاهلون . بل عليهم واجب الردع بالقول وبالفعل ما استطاعوا اليهِ سبيلاً فان تثاقلوا عنهُ فلا اقلَّ من منع النفس ورد الهوى وكف اليد عن مساعدة الجاهلين . ان الباعث والفاعل والناصر شركاء متكافلون . لا نقول ذلك اطلاقًا ولا نخصُّ بهِ احدًا من الناس فمن ظنَّ نفسه معنيًا بهِ فهو اياه ان المريب كثير الظنون وان عينه لتكاد تقول خذون

وما يبعثنا على هذا التعريض المؤلم واللوم العنيف الاّ ما نعلم من دخيلة الامر وما نخاف من سوء العاقبة فقد تجسم حادثنا الاخير في البلاد الاوروبية حتى عدَّ من عظائم الامور

فهبط به سعر قراطيسنا المالية هبوطًا فجائيًا على كون سائر القراطيس في مدارج الصعود ووردت الينا رسائل التلغرافات تباعًا دراكًا الى وكلاء الدول وكبار التجار واصحاب المقامات يسأل فيها عن كنه الحادث وتفصيل الامر وهل هم من بعده سالمون كأنما هو فتنة عامة وبلية طامة

ولا شك انه لم يكن موجب القلق والاضطراب من هذا الحادث في البلاد البعيدة قتل ثلاثة وجرح نفر من الناس وانما اوجبه ما اتصل بها من خبر الفتنة وعلة الخلاف وانه ناشئ عن تغاير المشارب وتعصب القلوب

وانا وان لم نستطع دفع هذه التهمة عن كثير منا فانا نبرئ منها كثيرًا من الراشدين ولكن لا بدّ لذوي الحل والعقد من الناظرين في هذه المهمة من تأييد ذلك برعاية العدل ومقاومة هوى النفس فيما يحثون وما يحكمون

نأمل ذلك فيهم ولا نعتقد بهم ما يخالفه الأ ان الذي تتناقله الالسن من خبر الاستنطاق يضعف ذلك الامل فلولا العلم بعناية والينا المعظم وحسن الظن بفضيلة مفتش الاحكام لخفنا ضياع الحق وانتصار الباطل وبقاء الخلاف على قدمه ودوام القديم على قدمه

وكتب في

القضاء والاجراء

وكان قد حلّ زمن الانتخاب لمجالس بيروت فقال

ان انفصال القوة الحاكمة عن القوة الفاعلة واستقلال الذين يتولون الاحكام فيما يرون وما يحكمون وحصولهم في مأمن من كل ما يفعل في النفوس ترغيبًا او ترهيبًا كل ذلك ليس من مستحدثات الامور في البلاد الغربية ولكنه قد وجد من قبل في كل زمان اضاءه العدل وكل مكان اناره العلم والحرية فاستقامت به الامور وتأيد الحق وضعف الاستبداد وظهرت قيم النفوس وعلمت اقدار الافكار

وقد كان اهل القضاء في بلادنا على خلاف ما تقدم بيانه من الاستقلال والانفراد واسباب النزاهة يصدرون الاحكام كما يترسم لا كما يعلم وكما يجيء لا كما يجب ويدورون على محوَر الرهبة والرغبة كما تدور الآلة الصماء غير مبالين بضياع الحقوق وفساد الامور وانعكاس الاحكام حتى ضعفت منهم النفوس وفسدت القلوب وساءت الاخلاق فصار الرياء من شروط وجودهم والدهان من لوازم بقائهم والنفاق من اسباب تقدمهم فرامت الدولة العلية استنقاذنا من هذه المفسدة رحمة بنا وحنانًا فرسمت باستقلال المحاكم والمجالس على امل ان تعلو هم اعضائها بما يحصل لهم من حرية الرأي فلا تأخذهم في الحق رهبة ولا تستميلهم عنه شهوة دنيئة فصارت محاكمنا على ما نرى من الاستقلال

ولكن لا بد في اهل القضاء من ثلاثة امور متلازمة لا يغني بعضها عن بعض علم يعصم عن الخطاء (ما امكنت العصمة لانسان) وادب يرد النفس عن الهوى وكفاف يوجب النزاهة فان حصلت في الحاكم هذه الخصال

كان استقلاله قوامًا لكل ميل وقصدًا لكل جور وصلاحًا لكل فساد ونصفة لكل ظلم وقوة لكل ضعف وحدًّا لكل استبداد والّا فهو عين الفساد والجور والضعف والظلم والاستبداد والميل

ففي ايّ الحالين يرى البصير اعضاء المحاكم والمجالس في هذه الديار

انّا لا نلمّ بهم ولا نطعن فيهم ولا ننيط بانفسهم سوءًا ففيهم لا شك اهل علم وفضل وارباب ادب ونزاهة يعتقدون بما يحكمون ويحكمون بما يعلمون ويعلمون الحق ولا يغالطون

ولكنهم لا يعدمون من يكون على ضد هذه الاحوال ومن يحكم بما لا يعلم ومن يعلم بما لا يحكم فهولاء وان اساؤا الى انفسهم بما وضعوا من اقدارها واخطأوا الى هيئة الاجتماع بما اضاعوا من حقوقها فلا نوجه الملام اليهم ولا نلقي التبعة عليهم وانما اللوم والتبعة على المنتخبين

ان الدولة العلية قد ساوت بيننا وبين الامم المتمدنة فيما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات ولكنها لا تستطيع ان تعيدنا خلقًا جديدًا ان الله هو المبدي وهو المعيد . فمن اساء التصرّف في تلك الحقوق فعلى نفسه اساء ومن احسن فاليها

وقد حان وقت الانتخاب لبعض مجالس هذه المدينة فان كان ثم موضع انتقاد ومحل اعتراض ومظنة فساد فليتنبه المنتخبون ولتنشئ الطوائف لجانًا من ذوي النقد والنزاهة يبحثون عن تلك الخصال الكريمة ويعرضون من تجتمع فيه لارباب الانتخاب لا يراعون في ذلك غير المصلحة العمومية ولا يأخذهم فيه غير الحق

ان انتخاب المعسر ليصيب الرزق مما يحكم بين الناس لهو الحيف والظلم واقعًا على الوف من الخلق

ان انتخاب الجاهل ليكون كالآلة الصماء لهو الوبال العظيم والبلاء العميم

ان انتخاب الغني لمجرّد كونه غنيًا لهو الاليم المصاب نازلاً بالاغنياء والفقراء

فلا يذهلنّ المنتخبون عن كل ذلك فان ذهلوا فلا عتب على غيرهم ولا ملامة

وكتب في سفر خليلنا الالمعي روفائيل افندي الخوري من بيروت الى الاسكندرية في ٢٤ اذار سنة ١٨٨١

قال

سار صديقنا الاديب الفاضل روفائيل افندي الخوري الى ثغر الاسكندرية فشيعه الى المرفاء جمّ غفير من الادباء والوجهاء فيهم اكثر اصحاب الجرائد وبعض كبار التجار واعضاء جمعية زهرة الآداب جميعًا ورافقه كثير منهم الى الباخرة يتوسطهم الوجيه النبيه الموسيو (امسلر) مخدومه السابق كاسف البال آسفًا على فراق فتى لزمه اثنتي عشرة سنة فرأى منه كيف تكون الاستقامة وكيف يظهر الفضل وكيف تعلو قيم الرجال وداروا به في الباخرة يذكرون آثار محاسنه وانه كان قدوة الفضل ونموذج الادب ومثال الكمال وعينة النزاهة فيبكون فراقه ونذكر مع الذي يذكرون ان هجرته الى

كريم نفتخر بودتهِ ونزدهي بزيتهِ الى الفاضل الوجيه الهمام جبرائيل افندي الخلع يتولى ادارة متجره الواسع فنجد من السلوى انهُ مفارقنا الى من يقدر ادبهُ ويعرف فضلهُ والفضل يعرفهُ ذووه

وكان اعضاء زهرة الاداب قد اعدوا لهُ قبيل السفر مأدبة وداع اداء لحق الثناء والشكر انهُ خدم الجمعية ثمانية اعوام رئيسًا معظم المدة وعاملاً نافع الاثر سائر تلك الاعوام فودعوه في الحضرة وداعًا طارت بهِ النفوس شعاعًا والقلوب التياعًا وفيهم آمل التلاق بعد الفراق وفيهم من ليس لهُ من سبيل الى وادي النيل

وما صبابة مشتاق على املٍ
من اللقاء كمشتاق بلا أملٍ

***

وكتب في جمعية خيرية تألفت من بعض السيدات المحسنات في بيروت فقال بعنوان

احسان الحسان

اعارك البدر محيّاه وحيّاك الروض بريّاه. فسرت منك نسمات الربى. سحرًا تحمل شيحًا وثمامًا. وتمشت فيك ارواح الصبا. ينا رجن بانفاس الخزامى. ام انت مخبري بمكارم الكرائم ومبشري باحسان الحسان

أجل فصغ ما اقول لجيد الصحيفة عقدًا ما تحلي بمثلهِ جيد حسناء فانّي منبئك وما ينبئك مثل خبير ان لمّة من ذوات الايادي البيضاء قد اجتمعن لحمدة يذكرها الشاكرون ومأثرة يشكرها الذاكرون فرأين بنات جنسهن متخفضات عن المقام المعدّ لهنّ في هيئة الاجتماع فتألفن على السعي في رفعهنّ الى ذلك المقام فصرن جمعيةً لا يحيط بجمالها الوصف ولا نقوى على وصف كمالها الاقلام

خطر ذلك بدأة بدء للكريمة الخاشعة الزاهدة القائمة بامر الخير والعلم والاحسان سليلة الوجهاء الراهبة لبيبة جهشان فتقدمت فيهِ للنبيهتين الوجيهتين السيدة الخاتون زوج المغفور لهُ لطف الله بك سرسق والسيدة اميلي كريمة الوجيه خليل افندي سرسق فصادف ذلك عندهما قبولاً واقبالاً ورغبة واشتمالاً فاقبلت الثلاث عليهِ ودعون بعض الاتراب الكرائم اليهِ حتى تألف العقد من اربع وعشرين كريمة فريدة نزين باسمائهنّ هاته الصحيفة

ثم اتى على ذكر الاسماء الى ان قال

وقد اكتتبت الاعضاء العاملات براتب سنوي من الاحسان لذلك القصد فكان مبلغ ما اجتمع منهنّ فوق عشرة الاف غرشًا وسياخذن في استدرار البرّ من ذوات النعمة وربّات اليسار وصاحبات النفوس الذكية فيحصل لاشك من ذلك ما يكفي للشروع في انشاء المدرسة فتكون هذه الجمعية اثرًا حميدًا تقرّ بهِ كل عين وتنال منهُ الاناث حق الذكور وان حصل للذكر حظُ الانثيين

***

سباقٌ غريب

كتبهُ في سباق الكلاب ببلاد الانكليز فقال

جرى في هذه الايام في بلاد الانكليز سباق صيادة الارانب وهو عندهم بمثابة سباق الخيل

والقوارت يحفلون له في كل سنة . فقبل في الحلبة اربعة وستون كلبًا كما جرت به العادة يطلقونها زوجين زوجين وراء ارنب برسلونة امامها والغلبة لمن امسكه . وعلى نحو ذلك يتسابق الاثنان والثلاثون ثلاثة ايام متوالية ثم الستة عشر فالثمانية فالاربعة حتى لا يبقى في المجال سوى الاثنين الاخيرين . اما جائزة السبق فهي اثنا عشر الف فرنك والربطة الزرقاء وهي وسام لهذه الكلاب لا نظنه اقل قدرًا في اهله من وسام ربطة الساق ولعل له من مثله نظامًا لا يتقلده بموجبه غير عدد معين من الاحياء ولا ينتقل في الاعقاب

وقد كانت هذه الجائزة للكلبة (الاميرة دغمار) ولا شك انها اهديت من بعد السبق الى جلالة ملكة الانكليز وامبراطورة الهند . ان ملوك الكلاب جديرة بان تكون كلاب الملوك

فالكل همهمُ السباق بارضهم
حتى الكلاب لها هناك جوائزُ
وهنا الشقاق وذكر ايام مضت
وعزائمٌ مثل المشيب عواجزُ
ان قال ناصحنا الامين تجددوا
حتى مَ انتم في الشؤون عجائزُ
صرنا النسور وما اختلفنا غير في
قتل النصوح أَ واجبٌ ام جائزُ

وعثر رحمة الله في جريدة الديبا الفرنسوية على قطعة من قطع آثارها الادبية تضمنت مدحًا واطراءً فيما هو ملائم لروح العصر من شعر حضرة الفاضل الشاعر المطبوع خليل افندي الخوري مدير المطبوعات والامور الاجنبية في الولاية السورية فعلق على تلك القطعة شرحًا اخذ باسباب الرقة وحسن البيان فكتب في ذلك بعنوان

شاعر الدولة

عرفتم لا شك موصوفي قبل التسمية فشاعرنا الخليل صاحب الحديقة مدير المطبوعات والسياسة في قطرنا الشامي معروف بهذا الوصف من عهد صباه في (زهر رباه) الى ان بدت (شاديات) خياله عونًا لكل (سمير امين) في هذا (العصر الجديد) [1]

ولست فيما يجيء من قولي مادحًا اومقرّظًا او متذرّعًا للثناء ان موصوفي غنيٌ عما استطيع من ذلك بل لو رمت المدح لارجعني عنه مقامه السياسي فيما اني ممن يتهيبون مدح ذوي المقامات وان كنت ممن لا يكاد يهولهم شيءٌ مما يرون فيما يقولون

ولكن رأيت في صحيفة (الديبا) الفرنسوية المشهورة فصلاً ادبيًا في حق عزتلو خليل افندي الخوري من حيث انه شاعرٌ جديد النزعة عصري الاسلوب فجدد فيَّ عاطفة الشعر بعد اذ فطمت عنه النفس

وعجيبٌ شأن طفلٍ رام في المهد الفطاما

فسكنت الى نقل قطعة من ذلك الفصل فكاهة لاحباء الادب وافتخارًا بشرقيٍّ نسير

---

(١) زهر الربى والشاديات والسمير الامين والعصر الجديد اسماء لاربعة دواوين من شعر حضرة الموصوف .

بذكره روائد جرائد الغرب

قال محرر الدبيا ان الذي نراه في بيروت في هذه الاعوام الاخيرة من آثار الادب العربي يبعثنا على اعادة النظر فيهِ لتعيين ما صار اليهِ في هذا العصر وهل بقي على مثل ما كان ام نشط من عقال التقاليد فبدا في المظهر الجديد المطلوب . وقد ظهر لنا ان كثيرًا من اهل الادب يسعون الى هانه الغاية من نحو ثلاثين عامًا ولا يصلون على ان سعي خليل افندي الخوري حقيق بالذكر . وليس هذا الشاعر بمجهول في البلاد الفرنسوية فقد ذكره الموسيو رينو في الجمعية الاسيوية عام ١٨٥٧ واثنى عليهِ ثناء جميلاً وترجم ثم من شعره قصيدة في مدح الشاعر لامرتين . ولعلها القصيدة التي يقول فيها

قد قادني للشعر شعرك اذ حلا
ورأيته يدعو فلم اتمنع
ولقد علوت بروح شعرٍ فائقٍ
هبطت عليك من المحل الارفع

(عودٌ الى كلام الدبيا) ومع ان الشاعر الخليل لم يتجاوز الاربعين من السنين فديوانه كبيرٌ يشتمل على قصائد لا تحصى منها ما نظم على طريقة القدماء ومنها ما مال بهِ الى الجديد وهو وان كان لا يتجراء على قطع صلات التقليد بجملتها فهو جدير بالثناء على اجتهاده فقد رأيناه متجافيًا عن استعمال المبتذل من التشبيه مائلاً الى استبدال مرثيات الاعصر الخالية بعجائب العصر الجديد وعثرنا في النبذة الاخيرة من شعره على قصيدتين يؤخذ منها ان الشاعر لقي دليله واهتدى سبيله ففي الاولى المسماة (جميلة) حكاية حادثة جرت في قرية راشيا عام ١٨٧٤ — وهي التي مطلعها

نفرتم في الحياض عن الورودِ
واعرضتم عن الماء الورود

والحادثة ان فتاة ملكية الخلق شيطانية الخلق

رمتها عين جارتها بسهمٍ
اصاب فؤاد عاشقها الشرود

فبعثتها الغيرة على الانتقام فاغتالت لها طفلاً وحيدًا ثم اصابت لها شقيقًا صغيرًا

صبيًا لم يذق طعم التصابي
ولم يعرف صفا العيش الرغيد
بفجر العمر ادركه ظلامٌ
فلم ينظر ضيا شمس الوجود

فتوجهت عليها شبهة الثاكلة فرفعت الى الحاكم الشرعي فاعترفت بعد انكار انها قتلت الطفل وقطعت رأسهُ وافرغت جوفه والقت الرأس في البئر الشائعة ودفنت سائر الجثة في خزانة بيتها فخرج الرأس بالدلو لنسوة يملأن ماء فاستنفرن منه كما جاء في مطلع القصيد . فحكم على جميلة بالموت

ولكن حال دون السيف امرٌ
بهِ الخلاَّق يأمر بالوئيد
كانت جميلة حاملاً جنينًا بريًا

وكان شاعرنا يومئذٍ في دمشق فاتصل بهِ خبر الحادثة فانشأ هاتهِ القصيدة عفوًا فجاءت اثرًا باقيًا مذكورًا

واما الثانية فهي المسماة بالرمان والعناب . تخيل نبها الشاعر انهُ مرّ بالروض سحرًا فلقي صاحب البستان ممسكًا غادةً حسناء

معلقًا برداها وهو يصرخ يا

اهل الحمية ان الروض قد سرقا

سرقت هاتهِ اللصة رمانه وعنابه ذاك في صدرها من تحت حجاب وهذا في يديها على اطراف البنان . فقالت ويك هذه النهود فقل هو الله احد وهذا خضاب البنان فقل مدد الله مدد . فانكر واستنكر وقال لا يحمل الغصن الواحد ثمرين مختلفين

ردّي اليَّ ثماري لست اتركها

او لا فأرجع مالي كيفما اتفقا

فقالت ويك لا تمدد اليَّ يدًا

هل عندك الورد في البستان اسرقهُ

صبحًا وانشر منهُ للملا العبقا

فاجاب لا فاومأت الى ورد وجنتها فراح مندهشًا بهِ يقول سبحان من خلق فاستضحكت وسارت وهي تقول والله ما سرقت الا العقول ويا حسن ذلك الذي تقول .

قال محرر الديبا ولا يمكن في الترجمة استيفاء محاسن الاصل . صدق ان الترجمة لا تعدل الاصل في المرسل المنثور فما الظن بها في الشعر ونزيده ان اختيار المنقول عسير . فان اختصاص هاتين القصيدتين بالذكر والترجمة يوهم انهما نخبة الديوان وخلاصة ما تيسر فيهِ من الاجادة والاحسان وليس الامر كذلك . فانهما من عادي شعر الشاعر الموصوف . لها في دواوينه الاربعة نظائر تذكر ومثائل تكاد لا تحصر بل الكثير من شعره فوقها حسنا وخير منها مبنىً ومعنى على انهُ هو العذب من حيث يورد والرشيق من حيث يقصد ومن لنا بمقام نستوعب فيهِ ما نختار منهُ ومجال نستكمل بهِ ما نراه فيهِ

ارانا الله في كل يوم لابناء الوطن فخرًا جديدًا وردَّ علينا بطارف مجدهم مجدًا تالدًا فقيدًا

ترجمة مرثية كمال باشا

ربما ظهر الخفي وانهتك المستور في مقتل ساكن الجنة المغفور لهُ السلطان عبد العزيز وقبض على المتهمين بقتله ظهرت موشحة لكمال باشا ناظر امور السلطان رحمهُ الله يرثي بها فقيد آل عثمان فنشرتها الجرائد التركية فعرَّب منها اديبنا الادوار الاتية متبعًا في التعريب وزنها الاصلي محفوظة الالفاظ والقوافي « ما امكن الحفظ في المنظوم من الكلام » وكان قبل ذلك قد اورد مذهب تلك الموشحة اصلاً وتعريبًا فاما الاصل التركي فهو

دين ودولت خائني برقاچ ملاعين يزيد

ايلمشلر حضرت عبد العزيز خاني شهيد

واما التعريب فهو

خانةٌ للدين والدولة من قوم يزيد

قتلوا عبد العزيز المرتضى فهو شهيد

ثم اتبع هذا المذهب في عدد آخر من « التقدم » بالخمسة الاول من ادوار الموشحة معرَّبة كما ترى

جُددت فينا بنار من اوارهِ كربلا

وبدا للناس امرٌ مبهمٌ حيرنا

لاق فيهِ ان عيني تسكب الدمع دما

لعنة الله على من ذلك الجرم جنى

المذهب

خانةٌ للدين والدولة من قوم يزيد

قتلوا عبد العزيز المرتضى فهو شهيد

دور

قد مضت خمس عليهِ حججًا دون بيان
واهتدى تحفيفةً من بعدُ خاقان الزمان
ذخرنا عبد الحميد العادل العالي المكان
فانتفى الريب وصار الامر في حكم العيان
خانة للدين والدولة الخ

دور

بعض اهل الغرض الفاسد سرًّا مكروا
جعلوا السلطان بين الشهدا واستتروا
واذاعوا بعد هذا انهُ منتحرُ (١)
لم يخافوا الله في بهتانهم لم يحذروا

دور

كم منادٍ من جرا ما قد جرى واأسفاه
بعض اهل الظلم ممن لم يفوزوا بانتباه
قتلوا السلطان من غير جناحٍ آهٍ آه
ويلهم قد جاءهم من ملك العدل بلاه
خانة للدين والدولة الخ

دور

اسف الدنيا على المظلوم سلطان الاوان
الامير العدل ذي القرنين في هذا الزمان
اسفًا لم ينجُ ممن كان بالايمان مان
فغدا عنهُ شهيدًا ان مثواه الجنان

مذهب

خانةٌ للدين والدولة من قوم يزيد
قتلوا عبد العزيز المرتضى فهو شهيد
وهي اثنا عشر دورًا اكتفى منها الفقيد بهذه الخمسة الادوار

---

(١) قاتل نفسهِ

وقال في

اميل ليتره

EMILE LITTRÉ

وهو احد مشاهير كتاب الفرنسيس
توفي عام ١٨٨١

التعريف

هو اللغوي الفرنسوي المدقق الفيلسوف الوضعي المحقق آية قومه في علم اللسان غاية ذويه في صناعة البيان معجزة عصره في معرفة احوال الانسان ولد في باريس اول شهر شباط من عام ١٨٠١ في بيت نباهة وشهامة وهمة واجتهاد . كان والده من ابطال البحر خاض عبابهُ وذلل صعابهُ وانتصر فيهِ ببارجة ذات ٤٤ مدفعًا على الانكليز في سفينة ذات خمسين فاهدى اليهِ ديوان المستعمرات سيفًا وعاد من بعد ذلك الى فرنسا فادخل في جمعية الحقوق المتحدة . واليهِ[١] اهدى برتلمي سنتيلر وزير الخارجية الفرنسوية في هذه الايام[٢] كتابهُ في السياسة عام ١٨٢٧ وكانت امهُ واسمها صوفيا من بيت جوهانودانوناي المعروفين بالنباهة والنبالة جهر والدها بالميل الى الثورة وولي الحكومة في (سنت انيان) ثم اودع السجن في (ليون) بما حدث ايامئذٍ من الفتن والمفاسد فجاءته في محبسهِ واقامت على مقربة منهُ تواسيه وتسليه فلما زحفت جيوش المؤالفة الى تلك المدينة خرجت الى الفلاحين والفعلة تدعوهم الى حمل السلاح وسارت بفريق منهم متجندين

---

(١) اي اميل (٢) ايامَ كتبت هذه القطعة

مددًا لتلك الجيوش ثم اطلق والدها بعد استيلائهم على ليون ولكنه اعيد الى السجن برهة ردّ فعل واخرج منهُ بحجة النقل فقتل طعنًا بالخناجر فالقت بنفسها عليهِ صارخة منتدبة اهل المدينة لادراك ثاره حتى خشي ارباب الحكم بأسها فجرولها علیها ومن هذه الشهامة وذلك الاقدام اشرب قلب اميل لتره عزةً واجتهادًا فطلب العلم الى عام ١٨١٩ وابان في ذلك عن قوة ذهن وانقاد ذكاء ثم قرأ الرياضيات عامًا كاملاً وانقطع من ثمّ الى دراسة الطب ثمانية اعوام حتى انى على ما في النية منهُ ولكنهُ تعفف عن طلب الاجازة ودخل المستشفيات معاون طبيب يعالج المرضى اوقات العيادة ويصرف سائر الزمن في علم اللسان حتى تجر في الفرنسوية ادبًا وبيانًا ولغة وتضلع من اليونانية واللاتينية وطلب السنسكريت ـ لغة الهنود المقدسة ـ والعربية التماس مراجع الكلم وتعلم الالمانية والايطالية والانكليزية حتى جمع منها الشوارد وقيد الاوابد . وتوفي والده عام ١٨٢٧ فاخذ في تدريس اليونانية وبعض سائر الالسنة التي تعلم توسعًا في طلب الرزق لآل بيتهِ واقام على ذلك الى ان كانت ثورة تموز عام ١٨٣١ فاستبدل القلم بالبندقة وقلنسوة الطبيب بقبعة الجندي وسار بين الجموع بزي الحرس الوطني يقاتل اعداء الحرّية قتال من لايخاف المنية ثم أُدخل عامئذٍ ادارة جريدة (نسيونال) مترجمًا من الصحف الاجنبية وبقي هناك خافي المكان مجهول القدر خامل الذكر حتى دل على نفسهِ بفصل من الادبيات فعرف رئيس المحرّرين مقامهُ من الفضل فادناه ورفع شأنهُ واتخذه لنفسهِ رفيقًا صديقًا فالتزم الكتابة في الصحيفة مياومة بقدر معلوم وكان مع ذلك ينشر الفصول والرسائل المطولة في الجرائد العلمية تباعًا معنى في خلال الفرص بترجمة تآليف ابقراط ثم اصدر من تلك الترجمة نموذجًا عديم المثال بما يدلُّ عليهِ من دقة النظر وصحة العلم باللسان المنقول اليهِ فدخل بذلك في جمعية علماء الآثار . وقرأ عام ١٨٤٠ رأي (اغست قنت) الفيلسوف الوضعي فمال اليهِ ورغب فيهِ ولزم الفيلسوف حتى صار من اقرب مريديهِ وكان الى الوفاة خليفته في الفلسفة الوضعية كما سنبينه في المطلب الذي افردناه لترجمة حال لتره فيلسوفًا

ولما عادت الثورة عام ١٨٤٨ انتخب عضوًا في بلدية باريس ولكنهُ اعتزل هذه المنصة اواخر العام وعاد الى شأنه الاول يملأ الصحف الخطيرة بالفصول العلمية والرسائل الادبية ومباحث النقد ثم انشأ عام ١٨٥٧ جريدة الفلسفة الوضعية وكان مدبرها الى حين الوفاة فطار بذلك صيته واشتدت وطاءة الاعداء عليهِ كما اشتد ميل الاحياء اليهِ وكان من قبل ذلك ينفق الوقت سواد ليله وبياض النهار في وضع كتاب للغة الفرنسيس يجمعها فيها اصولاً وفروعًا ويجلوها حقيقة واصطلاحًا على أسلوب لم يسبق اليهِ ونسق لا يماثل فيهِ كما سنبينه في المطلب الذي افردناه لترجمة حاله مؤلفًا ثم اصدر الجزء الاول عام ١٨٦٣ فارتفع بهِ مكانه وعظم شأنه وسارت بذكره الركبان فعرض على الاكادمية اي جمعية العلماء فطعن الاسقف دو بنلو عليهِ بانهُ كافر زنديق لا يدين

بدين ولا يؤمن بالله فلم ينتخب فرجع الى شأنهِ العظيم يتمّ ذلك الاثر الذي جعلهُ برأسهِ بمنزلة جمعية العلماء واقيم بعد هدنة الحرب عام ١٨٧١ نائبًا عن احد احياء باريس فجلس على مقعد اهل الشمال جمهوريًا لا ضعف فيهِ ولا غلوّ ثم انتخب عامئذٍ عضوًا في مجلس ولاية السين وولي الرئاسة فيهِ وادخل بعد ذلك في جمعية العلماء فعظم هذا الامر على الاسقف السابق الذكر فاعتزل الجمعية وجدًا عليها ثم صار لتره عضوًا دائمًا في مجلس الشيوخ الكبير واقام فيهِ الى ان اغتالتهُ المنية ثاني الشهر الحال (١) كما جاءنا بالتلغراف فذهب فقيدًا مذكورًا رفيع الشأن موسعًا لهُ في تاريخ العصر ايما مكان ونحن مترجمون عن حالهِ فيما يجيءُ من حيث هو ومن جهة كونهِ فيلسوفًا مؤلفًا

الرجل

اسمر شديد السمرة بالنسبة الى قومهِ غليظ الشفة السفلى عظيم الانف عريض الحاجبين ضعيف البصر لا تفارق النظارة عينيهِ كبير الجثة غير مليح الجملة وكان في عهد صباه قويًا شديد الاعصاب يجلس الرجل الضخم على الكرسي فيرفعهُ بيمناه من احدى قوائمهِ ويمسك بالرجلين يمينًا وشمالاً فلا يستطيعان حراكًا حتى استغرق في الطلب واستغنى في البحث واستمات في حياة الذكر فوهن عزمهُ وذهبت قوته بل لم تذهب ولكنها انحصرت في الذهن فتحول فيهِ معجز قوة اليد الى الفكر فصار يكتب في الاسبوع عفوًا ما لا يستطاع مع الروية في الشهر حتى تكاد تآليفه تعجز المرء في مثل حياتهِ نسخًا . وكان ساذج المعيشة ظاهر القناعة دائم السعي والاجتهاد لا تغلبهُ شهوة ولا يستخفهُ مجد باطل ولا يشغلهُ عن العلم شاغل . يصرف نهاره بين جمعية الطب والاثار والعلماء ومجلس الشيوخ وعيادة الفقراء ويأكل قبيل الغروب لونًا من الطعام خفيفًا ثم يأخذ في الكتابة تأليفًا او ترجمة او انشاء الى الساعة الثالثة من بعد نصف الليل لا يلتمس لذلك عزلة ولا يحتجب عن آل بيتهِ بل ربما استقبل المكتب للانشاء وهم في غرفتهِ الصغيرة من حولهِ يتسامرون همسًا فلا يشرد بذلك خاطره ولا يشتغل فكره ولا يتململ كانما هو في غيبوبة التجرد عن الحس المطلق . وكان على استمساكهِ بالحرية وشدة ميلهِ الى الجمهورية وضعف عقيدته الى حد الانحلال معتدلاً متماسكًا يحترم آراء الناس ولا يطعن فيما يعتقدون ولا يخرج في المناظرة عن حد الملاينة تجند لثورة عام ١٨٤١ وحسب من رجال تموز المعدودين ولكنهُ لم يمل بعد ذلك مع هوى النفس بل سلك فيما كتب مسلك الاعتدال وإبان لقومهِ وبال الغلوّ والانفراط لم يعمهِ الحب عن قلوب ذويه ولم ينسهِ الميل واجب النقد . ولزم اغست آخذًا برأيه في الفلسفة الوضعية وارادًا مشربهُ من الحكمة ولكنهُ لم يسلم اليه تسليم الاعمى لقائده بل انفرد عنهُ لما صار الى العمر الذي لا يعلم فيه بعد علم شيئًا ولما رام ان يجعل مذهبه الفلسفي دينًا . ولم يرهُ احد من الناس متعصبًا فيما يعتقد

(١) حزيران (جونيو) سنة ١٨٨١

بل كان يرى زوجته وابنته تصليان فلا يعارض ولا يعترض ولا يظهر اعراضاً . وكان مع كل هذه الحسنات مرفوع الحجاب موطأ الجناب سهل المقابلة لين الجانب يسكن في باريس داراً صغيرة على الضفة اليسرى من السين في الطبقة الثانية ويتلقى الزائرين بطلاقة وجه توهم انه من اهل الفراغ مع نزاهة يترفع بها عن سفساف القول والفعل وشهامة تقول المنية خير من الدنية وعفة تقطع السنة القادحين وهمة لا يبقى معها للنقد مجال وجملة القول انه رجل ليس كالرجال وسنرى منه فيلسوفاً مؤلفاً ما تنبسط به هذه الخلاصة ويتفصل هذا الاجمال

الفيلسوف

شأننا في ما نذكر من فلسفة صاحب الترجمة بيانها كما وجدت لا كما نعتقد فهي كسائر الاراء الفلسفية لا تعدم مريداً يمدح ولا تفقد مخالفاً يذم

وقد مرّ بنا ان اميل ليتره قرأ عام ١٨٤٠ فلسفة اغست قنت المسماة بالوضعية فمال اليها وتبوأت من نفسه مكاناً فاقبل على صاحبها طالباً مريداً ولزم مجلسه يتلقى عنه ويتخرج به حتى صار منه بمنزلة الولد من الوالد لا يعصي له امراً ولا يخالف رأياً ثم انقلبت حكمة (قنت) جريدة بما اثرت فيه السنون فرام ان يجعل فلسفته ديناً فاعتزله صاحب الترجمة مع بقائه على المودة له والسكون اليه حتى استأثرت به المنية فكان ليتره خليفته في الفلسفة الوضعية ابان مكنونها وكشف غامضها واظهر احكامها ووضع فيها الكتب وانشأ لها الصحف حتى صار هو ابن بجدتها وسابق حلبتها وحتى عرفت به ونسبت اليه

وليست الفلسفة الوضعية مما يحدّ ويعرّف في مثل هذا المقام لندّعي استيعابها فيما نقول وانما هو تلخيص الخلاصة نبديه لمن شاء الوقوف عليه فيحصل منه في المخيلة صورة اجمالية من تلك الفلسفة فهي مذهب من لا يسلم الا بالمادة وخواص المادة مطرحاً كل قضية لم تبنَ على حقيقة بينة وكل رأي يتعلق بمنشأ الوجود ومصير الانسان وهي مؤلفة من ستة علوم « الرياضيات والفلك والكيمياء اي فن التحليل والتركيب والطبيعة وعلم الاجسام الحية وعلم احوال الهيئة الاجتماعية » فهذه العلوم على هذا الترتيب شاملة لكل ما وصلت اليه المدارك الانسانية على رأي الوضعيين تقف عند الالهيات غير مشرئبة اليها . وهي عندهم مصيبة في هذا الوقف بحجة انه ليس من الضروري التماس علة المرئي فيما وراء الادراك على كونها ممكنة الوجود في غيره فان سلسلة التعليل في مجمل الحوادث غير منتهية الى علة من فوق كل حسّ واختبار وانما هي متعلقة بحادث ارفع منها جميعاً يسوقها متوالية فيعلم كل حادث منها بالسابق المتقدم عليه حتى تنتهي الى النواميس المبدعة وهذه النواميس ممكنة الحصر في الحركة اللانهائية التي هي القوة المتحدة بالمادة الابدية

وجملة القول ان اصحاب الفلسفة الوضعية ينبذون كل ما خرج عن المادة وخاصة

المادة وسنتهم في ذلك انهم لا يسلمون الاّ ما يتبين لهم من وجه طبيعي ولا يرفعون الى القوة الحاكمة العقلية الاّ ما يظهر للفكر ظهورًا لا موضع للريب فيه . فهم في ذلك على ضد موجب الايمان ولذلك لا نورد رأيهم الا مجرد نقل وما على الناقل من سبيل

واما حال صاحب الترجمة من حيث العقيدة فقد ابانها لقراء جريدة الفلسفة الوضعية منذ عام حيث قال من مطلب سماه (لاخر مرة) كناية عن شعوره بقرب الوفاة « لست ممن ينكرون شرّية الالم ولقد لزمني هذا الشر منذ شهور كثيرة حتى بلغت به اليأس ولي من الناس انفس نقية يهمهم شأني الداخلي رأوا اني لا اقاوم الدين اطلاقًا ولا انكر ما فيه من الحسنات فايقنوا ان له في قلبي مكانًا فانه من بداءة الايمان الاّ يكون في القلب عداوة او استخفاف بالايمان الذي تولى الافكار احقابًا كثيرة ولا يزال الى الان بمنزلة التعزية لقلوب المؤمنين . وحيث اني لم اشعر ولم اجهر بالنفور من هذه المساعي التي ذكرت وقد انذرني الداء والشيخوخة بقرب الاجل لم يقنط اصحابها من رحمة الله ان تهديني السبيل الذي يرومون . ولست بمنكر عليهم هذا السعي ولكني لا اؤمن بل لا اجد من نفسي حاجة الى الايمان ولقد رجعت اليها غير مرة سائلاً مستكنهًا فلم اشعر بشيء مما يشعرون ولم استطع قبول الرأي الذي يعتقدون على انني غير آسف على الخروج عن ايمانهم وغير جانح الى الرجوع اليه فقد اختفت فيما ارى سماء علم اللاهوت وبدت سماء المعارف الانسانية مختلفتين اختلاف الليل والنهار فاثر ذلك في الخواطر ايما تأثير . . .

ثم قال وكان في ذوي معرفتي من نحو خمسين عامًا خانون لا تزال الى الان في قيد الحياة ولكنها مصابة مثلي بداء اليم وقد جاءني من خبرها على لسان من يرانا جميعًا ان الالام تغلب عليها الى حد ان تفيض بكاء وصياحًا فهي بما بها من تقوى الله تفوّض امرها اليه وترضى بما ابتلاها اما انا فاخضع للاحكام الطبيعية التي لا ترد ونحن في النتيجة سواء فلا تسليمها يدفع الالم ولا خضوعي يزيل الوصب بل كلما حملت الى الفراش مساء شكوت وتمللت مرددًا في خاطري قول (مالرب الفرنسري)

ضعيف تولاّه المصابُ فما له
سوى عمر يوم لا يطيق اكتماله

على ان الفلسفة الوضعية التي هي عوني وملاذي منذ ثلاثين عامًا والتي اشربت قلبي حب الاحسان وارادة الاستطلاع وايثار الانسانية تمنعني ان اكون انكاريًا محضًا وتصحبني في هذه الاوقات العسيرة . اه .

هذه خلاصة من فلسفة ليتره ولمع مما كان يعتقد نوردها آسفين عليه انه كان من اعظم الناس عقلاً واوسعهم علمًا واظهرهم اجتهادًا واحسنهم سيرة واكرمهم خلقًا واحرصهم على الانسانية وانهضهم بالخدمة النافعة العمومية وابقاهم آثارًا واعلاهم منارًا ولكنه لم يكن لسوء حظه من اهل الدين والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو غفور رحيم

يذكر صاحب هذه الترجمة بثلاثة مؤلفات ومذهب فلسفي فاما تلك المؤلفات فهي ترجمة تصانيف ابقراط وتصحيح قاموس الطب والجراحة وانشاء كتاب اللغة المشهور . واما المذهب فهو الفلسفة الوضعية . ولنا في كل واحد من هذه الآثار الخالدة كلام لا نخرج فيه عن بيان شأن الرجل ومكانه من الحكمة والعلم

فترجمة ابقراط كانت عنوان مزيته في حسن البيان ودقة النظر والعلم بمواضع الكلام والوقوف على مراجع الالفاظ اصلح بها خطأ من تقدمه من المترجمين واوضح ما أغلق على سواه من مقاصد طبيب اليونان واجاد الى الغاية في اختيار الالفاظ واحسن الى النهاية في شرح المغازي حتى لقب من بعد هذه الترجمة بزعيم اهل البيان الفرنسوي الجديد

اما قاموس الطب والجراحة فالاصل فيه (لنستن) تولى صاحب الترجمة اصلاحه بقدر الحاجة على نية استبقاء الوضع الاصلي فلما سلك هذا السبيل توسعت خطاه فاوغل فيه تنقيحًا وتهذيبًا واضافة وحذفًا واتمامًا وشرحًا وايضاحًا وتغييرًا حتى صار وجه التأليف والانشاء فيه اظهر من وجه الاصلاح وحتى صح ان ينسب اليه والى الموسيو (روبين) معينة عليه . وهذا الكتاب العظيم الحجم والنفع ناطق بفضل (لتره) في المعارف الطبية نطق ترجمة ابقراط بمزيته في علم البيان وقد قال العلامة النقادة (شرر) ان جميع الذين يراجعون هذا الكتاب يعجبون بما فيه من الوضوح والبلاغة والدقة ولا عجب فهو نموذج الاحسان في بابه . اه

وفي هـذا القاموس حدٌّ للنفس نورده تمثيلاً على علاته وهو

النفس في علم تركيب الاجسام مجموع القوى العاقلة الادبية منظورًا اليها من وجه اتحادها ومن حيث تنقسم الى التصور سواء كان من المواضيع الخارجية او المحسوسة . وجملة الحاجات والعواطف المستعان بها على حفظ الذات والنوع والعلائق مع سائر الانواع والخواص التي ينشأ عنها التصور والنطق والاشارة . والقوى التي يتألف منها الفهم . والارادة مقترنة بالقدرة على تحريك الجهاز العصبي والتأثير به في العالم الخارجي . وجملة هذه القوى انما هي ناتجة من حركة العصب الدماغي على مذهب اصحاب العلم الجديد الذين لا يسلمون بوجود خاصة او قوة بلا مادة ولا وجود مادة بلا خاصة او قوة مع اعترافهم بانهم يجهلون على الاطلاق ماهية الخاصة والقوة من حيث هي هي ولا يدرون السبب في كون الحس والفكر يظهران في المادة العصبية . اه

ولم نأتِ بترجمة هذا الحد ذهابًا اليه ولكن ليعلم منه رأي صاحب الترجمة من حيث انه طبيب

واما كتاب اللغة فهو آية (لتره) في علوم الالسنة قيد فيه اوابد الفرنسوية ونظم منها الفرائد

في نظام من البلاغة ما شكّ
امرؤ انه نظام فريدِ

معينًا مصادر الالفاظ مبينًا مخارج الكلم جاليًا حدود المعاني راجعًا الى الاصول في

الدخيل والاشتقاق في الاصيل مشيرًا الى طرق الاستعارة واساليب الكناية مستوعبًا حد اللغة وتعريف الاصطلاح مستوفيًا صور المعاني باختلاف المباني موردًا في كل ذلك امثالاً معينة السند مما جرت بهِ اقلام البلغاء من امتهِ. فجاء كتابًا يقال فيهِ

ما كان احوج ذا الكمال الى
عيبٍ يوقيهِ من العين

عرف اهل اللسان الفرنسوي قدره واعترف ارباب الكتابة منهم مزيته وان لا غنى للكاتب عنهُ ولا بد للمحرر منهُ فتداعوا الى اقتنائهِ من من كل صوب على كون ثمنهِ عاليًا يعز على قصير باع المال فهو كبير الحجم في اربعة اسفار هائلة الضخامة دقيقة الحرف لو كتبت بمثل حرفنا العربي لجاءت اربعين سفرًا او تزيد. ثم اختصر الموسيو بوجان هذا الكتاب في مجلد واحد كبير ولخص هذا المختصر في سفر اخر صغير فصار التأليف ثلاثة انواع صغيرًا ووسطًا وكبيرًا

ولصاحب الترجمة كثير غير ما ذكر مما لا يكاد يعد ولا يوصف كثرة وحسنًا فمن ذلك فصول نقدٍ في الجرائد العلمية لو جمعت لكانت اسفارًا ومطالعات ادب وبيان لو نظمت لحصلت عقودًا واشعار وفكاهات تأخذ بالالباب رقة وتذهل الافكار احكامًا. فان ما ذكرناه من آثاره الاَّ قطعة من بحر ونقطة من سفر ونموذج يدل عليهِ دلالة الجزء على الكل ومثال يشير اليهِ اشارة الاثر الى العين

**

الدرهم الزيف

صدى اراء مصرية

شادوا المنازل على اثار ثروتنا قصورًا واطلعوا في سمائها من المصابيح انجمًا وبدورًا. نقبس من قلوبنا نارًا وتبهم نورًا. فما نرى الشهر الاَّ سرارًا. وما يرون فيهِ الاَّ سرورًا. مهلاً بني الشر لقد ملأتم القطر جورًا وفجورًا. عرفناكم والعهد بيننا من الصدق ما لا تعرفون. انضاء فاقة تلتمسون كسرةً ولا تصادفون. حتى مسختم دودًا علقًا تمصون دم الجهلاء من حيث لا يشعرون. فعدتم من بعد فيلة تحملون ما كانوا من قبل يملكون. ثم اقلتم في ظلال الامن تقولون لن يتنبه الراقدون

استغفر الله من قصد الوقيعة في الابرار تعريضًا. واعوذ بهِ ان اريد اغراء او تحريضًا فما هو الاَّ النذر اخلصهُ لابناء جلدتي تمحيضًا ثم افوض امرنا الى الله والى اولي الامر فيما اصابنا من وبال التزييف. خصوصًا في بلاد الريف. فهي اموال معدودة. ودراهم منقودة. لا هي معدومة فتنسى ولا هي في الواقع ونفس الامر موجودة يعدُّها المرء منا كما يعدُّها المشعوذ في يديهِ فيراها الحاضر بعيني رأسه ثم تحتجب عن عينيه. فكأنها منصرفة عنهُ وهي لديه. فهي منه ولكن لا مرد لها اليه

كما قبض الدينار في الليل حالمٌ
واصبح لم يلقَ الذي كان قابضا

فمن هو السارق ليحد ويقطع. ومن هو ذلك المشعوذ ليردَّ ويردع. ومن هو ذلك المحتال ليصدَّ ويدفع. لا تنظر الى الفقير شزرًا

ولا تظن بالخامل شرًا . ولا تكشف عن السوقي سترًا . بل قف الخيل العتاق جارية بالعربات خببًا . وعج بالقصور المشيدة عاقلة باطراف السهى سببًا . واهتك الستور الكثيفة منقوشة مموّهة ذهبًا . وناد على تلك الاندية واحربا . فهناك مجرّ ومساح الشرّ . وثم مجرى سوابق النكر . وقل اعوذ برب الفلق . من شرّ ما خلق

ولقد خاف الناس على الحق ان تخفيه اموال المزيفين فلا يمسهم سوء بما كانوا مقترفين فسكن رعاك الله جاش الخائفين انا نأمل في الحكومة املاً اكيدًا ونعلم ان للرأي العمومي تأثيرًا شديدًا وان في سويدانا رجالاً لا يغرهم وعد ولا يخشون وعيدا وبشر الظالمين بعذاب يوم العرض العتيد ان ذلك اليوم ليوم شديد

***

ضيف قليل الحياء

اذا انت اكرمت الكريم ملكتهُ
وان انت اكرمت اللئيم تمرّدا

موسيو شارم غبريال او موسيو غبريال شارم كما شئت وكما يقلبك الهوى اليك يساق هذا الحديث . جئتنا العام السالف زائرًا او مستشفيًا ومستمنحًا من جبا لنا بعض ما اصبت في وادي النيل فلقيت منا وجوهًا صباحًا تعد البشاشة للضيف فرضًا ونفوسًا كبارًا تحسب الكرامة للغريب دينًا وقومًا يبدون الفضل ويعيدون اكارم تحسد بهم الارض السماء وما تمثيل صفاتهم للناس الاّ كما مثل النجوم الماء فحسبت البشاشة صغارًا وعددت الكرامة استعطافًا ورأيت الفضل بمرآة ما فيك من النقص فالتوى معناه عليك فعدت يا مؤاجر القلم ترمينا بدائك وتنسلّ . تقابل صفوما وردت من مائنا بكدورة اغنيابك وسلامة ما تنسمت من هوائنا باعتلال روايتك تقول وانت اكذب القائلين ان السوريين ارباب كذب ونفاق ودناءة اخلاق لا مروءة لهم ولا حياء ولا همة فيهم ولا خلاق تولاهم الخمول والكسل فمن استطاع منهم للسؤال سبيلاً لم يلو على عمل . . كذبت ورب المروءة . وما هي اول فرية منك فقد رميت من قبل نزالة اليونان في مصر بمثل هذا القول فجاءك النذر من الصديق (جوسبو) ردّ ما كذبت او تكون من الخاسرين فابيت فدعاك للنزال يحسب ان في عروقك دم الرجال فتسترت باذيال فواجر العذر فعلم ان مثلك لا يعامل معاملة الشرفاء فصفعك باضوطار السياسة كما يصفع الانذال

ونقول ما رأيت اشد من السوريين تعلقًا بالخرافات والاباطيل فقد شهدت منهم في القدس حلقة رجال من حول بائع صور وتماثيل يسومونهُ احدى الصور فلما اعياهم الثمن المطلوب قطع الصورة اجزاء وباعها منهم باثمان مختلفة فآب هذا برأس وذاك بساعد وذلك بيد وذياك برجل مسرورين جميعًا متبركين . . . فهل استهزأ بك الترجمان يا موسيو شارم ام استهزأت انت بقومك ام رمت توفير الصنيعة فضربت بهذا الطبل علمًا منك بتهافت ذويك على الغريب

وتزعم ان رؤساء الدين منا اطمع الناس في الاموال واشدهم حرصًا عليها وافسدهم اخلاقًا واميلهم الى الشهوات واكثرهم تهتكًا في المحارم

على خلاف ما يرى في رؤساء قومك . فهل بعينيك عمى ام تحسب الناس عميانًا ام لم يخبرك من صحبت من سافة الحمير وادلاء المول . . انهُ ما وجد فينا من يظن باهل الرئاسة شرًّا ومن يميل الى رأي اهل الشكوك الاَّ بعد اذ وبئت بلادنا بمفاسد الاجنبي وبعد ان رأينا من الذين تمدح وسمعنا من اخبارهم ما يعمي ويصم حتى خيل لنا ان الفساد فيهم عميم على كوننا اشد الخلق استمساكًا بما يدعون اليه

ونذكر بعض مخدَّراتنا بالسوء ابتهارًا وتورد في ذلك حكاية حال من سفر بحر وصحبة فتى وتزلف والدي وغناء ولهان وضرب الحان وبسائر ما يهذو به اصحاب الحكايات وتعيين بعد ذلك وتسمي اعلانًا بقلة الحياء . . فهلاَّ ذكرت يا ابن الطاهرة مكارم الكرائم حيث دببت وحيث شببت وحيث تأدبت . . فلا تحرجنا فتخرجنا من الذود الى الاقدام ومن الجواب الى الخطاب انا نعرف منكم ما لا تنكرون ونعلم ما لا تجهلون

ثم طبعت كل هذا القول الهراء يا سقيم الطبع فاين تركت ماء الحياء ومن ابن جلبت لوجهك جلد خنزير . .

عفوًا سادتي عما ترون بي من سورة الغضب ولكن هو الوطن والعرض والقوم ومن ذا الذي لا يغضب لوطنهِ ان يهان ولعرضهِ ان يهتك ولقومهِ ان ينالهم لسان مبتذل ساقط لئيم . فقد عرفت هذا الرجل الذي جاءكم ضيفًا نزيلاً واكرمتموه فجعل اعراضكم مناديل عرفته متلبسًا على ضفاف النيل . ورأيت من واجب الذمة والوطنية ان اعرّفكم ما عرفت لكيلا تضيعوا الفضل في غير ذويه

فوضع الندى في موضع السيف في الوغى
مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

وان اخذتني الحدة فيما ابنت من لؤمهِ ودناءة نفسهِ وسقم طباعه فهي نار الغضب للوطن تثير بخارًا يدير القلم على هذا القرطاس . فقد رأيت ذلك المطبوع المعكوس في صحيفة (ريفودي دومند) وصحيفة (الجيبسو) المطبوعة في مصر نقلًا من كتاب سيرد الي فاذكر لكم فحواه

ويا موسيو غير بالٍ شرم هذه اول رسائلي اليك تنوب عن يد يقصرها بعد المسافة عنك فطب نفسًا انك التمست الشهرة بين قومك بما افتريت على السوريين والمصريين من قبلهم واني لاجعل لك بين قومي ذكرًا يجدّده المستقبحون عصرًا فعصرًا

***

الاصلاح

قال رحمهُ الله في هذا الموضوع

(١)

تبلغ الحاجة من المرء حدَّ التعامي عن سائر الموجود فلا يلتمس الاَّها ولا يرى الاَّ قضاها فهي مدار مقاله ومحور افعاله وغايبة تملأ منهُ جانب التصوّر وتغشى دائرة الخيال كما ملأت شهوة الراح مخيلة الشارب الثمل

فكلُّ شيءٍ رآه ظنهُ قدحًا
وكلُّ شخصٍ رآه قال ذا الساقي

ولا خفاء في حاجتنا الى الاصلاح وانهُ حديث نهارنا وسمر ليلنا ودليل سير الاماني

ونجم سرى الآمال فلا غرو ان نعيد ذكره اعادة المحب لذكر الحبيب ولا بد ان نلتمس قربه التماس المريض لقرب الطبيب

ان اصلاح الاحوال واقامة الامور وازالة المفاسد واستجلاب المنافع في البلاد المحروسة ولئن كان مما اوجبه عهد مؤتمر برلين فانا نعوذ بالله ان نلتمسه من عناية دولتنا المؤيدة العلية من هذا الوجه وبهذا الايجاب . انا رعية صادقون لا يداخلنا الريب في حسن مقاصد الدولة ولا يخامرنا الشك في ارتياح نفسها الى الاصلاح اختيارًا فاذا التمسناه فما نطلب الاّ ما نوت ولا نطمع الاّ فيما ارادت ولا نذكر الاّ ما وعدت وما نعلم انه من لوازم البقاء واسباب النماء

والاصلاح فيما نحن بصدده مطلق لا يكاد يقف عند حد ولا ينتهي الى تعريف فما نخص به الادارة لاحتياج المالية اليه ولا نحصره في المالية لعدم استغناء القضاء عنه ولا نحبسه على هذه الاركان الثلاثة لظهور لزومه في سائر ما تقوم به الحركة الحيوية في هيأتنا المدنية والسياسية فهو كلي عميم بقدر كلية الخلل وعموم الحاجة فحيث نرى نقصًا او ضعفًا او اختلالاً او اعتلالاً او اعوجاجًا او موضعًا للكمال فهناك محل اصلاح

ولا بدّ في الاصلاح من شروط تكون فيه بمنزلة القوّة المبقية للموجودات وهي أخذ من الاصل وتمكين وتدريج وآفة الشرط الاول المرضي بالظاهر المموّه في الباطن المشوّه . وبلاء الشرط الثاني أنصاف الوسائل . وداء الشرط الثالث التهوّر فيما لا تلائمه احوال المكان ولا يناسبه استعداد السكان فاذا حصل موفورة فيه هذه الشروط فهو المورد السائغ والفضل السابغ والنعمة الكاملة والمنفعة الشاملة والاّ فهو مجلبة للبلاء ومدعاة للشقاء

وما نجهل ان الدولة العلية ايدها الله لم ترجئ الاصلاح المنوي اختيارًا ولم تؤجل الاخذ فيه استنفارًا منه او رغبة في العدول عنه فانها تعلم علم اليقين انه اذا حصل لها موفور الاسباب مستكمل الشروط فلا يمتنع ان يعود بنا الى المجد الذي اضعناه والسؤدد الذي فقدناه والقوّة التي استبدلناها بالضعف والعزّة التي رضينا من بعدها بالخسف وانما صبرت عنه اضطرارًا الى ان يخلو لها الجوّ من الموانع فقد كانت ولا خفاء في ذلك بين امور عظام ومشاكل جسام في موقف ضنك المقام تدافع الاعداء وتجاري الاحباء وترعى للضرورة احكامها متقلبة بين اللين والشدة والبسط والقبض والجود والامساك على حسب ما تقتضيه الاحوال لتنجو من العوادي وتخلو من العوارض فتنعكف على شأنها الداخلي انعكاف المتفرّغ الخلي حكمة لا تخفى عن ذوي الالباب

وقد نجت من تلك العاديات وازالت تلك العوارض الاّ قليلاً لا يعجز ولا يردّ ارادة فقضت مسألة الجبل الاسود وحسمت نازلة اليونان بعد اذ فضت مشكلة الهرسك وبشناق وقررت امر البلغار والروملي وازالت خلاف خوتور نصار امر الاصلاح في جانب الامكان فجاز لنا النظر فيه بما توجبه الوطنية وحب الدولة العلية وما جادت به علينا اعزّها الله من حرية الرأي فيما لا يخرج عن حد القانون .

على اننا لا نطلق النظر فيهِ من الوجه العمومي الأَّ لمحة تكون بمقام التمهيد لما سنحاول من بيان طرق الاصلاح فينا اختصاصًا فان لذلك التعميم رجالاً ظهرت لهم منهُ الحقائق ولم تخف عنهم الدقائق . وبعد فالذي يقال في جزء من البلاد المحروسة يصحّ في الكل الاَّ في فروع وتفاصيل لا تمنع من هذا الاطلاق

(٢)

ينظر الى الاصلاح المطلق من ثلاثة اوجه السياسة والمدنية والاقتصاد الاجتماعي وفي الاول مالية وادارة وقضاء وفي الثاني معارف ومساواة وحرية وفي الثالث امن ووقاية اعمال وتوزيع اشغال وتحت هذه الابواب فصول تجيء في عرض الكلام عليها

فالمالية وهي قوام الملك وأيد الدولة ومفتاح الاصلاح وعماد الاعمال منوطة باطراف جميع ما يتبعها من مواضع الاصلاح فما تنتظر امورها ولا تتسع مواردها ولا يزول اختلالها الاَّ بحسن الادارة واستقامة القضاء وعموم المعارف وحصول المساواة وظهور الحرية وثبوت الامن وتفرّق الاشغال بالعدل فالنظر في هذه الابواب عائد اليها لزومًا

اما القضاء فاوّل الحاجة فيه انتساق القوانين وكفاءة الحكام فاما القوانين فهي عندنا وافرة كثيرة الفروع تكاد لا تحصى ولا تحصر فمنها القديم ومنها الجديد ومنها الموقت ومنها المشروع ومنها الموضوع ومنها الاوامر والملحقات وهي بالجملة مبنية على العدل والحكمة مأخوذة عن احكام السابقين الى غايات الكمال السياسي فيما لا ينقض النص الشرعي فما يلزم فيها غير الجمع والحصر لدفع اللبس ومنع الاختبال وتنسيق ما يبنى عليها من الاحكام فان ذلك التعدد فيما لا بدّ من الوحدة فيهِ موجب للخلل وضياع الحقوق والجهل بمواضع الحكم واذا لم يعلم المحظور فكل مفعول جائز واذا لم يعرف الجائز فكل مفعول محظور . واما كفاءة الحكام فهو لا شك اعسر من ذاك منالاً فان الكفاءة فيهم يقتضي بالعلم بالاحكام واستقلال الخاطر وعفة النفس وهي شروط قلما تجتمع في عدد كثير ممن لم يدخلوا باب مدرسة قانونية ولم يألفوا مظاهر الحرية ولم يروا للعفة من مزية والعلم لا يحصل الاَّ بتعليم والاستقلال لا يكمل الا بعادة والنزاهة لا تستحكم الاَّ بمكافأة فلا بد لحصول الكفاءة في حكامنا من انشاء المدارس لعلم القوانين وتعويد الحكام حرية الرأي وتقديم ذوي العفة والنزاهة منهم ثم لا غنى مع ذلك عن تأييد تلك الحرية بصيانة اربابها عن الحيف وتمكين هذه العفة بوقاية اصحابها من الفاقة بمعنى ان يؤمن القضاة الاحرار من النكبة ويضمن للنزهاء سداد من الرزق

واما الادارة فلا شك في صعوبة اصلاحها لتعسر الوقوف على موجب الخلل وعلة الفساد في كل فرع من فروعها الكثيرة ولأن العمال والحكام والآمرين والمأمورين على اختلاف درجاتهم لا يتبعون في اعمالهم قانونًا مخصوصًا بها مرعيًا فلا يعلم مقدار حقهم ولا يعرف حد واجبهم ولا تلزمهم تبعة الاَّ فيما يروم الرئيس . وذلك موجب لتأخر الاعمال وضياع الحقوق وتبدد اموال الدولة واختلال السلسلة الادارية وضعف سطوة الرؤساء من كبار المأمورين

الى الوزراء . وما يفيد فيهِ تغيير العمال وتبديل المأمورين فطالما جرى ذلك فما ازال خللاً ولا اظهر نفعًا وانما يجب تبديل الهيئات مع تغيير الذوات وتعيين المسئولية وتحديد الواجبات في الفروع والاصل والاطراف والمركز بحيث يكون كل عامل مسئولاً عما يعمل من طرف السلسلة الاخير الى طرفها الاول فتحصل بذلك وحدة الحكم مع حسن التوزيع وهي الغاية التي ينتهي اليها انتظام الادارات . ثم لا بدّ مع ذلك مما اشترطناه في كفاء القضاة من التأمين وكفاءة الحاجة فيما يجري على المأمورين من الارزاق فقد افادنا الاختبار ان تقليل راتب المأمور الى حد ان لا يفي بالضروري من حاجاته ليس في شيء من الاقتصاد وانما هو داعية الفساد وموجب الدناءة والخيانة . او ما نرى رأي العين احوال ذوي الرواتب القليلة وان الرجل منهم ينفق على الخادم والفرس اضعاف ما يجري عليهِ من ظاهر الرزق فضلاً عما ينفق في داره وعلى حظية جاره وفي مجلس قماره ما يعجز عنهُ ذو الالوف المؤلفة والقناطير المقنطرة فهل ينزل عليهِ هذا المال من السماء كما أُنزل المنّ على آل اسرائيل ام تنبته لهُ السجادة كما تنبته لذوي الكرامات . . كلاّ وانما هو مال الدولة يؤخذ جزافًا وينفق بلا كيل

ومن أخذ البلاد بغير حربٍ
يهونُ عليهِ تسليم البلاد

(٢)

لا تنتهي الانفسُ عن غيها
ما لم يكن منها لها زاجرُ

ان الصلاح المدني القائم بعموم المعارف وحصول المساواة والحرية من وجه العدل والاعتدال وان لزم في بعض احوالهِ الاصلاح السياسي بما تمس بها الحاجة الى المال وما تؤثر فيها احوال الادارة والقضاء الاّ انهُ في الواقع ونفس الامر علة هذا الاصلاح من وجه ترتب الثروة على المعارف وتعين انتظام الادارة واستقامة الاحكام على الحرية والمساواة فهو اجدر من الاصلاح السياسي بالتقدم فان قضت الحوادث بمثل ما نراه في دولتنا العلية من وجوب الابتداء السياسي فلا اقل من جعل الاصلاحين على وتيرة واحدة بمعنى ان يشرع فيهما معًا فانهُ اذا لم يصلح الباطن فلا بقاء لصلاح الظاهر واذا لم يكن للنفس زاجر منها فلا يفيدها زاجر

والمعارف جمع يراد بهِ مجمل ما تمس الحاجة الى معرفتهِ وما تقتضيهِ احوال العصر مما يهتدي بهِ المرء سبيل السابقين الى غايات الهناء والكمال فهي وان امكن تقييدها بهذا الحدّ فلا حد لها ولا قيد لوجوب اتصالها بحركة العلم التي ليس لها نهاية ولزوم التحاقها بحاجات الايام التي لا تقف عند غاية فما يفيد فيها الالتزام حال لا تنفع رعاية ماضٍ بل الحرص على الاثر المهجور مما كان في المعارف الخالية مذكورًا ظاهر الضرر بما فيهِ من التأخر في مجال التقدم . فقد كانت غاية الزارع والصانع والكاتب والعالم فيما سلف ان يعرف الاول اوقات الفراغ والامتلاء في القمر ويحسن الثاني تقليد استاذه في ادارة الالة ويحفظ الثالث ما تيسر من منظوم الشعراء ومنثور البلغاء ويعلم الاخير من المنقول ما لا

بنقل ومن المعقول ما لا يعقل . ولو اقتصر
الزارع الان على معرفة امتلاء القمر لما برح
فارغ الدار والجيب ولو رضي الصانع بتقليد
الاستاذ في تدوير الالة لما دارت الدوائر الا
عليه ولو اجتزأ الكاتب بحفظ ما شحنته الطباع
وملئه الاسماع من ابيات خاويات واسجاع لما
وجد قراء الا بين القبور ولو اكتفى العالم
بمضغ ما تلمظ به الناس من عهد ادم الى ما
قبل ايامه باعوام لما استفاد من نخالة علمه
الدقيق رغيفا . . وانا نعجز عن بلوغ القصد
من المعارف ولا تنالنا الحيرة في طريقة الوصول
اليه ففي السبيل ادلاء راشدون وفيه الف
ركب سابقون فما علينا الا اتباع اولئك فيما
يدلون عليه وتأثر هولاء لما انتهوا اليه سالكين
فيه مسلكهم راغبين في الاسلوب الذي عولوا
عليه من تقسيم الدروس وتنظيم المدارس مجردة
جميعا ما يقيد الاذهان ويؤيد سلطة الاوهام
فالتقليد في هذا المقام عين الاجتهاد

اما المساواة فليس المراد بها ما يروم الغلاة
من محو الطبقات وازالة الدرجات المترتبة على
السعي والجد لزوما فتلك امنية لا تنال الا ان
يكون الناس جميعا اخوانا فلا تحصل ما دام
الانسان انسانا . وليس المقصود منها ما يغالطنا
به اولياء الامتياز من كوننا شرعا فيما تجري به
الاحكام فذلك لا يمنع من وجود التفريق
ووقوع التمييز في نفس تلك الاحكام . وانما
حقيقة المساواة ان تكون الاحكام سواء على من
هم بالنظر اليها سواء بمعنى ان تجرد النصوص الحكمية
عن كل ما يجعل بعض الناس فوق بعض
وتنزه عن كل ما يفتح باب النجاح لبعضهم دون
الاخرين وتطهر من كل ما يشف عن شيء
من ذلك ان يؤدي اليه فتكون امن الخائف
وملاذ الفازع ونصفة المظلوم وسدا سديدا في
وجه الجري . والاحكام دولتنا العلية ايدها الله
مبنية على هذه المساواة الحقة فما يلزم فيها غير
اصلاح الحاكمين ثم لا بد من النظر في امتياز
الاجنبي والتعويض منه بما يكفل استمرار العدل
ويضمن دوام المساواة

وقد وصلنا موضع تنازع الاهواء وتدافع
الاغراض فمهلا سيدي القوي انا لا نخرج فيه
عن حد الحق ولا نجاوز ما رسم به قانون
دولتنا المؤيدة وانت وان كنت تعادي من لا
ذنب له غير مخالفة رأيك وتناوي من لم يجن
من الاثم غير اعتقاد ما لا تذهب اليه وتناصب
الشر من لم يرتكب من النكر غير الذهاب الى
ما لست تعتقد فانك لا تستطيع انكار حرية
الانسان ولكنك تحسبها قائمة فيما تريد مبنية
على ما تتخيل منوطة بما يلائم اغراضك الذاتية
فانت في ما لا تنكره صادق وفيما تتوهمه عن
الهوى ناطق فحرية المرء لا تنحصر في كونه يحرك
اعضاءه كيف شاء فانه موجود ناطق والناطق
ذو فكر يعقل والفكر هو الانسان بالذات
فحرية الفكر ثابتة للمرء لازمة فيه لزوم حريته
في تحريك الاعضاء فان منع من اظهار ما
يراه فهي العبودية وان اكره على القول بخلاف ما
يعتقد فهو قتل الحقيقة

الا ان للحرية عندنا معاشر المعتدلين
شروطا واحكاما تخرج بها عن حد التفريط
ولا تبلغ جانب الافراط فنحن من الطالبين
لحرية المطابع الراغبين في حرية الجامع لما

يترتب عليهما من تنبه النفوس وارتفاع الهمم على شرط أن لا يراد بها الضرر ولا ينشأ عنها الخلل ولا ينتج منها فساد الاخلاق . وهو الحد الذي لا شك في مروره بخاطر المصلحين من رجال دولتنا العلية ايدها الله ولا ريب في تشرفه بالقبول من لدن مولانا المعظم جعل الله النصر رفيق لواه

***

عيشة الخلاء

وفي صيف عام ١٨٨١ تردد الى بعض قرى لبنان طلب التنزه وتبديل الهواء ورغبةً في الاستشفاء مما كان ملمًا به من الاعتلال فكان — وآ أسفاه عليهِ — يكتب فصول الجريدة ومطالبها واخبارها في ربى لبنان ويرسلها الى الادارة فكتب اثناء تلك الفترة القطعة الآتية

قال

لقد سكن الهواء وفتر الماء ووقعت سهام الشمس على الرأس وثقلت وطأة الليل على النفس فما لطلاب الهناء سوى الخلاء وما لاخوان الصفاء غير الفضاء . فاهجر هواجر الحواضر وذر مفاسد المحاشد وسر بي بسرب الاداب وصحب اولي الالباب نلتمس في الجبال نسيماً بليلاً وفي الاودية ظلاً ظليلاً ولا نتبع بنا العربة سارية على عجل بين السهل والجبل فانك ان ادركت اثارها لم تأمن غبارها ولا تجرِ وراء الفرس بركضه القبعي خبباً فيسحب قوائمهُ تعباً . فانك لم تجد ثم رفيقاً يكون بنفسك رفيقاً بل انفرد بالخاطر تطلقهُ اطلاق الجواد بين الربى والوهاد

واغتنم نشق نسيمات السحر
قبل ان تمنى بانفاس البشر

وقابل الفجر قبل انفجار بركان النهار وقبل طلوع الغزالة على هودج النار وتعطر بما يمرُّ بالخزام والشيح من خطرات الريح وسرّح طرف عينيك بمجال جمال ما بين يديك فقد نسقت صفوف الاشجار على ضفاف الانهار وتكللت هام الاغصان من لآلئ الندا بتيجان وغرّد العندليب على العود فاذكر بانغام اسحق على العود والهواء يملأ القلوب حياةً وهناء والماء يسيل في الابدان صحةً وشفاء

والافق يبسم والطيور صوادحٌ
والنهر يرقص والغصون تصفق

ومن فوق ذلك جبال لبنان تستهزئ بعاديات الزمان لزم رؤوسها الشيب فازدادت بهِ جمالاً فنادى لسان حالها رب زدني كمالاً . فكان في هامها الشتاء وفي عنقها الربيع وفي قلبها الخريف وتحت اقدامها الصيف والبحر من وراء ذلك يحدجها بعينهِ الزرقاء فترده صخورها الصماء فيعود راغياً وجداً مزبداً حقداً يدفع سابق موجه اللاحق انكساراً كما انهزم الجيش فارتدت طلائعهُ الساقة فراراً

فتلك هي الحياة لا ما انفقت في الطلب وما صرفت في التعب بين مداح تدنيه وتخشاه ومناج تخاف غضبهُ ولا تأمن رضاه والف رأى اللوم راعه وسكن اذا اودعتهُ القلب اضاعه وبين ذلك تمالك وانقباض وصد واعراض ودلال وهجر وملال وغدر وصحبة بالموادعة ووفاء بالمدافعة وشفاءٌ لا صلة بينها وبين

الضمائر والسنة لا علاقة لها مع السرائر وعيون
لا تشف عن القلوب واخوان فيما لا يمس
الجيوب ودهان واجلال واعظام ورياء
واكرام واحتشام

وإلقاء الانام عذب ولكن
كدّرته مؤنة الاحتشام

فاغنم هذه الاويقات قبل انهدام اللذات
فالزمان يومان ماضٍ لا يرد وحاضر لا يعلم
له غد فاذكر امسك الذي فات وواتِ يومك
قبل الفوات

***

وقال من خطبة القاها في مأدبة اعدها حضرة
الوجيه الخواجا جرجس التويني في قرية
عاليه من جبل لبنان دعا اليها والي
سورية المتوفى حمدي باشا وكان
النقيد من حضورها

فقال

لو نهجت منهج الشعراء لقلت هذه سماء طلع
بها البدر محفوفاً بالنجوم ولو نزعت منزع
قدماء الحكماء لقلت هذه الحكمة من حولها الحور
ولكني حسي المشرب فانا انظر الى هذه الحضرة
بعين رأسي لا بعين الخيال . فهي حضرة آمال
سورية . اجل ففيكم يا سادتي اهل الحل
والعقد والنهي والامر والنقض والابرام الذين
يستطيعون احياء موات الهمم ورد فوات
القيم وفيكم اهل الفضل والعلم والمعرفة والذكاء
الذين يقوون على بث انوار العلوم ونشر
الوية العرفان وتبديد ظلمات الجهالة ورد
غارات الغباوة . وفيكم اهل الثروة والجاه
والكرم والسطوة الذين يقدرون على المساعدة
والاسعاد وتغيير هيئة البلاد . وفيكم من وجه
اخر فتيان ملئ قلوبهم الغيرة الوطنية وملئ
نفوسهم حب الانسانية . وكهول ملئ اذهانهم
الحكمة وملئ افكارهم الاختبار . فانتم لا عدمتم
موضع آمال سورية . وانتم حجة قابليتها للنجاح
في كل حال واذا حصلت القابلية لم يبقَ الاّ
الارادة وهي حاصلة لا محال . وكيف لا توجد
الارادة في مثل قلوبكم المضطرمة بنار الغيرة
وفي مثل نفوسكم الملتهبة بضرام الحمية . . (الى
ان قال خطاباً لرأس الحضرة) فبأذنك مولاي
وبارادتكم سادتي ابشر سورية باصلاح قريب
وفوز مبين تخرج به من الضعف الى القوة
وتنتقل من الهرم الى الفتوة وتعيد ماضي بهائها
وترد بهاء مائها . . وعلى اعتقاد ما بشرت
ويقين ما املت ارفع الكاس على سرّ آمال
الوطن . على سرّ من تنتهي اليه تلك الآمال
انتهاء الخطوط الى المركز على سر مولاي
حمدي باشا

قال

فتفضل ايده الله باظهار الرضى والامتنان
بالفاظ كريمة تدخل الاذان بلا استئذان .
ثم انفضت المادبة وخرج والي الولاية اعزّه
الله بعد الاستراحة شاكرًا لصاحب المنزل
الوجيه ما لقي فيه مما لا يختلف في كماله اثنان
وما اثبته التواتر في ثغرنا حتى صار في حد
العيان

وكتب في

مصر

ما تكرّر ذكر بلد من الشرق في مجالس

نواب الغرب وما كثر تحدث الجرائد الاوروبوية
في امره الا داخلني من الخوف عليهِ ما لا اعلم
له سرًا ولا استطيع فيهِ بيانًا كانما انا آخذ في
ذلك بقول القائل

وخمول ذكرك في الحياة سلامة
ودهاك من امسى لذكرك ناشرًا

بل سرُّ هذا الخوف اني ما سمعت رجال
سياسة الغرب يلهجون بذكر مملكة شرقية
سؤالاً عن احوالها او بيانًا لشؤونها او اهتمامًا
باموره الا رأيت فيها تلوَ كلامهم نوازل
تحرج الصدور ومشاكل تذهل الافكار
واموراً لا اكاد احصرها اولها مزعجٌ واخرها
ولقد رأيت مصر في هذه الايام موضوع
نظر في مجلس نواب الانكليز يسألون عن
احوال عسكرها موجسين خيفة من قصد
الزيادة فيهِ وتجبيهم الدولة بما تعود اهل السياسة
من الابهام والايهام ثم رأيتها مكان بحث وموضوع
اهتمام في جرائدهم تروي حكاية ما وقع من
جندها مما اوجب ابدال ناظر الجهادية وتشفع
بما يلائم المشارب على اختلافها من الشرح والتأويل.
ومصر . ولا حياء في الحب . بلدٌ تركت فيهِ
زهرة ايام الشباب وخلفت باكورة غرس
الاداب وهززت غصن الاماني رطيبًا ولبست
ثوب الامال قشيبًا فما عدلت بي عن حبها النكبة
ولا انستني عهدها الغربة ولست اول محب
زاده البعد وجدًا ولم ينكث على الصد عهدًا فيا

رعى الله مصرًا والسلام على مصرِ
ويا حبذا مصرٌ على الصد والهجر

فحذار اهل مصر ان العدو لكم بالمرصاد
وانكم لمحفوفون بالعيون والارصاد.

منتخبات التقدم

(للمرة الثالثة)

قال في وفاة

غمبتا

هو المقدام السياسي الخطيب الفرنساوي
الذائع الصيت ليون غمبتا . ولد بكاهور آخر
تشرين الاول عام ١٨٣٨ في بيت جنويّ
(ايطاليّ) وقرأ علم القوانين فبلغ فيهِ المقام
الاعلى وكان له في الامتحان القدح المعلى فقبل
في مجمع المحامين بباريس عام ١٨٥٩ فظهرت
هناك نجابته وعرفت في الخطابة فصاحته واشتهر
بالجرأة في المحاماة عن ارباب القضايا السياسية
بالعاصمة والولايات خصوصًا في دعوى دولة
الامبراطور على الذين لم يخشوه في دعوة الناس
الى اقامة تمثال للنائب بردن عام ١٨٦٨ وفي
دعوى تلك الدولة على جريدة (امنسيباسيون)
وفي غيرها من الدعاوي السياسية فطارت
بذلك شهرته وعظمت في القلوب منزلته واشتهر
بكونهِ عدوّ الامبراطورية الالد فترشح للنيابة
في باريس ومرسيلية عام ١٨٦٩ وكان منافسوه
فيها من عظماء الرجال ومع ذلك اجتمعت
له الاكثرية في المدينتين فظهر في باريس
على الموسيو كارنو وفي مرسيلية على تيارس
ودلسبس والماركيز دي برتلماي . ولكن اعتلّ
جسمهُ في تلك الايام فانقطع عن مجلس النواب
حينًا ثم عاودته العافية فعاد اليهِ والتزم معارضة
الدولة في اقوالهِ وآرائهِ بلا اكتتام ولا حذر
واشتهر بخطبهِ العنيفة في تلك المعارضة ولا سيما
خطابته التي نكر فيها العجز على هنري رشفور

في سابع شباط عام ٧٠ (وكان رشفور عامئذٍ من النواب) وخطبته التي اعترض فيها على جنوح الامبراطور الى جمع آراء الامـة على الحرب في خامس نيسان من ذلك العام . ثم وقعت الحرب ولم يكن صاحب الترجمة من الراضين بها فالتزم العزلة ولم يشترك في الثورة التي نشأت وقتئذٍ عن اختلال الاحوال الى ان كان يوم سيدان المشهور الذي انثلّ فيهِ عرش الامبراطورية فعرف محل غمبتا في الهيئة الجمهورية فانتخب في رابع ايلول عضوًا من اعضاء الجمعية الموقتة التي سميت بحكومة الدفاع الوطني ومن الغد عين وزيرًا للداخلية . ثم توغل الالمان في بلاد الفرنسيس حتى صارت باريس على خطر الحصار وتبين ان الرسل الذين بعثتهم الحكومة الى (تور) لتوفير اسباب الدفاع لم يكونوا كفوءًا لذلك فعنّ لغمبتا ان يسير بنفسهِ اليهم وكانت الطرق مأخوذة فطار في قبة الهواء من فوق بنادق الاعداء حتى وقع في (تور) فاخذ في احياء آمالهم وبث روحه في تلك البلاد منهالكًا متفانيًا على السعي والاجتهاد ناهضًا وحده بالمهمات غير متهيب من التبعات ضابطًا بيده القوية زمام الداخلية والعسكرية والمالية مشاركًا في كل نوع من الاحكام والتدابير غير ذاهل عن سوق العساكر وحركات القتال متنقلاً في البلاد والقرى ساهرًا لا يأخذه نومٌ ملتهبًا بالغيرة لا يعتريه فتور اربعة اعوام . وقد صدرت عنهُ في خلال هذه المدة منشورات غراء تذكر واعمال عظيمة لا تنكر من ذلك منشوره الذي يخبر قومهُ فيهِ بتسليم قلعة متس وخيانة القائد بازين

وهو من آيات البلاغة في رثاء الوطن والحث على ادراك الثأر . ومنشوره الذي يطلب فيهِ اجتماع الحرس الوطني على نفقة الولايات لانقاذ البلاد من مخالب الفاتحين . ومن تلك الاعمال العظيمة انهُ اقترض من تجار الانكليز (وبلاده في اوحال تلك الاحوال) مائتين وخمسين مليونًا فرنكًا . وفضّ مجالس الولايات مع كثرة مخالفيه في هذا الشأن ولمّ شعث العساكر وجيش من بقاياها جيوشًا . ولما قضى الجوع بتسليم باريس اصدر مرسومًا بحرمان بعض الامبراطوريين من حق الانتخاب فعارضتهُ حكومة الدفاع في ذلك وامرت بالغاء المرسوم فبقي على المخالفة حتى اتاه الموسيو جول سيمون وكان من اعضاء تلك الحكومة مأمورًا بانفاذ الامر فاعتزل صاحب الترجمة مناصبهُ ترفعًا عن قبول مـا يخالف رأيهُ المذكور . وحينئذٍ هاجت عليهِ الاحقاد والضغائن واتسعت السن الطاعنين فيهِ فاخذتهُ العزّة في التبرّؤ مما كانوا يتهمونهُ بهِ فاعرض عنهم انفةً واستخفافًا فنطقت اراء الامة ببراءتـه في دوائر الانتخاب وكانت لهُ الاكثرية الغالبة في كثير من البلدان ولا سيما التي خيف عليها من الوقوع في يد الالمان فانتخب للنيابة عن ولاية (باربن) باكثر من ٥٦ الف رأيٍ وعن ولايةِ (هوربن) بنحو ٥٢ الفًا وعن (موزيل) بنحو ٥٧ الفًا وعن (مورت) باكثر من ٤٧ الفًا وعن (بوش دورون) بنحو ٦٣ الفًا . وانتخب ايضًا في ولاية (سين اسيز) وفي الجزائر ووهران فاختار النيابة عن (باربن) على علم بان دخولها في حوزة الالمان يخرجه من مجلس النواب فلما وقع هذا المحذور جدد لهُ

الانتخاب في ولاية السين وولاية وار وولاية بوش دوزون

وكانت الجمهورية وقتئذٍ في حالة الضعف بما كان محدقًا بها من المشاكل الخارجية والنوازل الداخلية . تلحظها دولة الالمان بعين العداوة وتنظر اليها سائر الدول الملكية نظرة الخوف ويكيد لها اعداؤها من الامبراطوريين كيدًا عظيماً وكان رئيسها من الذين لم يقبلوا الحكم الجمهوري الاَّ اضطرارًا فتالفت دولتهُ من بقايا الاورليانيين ومن ذوي التردد الذين لا يرومون استبقاء الجمهورية الاَّ بمقدار ما يتعذر الرجوع الى الملكية فاشتد بذلك هياج الغلاة وكثرت وقود الفتنة فكره صاحب الترجمة اضرام نارها في النفوس فالتزم التجلد والاعتدال في مقاومة الدولة وانشأ بهذا القصد جريدتهُ المعروفة المسماة (لاربوبليك فرنسيز) فصدرت على احسن وجه من الشدة في غير عنف والرقة في غير ضعف وكان صدورها في الخامس من شهر تشرين الثاني ١٨٧١

ثم وسدت رئاسة الجمهورية الى المارشال مكماهون وكان اخصاؤه ورجال بطانتهِ واهل مشورته من اولياء الامبراطورية فنشطوا لاحيائها من كل صوب وسلكوا الى ذلك القصد كل سبيل حتى اوشكت الجمهورية ان تصير على خطر منهم فخرج غمبتا عن حد الاعتدال في المقال وبذل الجهد في معارضة ذلك المحال وصاح بمكماهون للامة الامر فلا بدَّ من الامتثال او الاعتزال فهاجت باقوالهِ خواطر الجمهوريين واتقدت في قلوبهم نار الغضب وكبر الامر على المرشال فجعل صاحب الترجمة تحت المحاكمة ورسم بنقض مجلس النواب على امل ان يكون الانتخاب الجديد محققًا لما يريد فسار غمبتا من العاصمة يضرب في البلاد ويطوف بجامع المنتخبين ويحيي الهمم في النفوس خاطبًا داعيًا لتأييد الجمهورية في كل مكان لا يكل لهُ لسان ولا يضعف لهُ بيان حتى اتحدت كلمة الجمهوريين فحصلت لها اكثرية الثلاثمائة والخمسة والستين فاعتزل مكماهون الرئاسة ووليها الموسيو غريفي في ٣٠ كانون الثاني عام ١٨٧٩ وانتخب غمبتا لرئاسة مجلس النواب وولاه حزب الاتحاد الجمهوري زعامانهم وكان في الواقع هو المنقذ للجمهورية من مكائد الاحزاب الامبراطورية

ولما صار غمبتا رئيس النواب علت مكانته علوًّا كبيرًا وبات هو المشار اليهِ بالبنان فكثر حاسدوهُ والخائفون من استبداده بالامر لما يعهد بهِ من علو الهمة وكبر النفس فاخذته السنة الناقدين وقصدتهُ اقلام الطاعنين انهُ مستأثرٌ بالامر سرًّا وان كان الحكم في الظاهر بيد الوزراء وانهُ يتصرف في البلاد بما تقتضيه ارادتهُ ويدير سياسة الدولة على محور هواه . وعاداه الغلاة من اهل الحرية كما كانت تعاديه احزاب الملكية ونصراء الكهنوت ثم اتحد اعداؤه من جميع الاحزاب على الجماعة للقيام بالامر جهارًا علمًا منهم بان الاحكام تختلق ديباجة الرجال فدافعهم عن نفسهِ دفاعًا طويلاً وبقي على رئاسة النواب عزيز الجانب قابضًا على زمام الاكثرية الحاكمة حتى عظمت مؤاخذة الناس لهُ على تخوفه من القيام بالامر وتوالى انقلاب الوزارات الفرنسوية

لامتناع حصولها على الاكثرية في مجلس النواب فاضطر غمبتا لقبول رئاسة الوزراء فتألفت وزارتهُ اوائل تشرين الثاني عام ١٨٨١ وسميت بالوزارة الكبيرة

وكان من اعمالهِ المذكورة وهو على رئاسة مجلس النواب خطبتهُ في شربور يوم استعراض البوارج الفرنسوية فانهُ عرَّض في تلك الخطبة بقوة الجيش الفرنسوي وما عليهِ من الواجبات حتى رمي باظهار الرغبة في استجاشة النفوس لادراك الثأر من الالمان فتناقلت جرائدهم تلك الخطبة وهامت من تأويلها في كل وادٍ فاشتغلت بها الافكار وقتًا طويلاً . ومن تلك الاعمال خطبتهُ التي استمال بها آراء النواب الى العفو المطلق عن المحكوم عليهم بالجنايات السياسية من الاباحية وغيرهم من الغلاة بعد اذ كان الكثير منهم على ضد ذلك الرأي . ومنها سعيهُ في تقرير التعليم الالزامي المجاني واهتمامهُ بتعديل القانون العسكري وغير ذلك من الامور الخطيرة . ويقال انهُ كان شديد الرغبة في الحملة التونسية وانهُ كان قوي الميل الى مشاركة الانكليز في الحملة على مصر

ولما انتهت الوزارة اليهِ انفجرت براكين العداوات عليهِ واتسعت السنة اعدائهِ وحساده بما ضاقت بهِ صدورهم من الضغائن والاحن ورأى من مجلس النواب فتورًا عن الاخذ بناصره وترددًا في قبول آرائهِ السياسية كما وجدت فاراد ان يبلوهم ليكون على بينة من الامر فيحكم قويًا او يعتدل سويًا فذاكرهم في فض المجلس لتغيير كيفية الانتخاب فاجتمعت اكثريتهم على ضد هذا الراي ايثارًا للبقاء في النيابة فاستقال صاحب الترجمة من الوزارة قبل مضي شهرين على انتهائها اليهِ فلم يبدُ من آثار سياستهِ في تلك المدة القصيرة غير القليل الذي لا يذكر في جنب كثرة المنوي على انهُ اجتهد في اتمام الحملة التونسية واعداد قانون جديد للمحاكم والجندية ولو اتى عليهِ في الوزارة شهر اخر لما انفردت انكلترا في الحملة المصرية

ثم عاد الى مقامهِ بين نواب الشمال اواخر كانون الثاني عام ١٨٨٢ ملتزمًا فيهِ التأني والاعتدال ساعيًا في التأليف بين الاحزاب الجمهورية لتأييد آرائهم بالاتحاد مراقبًا اعمال الدولة بعين الناقد البصير مدافعًا عن نفسهِ متبرئًا من مؤاخذات اعدائه بما اشتهر بهِ من حسن البيان حتى اصيب منذ شهر تقريبًا برصاصة رولفير في احدى يديه . قيل كان يصلح الغدارة محشوة فانطلقت عليهِ اتفاقًا وقيل اطلقتها يد خليلة سامها هجرًا وفراقًا فالمهُ ذلك الجرح ايامًا وما كاد يشفى منهُ حتى ظهرت فيهِ علة التقرُّح في الامعاء فكانت هي القاضية

وكان الرجل اسمر اللون ربعةً ديجوريّ الشعر الاَّ ما داخلهُ من خيوط صبح الشيب مكتنزًا عظيم الامتلاء قريبًا من تمام السمن (في اعوامهِ الاخيرة) مصابًا باحدى عينيهِ يجعل مكانها عينًا زجاجًا فلا تكاد تفرق عن العين الصحيحة على انهُ كان في مقلتهِ الواحدة كهرباء مئات من العيون ولا سيما في مواقف الخطابة حيث يتكلم فتنبعث روحه من فيهِ ومن عينيهِ وباشارات يديه . وكان فيما يقال نهماً يحبّ الطعام والمدام وما وراءهما من اسرار الليل

الا ان النهمة لم تشغلة البتة عن الواجبات الوطنية بل كان فيها على ما قال . من استعمل وقتة كلة قدر على كل ما يريد . فهو في ذلك مشابه لابن سيناء الذي كان مع رغبتهِ في (الحياة العريضة القصيرة) من آيات الوجود في سعة الاطلاع وكثرة الآثار . ووجه الشبه بينهُ وبين ميرابو خطيب الثورة اقرب فقد كان ميرابو يصل النهار بالليل سعياً في الامور الجسام ثم يصل الليل بالنهار انهماكاً في الصبابة والمدام وكان غمبتا فيما يزعمون يصرف نهاره بالجد والاهتمام ويميل مع هوى النفس تحت جنح الظلام . وكان ذاك حريصاً على قضاء الشهوات مع الحرص على قضاء الواجبات ولم يكن هذا ممن تلهيهم النهمة عن اداء حق الخدمة والاول هو المظهر للثورة الفرنسوية بثبات جنانهِ وطلاقة لسانهِ والثاني هو المؤيد للجمهورية بحسن بيانهِ وقوة برهانهِ . وقد كان ميرابو خطيباً قويّ العارضة في المعارضة جهوري الصوت جهيراً تلتهب روحه بالكلام كما تذوب الشمعة في الضياء وكان غمبتا خطيباً شديد البادرة في المناظرة هائل الصوت عظيم الخلق تجسم روحه في المقال كما يجسم التصور في الخيال . ومات ذاك وقد ايد الثورة ووفي حقها عليهِ فلم يبقَ بها من حاجة اليهِ بل كانت من قوة شوكتهِ على خطر ومات هذا وقد رفع منار الجمهورية وقام لها بواجب الخدمة فلم يعد بقاؤُها متعلقاً بوجوده بل صار اولياؤُها منهُ على حذر . والرجلان من آيات الله في الخلق بلاغةً وعزماً واقداماً وحزماً فتبارك الخالق العظيم .

ولا نتوسع الآن في الكشف عن آراء صاحب الترجمة وبيان طريقتهِ السياسية في الامور الداخلية والخارجية وما تمّ له من ذلك وما تعذّر عليهِ وما يعزّ من بعده وما يمكن الوصول اليهِ فذلك ما يفرد لهُ فصلٌ برأسهِ بل فصول . ولا نزيد في وصفهِ خطيباً مقداماً على ما اورده التقدم من قبل حيث قال . هو القائل للامبراطور انت العدوّ اللدود لم يخشَ نسره منشباً اظفاره في القلوب حاجباً بجناحيه اشعة الانوار عن البصائر والابصار . الراقي بمركبة الهواء رسولاً الى حامية القلاع لم يحذر بنادق العدوّ وهي موجهة اليهِ مطلقة عليهِ . الصائح بالمارشال مكماهون وقد اراد بالدولة شرّاً لا بد من الامتثال او الاعتزال الصادع بما امرتهُ الوطنية ابان الانتخاب . الجامع لكلمة اهل الجمهورية على اختلاف الشيع والاحزاب القائل غير تارك لاحد مقالا الفاعل غير مبقٍ لناقد مجالاً . الخطيب الذي تهتز لهُ المنابر وتنقاد اليهِ كلمات السحر متسابقة آخذاً بعضها برقاب بعض . يقف وقد احدقت به الابصار وحوّمت عليهِ الافكار تلتمس منهُ مطعناً ومحل اعتراض فيجيل عينهُ (الكريمة) فيهم ويلقي على المنبر يسراه ويرفع اليهم يمناه وقد سكن المتحركون وسكت المتكلمون وانصت المتغمغمون فيتدفق بالكلام تدفق السيل ما بين الجبلين وقد صار المعترض مريداً والنافر اليفاً والعدوّ صديقاً فما سمعنا قبله الرعد ناطقاً ولا رأينا الليث متكلماً ولا شهدنا الجبل متحركاً ولا انحصر البحر في منبر نسمع منهُ حركة هياجه ونبصر فيه تلاطم امواجه . ولله في

الخلق آيات

وقد توفي صاحب الترجمة اول العام الجديد وكان الاحتفال بجنازته على نفقة الدولة في السادس من الشهر وذهب مأسوفًا عليه في قومه مذكورًا عند سائر الاقوام فانهُ كان في عنفوان العمر وقوة الحياة

وكنت لو طال فيها عمره سنةً
اقول للدهر ارّخ مات غمبتا

وما كتب في غمبتا بعد ذلك قولهُ بعنوان

مظاهر الرجال

ان رزء فرنسا بغمبتا لرزء عظيم فقد كان الرجل مقدامًا نافذ الكلمة قوي الحزب واسع الاطلاع على الاحوال الاوربية بصيرًا بامور السياسة الداخلية شديد الحب لوطنه مجرأ على الاعمال العظيمة ولا يتهيب التبعات وهي من الصفات اللازمة الضرورية في الذين يتولون امور السياسة فمن وجدت فيه كان هو الفعال ومن تجرّد عنها لم يكن الاّ قوّالاً وان جمع سائر ما ذكرنا لغمبتا من الصفات

ولكن الرزء بالرجل الواحد وان كان عظيمًا لا يؤثر في البلاد الحرّة التي لا تقيد فيها الافكار ولا تحجب مظاهر النفوس ولا يتوقف ظهور القدر على اقبال بعض الناس كما تؤثر في البلاد المقيدة التي تنحصر فيها قوى المجموع بالافراد وتجتمع ارادات الكل بالآحاد فان العظماء من الرجال لا يظهرون في مثل هذه البلاد الاّ مع طول الاختبار الموجب لحصول الثقة التامة من جانب صاحب الامر فلا يكون للرجل منهم ظهور الاّ اذا انعطف الامر اليه ولا يحصل هذا الانعطاف الاّ بعد الانحراف عن الرجل السابق الاّ في النادر الذي لا يقاس عليه فظهور احد الرجال في تلك البلاد لا يكون الا بخفاء من تقدمهُ على حد قولهم ما نبغ احد من قبيلة مجيد الا ذهب من كان قبلهُ وانشدوا

اذا مقرمٌ منا ذرا حدّ نابهِ
تخمّط منا ناب آخر مقرمِ

وليس الامر كذلك في البلاد الحرّة فان الحوادث هي التي تظهر الرجال في تلك البلاد وقد اتت الثورة على بلاد الفرنسيس وليس بها احد من الرجال المعروفين فظهر فيهم السياسيون الذين حيروا الافكار والخطباء الذين سحروا الالباب والقادة الذين ردوا ممالك اوربا المتحالفة بالدهشة والخذلان . ولولا تلك الثورة لما ظهر ميرابو ولا كاتون ولا روبسبيار . ولولاها لما عرف كلبر ولا بونابارت

نعم ان الاختبار ومعاناة الاعمال في رجال السياسة الزم منهُ في رجال الخطابة والقتال ولكن اشتراك الامم في سياسات الممالك قد وسع لافرادهم مجال الافكار ويسر لهم اسباب الاختبار فكثر فيهم العارفون بالامور القادرون على النهوض باعباء السياسة المبصرون لما وراء حجب المواربة وناهيك بما في اصحاب جرائدهم المهمة من اصالة الرأي وحسن النقد وسعة العلم باحوال الدول . فليست معاناة الامور لازمة في ظهور رجال السياسة منهم لزومها في ظهورهم بين الذين كانت السياسة فيهم طريقة لا يصل الى الحقيقة منها الاّ من

تقرّب من حضرة آلامر وتمّ له الكشف عن غوامض اسرارها وحصل في مرتبة الفناء بوجودها فان لم يكن كذلك رده مقتضى الحال بمثل قول من قال

أتيتَ بيوتًا لم تنل من ظهورها
وابوابها عن قرع مثلك سدت

فموت غمبتا والحالة هذه في امة الفرنسيس لا يضعف قوة الجمهورية ولا يفسد تدابيرها السياسية ولا ينقص من عسكريتها جنديًا ولا يضيع من برنامجها سنتيماً ولا يمنع من ان تكون في مقدمة الدول الاوربوية غنيّ في الرجال والمال

نعم ان وفاة هذا الرجل تؤثر على الغالب في طريقة السياسة الفرنسوية بالنظر الى الشرق فتصير ان شاء الله الى مودة الدولة العلية اقرب ولمصالحها العمومية احفظ وعن ترك محالفتها ابعد ولكن هذا يجلب لنا السرور ولا يوجب الكدر بشيء للامة الفرنسوية

ولقد سرنا ما رأيناه من انصاف جريدة (الوقت) التركية الغراء في تأبين غمبتا وذكر مناقبه السياسية بعد الاشارة الى ما سبق له من المخالفة للسياسة العثمانية . وهذا دليل على حصول حرّية النقد لجرائدنا الخطيرة من مكارم سيدنا ومولانا المعظم وحرية النقد مؤدية الى العدل والانصاف

ثم قال في

سياسة غمبتا

السياسة عند اربابها قسمان كليان احدها يتعلق بالامور الداخلية وهو مختص باحوال المملكة واحكامها وتدابيرها المالية والعسكرية وما يلحق بكل ذلك من توزيع الاشغال وتأبيد العدل وحفظ الثروة وصيانة القوة . والاخر يتعلق بالامور الخارجية وهو مبنيّ على سياسات الدول وتدابيرها العمومية وما يتبع ذلك من المحالفة والمخالفة والموالاة والمعاداة والمسالمة والمحاربة

ولا يسع المقام ايضاح سياسة غمبتا في القسمين جميعًا بما فيها من الابواب والفصول فنحن لذلك نقتصر في هذا المطلب على بيان سياسته الخارجية من بعض الوجوه وموعدنا في ايضاح القسم الاول سنوح الفرصة واتساع المجال

وقد كانت الغاية المقصودة بالذات في سياسة غمبتا الخارجية اعادة فرنسا الى مقامها السابق في عالم السياسة من طريق محالفة الدول الغربية ولا سيما دولة انكلترا

وقد اتى على فرنسا بعد الحرب الالمانية حين من الدهر لم يكن لها في الدول الاوربوية نصير يستعان ولا خليل يؤمن في غيرَ الزمان بل كانت الروسية والمانيا واوستريا على وفاق واتحاد وكانت ايطاليا منحرفة عن فرنسا — كما ينحرف المستقوي بعد الضعف عمن كان سببًا في قوته فرارًا من ثقل الامتنان — وكانت انكلترا معتصمة بحبال منافعها مستوثقة بعرى مصالحها محافظة على الاثرة في كل شأن فغدت فرنسا منفردة تحالف فيها الناس والزمان فكانوا حيث كان والانفراد في السياسة ضرب من الخذلان . فلما سقطت وزارة بيكنسفيلد في انكلترا وقامت مكانها وزارة اهل الحرية واعرضت دول الشمال عن دولة ايطاليا فلم يدخلنها في المحالفة الثلاثية فتح لفرنسا باب

الامل في محالفة هاتين الدولتين فانصرفت همة غمبتا الى هذا القصد فوائق انكلتره على موافقتها في السياسة المصريـة متوسلاً بذلك لمحالفتها في سائر المهمات السياسيـة واظهر لايطاليا رغبته في اتحاد دول الغرب فصار كثير من رجالها على هذا الرأي ثم رزئت الروسية بالاسكندر الثاني فانتهى الامر الى القيصر المالك الآن (وهو ذو ضلع معروف مع الامة الفرنسوية) فانفتح لغمبتا باب الرجاء بنقض المعاهدة الثلاثية وجاءت الحوادث وفاق مأموله فصارت المعاهدة المذكورة مثنوية بين المانيا واوستريا وغدت الروسية منفردة عنها محاذرة منها فاستمالها غمبتا الى دولته ما استطاع فكان لفرنسا في اوربا ثلاثة حلفاء اقوياء حليف تعتقد مودته وآخر ترجو موازرته وثالث تأمن معارضته فخرجت بذلك من هاوية الخذلان

ولا ريب ان غمبتا كان من اشد قومه رغبة في استرجاع الالزاس واللورين ومن اضعفهم صبرًا عن ادراك الثار من الالمان ولكن قد وهمَ الذين رموه بالميل الى مجاهرتهم بالحرب ابتداء فانهُ كان محبًا عاقلاً لا يذهل عن عواقب الامور ولا يخفى عنهُ ان قوة فرنسا العسكرية وان كانت كافية في رد هجمات العدوّ الاّ انها غير وافية بالهجوم عليهِ ولذلك لم يخطر ببال غمبتا مهاجمة الدولة الالمانية وانما كان همهُ اضعاف قوّتها بتبديد ثروتها لتعجز عن تكاليف الجنود فتنتقص قوتها العسكرية او تكون هي البادئة بالحرب فكان يجد في تكثير الجنود الفرنسوية وتوفير آلات القتال معتمدًا في القيام بتكاليفها على ثروة الامة وغنى الدولة ليحتم على المانيا مجاراتهُ في هذا السبيل على ما بها من عجف المال وسوء الحال فتضعف من حيث تلتمس القوة ولا تقوى على الصبر فما يمر غير زمن قليل حتى يمتنع بقاؤها على تلك الحال فتلتمس منهُ مخرجًا فيكون ذلك مدخلاً للدولة الفرنسوية فيما تريد

وكان غمبتا مناصرًا لليونان فيما اقترحوه على الدولة العلية بعد حرب الروس ومؤتمر برلين حتى قيل انهُ ارسل اليهم نفرًا من قادة الفرنسيس لتعليم عساكرهم اساليب الحرب وانهُ اعانهم على شراء كثير من البنادق من معامل الدولة الفرنسوية (وكان ذلك موضوع جدال عنيف للغاية في مجلس نواب الفرنسيس) وقد بدا منهُ غير ذلك مما يشعر بمخالفة الدولة العلية ولاسيما في مسألة مصر ولكن لم تعلم حقيقة قصده بهذه المخالفة التي هي على ضد موجب التقليد القديم والمصلحة الظاهرة في السياسة الفرنسوية الا ان يقال انهُ اراد بها احياء الفتنة في مسألة الشرق لتلهو بها الدول الشمالية وفيهنّ دولة المانيا فتتوسل فرنسا بذلك لما تضمر من الانتقام

وهنا يرد علينا ان رأي استرجاع الالزاس واللورين وادراك الثأر من المانيا غير مخصوص بغمبتا من دون سائر الفرنسيس فلا تصح نسبتهُ اليهِ ولكن هذا الاعتراض غير مصادف محلاً مما نحن فيهِ فانا لم نقل بسلامة الاختراع في سياسة غمبتا الخارجية ليؤخذ علينا هذا القول ولم نجهل عموم رأي الانتقام في امة الفرنسيس ليرد على قولنا ذلك الاعتراض وانما ذكرناه في

الكلام على سياسة غمبتا اختصاصًا لثلاثة وجوه تميزه فيه عما سواه . الاول ان غمبتا كان في مقدمة المجاهرين بهذا الرأي كما تدل على ذلك اقواله ولا سيما خطبتهُ في شربور . والثاني انهُ كان يسلك اليهِ سبيلاً مخصوصًا بهِ معلومًا . والثالث انهُ كان على يقين من امكان اخراجه الى عالم الفعل في وقت قريب على خلاف ما يظنهُ كثير من رجال السياسة الفرنسوية . وفضلاً عن كل ذلك فانهُ كان جريئًا مقدامًا لا يبالي بظواهر الاخطار واهل الجرأة والاقدام الحقيقي في الناس غير كثير

وما يجهل احد من الناظرين في المسألة المصرية ان غمبتا كان من نصراء التداخل الاجنبي ومن اعداء الحزب الوطني في مصر بل كان لا يعتقد بوجود هذا الحزب فيما يدل على ذلك تأييده للمسيو دبلنيار وغيره من انصار التداخل كما يثبتهُ سعيهُ في عزل البارون دي رنك قنصل دولتهِ الاسبق في مصر ويظهره كلام احزابهِ في مجلس نواب فرنسا كما توضحهُ اقوال جريدتهِ المعروفة (لاربوبليك فرنسيز) ومن اجل ذلك بقي على موافقة انكلترة في سياستها المصرية من يوم تشكيل الوزارة المختلطة الى يوم اطلاق المدافع على ثغر الاسكندرية فلم يتردد في امضاء البلاغ الذي اصدرتهُ انكلترة وفرنسا الى النظارة العرابية والعصبة العسكرية على صورة تشبه ان تكون انذارًا بالحرب قيل انهُ كان هو المنشئ لذلك البلاغ ثم اعد فريقًا من الجيش لمشاركة الانكليز في الحلول بمصر ولكن خالفتهُ في ذلك آراء نواب الامة فانتقض الامر عليهِ وبقيت العساكر الفرنسوية في مواقفها وانكلتره في الحملة المصرية وعسى ان يكون كره شيئًا وهو خيرٌ لفرنسا ومصر معًا .

مباحث في الجرائد

المبحث الاول في الجريدة من حيث هي

(حدٌّ وتاريخ)

الجريدة لفظ أُطلق اصطلاحًا على الصحيفة المفردة او الصحائف المصحفة تطبع في اوقات معينة مشتملة على انباء وآراء ومباحث من السياسة او الادب او العلم او منهنّ جميعاً . وليس لهذا اللفظ في اصول اللغة من معنى يتناول ذلك المفاد او يناسبهُ من وجهٍ تصح بهِ استعارتهُ لهُ ولكن صقلتهُ الالسن بهذا فدل عليهِ واشتهر بهِ حتى صار العدول عنهُ الى سواه خروجًا عن المشهور ومخالفةً للجمهور فما الجريدة في اللغة الا الطائفة من الخيل جردت عنها لوجه او لم يكن بها رجالة او السعفة الطويلة رطبة ويابسة ولم تأتِ بمعنى الدرج المكتوب او صحيفة الحساب الا في اقوال بعض المولدين . فاشتهارها بالمفاد الذي تقدم ايضاحه مع بعض ما بينهُ وبين معانيها الاصلية يدل على ان الاصطلاح غلاب وان وضع الاسماء للمسميات الجديدة على نحو ما اشار اليهِ صاحبنا الاديب الفاضل سعيد افندي الشرتوني في البشير مطلبٌ غير بعيد على اهل هذه اللغة طلبوه باسبابه ودخلوه من ابوابهِ .

واسم الجريدة عند الافرنج «غزتا» او «جرنال» وهما كاسمها العربي من حيث عدم

المناسبة بين معناها في اللغة وفي الاصطلاح فالغزتا ضرب من الدراهم كانت تباع به الجريدة في البندقية فسميت باسمه والجرنال معناه « اليومي » اي المنسوب الى اليوم ولا مناسبة بينه وبين مفاد الجريدة الاّ ان يقال انه اطلق اولاً على الصحائف اليومية من قبيل تسمية الشيء بما هو عليه ثم عممه الاصطلاح فعرفت به الجرائد يومية كانت او غير يومية . وقد سمى الافرنج هذه الصحائف المصحفة التي تصدر على شكل الكرّاسة في الاسبوع او الاسبوعين او الشهر مرة باسم يتضمن معنى « المراجعة » ولم نضع اسماً مخصوصاً بها وانما قلنا جريدة الجنان كما نقول جريدة الجوائب الاّ ان اخواننا كتاب اللغة التركية اصطلحوا على تسميتها « مجموعة » ولا بأس من اتباعهم في هذا الاصطلاح

ولم تعرف الجرائد الاّ في صدر المئة السابعة عشرة للميلاد ومن قال بوجودها منذ القديم في الصين او غيرها من الممالك العهيدة فقد حكم بلا ثبت . واول الجرائد المعروفة صحيفة « غزتا » وقد صدرت من البندقية بايطاليا اوائل المئة المذكورة وكانت النسخة تباع بدرهم يقال له غزتا فسميت به وكان هذا الدرهم يساوي ستيمين ونصف سنتيم اي نحو خمس بارات ثم ظهرت في فرنسا لعهد لويس الثالث عشر جريدة كان الطبيب « رينودو » ينشر فيها الاخبار والاحاديث اليومية لتسلية مرضاه واصحابه وصدرت من بعدها عام ١٦٦٣ جريدة علمية سميت « جرنال العلماء » فعظم اقبال الناس عليها فتلتها في

فرنسا جرائد كثيرة من مثلها كجريدة « مركور » و « فيزه » و « تريفو » وغيرها وكان اكثر هذه الجرائد الفرنسوية خالية عن الاخبار والاراء السياسية مقصورة على مباحث من العلم والادب لا يزاد فيها على استحسان كتاب وانتقاد اخر وايراد شيء من الشعر واللطائف على سبيل المفاكهة فلم يكن بها لعامة الناس فائدة تذكر وانما كانت الفائدة لذلك العهد في جرائد الانكليز فانها كانت تنشر اخبار السياسة وتعلن آراء العلماء وتلمّ بكل مبحث مهمّ لا تخاف دركًا ولا تبالي باحد فيما لا يخالف احكام القوانين . وكانت قوانين الانكليز من ذلك الحين عادلة

واستمرت الجرائد الفرنسوية على ما اوضحناه من حالها تنطق بسفساف القول وتطلب مظانّ الزلفى الى ذوي المقامات العالية واذا ارادت نشر نبإ من السياسة او رأي في تدبير الامور على تقدير ان تكون مأذونًا لها في ذلك تعين عليها عرض ذلك النبإ او هذا الرأي لديوان المراقبة مكتوبًا قبل الطبع ومطبوعًا قبل النشر فان اجاز لها اذاعته فعلت والاّ رمت به من حالق الى حيث كانت ترمي الحقائق فكانت بذلك آلة صماء يديرها القويّ كيف شاء حتى انتقضت هاتيك الاحكام وتحوّلت تلك الاحوال ووضعت للدول اوائل هذه المئة قوانين ادنى الى العدل والحرية فنشطت الجرائد من عقالها وانطلقت متبارية في مجالها فكثر عددها وعظم نفعها وتدرجت في مراتب الخطر وعلو الشأن حتى بلغت المقام الذي نراها فيه الان وصار منها في بلادنا المحروسة

صحائف غير قليلة تكتب بالعربية والتركية وسائر اللغات وكانت اوّل الجرائد العربية جريدة الوقائع المصرية . واكثر بلداننا صحائف اخبار دار السعادة العليــة ثم بيروت ثم الاسكندرية والقاهرة ثم ازمير

المبحث الثاني

في احوال الجرائد وآثارها

تبين مما تقدم ان الجرائد كانت عند نشأتها اضاحيك هازل يلهو بها امراء الناس واغنياؤهم في مغامس نعيمهم ثم صارت اماديح واهاجي للمؤلفين وتواشيح واغاني للامراء واجيز لبعضها نشر ما يتيسر من اخبار البلد وانباء السياسة ولكن على شريطة ان تعرض لديوان المراقبة فيحذف من انبائها ما شاء غير معارض ولا معترض عليهِ فكانت الجرائد على هذه الحالة آلة لكسب المال او ذريعة لنيل الآمال لا يلتمس بها النفع الا لكاتبها ولا تقصد منها الفائدة الا لصاحبها ولا يعبأ فيها بالحقيقــة ما لم توافق « مقتضى الحال»

ثم طلع نور العلم والعدالة على ظلمات الظلم والجهالة فبددها واغار جيش الحقائق والنباهة على عساكر الاباطيل والبلاهة فشردها، فجرت روائد الافكار وانطلقت جرائد الاخبار تطلب مستودعات السرائر وتكشف اسرار الضمائر وتجلو اراء ذوي النقد وتظهر آراء اهل الحل والعقد حتى عظم شأنها وعلا وصارت هي الدليل على منزلة القوم من التمدن والعرفان بين ابناء الزمان . ورأينا منهــا صحائف تنطق بلسان الجمهور في الدعوة الى اقامة الامور وتعيين اوجه الفلاح وتنهج مسالك الرباح وتبين خفايا الفساد وترشد الى طرق السداد فيخافها المعتدون واهل الخيانة وتطيب بها انفس الصادقين وذوي الصيانة

وما تستوي الجرائد في هذا الحد ولكنها مختلفة الشؤون والاحوال باختلاف الاحكام والعادات والحالات المدنية في ممالك الارض فهي كالناس درجات بعضها فوق بعض . على انها تتبع القوم في مسالك الترقي (على القول بانها ترجمان الاراء) او ترشدهم الى سبل التقدم (على القول بانها دليل الخواطر) فتكون مماثلة لسوادهم الاعظم فيما هم عليهِ من صلاح او فساد وعلم او جهل وكرامة او هوان فاما رأيت الجرائد تعلو بما يظهر من فضلها وتجل بما يبدو من صدقها وتثمر الخير لاصحابها بما يترتب عليها من النفع العميم فثمّ قوم عرفوا الحقيقة وسلكوا في شؤونهم اقوم طريقة واما رأيتهــا تعلو وهي بالسفالة احق وتسفل وهي بالنبالة اولى ولا ينظر في شأنها الى وجه الحق والنفضل فهناك قوم باعوا الهدى بالضلال وانطلى عليهم المحال

على ان الجرائد في الجملة نافعة الاثر عظيمة الفائدة تظهر الحقائق او تكون دليلهــا وتقرب المعارف او تمهد سبيلها وتروي اخبار الاقطار قريبها والبعيد وتحكي اراء الناس طائشها والسديد فتقرب مسافة ما بين البلدان وتصل بين الخواطر والاذهان فان لم تكن من اللاتي حصلت لهنّ الحرية او كملت فيهنّ المزية فلم تقل كل ما تعلم او لم تعلم كل مــا تقول فاقل ما فيها من النفع انها تجمع شتات

الاخبار وتعلن آثار الافكار فتكفي المطالع موئنة البحث والاستخبار

فان قيل ما فائدة الجرائد الناضبة المائية المقصورة على حكاية حال او رواية خبر من غير نقد ولا بيان لاوجه النفع والضر وكيف لا يترتب الضرر على الصحائف التي تهيج الانفس وتبث الشحناء في القلوب وتوقظ الفتن والحروب قلت اما هذه فهي فاسدة لا محالة على ان الضرر غير مترتب عليها بالحصر وانما هي اللسان الناطق بالمشارب الكامنة في بعض الصدور فوجودها ينفع من هذه الحيثية اي من حيث انها تظهر تلك الموبقات الخافية فيسهل التحرُّز منها ولا يضرُّ من وجهٍ اخر لان الكلمة لا تؤثر في النفس الاَّ بمقدار استعدادها للانفعال ومن كان سليم الذهن راشدًا لا يستوي عنده الهدى والضلال . بل ربما كان تشفي ذوي الاحقاد والضغائن باقوال تلك الجرائد مانعًا لهم من ارتكاب الشر فعلاً حائلاً بينهم وبين التستر في نصب المكائد والاشراك يدل على ذلك ما نراه من الفرق بين اعمال الفنائية في الروسية والاباحية في فرنسا فاولئك يقاتلون الملوك ويفتكون بالامراء ويملأُون قلوب سائر الناس خوفًا وليس لهم جريدة منشورة وهولاء على كثرة جرائدهم نسمع منهم جعجعة ولا نرى طحنًا . اما الجرائد القليلة المادة المقصورة على حكاية بعض الوقائع ورواية شيء من الانباء فلا تخلو من الفائدة التي ذكرنا ترتبها على جمع شتات الاخبار وهي اما ان تكون في قوم من الذين ترقوا في مراتب التمدن والمعارف والحرية فغايتها النماء او الخفاء واما ان يكون قومها من الذين يستخفون بآثار العلم وحاجات العقل ولا يقدرون الجرائد حق قدرها فلا تثريب عليها في القصور انها تغزل مما ينسجون او تنسج مما يغزلون . ولو رأت منهم ما ينبغي لها من الاقبال وحسن الاشتمال لتزينت لهم زينة العيد وبدت كل يوم بثوب من الحسن الجديد

البحث الثالث

« في حرية الجرائد »

تنوَّعت اراء الناس في حرية الفكر الشاملة لحرية اللسان والقلم واختلفت احكام الدول فيما اجازته وما حظرته من مظاهر تلك الحرية فلم تكن الجرائد من هذه الحيثية سواء في جميع البلاد وانما هي في بعضها مطلقة لاحدَّ لها الاَّ القانون العامّ وفي البعض مقيدة باحكام مخصوصة بها تكون قريبة من الرفق او بعيدة عنه بمقدار القوم عن الحرية المدنية والسياسية وقربهم منها

وقد كان الانكليز اسبق الناس الى الحرية على اختلاف مظاهرها وانواعها ففازت بها جرائدهم تامةً مطلقةً من غير حد الاَّ قانونهم المتبع في جميع المعاملات على حين لم تكن الجرائد في سائر الاقطار الاَّ بوقات مدح ومزامير حمد للوجهاء والاقوياء ثم تلتها جرائد فرنسا بعد الثورة فانطلقت في مجال الاهواء ذات اليمين وذات الشمال واساء بعض اربابها استعمال الحرية فدعوا الى القتل والنهب وانتهاك المحارم فكانوا كالمجنون تقلد سيفًا ماضيًا ثم قامت الامبراطورية في فرنسا على جثث حماة

الجمهورية وانصار الحرية فقيدت الجرائد بنظام بين الرفق والشدة وتعاقبت من بعدها الدول تارة ملكية وطورًا جمهورية وحينًا امبراطورية فكانت الجرائد تنتقل من طور الى طور حتى انت عليها هذه الجمهورية الاخيرة وهي غير مطلقة الحرية بل كانت الى سنة ١٨٨٠ لا تصدر الا برخصة من الدولة وضمان مالي مقداره ٥٠ الف فرنك يستودع لوفاء ما عساه ان يحكم به على الجريدة من المغارم ولا تأمن مع ذلك ان تحظر الحكومة بيعها جهارًا من غير محاكمة ثم ابطل هذا القانون والغي حكم الرخصة والضمان وحظر البيع ومع ذلك بقي للجرائد في فرنسا قانون مخصوص بها فلولا ان حكومتها لا تعمل بشيء من احكام هذا القانون لكانت اضيق حرية من جرائد الانكليز

والجرائد في الولايات الاميركية وسويسره مطلقة الحرية غير مقيدة الا بالاحكام والقوانين المرعية في محاكم المعاملات كجرائد انكلترة . وليست كذلك في ايطاليا واوستريا واسبانيا وغيرهن من الممالك الدستورية ولكنها بالجرائد الفرنسوية اشبه من حيث انها مقيدة بنظام تهمل الحكومة احكامه في اكثر الاحيان كراهة اغضاب الجمهور

وما ننكر ان صحائف الاخبار لم تبلغ بعد في بلادنا المحروسة ما بلغته من الحرّية التامة في بعض الاقطار الغربية ولكن من نظر الى احوالها بعين الانصاف ذاكرًا قرب عهدنا من الحرية المدنية والمعارف السياسية غير ذاهل عن وجوب التدرج واستحالة الطفرة في كل الامور رأى قانونها بعيدًا من الجور قريبًا من الرفق يماثل قوانين الجرائد في كثير من البلاد الاوربية ويفضل بعضها بسعة الحرية في كثير من الاحوال فهو يجيز لها اي للجرائد ان تنتقد الادارات وتبدي رأيها في المهمات الوطنية وتظهر سيئات العمال والمأمورين صغارًا وكبارًا مرؤوسين ورؤساء من اقل الخدم الى الوزراء لا تخاف في ذلك دركًا ولا تخشى احدًا ولا يلزمها الا مراعاة احكام القانون من حيث المقدرة على اثبات ما تقوله في المحاكم النظامية وهو عين ما يلزم الجرائد في اكثر الاقطار العريقة في الحرية . وليس في قانوننا من استثناء في القاعدة التي تجيز للجرائد ما ذكرناه الا ان ذات الحضرة السنية السلطانية مقدسة لا ينبغي ان تذكر الا بما يجب لمقامها الكريم العالي من الاجلال والاحترام وان لوكلاء الدول حرمة واجبة الرعاية فلا يسوغ القدح في ذواتهم وان جاز انتقاد ما يقولون وما يفعلون مما يتعلق بالسياسات . وهذا الاستثناء اي ايجاب الاحترام لذات رئيس الدولة ووكلاء سائر الدول المقيمين لديه مرعيّ معمول به لا اقول في الروسية والمانيا فقط بل في اوستريا وايطاليا وجمهورية فرنسا بل في انكلتره وجمهورية سويسره

فمن ظنّ جرائدنا معقولة مقيدة محظورًا عليها ما يجوز للجرائد في سائر الاقطار من النقد والتخطئة والمؤاخذة والتسوئة في مكان الغلط والخطاء والسوء من ابداء رأيها وما تقف عليه من آراء الناس في مسائل الادارة ومشاكل السياسة وفي كل مبحث له في صحائف الاخبار مقام فقد نالة الوهم وفاتة الصواب

انا نستطيع جلّ ما تنوى الجرائد عليهِ في معظم البلاد الغربية كما يعلم ذلك من وقف على بعض جرائد الاستانة العلية فكانت بعض صحائفنا خالية عن الاثار الدالة على الحرّية او سالكة من « مداراة الخواطر » مسلك اهل الرق والعبودية فالقصور منا والذنب لنا وليس العيب في القانون . وفقنا الله لحفظ نظامهِ والعمل باحكامه ويسر لنا القيام ببعض الواجب من خدمة الدولة والامة فتلك اشرف خدمة بل اسبغ نعمة ولا سيما في عهد من كتب لرعيتهِ من الحدثان امانًا وملأ ارجاء بلاده عدلاً واحسانًا سيدنا السلطان الاعظم ومولانا الخليفة الاشرف ايد الله بالعز مقامه ونصر الويته واعلامه ولا زال السعد خادمه والزمان غلامه .

وكتب مقرظًا كتاب « الآيات البينات
في غرائب الارض والسموات » تأليف
حضرة صديقنا الكاتب الالمعي
البارع ابرهيم افندي
الحوراني ببيروت
فقال

وقفت على هذا الكتاب (وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه) مستجليًا منهُ فرائد الفوائد والآداب (ولله من درّ ولله ناظمه) فرأيته مختصرًا موفور النفع محكم الوضع مليح النسق بريء العبارة من الكلفة والقلق حافلاً بمنافع العلم ومحاسن الادب قريب المنال على قصير باع الطلب مرتبًا على ديباجة وقسمين . الديباجة في بيان الغاية من تأليفه وهي تثقيف الطلبة والعوامّ بدانيات المعارف تمهيدًا لطريقهم الى ما فوقها من المطالب العلية وإيضاح سرّ تسميته بالآيات البينات وهو (بيان آيات القدرة الالهية والحكمة السرمدية .) والقسم الاول في عالم الغيب والخفاء والمراد بهِ مجموع المخلوقات التي خفيت عن الاقدمين ورآها المتأخرون بالمكرسكوب والتلسكوب كالحيوينات النقاعية والهوائية التي احتجبت لدقتها عن الانظار وحارت في خلقها وكثرتها الافكار وهو قسم مختصر تمام الاختصار . والقسم الثاني في عالم الشهادة والظهور والمراد منهُ المرئيّ من موجودات الارض والسماء وفيهِ كلام على البحر وما فيهِ من عجائب المخلوقات وعلى البرّ وما يقلّهُ من الحيوان والمعدن والنبات وعلى الجوّ وما يلحق بهِ من الريح والصاعقة والمطر والثلج والسحاب وعلى الفلك الاعلى وما يتبعهُ من الشموس والاقمار والكواكب والشهب وذوات الاذناب وكلّ ذلك بايجاز ملائم للغرض المقصود من الكتاب

وفي خلال هذه المطالب العلمية فوائد من علم اللغة من نحو تسمية الاشياء باسمائها العربية الصحيحة وتمييز انواعها بالمصطلحات اللغوية الفصيحة وتعريب المسميات الجديدة بطريقة الصيغة او التقريب مع شرح الغامض من اللفظ وتفسير المهجور وبيان الغريب وهي طريقة الاجتهاد الذي لا بد منهُ لاهل الانشاء بهذا اللسان وهي وسيلة النجاة من رطانة الاعاجم التي سرت في بعض كتاب الزمان

ومن محاسن هذا الكتاب في باب الادب وصف الاودية فهو مما يحسن ان يكون للهائمين

في كل وادٍ عذرًا (وان من البيان لسحرًا) فمن ذلك الوصف قوله «يترقرق على در حصبائها لجين الماء ويبسم ثغر ياقوت وردتها الحمراء على عنق الزمردة الخضراء وترقص غصون حدائقها الغنّاء على الحان الورقاء فكم فيها من ماء مزاجه من تسنيم وكم في رياضها من جنات ونعيم صحّ فيها الماء واعتلّ النسيم» على اني رأيت صاحب هذا الوصف الشعريّ الكلام الاندلسي التصور يتبرّأ من شأن الشعراء فيه ويقول انهم به أدرى وباستيفائه احرى وان غرضه عجائب الاودية وغرائبها لاظباؤها وربارتها ولا مضاربها وخيامها ولا حدائقها وآجامها ولا ما فيه من غدق ومعين وسلسال وغلل وفرات وزلال . الى آخر ما نسجهُ على هذا المنوال ثم وجدته يسترسل الى ما يتبرّأ منهُ ويطنب فيما يوهم التجافي عنهُ حتى انه رام وصف وادي الموت فلم يتمالك ان نظمه شعرًا فايقنت ان السليقة لاتغلب . وليست اعدُّ الشاعريّة لصاحب هذا الكتاب وزرًا فالشعر ريحانة النفوس وزهرة الادب والشعر ديوان العرب وانما اذكر له فضلاً يحاول انكاره واظهر للعيون آثاره

وجملة القول ان كتاب الآيات البينات فيه من الأدب آيات وعلى قضايا العلم بينات فهو جديرٌ بان تقبل أنفس الالباء عليه حريٌ بان تنبسط ايدي الطالبين اليهِ حقيقٌ بان يكون لأولئك سميرًا في المجالس قمينٌ بان يتخذ لهؤلاء مرشدًا في المدارس

ما ضرّه ان لايكون مطوّلاً
ان كان حاصل نفعهِ موفورا
بل زاد رونق حسنهِ في العين أن
كبرت منافعهُ وكان صغيرا
فانظر اليهِ ترَ المعاني غضّةً
واللفظ بضاً والبيان نضيرا
واحرص عليهِ فقد حباك فوائد
مثل الفرائد قد نظمن سطورا

***

وقام خطيباً على ضريح العلامة الخالد الاثر وطيبنا الطيب الذكر المعلم بطرس البستاني فقال

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدح الامرُ
وليس لعينٍ لم يفضْ ماؤُها عذرُ

ان هذا المصاب مصاب جسيم . ان هذا الخطب خطب عميم . انها لمصيبة وطنية يقلّ في مثلها بذل الدموع انها لنائبة عمومية لا يكثر في نظيرها تمزيق الضلوع . اجل ان المصيبة فيك مصيبة الوطن يامن انفقت العمر في خدمته . مقدمًا مجتهدًا صابرًا متجلدًا متعففًا مستقيماً . فلا بدع ان تبكيك العيون . ولا غروَ ان تنفطر لفقدك القلوب . أو لم تكن فينا مثال الفضل والاجتهاد . ونموذج البراعة والأدب . وعنوان التجلد والثبات في خدمة العلم . بذلت في هذه الخدمة شبابك . ووقفت على هذا السبيل اتعابك . وجعلت العلم غايتك القصوى من دنياك . فكان لروحك روحًا وكنت لذاته قوامًا

فايّ اثر ادبيّ رأيناه ولم تكن أنت البادى به او الداعي اليه . وايّ مشروع مفيد شهدناهُ ولم تكن انت الشارع فيه او المعين عليه . او لست اول من خط على صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان «حبّ الوطن من الايمان»

وأوّل من اقدم على المشروعات الجسيمة العلمية بهمة لاتخاف المصاعب والعقبات ولا تألف الاّ صدق العزيمة والثبات

بايّ آثارك لاتذكر . وبايها اذا ذكرت لانشكر . وايةُ عين ترى اعمال يديك . ولا تفيض دمعًا بل دمًا حزنًا عليك . وما الذي نذكره من آثار اجتهادك في استمرار ارتيادك ولا نجده عظيماً . أمواظبتك على خدمة العلم والأدب اربعين عامًا او تزيد . ام تآليفك وتصانيفك الغنية بشهرتها عن الوصف . أمحيط محيطك . ام قطر محيطك . ام مدرستك الوطنية التي ملأت بها الوطن انوارًا . ورفعت فيها للأدب الصحيح منارًا . ام جنانك التي غرست فيها اغصانًا من العرفان . من كل فاكهة بها زوجان . ام جنتك الزاهرة الدانية القطوف . ام دائرة المعارف التي . . . كدنا نخاف ان تدور الدائرة عليها لولا الامل فيمن أبقيت لها خلفا كريمًا . يحقق رجاء المحبين ويتم أمنية المستفيدين . اجل يتمّ الامنية و يحقق الرجاء فيكون به للوطن عزاء

في الأثر المأثور ياسادتي «من علمني حرفًا كنت له عبدًا» فمن منا لم يعلمه هذا الفقيد حروفًا . من منا لم يستفد منه فوائد صنوفًا . من تصانيفه في كل فنّ . من مدرسته الوطنية . من جرائده الزاهرة . من آثار معارفه في كل موضوع . ومن منا لم يدفع الملل في اوقات الفراغ . و يغلب الضجر في ساعات الراحة . وينزه الفكر بعد تعب الاشغال . بتلاوة ما كان فقيدنا يجيي لانشائه الليالي الطوال . فكيف لانرثيه . وكيف لانبكيه . وكيف لانستعظم المصيبة فيه

أيهذا الراقد تحت ظلال الرحمة والرضوان . لقد عشت سعيدًا مفيدًا . وقضيت حميدًا فقيدًا . وان كان عموم الاسف وشمول الحزن ممّا يبرّد ثرى ويجلب غفرانًا فقد جادتك سحب الرضوان والغفران مسوقة الى ثراك من كل مكان مستمطرةً على ضريحك بكل لسان

نم سعيدًا يامن قضيتَ فقيدًا
بجميلٍ قدّمتَ بين يديكا
أنتَ أحسنتَ في الحياة الينا
أحسن الله في الممات اليكا

وله مقالة في

التشبه

قال

من تردى برداء ما رآهُ لابيه
وابتغى ما قد تعالى عنه ما يشتهيه
سوف يأتيه زمانٌ يتمنى الموت فيه

وقد ابت لي نفسي ومشربي بمعرفة الناس منها ان اكون من القائلين بالامتياز من غير مزية . اني أومن بالله وأقر له سبحانه وتعالى بالعدل الذي هو عين المساواة . وأظن ببني نوعي خيرًا معترفًا لكل سويّ منهم بقابلية الفلاح والارتقاء فما اردت بما تمثلت به من ذلك الشعر ايجاب تشبه الانسان بابيه وقوفًا عند حد التقليد ورضاهُ بما وجدت يداهُ فعل الوكل البليد وانما قصدت الاشارة الى من يتمثل بمن لايصل اليه فيما يعزّ ادراكه عليه فيكلف نفسهُ ما لا تسع و يلقي على عاتقه ما لا يطيق فيفيء بالخيبة والذل صاغر النفس قبل الوصول الى منتصف

الطريق وفي مثل الضفدع اذ انتفخ تمثلاً بالجاموس فانشقت مرارتهُ عبرة لاولي الالباب

ولقد سرت هذه العلة في ديارنا بين الاكابر والاصاغر والاوساط فضاعت بها الاموال وساءت الاحوال وفسدت الاخلاق وضاقت الارزاق وصار اكثرنا كالقبور المكلسة بيضاء الظاهر وليس في باطنها غير الدود

فيا قريني الوسط المستور بالبركة على مَ تحدّى الغنيَّ فيما لا نخدع بهِ الا انفسنا من الزخارف والاباطيل أرأيت لو رفلت زوجاتنا بالحرير الاطلس يكنس باطرافهِ قمامة الشوارع فيغنين البلدية عن الكناسين ولو تختم اولادنا بالجوهر مستعارًا وتقلدوا سلاسل الذهب مبتاعة بالدين تشبهًا باولاد الاغنياء ولو سكنا القصور مفروشة بالديباج يطالبنا الغرماء بثمنهِ قبل انقضاء العام او نبذل فيهِ جلَّ رأس المال انسدل على حقيقة امرنا حجابًا ونلقي في اعين الناس ترابًا فلا يظهر من حالنا الا ما نريد ولا يرى منا الا ما نظهر بل نحن نسعى الى دمارنا بارجلنا مخربين بيوتنا بايدينا

وانت ياخليلي الفاعل الآكل الخبز بعرق الجبين فيمَ تتشبه بالاوساط وما فوقهم من الدرجات أَ رأيت لو خرجت زوجتك من بيتها الحقير بزي امرأة جارك صاحب القصر الكبير على رأسها نقاب ثمين وفي يدها عالة او مظلة من الحرير ولو رضيت بالفول غذاء وباذناب الفجل عشاء لتلبس زوجتك واولادك ما يلبس الاغنياء وانتم في مبيت لا يرضونهُ مربطًا لخيلهم أَ يغير ذلك شانك ويرفع بين الناس مكانك فلا تحسب معهُ حمالاً او حمارًا ولا تعد ماهنًا او آكارًا بل انت معرض نفسك للسخرية تحرمها مما تحتاج اليهِ لتظهر بما يضحك الناس منهُ

سلني اخبرك باحوال امثالك في بلاد المساواة المطلقة والاجتهاد المستمر فاولئك لا يتحلون بالذهب ولا يلبسون الجوخ الناعم من فوق معدٍ فارغة تطالب المدد ولا تتزيا نساؤهم بازياء نساء المتمولين وانما لباسهم الكتان صيفًا والصوف شتاء ولنسائهم واولادهم ملابس تليق بشأنهم وتلائم احوالهم يخرجون بها في اوقات الفراغ راضين بما وصلوا اليهِ فرحين بما هم عليهِ لا يمس قلوبهم الحسد ولا تعرف انفسهم الذل فاذا انقضى زمن العطلة او يوم العيد عادوا الى شأنهم يسعون فيهِ تشتغل نساؤهم كما يشتغل الرجال ولا يرى اولادهم في الازقة متمرغين في الاوحال واذا مرَّ بهم سادة القوم من الوجهاء والاغنياء لم يخفضوا بين ايديهم رأسًا ولم يخافوا لهم قوة وبأسًا وانت مع ترديك بالجوخ ولبس زوجتك الحرير تقف على ابوابهم موقف الذليل الحقير فما ضرَّك لو تركت ذلك الزين ولم ترضَ هذا الشين وانت في غنى عن الحالين

أَلا ساءت عاقبة من جهل حدهُ فتعدَّاه ونظر الى من فوقهُ فتحداهُ فزلت بهِ القدم فندم حين لا ينفع الندم . اطمع نفسهُ فيما تقصر يدهُ عنهُ وعوَّد اهلهُ ما لا يستطيع الاستمرار عليهِ فطالبوهُ بهِ فلم يصبهُ حلالاً فاحتال فلم تغن عنهُ الحيلة فسرق فامتنعت عليهِ السرقة فاغتال فان عزَّ عليهِ بعد ذلك فخيانة في اهلهِ عناء دائم وبلاء مستمر

ونعم الرجل من تشبه بذوي الفضل

واهل الاجتهاد فيما ادركوا بهِ الامنية وبلغوا المراد فطلب فحصل وسعى فادرك وجد فنال وتعب فاستراح لم يقنع قناعة الوكل ولم يطمع طمع المغرور فذلك هو المعني المراد من قول من قال فاجاد

ونشبهوا ان لم تكونوا مثلهم
ان التشبه بالكرام رباحُ

وكتب في وفاة السيد الشهير الامير عبد القادر الجزائري بعنوان

داهيةٌ دهياء

ما خلتُ انّ عماد الدهر ينهدمُ
حتى قضى السيد العالي الذرى العلمَ
القاصد المجد ما زلت بهِ قدمٌ
الصاعد العزم ما انحطت الهُ همٌ
الباذل الخير ما غاضت مكارمهُ
الحافظ العهد ما ضاعت لهُ ذمم
الموقد النار يوم الروع يضرمها
حيناً ويطفئها والنار تضطرمُ
فالخيل والليل والبيداء تندبهُ
والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ
والحزم والعزم والمجد الذي بسقت
فروعهُ والعلى والفضل والكرمُ

كيف لا وهو السيد السند الامير الكبير الحسيب النسيب العالم العامل الحبر البحر التقي النقي الهمام المقدام العربي الابيّ سيدي عبد القادر ابن سيدي محيي الدين الحسيني الجزائري سقى الله بغيث الرحمة ثراه ورضي عنهُ وارضاه

مفرد مجدهِ ما لنا بعدهُ
وللعلى غيرُ الاسى والعويل

والصبر ان امكن في خطبهِ
والمستعان الله صبرٌ جميل

وقد توفاه مولاه غَلس يوم السبت الماضي في قصره بدمر من ارباض دمشق بعد تجلده لداء عياء فنيت فيهِ حيلة الاطباء شهراً ونصف شهر فكان الرزء فيهِ جسيماً والمصاب اليماً والخطب عظيماً والحزن عميماً

فيالك وقعة جللاً أعارت
أسى وصبابةً جلد الجليدِ
ويالك ساعة اهدت غليلاً
الى اكبادنا ابد الابيــدِ

وسرى نعيهُ في المدينة صباحاً فملأ القوم نواحيها نواحاً وطاروا الى القصر هائمين حيارى تحسبهم سكارى وما هم بسكارى فداروا بهِ صفوفاً واجتمعوا من حولهِ الوفاً نادبين مسترسلين للبكاء ناحبين متجافين عن العزاء

وكلهمُ اعدّ اليأس وقفاً
عليهِ ونصّ راحلةَ القعودِ

ثم ساروا بنعشهِ الى منزلهِ في المدينة حيث اقيمت مناحة الى الساعة الثالثة من النهار وكانت الطرق من ابواب المنزل الى الجامع الاموي غاصة بالناس على اختلاف مراتبهم ومذاهبهم حتى لو أُلقي عليها التراب لما مسّ الارض ثم خرجوا بهِ الى الجامع يتقدمه مئات من المشائخ والقراء واصحاب الطرائق والاشائر مهللين مكبرين ورجال الشرطة وعدد كثير من العساكر النظامية ويليهِ جمع لا يحصى من العلماء الاعلام والامراء العظام والوجهاء الكرام فصلي عليهِ رحمة الله وكانت الآراء مجتمعة على دفنهِ بجوار القطب الرباني الشيخ

الأكبر محيي الدين العربي رضي الله عنهُ فاجتمع مجلس ادارة الولاية للمذاكرة في هذا الامر فقرّ عليهِ فساروا في الجنازة على طريق الصالحية حتى بلغوا دار الحكومة فاستقبل النعش هناك قناصل الدول جميعًا بالالبسة الرسمية وفريق آخر من العساكر السلطانية وجميع امراء العسكرية والملكية وساروا بهِ اجمعين لايلوي سابقهم على لاحقهم ولا يبصر اولهم آخرهم . فقد انبأنا المكاتبون الثقات انهم كانوا زهاء ثلاثين الفًا عدًّا غير الواقفين بالطرق وعلى الابواب والنوافذ عجزًا عن اختراق الصفوف

وما نحاول استيعاب مناقب هذا الامير العلي المكان ولا نزاول استيفاء مآثره التي سارت بذكرها الركبان فذلك مما تضيق دونهُ الاسفار فضلاً عن صحف الاخبار وانما نقول فيما نحدث عنهُ ولا حرج انّا رأيناه بحرًا ينظم لفظهُ دررًا وعرفهُ الناس برًّا تنثر كفهُ تبرًا وكان في السلم غيثًا وفي الحرب ليثًا وفي المهمات منارًا وفي الملمات نارًا وللعافين ملاذًا وللخائفين معاذًا ولطلاب العلوم استاذًا وجملة القول انهُ بضعة الشرف العربي وبقية المجد الشرقي وصورة من صور السؤدد والفضل ومظهر من مظاهر الاقدام والنبل وتجلٍ من تجليات الكرم في الفرع والاصل وهذا طرفٌ من ترجمة حالهِ نؤثره من معجم فرنسوي في تراجم العظماء

هو السيد الحاج الامير سيدي عبد القادر بن محيي الدين احد حماة الامة العربية ولد نحو عام ١٨٠٧ (للميلاد) في ضواحي معسكر وكان سيدي محيي الدين مرابطًا رفيع القدر في عمالة اوران متصل النسب بآل البيت النبوي الكريم فربي صاحب الترجمة في حجره واخذ العلم عنهُ واقتدى بالادب فيهِ وكان متوقد الذكاء يفسر على صغره آي القرآن العظيم ثم اشتهر بالفصاحة وسعة العلم بتاريخ قومهِ وبالتقوى والصلاح ولم يكن غافلاً عن واجب الرياضة للبدن بل فاق عشيرته في الفروسة وضرب السيف حتى خافهُ عامل الجزائر يومئذٍ فاضمر لهُ شرًا فسار الامير الى مصر بصحبة والده ثم ادّى فريضة الحج فزاده ذلك رفعةً عند ذويهِ ولما آب من سفره كانت مدينة الجزائر بيد الفرنسيس وعرب اوران على قدم الحرب فولوا سيدي محيي الدين زعامتهم فاغار بهم على معسكر ودخلها عنوة ثم تنازل عن الامارة لابنهِ صاحب الترجمة ومذ حينئذٍ دخل تاريخ الامير عبد القادر في تاريخ حملة الفرنسيس على الجزائر بل صار هو اياه . فانهُ لما اشتدّ أزره ببوادر النصر نادى في قومهِ بالجهاد واغار في عشرة الاف فارس منهم على مدينة اوران عام ١٨٣٢ وكانت بيد الفرنسيس وقائد حاميتهم فيها الجنرال بوير فخرجوا لقتالهِ فثبت لهم وابلى بلاء حسنًا ثلاثة ايام متوالية ثم عاد عن المدينة وفي السنة التالية ولي الجنرال دميشيل قيادة الفرنسيس في الجزائر وظهر على الامير في بعض المناوشات واقام رابطتين من الجند في موقعين من الساحل ومع ذلك لم تنترهم صاحب الترجمة ولم ينخفض مكانهُ بين قومهِ بل صار رئيسهم الفرد المشار اليهِ وتيسر لهُ الهجوم على تلمسان ثم توفي والده عام ١٨٣٤ فهادن الجنرال دمشيل على ان يكون الشليف هو الحد الفاصل بينهُ وبين الفرنسيس

فصار له بذلك امارة واسعة بين مراكش واوران وتيترى والجزائر وصرف الهمة الى اقامة الامور وترتيب الشؤون واصلاح الاحوال وتنظيم الجند في تلك الامارة استعدادًا لمعاودة القتال عند الحاجة وفي خلال ذلك تنافر الجنرال فوارل والجنرال دميشيل وولي الجنرال تريزل قيادة الفرنسيس عام ١٨٣٥ وكان الامير قد اجتاز الشليف واستولى على بلد مدية فخرج اليه القائد المذكور في جيش كثيف ونازله على ضفاف مقطا فتلقاه الامير بعشرين الفًا من الخيل فتجلد الفرنسيس لقتالهم ما استطاعوا واظهروا فيه عجائب من البأس والاقدام ولكن ظهر العرب عليهم فارتدوا مدافعين عن انفسهم تاركين لفرسان الامير متاعهم وذخائرهم ومستشفياتهم مغنماً فاشتدت بهذا النصر عزائم العربان وضعفت هم الفرنسيس ثم عين المارشال كلازيل عاملاً على الجزائر فدأب في القاء الفتنة بين مشائخ العرب حينًا من الدهر ثم حمل على مسقرا بثمانية الاف من الجند فرآها خالية من الحامية فامر بهدمها ثم حلّ بتلمسان وكانت بينه وبين الامير وقائع ليست بذات بال

وما ظهر الفرنسيس على صاحب الترجمة ظهورًا حقيقيًا الا على عهد الجنرال بوجو الذي ازال العربان عن حصار القائد ارلنج على انه جنح الى موادعة الامير تمهيدًا لسبيل الغارة على قسطنطينة وواثقه على ذلك في الثالث من شهر ايار عام ١٨٣٧ فصرف الامير ايام المدنة في لمّ الشعث وجمع كلمة العربان واقامة الارصاد في البلاد التي بيد الفرنسيس وتوفير الذخيرة واستكمال الآت القتال ثم وقع الخلاف بينه وبين القائد الفرنسوي على بنود غامضة من ميثاق المدنة فعاد الى الحرب عام ١٨٣٩ وحينئذٍ خرج الدوك دورليان والمرشال فاله لقتال العربان وابتدئت الحملة المعروفة بحملة عام ١٨٤٠ وحصل الظهور للفرنسيس فاستولوا على مدية ومليانه وانتصروا على جند الامير في موزايا ثم توالت الوقائع تباعًا واتصل مدد كثير بعسكر الفرنسيس وغير قادتهم طريقة الحرب فاستولوا على مسقرا عام ١٨٤١ ودانت لهم بعض القبائل فما خام صاحب الترجمة ولا وهن بل زاد تجلدًا وعزمًا وجمع الامناء واهل النجدة من عشيرته واقام يدافع بهم الفرنسيس حتى استولى الدوك دومال على سالا عام ١٨٤٣ فلاذ الامير ببلاد مراكش واستنجد سلطانها عبد الرحمن فانجده ببعض الجند ولكن ظهر الفرنسيس عليهم واطلقوا مدافعهم على موغادور وطنجر فخاف سلطان مراكش وقعد عن نصرة الامير فاستجاش الامير اهل مراكش على الحرب فاقبلوا على نصرته بالرجال والمال فعاد الى القتال صابرًا جليدًا واوشك ان يسترد البلاد عام ١٨٤٥ فجدد الفرنسيس عزائمهم وقاتلوه قتالاً مستمرًا عامين آخرين وكان صاحب مراكش قد اظهر النفرة منه فضلاً عن التثاقل عن انجاده فاضطر الامير لمقاتلته وظهر على جنده ظهورًا مبينًا ثم احاطت به الاعداء من كل جانب وحفت به الاخطار من كل صوب ففكر ان يعرض قومه للهلاك بلا فائدة فرضي بالتسليم للقائد لاموريسيار على شرط ان يرسل الى الاسكندرية او عكاء

فحمل اولاً الى فرنسا واقيم حيناً في قلعة لاملغ ثم في طولون ثم في قصر بو وفي عام ١٨٥٢ اطلق نابوليون الثالث حريّته وبالغ في اكرامهِ فسار الى بروسة (بورسة) واقام بها الى ان زُلزلت عام ١٨٥٥ فسار الى الاستانة ومن ثم الى دمشق وكان لهُ في هذه المدينة عام ١٨٦٠ اثر من الكرم والاقدام والتقوى وحماية الجار تشكره لهُ الانسانية ويذكره لهُ التاريخ أبد الدهر وفي سنة ١٨٦٣ سار الى مصر للتفرّج على خليج السويس والى فرنسا فتلقتهُ دولتها باحتفاء لا يليق الاَّ بعظماء الامراء وكبار الملوك واهدت اليهِ نيشان اللجيون دونور الاكبر ثم عاد الى دمشق فاقام بها كريماً عزيزاً رفيع المكان مقصوداً في الحاجات محبباً الى الناس آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر يجتمع في مجلسهِ العلماء والوجهاء والاشراف ويقصد بابهُ الفقراء والضعفاء وذوو الحاجات فلا يصد ملتمس فائدة من العلم ولا يرد طالب عون من الجاه ولا يمنع سائل صدقة من المال. تشرّفتُ بلقائه منذ ثلاثة اعوام فرأيت مجلسهُ العالي كما وصفت وبابهُ المقصود كما عرّفت

وادهشني منهُ التواضع والتقى
قرينين للعلم الذي ما لهُ حدُّ

وللامير الفقيد انجال نجباء اشراف امراء سادة كرماء قادة فضلاء منهم السيد الامير محمد باشا والسيد الامير محيي الدين باشا وغيرهما من اشبال ذلك الاسد فهم يحفظون ان شاء الله اثرهُ الكريم ويجرون على سننهِ القويم

فانهم القومُ الذين همُ همُ
اذا غاب منهم سيدٌ قام سيدُ

رنة الحزن

واختطف الهواء الاصفر عام ١٨٨٣ صديقنا الكاتب الالمعي البارع فضل الله افندي الخوري فسار نعيهُ الى بيروت فنواطأ فيها خلانهُ ومحبوهُ على كتم الخبر عن والدتهِ كما جاء بيان ذلك في الرثاء الآتي ثم لبث الخبر مكتوماً مدة خمسة وسبعين يوماً اي الى ان حلت لاصدقاء الفقيد الفرصة الملائمة لنشره فاذاعوهُ فتجدد البكاء عليهِ مرًّا فكتب اديبنا في (التقدم) ما يلي بعنوان (رنة الحزن) فقال

نحن اليوم في موقف نوحٍ وبكاء ومقام ندبٍ ورثاء قصفت لنا ريح الوباء غصناً نضيراً يانعاً رطيباً غضاً وريقاً ينفح زهرهُ طيباً فقدنا منذ شهرين ونصف شهر صديق الفؤاد شقيق الروح فضل الله افندي الخوري فتيَّ غضّ الشباب ناضر العود لم يتجاوز من عمره خمسة وعشرين ربيعاً

وكان خلواً من كل بائقةٍ
وطيب الروح طاهر الجسد

فبكيناهُ في السرّ الى هذه الايام رفقاً بمن ثكلتهُ ان تغلب عليها لواعج الكمد ولا تجد سبيلاً الى الجلد

من لوعةٍ لا يزال لاعجها
يقدح نار الاسى على الكبدِ

وكيف لانبكيهِ وتعظم عندنا المصيبة فيهِ ونحن اعرف الناس بمحاسن ماضيهِ وحالهِ ومخايل المجد والكمال في مآلهِ ازهر غصن آدابهِ فاجتليناهُ وأثمر بعد ازهاره فاجتنيناه فعرفنا العين ورأينا الاثر وحصل لنا العيان ولم يفتنا الخبر. وسل

فكره

و ب انرضي بهذا هرميون وتصبرُ

ونثبت في حفظ الوداد ويغدر

ب و تسوم اصطبارًا كلما زاد غدرهُ

وتخضع في كل الامور وتعذر

لها مقلةٌ بالدمع شكرى ومهجةٌ

من الغدر تشكو فهي تشكو ونشكر

وتدعوك ان اربى البلا مستجيرةً

فانت لمن يدعوك في الضيق تنصر

و ب واسروري: لبيك يامن دعاني

فانا والوفاء خير رفيق

ب و مه لقد اقبل المليك فحاذر

واكتم الامر

و ب .. ..

.. .. لاتخف ياصديقي

ب و اكثر القول طالبا كلَّ شيء

واسلكنْ للشقاق كل طريق

(ويذهب)

الجزء الثاني

اورست بيروس فنكس (الوزير)

و س ف

و س سلامٌ ايها الملك الهمامُ

ودام لك ارتفاعٌ لايرامُ

علوت بهمة ليست تضاهى

واجداد هم القوم الكرامُ

اليك يا من فخت بحسامك ترواده . بعد ان بلغ والدك الهام من هكتور مراده . انيت سفيرًا من امراء اليونان . احمل اليك عتبًا وارجو الآ يحمل على العدوان . وذلك انهم يرون ان شفقة غير سديدة . حملتكم على حفظ بقية حرب شديده . اعني بذلك ابن هكتور الذ اعداكم . الذي جعلتموه في حماكم . وان ذلك لمن العجاب . فكيف نسيتم هكتور وما حملنا من العذاب . لعمري ان شعبنا يتذكر ذلك البطل . وفي كل قلب منه وجل . وما من بيت الأ ويطلبه بثار . وما من يوناني الأ وفي قلبه منه نار . ومن يدري والغلام سرّ ابيه . ما عسى ان نعانيه منه ونلاقيه . فنراه بعد حين مهاجمًا مراكبنا . كما رأينا اباه داهمًا مواكبنا . واني اخاف ان تكون عقبى اهتمامك به واعتنائك . ملاقاة بلائك . وان الحية التي تربيها . تجرعك السم من فيها . فدارك امر غدرك قبل فوات يومك . وابعد عنك عدوًا يستنجد بك على قومك

س و ما خلت ان مثل هذا الاهتمام يكون لهذه النازلة الصغيرة . وان حضور ابن اغاممنون الهمام يكون لهذه الحاجة الحقيرة . وان قومًا طار صيت انتصاراتهم . واخبار غاراتهم . يتنازلون الى طلب صبي . لايعرف الحيّ من اللي وكيف يزعمون اني اسلمه وفيّ بقية . ام اي سلطان لهم على اسير حصل لي بالقسمة الشرعية . وهل مددت الى ما حصل لهم يدا . ام عارضت منهم احدا . وكيف يخافون تجديد سطوة هكتور وابنه في هذا النادي . والله لقد عزّ الصبر عن هذا التمادي . ام كيف يزعمون ان اهل ترواده يقصدون الانتقام . بعد خلوّ بلدهم من رجال الصدام واني اتذكر حال تلك المدينة وما كانت عليه . وارى الان ما صارت اليه . فانها كانت سلطانة آسيا ومقام صناديد

الرجال . ولم يبقَ بها الان سوى بقية اطلال .
سفيت بدم الابطال . وصبيٌّ في القيود والاغلال .
وحيث كان قتل ابن هكتور ضربة لازب
عند اليونان . فلماذا اخروه الى الان . ولِمَ لم
يقتلوه وهو في حضن بريام . مع من قتل من
ابطال قومه الكرام . وكيف يطلبونه حين
لم يبق من قومه غير شيوخ وغلمان فقدوا
الحامية والانصار . ويات بروعهم هدوّ الليل
وذكر الانتصار . واني حين الحرب لم آلُ
جهدًا في المقاتلة . وعاملت المنكسرين بما اقتضت
الحال من المعاملة . ولكني لا ارتكب فوق جرائري
هذا الجرم الكبير . ولا الطخ يدي بدم غلام صغير
ما له نصير . لا ومن براه . فليطمع اليونان
في سواه . وليطلبوا في غير هذا المكان بقايا
تروادة اليسيره . وليعلموا ان الذي انقذته تروادة
تحميه ايبره

و س . ولكنك تعلم يامولاي ان هذا الغلام
لم ينج الاَّ بحيلة امه . اذ بدلته بغلام دعته باسمه
اما اليونان فلا يطلبون البقايا التروادية .
وانما مطلبهم ابن من الحق بهم المصيبة والبلية
ويخافون ان يلاقوا منه هكتور ثانيا . بعد ما
اورثهم هكتور الاول ضررًا كافيا . والحق
بهم ما شاء الله من العنا . وربما حملهم طلب
هذا الغلام على قصده وهو هنا

س و اهلاً بهم ليس المجال بعيدا
واخو البسالة لايخاف وعيدا
ان يقدموا فلقد نقدّم ظلمهم
قبلي ابي حاميهم الصنـديدا
سيعيد ظلمهم فتىً متظلمًا
ولرب ضرٍ قد يكون مفيدا

و س ماخلت انك من طراز الخلفين (م)
وعود هم الناقضين عهودا
س و لقد انتصرت لاستبد فكيف ار
ضى بالخضوع وما انا رعديـدا
و س ترضى به طوعًا لعين حليلة
ترنو اليك فتبلـغ المقصودا
عين بمغناطيسها لما سطت
جذبت فوادك حيث كان حديدا
س و هذه عيون في الغرام اطيعها
لكن نفسي تكره التقييدا
ختم الكلام فسر اليها ذاكرًا
ما قلت وارحل ان سئمت ربودا
(او رست يذهب)

الجزء الثالث

يروس فنكس
س ف

ف س لقد احسنت اليه في معرض الاساءة .
وارجعت النحل الى المباءة . وقربته وانت تريد
ان تبعده . وجمعت شمله وانت تروم ان تشرّده .
فارسلته الى من يحبها حبًا عظيماً

س ف يقال انه كان يعشقها قديمًا

س س رب هوًى باللقاء يتجدد . كالنار ان
تعرّضت للهواء تتوقد

س ف اني اعلم يافنكس انهـا لاتؤثرُ عليَّ
بالحب احدا . ولا تميل الى غيري ابدا . مع
علمها بما انا عليه من اعتزال هواها . والميل
الى سواها . اما ميل اورست اليها فلا يقتضي
ميلها اليه . وما قيل ان من الفواد الى الفواد
سبيلاً قول لايعتمد عليه . على ان رجوعها الى

ما كانا عليهِ من التوادّ يجلب سروري . واذا اتفقا على الرحيل فاني افتح لهما جميع ثغوري

ف س سيدي

س ف للهِ يافنكس لانطل الكلام . في هذا المقام . فان في قلبي امورًا سأذكرها لك لتنظر اليها نظر بصير . وترشدني الى حل مشكلاتها ارشاد مشير . ولا اكتمك امرًا من الامور الخافيه . . . دع هذا الان فان اندروماك آتيه

الجزء الرابع

يبروس فنكس اندروماك

س ف م

س م دنت وقد انثنت فرنت غزالا
ومالت بانةً وبدت هلالا
تلفت بها ولو حيت لاحيت
قتيل صبابةٍ الف القتالا
مهفهفةٌ رأت وصلي حراما
يعاف وقد رأت قتلي حلالا
انت بعد الجفا من غير وعد
تفاجئني بناظرها اغتيالا
فجال الدمع فيهِ وقد اراني
حسامًا قد اجاد لهُ الصقالا

م س ابكي على ولدٍ اليف عذابِ
في السجن بات سمير كل مصاب
ولدٌ اراه كل يومٍ مرةً
واقلّة الانصار والاصحاب
هذا بقية مهجةٍ اتلفتهـــا
في محبسٍ انفقت فيهِ شبابي
فلبست ثوب السقم بعد تنعمي
وجعلت من دمع العيون خضابي

س م لكنما اليونان سوف يهبّون (م)
لك البكا من غير هذا الباب

م س ماذا عسى يبغون بعد قطيعتي
وتلهفي وتألمي وعذابي

س م ولدًا اذاقهم ابوه شدائدًا
بقتالهِ

. . . .

م س . . بالله رق لما بي
ما ذنب طفل في الاسار معذبِ
الف الشقا وتحمل الاتعاب
قد اهلكوا ابطالنا وحماتنا
وقضوا على اموالنا بنهاب
ماذا اجبت رسولهم مولاي هل
جاريتهم فاجبت بالايجاب

س م لا قد رفضت وقد توعدني الرسو
لُ وما برحت مقاومًا بجوابي
ولسوف تاتيني المراكب عدةً
فيها صنوف مواكب الركاب
عاديت قومي مثلما شاء الهوى
ورددتهم املاً بنيل طلابي
عاديتهم حبًا بذات ملاحةٍ
لما حلت جابت مرير عذابي
فلعل ناظرها يقوم بنصرتي!
ولعلهـــا تشفي الجوى بخطاب
يامن اذا حاربت عنها راعني
من لحظها الفتاك رشق حراب
اني اقاتل عنك لا متهيبًا
الاّ قتال تجنب وتصاب
هوذا بيدي هذا فؤادي ها انا
نبدي الخضوع لحسنك الغلاب

س تجلد ولا تظهر الضعف فانك في البسالة
آية .وانعم باحسان مجرّد فخير الاحسان ما
كان بلا غاية . ايغلبك العشق فتخضع له
اضطرارًا .ولا تخاف في اظهاره عارًا . وتزعم
ان اندروماك يطيب لها هذا الغرام .وهي على
ما ترى من الاسر والحزن والسقام . واي جمال
يلوح لك في عينين حكمت عليها فعالك بالبكاء
فخلها واحترم مشهد تعاستنا بعد النعمة والهناء .
وانقذ غلامًا بات في اسرك ذليلا . وكان من
قبل جليلا . وردّه على والدة حزينة باكية .
ولا تجعلها تفديه ببقية مهجة باليه .انقذه ولو ابت
امه فهو جارك وجار الكريم لا يضام . فذلك
عمل يليق بابن اشيل الهمام

س م اعيذكِ من البغض اللازم .والقصاص
الدائم .فقد اسقمتني بالتجني والصد .واتلفتني بعد وان
ما له حد . فان كنت ابكيتك دمعًا يوم كانت
يدي ملطخة بدم اقوامك فقد ابكيتني دمًا لم اسفك
مقداره في غرامك .وان كنت لقيت بسببي عذابًا
فقد احتملت صنوف العذاب . فانا مطلق الدمع
مقيد القلب اليف السهاد وهي صنوف عذابٍ في
الغرام عذاب .فهل بلغت بظلمي غاية ظلمك .وعلى
فرض ذلك الم يكن من اعتذاري ما يقتضي
مزيد حلمك

وان كان ذنبي كل ذنبٍ فانه
محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

فكفانا سيدتي معاقبة متتالية تقضي
باتلافنا .وليكن اعداؤنا سببًا لائتلافنا

تجاوزت حد التهاجر والصد
تجاوز طرفك في حده الحد
وقد كثر الدمع لما همي
ذنوبًا جناها الحسام المهند
واديت دين الوداد وهذا
حساب ذنوبي بدمعي مسدد
هجرت منامي بفرط غرامي
وسامرت بدرًا حكاك وفرقد
فيا ثغر بالله فسر غرامي
فانك تروي حديث المبرّد
ويا قد ما بال قلبك يقسو
وانت تكاد للينك تعقد
تثنيت لما جمعت الجمال
وما زلت ياجامع الحسن مفرد
ويامن تجنت على من جنت
عليهِ الغرام فبات مشرّد
حنانيكِ ان الغرام رماني
فاطلقت دمعي وقلبي مقيد
واني لاحمي الغلام بعزمي
وحزمي حتى اموت والحد
وان طال عمري ينل بحسامي (م)
عزًا عزيزًا وملكًا موطد
فجودي بعطفٍ عليَّ تسودي
وعودي عن الظلم فالعود احمد

م س سيدي ان جميع هذه الوعود لا تغني في
حزني شيئًا . وكنت اعدّ بها ابني لو كان ابوه
حيًا . . . . (التفات) فيا ايها الاطلال الباليه .
ويا ايتها الاوطان الفقيدة الغاليه .ان في قلبنا
من الشوق اليك لنارًا حاميه . ومن لنا بان
نراك بعد موت المقاتلة والحاميه

عليك دموعي جرت بانسكاب
تحاكي السحاب السحاب
فرحماك مولاي ياذا الهمام

وانقذ غلامًا . . غلامًا . . غلام
(على قد ملكتم فوادي)
(التفات) رحماك يامولاي ان دمعي الهامع
لايسألك غير الرحيل فهو غاية رجاه . فاسمح
لي ان اذهب بابني فاخفيه وابكي اباه . وقد
علمت ان ميلك الينا يورثك بغض قومك
والويل . فارغب في هرميون عني فانها اجدر
مني بهذا الميل
س م ياغزالاً يروم مني سلوًا
عنهُ والحب في فوادي لابث
زاد بي العذل في هواك ثباتًا
رب عذل اضحى على الحب باعث
فأجرني اجارك الله من شو
قي وكن لي من سهم عينيك غائث
يالقومي صار الحبيب عذولاً
ان هذا لمن صروف الحوادث
بالله لاتعذلي قلبًا عن هواك لا يحول .
وارحمي طرفًا في غير محياك لا يجول . فليس
بامكاني ان ارغب في هرميون واميل اليها .
واقبل بعد الاعراض عليها . فقد ملكتك قلبي
ولك فيهِ الامر والسلطان . فكيف اهواها وليس
لي قلبان . ومن برى مالك عندي من عظم
الشان . و رفعة المكان . ولا يظن انكِ الاميره .
وانها الاسيره اه . اه . اواه . قول مغرم اوّاه .
لو سمعتهُ هرميون لنال فوادها مناه
م س وهل تريد ان تسمعك متنهدًا بعد
ان صارت صاحبة امرك . وولية سرك وجهرك .
وهل تنسى ما خضت لاجلها من المهالك . ام
هي تطمع في غير ذلك . ألم يكفها سوء حالي
واسري واذلالي . ام تريد ان تضرم في قبر
هكتور نارًا . اي ذكر رهيب لهكتور
من حبا اباك مجدًا كما حبونك بدمعي اشتهارًا
س م كم ذا التجني والدلال . لقد عز الصبر
ولم يبقَ للعفو مجال . فانا اسلوكِ وابغضك
ان امكن . فقد طال ما عاملتك با لتي هي احسن .
واعلمي ان بغضي يكون كحبي شديدا . وان
رجوعكِ عن غيك بعد ذلك لا يكون مفيدا .
وان الابن يؤخذ باعمال امه لامحال فاسلمه
الى اليونان وانجو من المشاكل والاهوال
م س يموت ابني . . . ابني يموت ولا معين
له ولا شافع الاّ معين دمعي الهابع . . وعسى
ان يقصر ذلك عذابي و يريحني مما الاقيه فالحق
به لنلتقي معًا بابيه . .
س م اذهبي اليه ايتها السيدة وانظريه . وقبليه
وعانقيه وافتكري ان تنقذيه

الجزء الخامس

اندروماك

م

م م ايادهرُ مالي في العذاب ضريبُ
فقد حلّ بي يادهر منهُ ضروب
رميت بانواع المصائب مهجتي
وسهمك يارامي المصاب مصيبُ
وامرضتني لما سلبت احبتي
وليس لدائي في الديار طبيبُ
بكيت وكان الدمع من ذوب مهجتي
وكفي بحناء الدموع خضيب
فان كان لي ذنب وانت مواخذ
فاني من ذنبي اليك اتوب

جار دهري وما من مجير
ونأى بعد عزي نصيري
فغدا قلبي كئيبًا بالمصائب
وجفاني طيب انسي
وتولى اليأس نفسي
يا الهي انت ملجا كل طالب
فأجر نفسي من هذه النوائب
دهر جور لايبالي
بتلافي ووبال
بات جسمي منهُ بالي
وهو بالاوجال جال
قد جار بي دهري
تحرت في امري
وما من الدهر مجير
يالدهر من اذاهُ
طاب بالجسم بلاه
كيف انجو من بلاه
وهو بالنصال صال
ياخالق الكون
كن في البلا عوني
فانت لي خير نصير
(على قد «العيون الكواسر سبوني»
او يقال بدلاً منهُ
زماني زماني وشفى . عواذلي مني . وجار علي ضعفي .
بقصده ابني
دموعي جرت على الخدود . فاضرم في قلبي الوقود .
وشمت فيَّ الحسود . يا ترى زماني يعود . فيحلو لقلبي
الورود
واخلص من حزني
لاتظلموني بل ارحموني وخلصوني

عولوا غلامي وارعوا زمامي واشفوا اوامي
لاتظلموا الاطفال يا ايها الابطال وانقذوني

الفصل الثاني

في قصر پيروس في حجرة هرميون

الجزء الاول

هرميون   كليون

ه   ك

ه ك ارضى بما رمت ارضى
وليتني لست ارضى
اورست عما قليل
يجيء والامر يقضى
ك ه قد كان وهو بعيد
لا يلتقي منك دحضا
فصار وهو قريب
يلقى نفارًا ورفضا
عجبت مما اراهُ
حب تحوّل بغضا
ه ك لاتعجبي فانقلابي
عن فجعة ليس بغضى
قابلت بالغدر حبًا
قد جاء بالود محضا
فان رآني وحالي
بمثلها ليس يرضى
يشفِ الفواد انتقامًا
وينفض الثوب نفضا
فلست ارضى بهذا
ياليتني كنت ارضى
ك ه لاتنفري عن محب
يبغض ودك يرضى

فليس بجفوك صب
ذو مهجة منك مرضى
يرى ودادك دينًا
ويحسب الصبر فرضا

ه ك مناصب الان يأتي به بيلاد . فانيله من لقائي المراد
ك ه وما عسى ان تكون ارادة ابيك في هذا الباب
ه ك لقد اتاني منه كتاب . يأمرني ان اسير الى اليونان بلا تأخير . ان ابى بيروس ان يسلم الاسير
ك ه فاتكلي اذن علي اورست ليعلم بيروس عاقبة الغدر كيف تكون . وتالله لا يفلح الظالمون
ك ه غادربه وكفى ما قد جرى
ودعيه انه قد غدرا

***

ه ك كيف اسلوه وقلبي في يديه
ان روحي نزعت مني اليه
ليس صبري عنه كالصبر عليه
لا تلومي ان من ذاق درى

***

ك ه غادربه انه قد غدرا
ولقد ذاق ولكن ما درى

***

ه ك مهجتي من حرّ شوقي تحترق
وفؤادي في هواه تحت رق
وسهام الغدر قلبي تخترق
ووشاة الدمع تروي ما جرى

***

ك ه غادربه انه قد غدرا
وكفى سيدتي ما قد جرى

***

ه ك لاتقولي قد كفى ما حصلا
فاهجري او فاصبري صبرًا حلا
زادني الصبر مصابًا وبلا
فاز الا في الهوى من صبرا

على قد (باهي السنا لما انثنى الخ)

ك ه وهل تنتظرين منه خيانة جديده . بعد خياناته العديده . يحب اسيرة . . ويحبها امام عينيك . وكل ذلك لا يجعله بغيضًا لديك . وماذا يمكن له بعد ما اجراه وكرر . فانه لو استطاع ان يجعلك تبغضيه لما تأخر
ه ك لماذا تريدين تنبيه همي
فاني ارفض علي بعلي
فقولي فديتك اني سلو
ت وصوبت نحو الاصابة سهمي
ترومين اني اسير فرارًا
هلمي بنا للمسير هلمي
نسير ويبقى اسير الاسيرة(م)
يبن يديها وانرك قسمي
ولكن اذا عاد عن غدره
وعامل بالحلم من بعد ظلمي
وصار الحبيب وفيًا بعهدي
سميعًا لقولي مطيعًا لحكمي . . . .
ولكن اراه خؤونا فابقى
عذولة حب وسيلة غم
اقابل بالغدر غدرًا اتاه
واسنل للفتك صارم عزمي
جنيت على الابن ويلاً ومنة
ساجني على الام اوفر سهم

ك ه سيدتي انها لم تجنِ ذنبًا يستحق العقاب .
فانها البغة غم ومصاب .وهل تظنين ان عيونًا
لا تنفتح الا للبكاء تروم مناظرتك في الغرام .
وان قلبًا حزينًا يميل الى من سبب له الالام .
وهل رأيت ان حبه اذهب عنها الاكدار
والشجون .وان كان ذلك فلماذا ترفض محبًا
تسر بهِ الخواطر وتقرّ العيون

ه ك ومن عجب الايام حالة عاشق .

تحيرت الافكار في امر حبهِ
يقرب من لاترتضي غير بعده
ويبعد من لاتبتغي غير قربه

وكيف لايذيبني غمي و وجدي .بعد ان
كنت اظنه لي وحدي وكنت ارى كل شيء
يهنئني بهِ : قومي بعد ادراكهم الثار.اليونان
بعد ان نفوا العار بالانتصار . مراكبنا وهي
مشحونة بالغنائم .المجد والسرور والسعد الملازم .
شهرة ابيهِ التي نسخت بشهرته نيران شوقه ودلائل
محبته .قلبي . . . وانت انت ايضًا فقد كنت
مندهشة من مجده الكامل .وقد خدعتني قبل
ان تخدعني هذه الدلائل .اما الان فلم يبقَ
سبيل الى الاحتمال . هرميون ذات أنفة واورست
ذو فضائل وافضال فهو على الاقل يعرف
ان يحب وان لم يكن مطلوبًا .وربما عرف ان
يجري واسطة ليكون محبوبا .فليأْت لذي واسطة
تزيل هذه الاكدار عنا

ك ه سيدتي ها هو

ه ك لم آكن عالمة باقترابهِ منا

الجزء الثاني

هرميون كليون اورست

ه ك و

ه و اهلاً بمن مسهُ في حبهِ السقمُ
شوقًا وما مسه هجرٌ ولا سأَمُ
.اذا دعاك الينا بعد فرقتنا
الشوق ام رحمةٌ في طيها نعمُ

و ه هذا انقيادي لحب حل في كبدي
فجئت ابديه علَّ الهجر ينصرم
وان اعاهد نفسي بالبقاء على
عهدي لمن غدروا وظلمًا ومارحموا
قربتهم نفروا واصلتهم هجروا
امنتهم غدروا خاطبتهم سئموا
صبرًا عليهم لاعنهم ولو سفكوا
دمي وطوعًا لما راموا ولو ظلموا
هم ارضعوني ثديَ الحب من صغرٍ
فلست عن حبهم بالصبر انفطم
يامن دعاني اليك الحبُّ لاتسلي
عن حال قلب بهِ النيران تضطرم
.مذ سرت عني تركت الدار ناعية
وخضت بحرًا بهِ الامواج تلتطم
وكم قربت الفلا والليل معتكرٌ
والغيث يبكي وثغر البرق يبتسم
طلبتُ موتًا وكان العمر يطلبني
فازددت حزنًا واضنى قلبي الالم
بين البرابرة القوم الاولى رغبوا
في قتلتي وانا بالصبر معتصم
قوم من السيت اهلي صيدهم رجلٌ
حيٌّ واعذب شيء يشربون دم

نجوت منهم وجئت اليوم مبتغيًا
موتًا من اللحظ فهو المالك الحكم
قضى الزمان بان انجو بلا طلب
وقد سقطت على عمدٍ ولا أُجم
كنت الذبيحة للمعبود عندهم
بئس الذبيحة اذ مذبوحها عدمُ
وما نجاتي الأ كي اقدم في
هياكل الحب حيث المجد ينتظم
فجردوا سيف لحظٍ كي يريق دمي
ياظالمين وفي الاحشاء حبكم

ه و سيدي خلِ عنك هذا الكلام. فانه مما يضيق دونهُ المقام. وافتكر في الملوك الذين بعثوك سفيرًا الى هذا المقام. ودع ذكرا عمال السبت البرابرة ومفاعيل الغرام

و ه قد اظهر لي بيروس النفار المحض. ورفض طلبي كلَّ الرفض. واذن لي بالرحيل والظاهر ان قوةً لا يستطيع ردها تحمله على حفظ ذلك الغلام

ه و ياللخيانة

وهكذا تهيأ لنا تركه ولا عتب علينا ولا ملام. وقد اتيت لاستطلع افكارك فاعرف كيف انصرف. واخاف ان اسمعك تنكرين محبًا بحبك يتعرَّف

ه و لاتزال تسيء ظنك بي. مع انك تعلم باني لم آتِ ايبرة الا باذن ابي. واقسم اني كنت اذكرك في خلواتي. واتمنى ان اراك ولو خالفت واجباتي

و ه تتمنين ان تريني. ان تري اورست. تأملي وامعني النظر. انك تخاطبين اورست المهجور المحتقر

ه و نعم انت. انت الذي نشأ حبه مع حسنه يعلمة بادئ بدءٍ كيف يكون الظافر. انت الذي كانت تجملني فضائلك على حبك واحترامك وقد جعلتني من الميل اليك على شفا خطر.

و ه نعم.. نعم... اسمع هذا الكلام. القلب لبيروس والذكر لمن اتلفه الغرام

ه و اه.. (تقول هذا بدلال وغنج وخيلاء ووالخ) لاتذكر بيروس فانا اكره من يذكره

و ه بل تكرهين من ينكره او من لا يشكره. ياللعجب كيف تنظرين الي نظر المحارب. تريدين ان تحيي اورست ولا ترين ما يستحق الحب فيهِ. ويبدو لك الحب بلا سلاح وربما عصيتهِ وانت تريدين ان تطيعيه. واقسم انك تدافعين عن بيروس وربما كان ذلك بالرغم منك. وهو غير راضٍ بذلك لان قلبهُ المائل عنك. لا...

ه و من قال لك هذا وهل رأيت بي ما يدل عليهِ. فان كان لايميل اليَّ فاني لا اميل اليهِ. فحتى مَ تحتقرني

و ه انا استحق هذا الملام. ويليق بي هذا الكلام. انا احتقرك وعيني لاتنظر اليك نظرة وداد. ولو نظر بيروس اليك بعيني لنلت المراد

ه و سيدي سواء عندي ان اقبل او هجر وان وفى او غدر. فاذهب واحمل عليهِ بجيوش اليونان. وجازه على ما ابدى من العصيان

و ه سيدتي هلمَّ بنا قبل ذلك نذهب. الى حيث يكون لك في كل قلب مطلب. تعالي واحكي بالقلوب ولنتحد لننال المطلوب

ه و ولكن اذا اقترن باندروماك

و ه كيف العمل.. هذه مصيبه

ه و الا يلحق بنا العار اذا اقترن بغريبه
و ه ان أنكر الصبُ الهوى فدموعه
في وجنتيه تخطّ عنه سطورا
لا نستري وجه الغرام ببرقع
ان الزجاجة ليس تخفي النورا
ه و حتى مَ نستنتج من بغضي الوداد . وتخالف من كلامي المراد . رح وقل لبيروس ان عدو اليونان لايكون صهرهم فاما ان يسلك هرميون او الغلام فليختر من الامرين ماراما
ثم تنشد على قد (يامن اسرني بالجمال)
او ان يسلك الغلام
حالاً كما صار الكلام
او انني امضي فلا
ارضى البقا في ذا المقام
لم ارضَ بعد العز في
ذلي ولا اخشى الملام
فاذهب و باشر ما عسى
يفضي الى نيل المرام
(و تذهب)

الجزء الثالث

اورست
و

و و ليس بدعًا اذا غدوت مجيبًا
عن سؤالٍ عنه السؤال جوابُ
تم ما رمت والزمان وفى لي
وقد انجاب عن نهاري الضباب
كلمة واحدة تكفيني . بيروس يجيب بالايجاب وهذا بلا ارتياب . ياللسرور اي حظ واي انتصار مبين . فليحفظ بيروس تروادة وهكتور وارملته وابنه ومن شاء من التروادبين . حسبنا هرميون عادت الينا فلا تنظر بعد ساحلك يا ايبرة ولا نشتاق اليه . فلنتكلم ونطلب ايتها المحبة ظللي عينيه

الجزء الرابع

اورست بيروس فنكس حاجبان
و س ف ح ح
(بحرسان بيروس)

س و سيدي كنت اطلبك لاخبرك ان الغضب . جعلني ارفض ما جئت لاجلهِ من الطلب . واني بعد انفصالنا فكرت فيما قلت من الكلام . الجدير بالملام وعلمت اني برفضي طلبك اقاوم اليونان واني وانافض ذاتي لامحال . واحيي تروادة بعد موتها او اعزها بعد الاذلال . واجعل ما صنعته وصنعه ابي ناقصًا مع المقدرة على التمام . واني لذلك اعتذر اليك وعما قليل اسلك الغلام

و س الان هديت الى الصواب و وفرت عنك وعنا معاناة الاتعاب ومنعت حربًا تقضي على الارواح بالذهاب . وعلى الاموال بالنهاب

و و ويلاه لقد فسد التدبير وساء المصير

س و واني قد عزمت على ان ازيد الرضا توطيدًا . والصلح تأكيدًا . بان اقترن بهرميون وانت هنا . تشاركنا في المسرة والهنا . والظاهر ان اقتراني بها كان يترقب مجيئك لتكون من الشهود . على تجديد العهود . فانت تنوب عن ابيها وعن سائر رؤوس اليونان . فسر اليها واخبرها بما كان

وو ما كلما يتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ
(ويذهب)

الجزء الخامس

بيروس فنكس الحاجبان

س ف ح ح

س ف كيفَ رأيت . لا تزال تزعم اني يغلبني الغرام . لالا . اعلم اني لا اغاب واني ابن اشبل الهمام

ف س الان انت كما ترضى العلا رجلُ
يلقى الصروف بقلبٍ ما به وجلُ
اصبت نصرًا على نصرٍ وخيرها
نصرٌ غريك فيه الاعين النجلَ

س ف اجل هذا اول انتصاراتي . وغزوة الحب اكبر غزواتي . فقد حاربته ورجعت منتصرًا ظافرًا . وعاد منغلبًا خاسرًا . لقد لاح هلال سعدي . وهذا بداءة مجدي . تأمل يافنكس ان نظرة . كانت كافية لتورثني الف حسره وتبليني بعذاب واضطراب . ومقاومة اهل واصحاب . واهمال واجبات وارتكاب سيآت

ف س ولجفانها يدٌ في هذه القضيه . فهو الذي انقذك من هذه البليه

س ف اصبت لقد تجاوزت الحدود . بالصدود وقابلتني بما لا يحتمل . من التجني والملل . وما زادني غيظًا انها حين امرتها بوداع ابنها . ذهبت وأهاجت بالبكاء نار حزنها . فرأيتها وهي تسكب الدمع وتذريه . معانقةً ولدها وقد كررت مائة مرة ذكر ابيه . والتفتت اليّ وهي تقول هذا هكتور الفريد . هذا بعلي المجيد . عيناه تشبه عينيه وكل ما فيه يدل عليه . ثم عادت اليه فعانقته قائلة انت بعلي وانت ولدي . انت قصدي . وانت عضدي . فأيقنت انها تروم ان احيي ابنها لتشفي به نفسها من الآلام . وتشقي نفسي وتضرم فيها نار الغرام

ف س هذه عقبى هوى الغيد . مذلل الصناديد . وجاعل الملوك كالعبيد . والباسل كالرعديد

ب ف زعمت باني لا احول عن الوفا
صدقت فاني عنهُ لست احول
لكن هجرت نعم هجرتُ فخلها
تبكي وتندب حظها وتقول
وامر ما لاقيت في اسر البلا
قرب الخلاص وما اليه سبيلُ
كالعيس اقتل ما يكون لها الصدى
والماء فوق ظهورها محمول

ف ب لقد تم لنا ما نتمنى . ونفي العنا عنا . فسر بنا مولاي الى هرميون وابلغ من الاقتران بها مناك

ب ف وهلاَّ يسوء ذلك اندروماك .

ف س انا لله وانا اليه راجعون . لا تزال مشغلاً بذكرها . ومهتماً بامرها . وماذا عليك بعد هجرها . من غضبها او رضاها . ومن اقبالها او جفاها

س ف لله يافنكس ان قلبي لايزال ... لا أعلم ماذا حلّ به فهو يطلب الرجوع عن هذه الحال

ف س اجزل الله عليك النعم
ايها المولى الهمام

لاتقل لا بعد قول نعم
ليس ذا شأن الكرام
س ف لاتخف ياصاح عود العنا
بعـد ما حاذرتـه
ان قلبي وهو قلبي انا
لو جنى غادرته
(ينشدان ذلك على قد «شمس خدرٍ تنجلي فوق بان»)
كيف اعود اليها وقد هجرتني وهي اسيرة .
ذليلة حقيرة .وإني لو خانني طرفي لقلعته .
ولو جفاني قلبي ما صحبته . فانا اسلم ابنها الى
اليونان واعاملها بعد المودة بالعدوان
(ثم ينشد فنكس مع جوقه للملك)
(على قد «العيون النرجسية»)
في سما الانس لدينا
قمر الاصلاح لاح
وبما اهدى الينا
طائر الافصاح صاح
قد نأى وجه العناء
ودجى الانزاح راح
فسكرنا بالهناء
انما الافراح راح
***
طاب الهناء لنا وقد نلنا المنى
وبدا هلال سرورنا
والغم عنا قد نأى ودنا الهنا
بدنوّ انس نصيرنـا
(على لحن «تلك المنازل والقصور العاليه»)
نشيد
نالت مزيد الهناء انفسنا
من بعد ما كاد يقطع الامل

فديت يابدر يا غمامة يا
عالي الذرى ياهمام يابطل
ياشهم ياسهم يامهند يا
ليث الشرى ياهمام يارجل
الاكرك
قد بدا لنا بعد الظلام
ونأى العنا يا ابن الكرام
فدم ما انجلى بدرُ التمام
يامن علا .على العلى . بين الملا
واسلم .ما حلا .حسن الختام

الفصل الثالث

الجزء الاول
اورست بيلاد
و ب
ب و كفاك حزنًا وغمًا
مولاي فالحزن يضني
قد ذبت فيه سقامًا
وكاد يخنيك عني
كفى . . . . . .
. . . .
و ب . . . ايلاد دعني
فالذنب منك ومني
تبعت رأيك لكن
لشقوتي لم يفدني
سئمت عيشي ودهري
كل المصائب يجني
ولا ازال حزينًا
حتى انال التمني

ومنيتي ذات حسن
مذ كلمتني سبتني
فاعلم صديقي اني
ان لم انلها فاني

ب و احسنت . . . تأخذها . كيف كانت الطريقة التي تتخذها . ولكن هل تبصرت فيما تقول . الم ترَ مانعًا دون ذلك يحول . تأمل ومر عيونك ان تكم سرك . واخف عن هرميون امرك . ولا تخدعك الظواهر . فقد تخالفها السرائر . انظر الى هذا القصر وما حوله من العساكر . هؤلاء الحرس وما دون مقاومتهم من المخاطر . كلهم لبيروس وهرميون له ايضًا لامحال . فكيف تخطر لك هذه الافكار في مثل هذه الاحوال

و ب ان زمامي ليس بيدي وقد فقدت الرشد . من شدة الوجد . حتى كدت اهجم عليه وعلى من تهواه . بلا مبالاه

ب و وهل تكون نتيجة هذا العمل . غير الفشل

و ب ولكن اي نفس تلقى ما لقيت . وتشفى كما شفيت . ولا تخطر لها هذه الافكار . ولو كان دون نفوذها اخطار . فقد طالما صبرت للصبر وعانيت جزيل عنائه . وكيف اصبر وفي الغد يقترن بيروس بهرميون واقدمها اليه بيدي وليتها تلطخ بدمائه

ب و ولماذا . . . وهل تحسبه راضيًا بهذا الاقتران

و ب لا لعمري . . . انه لايقترن بها الا ليسلبني اياها ويضرم في قلبي النيران . وا اسفي لقد اصبت بالفشل . بعد ان كدت ابلغ الامل

ب و ان هذا لمن الزعم . او بالاولى من الوهم . فانها تحب بيروس ولو غدر . وتروم قربه ولو هجر . وان اغريتها بتركه فكلمة واحدة عن عزمها تثنيها

و ب ولذلك اريد ان اسبيها

كيف ارضى بان اسير وتبقى
بسرور وافر وقلبي يشقى
ضعضعت همتي مصائب تترى
واتاني البلاء غربًا وشرقا
كم اراعي وقتًا واكظم غيظًا
ومصابًا وكم من الحب القى
لاتلمني اذا رأيت اضطرابي
يا أُخيّ انا الذي مت حقا
مت حقًا لكنما بعد موتي
من به مت لا يعيش ويبقى
سوف يلقى بيروس مني فتى لا
يرهب الموت اي نعم سوف يلقى

ب و نعم الآراء . وما تكون نتيجة سفارتك اقسب سفاك دم (يقول ذلك سائلاً مستفهماً)

و ب لا اعلم . . . ولكن الا تحتقرني هذه الظالمة ان عدت بالخيبة من هذه الديار . فخيرٌ لي ان يتعجب اليونان من فعلي من ان اكون اضحوكةً في ايره والبس العار . اني ارى الحق في يدي فايّ شرع يحكم عليّ بالحد . ولا يتجاوز في حكمه الحد . اما انت فقد تحملت في المودة تعبًا . ولقيت نصبًا . فدعني وكلني الى تدبير الاقدار . اذهب وخلني ما بين الاخطار . وخذ الى اليونان الغلام الذي اسلمه بيروس الينا . اذهب

ب و فلنذهب سيدي ونجر ما ترغب . فلا تغضب . اني ارافقك في الاخطار حتى تنال الاوطار فسر بنا الى اصحابك اليونان ننشطهم ونحسن التدبير . فمراكبنا مجهزة والريح تنادي بنا طاب المسير

و ب اني شاكر لك ايها الصديق . فانت خير من يرجى في الضيق . وارجو ان تعفو عن تعيس زاد يأسه وفقد كل ما يحبه فكرهته نفسه

ب و افديك مولاي فخفف عنك الآلام وتناس خيانة هرميون . ها هي قادمة الى هذا المقام

و ب سر انت للتدبير وعلى الآلهة التيسير

الجزء الثاني

اورست هرميون كليون

و ه ي

و ه ان مسعايَ قد انالكِ فوزًا
وسعودًا لا زلت بالاسعادِ
عادَ يروس طالبًا منك قربًا
فنهني بالقرب بعد البعادِ

ه و بلغني ذلك وقيل لي انك تطلبني لتخبرني بالخبر

و ه اراهُ خبرًا يزيل عنك الكدر

ه و لا يجلبُ الفرح . ولكنه لا يجلب الترح

و ه لك الهنآء . . . . . تهني وانا اقوم بالدعاء

ه و ولا انكر انهُ ربما فضل مصلحةً على محبته . وانَّ لعيوني سلطةً على مهجتك ليست على مهجته

و ه لا ياسيدتي فهو يحبك . ولولا ذلك لما طاب لهُ قربك . ولحظك الغزَّال لا يحوك الا ما يرضيه

ه و وسيدي ان الشرف يأمرني بذلك فلا اقدر ان اعصيه

و ه اصبت فلا سوى حظي يلامُ
ولا عتبٌ عليك ولا ملامُ
واني لا الومك غير اني
اذوبُ اسىً كما شآء الغرامُ
شكا قلبي عذابًا يلتقيهِ
فقلت اصبر كما صبر الكرامُ
فقال وقد أُصيب بسهم غدرٍ
على الدنيا وبهجتها السلامُ

ه ي اسمعت هذه الشكوى التي تحزن الفؤاد

ي ه هو الملوم فانهُ لولا تهاونهِ لنال المراد . ولما كان يروس اجابهُ الى ما طلب . مخافة ان يبلى بالعطب

ه ي يروس لا يخاف فقد سارت بشجاعتهِ الامثال . ومالهُ فيها مثال . فكأنك لا ترهن بي ما يستحق الميل . حتى حملت ميلهُ اليَّ على خوفهِ من الويل

ي ه لا ولكن لكلِّ قلبٍ جاذب وللناس فيما يعشقون مذاهب . . . . ان اندروماك آتيه . وهي باكيه

ه ك لا اقدر ان امنع نفسي من الطرب . ولكن ماذا اقول لها . . احسن ما اراه الهرب

***

الجزء الرابع

اندروماك هرميون كليون سفنتز

ك ه ي س

(اندروماك تدخل وهرميون تكون)

(على عزم الخروج)

ك ه مهلاً فاني في حماك ومالي
من ذلة كي تقطعي آمالي
وفقدت بعلي في القتال ومالي
والدهر لي كأس المذلة مالي
لله من ذل العزيز الغالي
ابكي على والدي ودمعي جاري
كالغيث لكن ليس يطفي ناري
سلبوا بما طلبوا يسير قراري
لاتسلبوه فان حفظ الجار
فرضٌ على اهل المقام العالي
قد صنتُ امك يوم راموها بشر
ومنعتها من ان يدانيها بشر
فاحمي فتىً الف الكآبة والكدر
حيران ما بين السلامة والخطر
حتى غدا سقماً خيالَ خيال

ه ك ان حزنك يحزنني ولكن واجباتي تمنعني من تتميم هذا الطلب . اما بيروس فلا اعزمنك اليه . وقد تسلطت لحاظك مدةً عليه . فدعيها بكلمة وتتقدم في ذلك اليه (وتذهب)

الجزء الخامس

اندروماك سفنتز

ك ف

ك ف بقلبي من اذى دهري لهيبٌ
لدمعي فوقه اي انسكاب
فلا تطفي الدموع لهيب حزني
وغير القبر لا يطفي التهابي
كزيت معدني ليس يطفى
بماء وهو يطفأ بالتراب

(ثم تنشد على لحن « يابدر جنح الغياهب »)

انوح نوح الثواكل
والدمع جارٍ وسايل
والقلب راجٍ وسايل
وما لصبري وسايل
في مثل هذه المسائل

(ويلي ذلك)

ان قهري حان . واصطباري خان
خيبت املي . هذه الاحوال
من لنا بالهنا . والعنا قددنا
غير محتمل . حمل ذي الاهوال

ف ك سيدتي دعي الغم فنظرة واحدة منك تكفي فتنتفي عنك الاحزان . وتقلق هرميون وكل اليونان

ك ف اي نعم لا بد من هذا الامر . فانا اجاريه وان كنت افضل على ذلك مجاورة القبر .

سأُجاريه وللدهر احتكام
وفوادي فيه من حزني ضرام
مقصدي برُّ لي واسطتي
هكذا قال لنا بعض الانام

ف ك سيدتي انه آتٍ ها هو قد دنا

الجزء السادس

بيروس فنكس سفنتز اندروماك

ب ن ف ك

ب ن اين الملكة المنقل لي انها هنا (معرضًا عن اندروماك)

ك ف ارأيت سطوة لحاظي

ب ن ماذا تقول

ك بذاتها تركت بلا معين ولا مجير

ن ب هلمّ بنا نتبع هرميون

ف ك ما هذا الانتظار انه يسير

ك ف انهٔ وعد بتسليم ابني

ف ك ولكنهٔ لم يسلمه بعد

ك ف قد وعد بذلك ولا يخلف الوعد

ب بذاته يا للعجب . انها لا تزال تجنيّ وتجنب

ك ف وامصيبتاه اني ازيده غضبًا فلنذهب

ب ن فلنمضِ من هذا المكان . ونسلم ابن هكتور لليونان

ك ب لله مولايَ مهلاً

فانت اعظم حلما

ان رمت تسليم ابني

سلم مع الابن اما

مولاي كنت حليماً

لم تأتِ من قبل ظلما

عذّبتَ قلبي شديدًا

كانني جئت جرمـا

فاسمح فأنتَ كريم

ابًا وخالاً وعمًا

أمولايَ رفقًا فالدموع سوافحٌ

وكاساتحزني بالمصائب طوافحٌ

فسامح اذا ما كنتُ ذات جريمةٍ

فانتَ كريمٌ والكريمُ يسامحُ

(ثم تقول على قد «يامن حوى الخد الاسيل»)

وارحم فقد أضنى الالم

جسمي واضواه العذاب

والحزن عندي قد المّ (م)

بمهجتي والقلب ذاب

ب ك قد وعدت بهِ

ك ب الصت الذي كان بدعي حبي

ب ك كنت اعمى فصرت بصيرًا فعصيت قلبي

ك ب ان اندروماك تجثو لديك وابى الله ان تجثو لدى غيرك من العالمين

ب ك لاتداهني من تبغضين

ب ن سر بنا يا وزير (يقول ذلك بغضب ومعرضًا عنها)

ك ف وانا اسيرُ لالحق ببعلي فهو لي خير مجير ... (وتهمّ للذهاب)

ف ك سيدتي . . .

ك ف وماذا افعل

ك ب مولايَ رفقًا بقلبي

واشفق على سوءِ حالي

فأنت تعلم اني

فقدت اهلي ومالي

رأيت بعلي قتيـلاً

يجرُّ فوق الرمالِ

ووالدي الشهم ايضًا

قضى بذاك القتال

لم يبقَ لي غير طفلٍ
من اسرتي ورجالي
مولاي قد ذاب قلبي
مولايَ رفقًا بحالي

ب ن أذهب يافنكس وانا انبعك بعد حين
(ويذهب فنكس)

الجزء السابع

بيروس اندروماك سفنز
ب ك ف

ب ك سيدتي اين من عليهِ تبكين . انا اعلم اني كلما زدت تقربًا . زدت تجنبًا وقد كنت احسب بغضي اعظم ما ارى ولكن جرى حكم الغرام بما جرى . انظري اليَّ اتريبن فيَّ عينيَّ حاكم ظالم . الا تريبن فيها حنوًّا ثابتًا بانعطافٍ ملازم . واني اسأ لك بابنك الذي تحبينه ان تخفني بغضك وترفعيه . وارجوك أن تحفظي ابنك وتنقذيه . وهل يقتضي ذلك ان انطرح بين يديك . او اجثو على قدميك . وبالنتيجة انقذيه سيدتي وانقذي ذاتك . واحفظي بحفظهِ حياتي وحياتك . واعلمي اني الاقي دون ذلك اهوالاً ومهالك . ولكنني احبك فانا اترك هرميون ان رضيت بي . واقدم لك قلبي . والبسك من المجد اكليلاً . واري كل ذلك بالنظر الى ما تستحقين قليلاً ويجب ان املك مستبدًا فان العاجز من لايستبد . واني في طلب ذلك مجد ....ولا اخاف وعدًا او وعيدا . فانا اموت ان خسرتك على اني لموت ايضًا ان زدت صدودا . فاعلمي اني ساذهب بك الى الهيكل فاما ان تقبلي فيهِ اكليل القران واما ان اسلم ابنك الى اليونان
(ويذهب)

الجزء الثامن

اندروماك سفنز
ك ف

ك بذاتها احرق الدهر بنار كبدي
عندما راموا بشرٍ ولدي
انت ياهكتور عزي عضدي
سيدي ركني مجيري سندي

***

اقصروا اللوم وكفوا العذلا
لست ارضي من حبيبي بدلا
لا وحق الحب ياهكتور لا
ما قيادي يامليكي في يدي

(تنشد ذلك على لحن «ياغزالي كيف عني ابعدوك»)

ف ك فلنذهب اذًا ويسلم ابنك الى اليونان
ك ف ويلاه يموت ابني . ابني خليفة هكتور بقية ابطال الزمان . سفنز دعيني ابكِ عليهِ . او هلمَّ نذهب الى بيروس . . . لا لا اذهبي انت اليهِ
ف ك وماذا اقول لهُ
ك ف قولي لهُ ان حبها لابنها شديد . . . . وهل تظنين ان ما قالهُ عن عزمهِ على قتل ابني اكيد
ف ك سيدتي سيأتي الان
ك ف اذهبي
ف ك وماذا اقول . هل اعدهُ عنك

بالقبول

ك لذاتها (تقول على نغم «ومن عجبي ان الصوارم والقنا»)

ايادهر كم بالصابرين تجور
وما من نصير في بلاك يجير
فسد واحنكم واظلم وعذب كانشا
فان فؤادي يازمان صبورُ

ف ك (من النغم ذاته)

مهيلاً ستقضي الامرَ آلهة الورى
وليس عليهم في الامور عسير

ك لذاتها لقد ذاب ياهكتور قلبي ومهجتي
بها من زماني لوعةٌ وسعير

ثم تقول اندروماك مع سفنز

(الاكرك)

اما كفى ما قد جرى
فالسقم بالجسم سرى
قد فاز من قد صبرا
فالصبر اولى ما ارى
والدهر يبدي العبرا
كما يرومُ

***

لقد جنى دهري العنا
وحل بالجسم الضنى
وقد نأى عنا الهنا
والغم وافى ودنا
فارفق بنا ياربنا
انت الرحيمُ

الفصل الرابع

الجزء الاول

اندروماك سفنز
ك ف

ف ك قلبي اشتفى وبدا هلال هنائهِ
فأَ غاءهِ في ظلمات ليل عنائه
انقذتِ طفلاً سوف يحيي ذكرَ من
سلفوا ونالوا المجد من آبائهِ

ك ف انقذتهُ . . وبلاه . . عز تصبري
كيف السبيل الى حفاظ بقائهِ
هيا بنا نلقاه اخر مرةٍ
ونذوق خطب البعد بعد لقائهِ

ف ك وبلاه ما . . . .
. . . .

ك ف . . . . لاتعجبي ان كان لا
يفدي فؤادي شخصهُ بوفائهِ
هكتور لا تجزع فلست اخون من
انفقت عمري في سبيل ولائه
هكتور ياخير الورى هكتوريا
ليث الشري والمفتدى بعلائهِ
هكتور انت رجاء قلبي لاسوا

ك فكيف يهنأُ بعد فقد رجائهِ
لبيك اني مثلما شاء القضا
اقضي وما من دافعٍ لقضائهِ
هذي يدي تقضي لبانةَ مهجتي
بمشفقٍ يفري الحشا بمضائهِ

ف ك مولاتي بالله ما هذا الكلام

كَ ف اواه ياسميرتي . . . . لا بد لي من شرب كأس الحمام . واترك ابني متكلة عليكِ . وقد

عهدت بتربيتهِ واصلاح حالهِ اليكِ
ف ك لاتزيدي غصتي . فانا اتبعك
واجعلي من حصتي . ان اوافي معك
(على نغم اشرقت شمس الكمال)
ك ف ان كنت تحبينني فابقي للاعتناء بابني
الا تعلمين انهُ خلاصة السعادة . وانه بقية
هكتور وبطل ترواده . فانت تتولين امره وتسهرين
بهِ على سنن اجداده الكرام . واسأَلي بيروس
ان يحافظ عليه كي لايضام . واني اقبل ايضًا
ان تسأَليهِ في ذلك عني واخبري ولدي في
كل يوم انهُ من دم هكتور الجليل . الذي
اجود بروحي ولا ارضى منهُ بديل
ف ك لله ما هذا المقال
قد عزَّ مني الاحتمال
ك ف من يرحم الفوادا
بين الورى
ف ك اما كفى وزادا
ما قد جرى
(نغمه تركي «بردل كوزل باندم سني»)
اصمتي اني اسمع حركةً من هذه الناحية . . .
فلنذهب هذه هرميون آتية (وتذهبان)

الجزء الثاني

هرميون كليون
ه ي

ي ه لا اقدر ان اسكت عن تهاونك فالامر
مضى . وهو سيقترن باندروماك ويتركك تنقلبين
على جمر الغضا
ه ي آتيني باورست لنتذاكر فيما يشفيني
ويشفيه
ه ي ها هو آتٍ فكانه علم بما نحن فيهِ

الجزء الثالث

هرميون كليون اورست
ه ي و

و ه بلغني انك تسأَلين عني فأَقبلت ولو
استطعت لسعيت على العين والراس
ه و طلبتك لاعلم ان كنت تحبني فازيل
عني الالتباس
و ه تسائلني ان كنت صبًا يحبها
يجيبك دمعي وهو منك صبيبُ
سلي حسرتي او لوعتي او تذللي
فلي شاهدٌ مما ترين يجيبُ
ه و انتقم لي فاصدق بما تقول
و ه لبيكِ ياسيدتي فانا عن القيام بامرك
لا احول . فهلمَّ نضرم النار ثانيةً في اليونان
فانت مكان هلين . وانا في مكان ابي اغا ممنون
ملك ملوك الزمان . ولنجلب البلاء على هذه
الديار ونجعل اخبارنا تتناقلها الاجيال في
الاعصار .
ه و لالا فلنبق فاني لا ارضى بهذا الكلام .
كيف اري الاهانة هنا واسير الى اليونان
منتظرة هنالك الانتقام ولعمري فاني اريد ان
ابكي كلَّ من في ابيره قبل ان اسافر .
فاذهب الى الهيكل ولطخ سيفك بدم هذا الغادر
و ه دم من
ه و بيروس
و ه بيروس سيدني
ه و نعم نعم فهو غادر ولا يحسن الصبر .
على اهل الغدر

و ه سيدتي ارى ان الغيظ قد اخذ منك كلّ مأخذ حتى ستر عنك الحقيقة . ننتقم . مناسب . ولكن بغير هذه الطريقة . وأكون عدو بيروس ولا اكون قاتله . فهو فعل لا يحسن ان آكون فاعله . والاولى ان نثير عليه حربًا عادلـة تهلك انصاره . وتخرب امصاره . فهل تؤثرين ان اعود الى اليونان برأسه بلا سبب . وماذا تكون نتيجة سفارتي فاعدلي اذًا عن الغضب . وافتكري انهُ ملك جليل . وان رأسهُ ذو اكليل

ه و الا تكتفي بحكمي عليهِ . والا ترضى باحتقاري ذنبًا يستوجب القتل . فاقتلهُ فانه يحسن في عينيّ هذا الفعل . واعلم اني كنت احبهُ ولا افضل عليهِ احدًا وان احتقرني اليوم فيمكن ان احبه غدا والظاهر انك خلي البال لا تبالي بهذا الحال

و ه تقول خلي البال عني وما رأت
حوانِي فؤادٍ حشوهن عذابُ
سقام ووجدٌ واحتراق وانها
صنوف عذابٍ في الغرام عذابُ

ه و فانتقم لي ان كنت صادقًا

ه و سيدتي مناسب يجب قتلهُ ولكن ما العمل وما التدبير . اتريدين ان يدًا واحدة تقاوم مملكة ايير . واي سبيل الى ذلك تأمرين بقتل ملك ولا تفسحين لي بفرصة يقتضيها خطر العمل . اتريدين ان اقتلهُ بين شعبهِ حيث ليس بالنجاة امل . وادنس الهيكل بهذا العمل . فاناشدك الالهة . ان تتأني فاني في مساء هذا اليوم اهيئ لقتلهِ امضى الاسباب وفي هذا الليل طوعًا لامرك اقتلهُ

ه و ولكنه سيقترن باندروماك في هذا النهار . وماذا يعوقك عنهُ فهو يقدم لك رأسه لتضربه وهو بلا حرس

اورست بذاته

خلّدت ياحب ذكر الهم في خلدي
وكابدت منك انواع العنا كبدي
فمات صبري وهبّ الدمع يندبهُ
حتى بكاه بكـا امٍ على ولدِ
ما زلت تطلب صبري غير متئدِ
حتى تسلمتهُ مني يدًا بيد
فليت شمسك لم تشرق على وطني
وليت بدرك لم يطلع على بلدي
لكلِ صابٍ على علاّتهِ امدٌ
الا أذاكَ فلا يجري الى امدِ
يا من أُصيبت بسهم الهم مهجتهُ
اصبر فما في الورى خالٍ من النكد
واستوقف الدمعَ ان نالتكَ نازلةٌ
فانّ دهريَ لا يبقي على احد

ه و ويلاه قد اطلت الجدال فحق لي الملل . واراك تريد ان تشكو ابدًا ولا تجري شيئًا . فلا نعتب اذا لم تنل شيئًا

و ه لله ما يفعل الغرام
فلا اعتذارٌ ولا ملامٌ
صبرًا على كل ما قضاه
للحب يامهجتي احتكام
طوعًا لما رمت من محب
فانك القصد والمرام
فسوف يلقى بيروس مني
حتفيّ لديهِ طاب الحمام

والبوم تبدو سوق المنايا
وبيننا ينصف الحسام
ان لم امت في الوغى قتيلاً
لا ندّبت فقدي الكرام
تفديك روحي وانت روحي
اليّ مني فلا الامرُ

ه و رح ولتكن السفن مهيأة لركوبنا في الحال

(اورست يذهب)

الجزء الرابع

هرميون كليون
ه ك

ك ه سيدتي اضعت رشدك في هذه الاعمال

ه ك نعم لا بد من الانتقام فليمت لاشتفي من حزني . واذهبي يا كليون واخبري اورست ان يقول له عند قتلهِ ان يقتلهُ عني

ك ه سيدتي ارى الملك مقبلاً

ه ك سارعي اذًا وقولي لاورست ان لا يجري شيئًا قبل ان يقابلني

الجزء الخامس

بيروس فنكس هرميون
ب ف ه

ب ه اراكِ الان ولا ريب انك ترينني باستغراب . وقد رغبت في مقابلتك لا بوعيدٍ او وعدٍ كذاب . بل لاخبرك ان جرمًا ارتكبتهُ بالرغم مني يقودني اليك بنفسٍ ذللها الوزر . وهي تطلب العذر . اني احب تروادية وقد عزمت على الاقتران بها على معرفةٍ ما بيننا من

العهود التي لم تبرم على وجه شرعي وقد . تعذر عليّ ان اجعل هذه العهود تتغلب على ميل نفسي . وما كنت لولا ذلك لانقض عهدي واخلف وعدي فلكِ الان ان تسميني خائنًا او مخلع القلب اذا لم تؤثري الصفح عن قلب قيده الغرام فاصبح لايستطيع منهُ انفكاكًا . واصبحت لا ارى لهُ في غير هواه حراكا . واني لاخاف سكوتك اكثر ما اخاف كلامك

هو الحب حتى ينفد العزم والصبرُ
وما الحب الا الذل والهول والاسرُ
فلا منجدٌ ان جارَ وهو محكم
ولا منقذ من حكمهِ ولهُ الامر
اذل فوادي وهو في العز رائع
واوهن عزمي بعد ما نالهُ النصر
ومن عجبي اني اخوض الوغى ولا
ابالي وقد غصت بها البيضُ والسمر
وأغشى الظبي والموت رهن مضائها
واخشى الظبا حيًا ومسكنها القفر
وها انا في ذا الحب رهن احتكامهِ
وحيدٌ وما قولي كذا ومعي الصبرُ

ه ب اين المروءة شيمة الابطالِ
والصدق في الاقوال والاعمال
اين الوفا شأن الكريم واين من
نادى انا ابن مذلل الاقيال
من كان لا يلويهِ ليث رهبةً
عن عهده يلويهِ لحظ غزال
بطلٌ تحاذره الاسود اذا سطا
ويروعهُ ظبيٌ بغير نزال
يامن اتاني بعد ان نقض الولا
قد هجت بلبالي ولست تبالي

اكبرت نفسك وهي صغرى بالهوى
ورضيت بعد العز بالاذلال
عارٌ عليك عليك عارٌ دائمٌ
يبقى مدى الاعصار والاجيال

ب ه سيدتي يجب ان تسدي الآلهة شكرًا على ما سهلت لنا من سبل الانفصال. لانه يلوح لي ان قلبينا لم يخلقا ليكون بينهما اتصال. وقد كان علينا ان نطيل الاختبار قبل ابرام العهود اما الان فلا يصح ان ينسب الى احدنا خيانة او اخلاف وعود. فان الخيانة انما تكون بنقض الوداد وهو امانه. فان لم يكن وداد فكيف تكون الخيانه. وانت تعلمين اني لم افعل ما يحملك على حبي. فربما كنت بذلك تكرهين قربي

ه ب اتنكر حبي والمدامع تبديه
وينشره سقمي وصدك يطويه
انبتك والآمال ملءُ خواطري
وقلبي يصفو والزمان يصافيه
فعاملتني بالغدر ياساقط الوفا
واورثتني سقما تراه وبرويه
وما زال قلبي وافيًا وهو ذائبٌ
متى انت تشفيه وحتى م تشقيه

على انهُ اذا كان لا بد من انفاذ مرامك فاسمح لي ان يتم ذلك بعد ذهابي. ولا تزد بمرأى خيانتك عذابي. واني اعدك بسرعة المسير. فلا تجزع من التأخير .... ما بالك لاتجيب .... لا بأس فانك مصيب. فانت تحسب الدقائق التي تصرفها معي الان تعوقك عن مشاهدة اندروماك. فرح واهنأ بقربها وقدم لها قلبك في الهيكل ولكن خف ايضًا من ان تراني هناك
(وتذهب)

الجزء السادس

يروس فنكس
ب ف

ف ب مولاي سمعت وعيدها فلا تأمن عاشقةً وقعت في اليأس وهي تطلب الانتقام فان اليونان الذين هنا يساعدونها واورست لا يزال بها ذا غرام فافتكر فيما قلت وحاذر...

ب ف ان اندروماك تنتظرني فحافظ انت على ابنها بالعساكر

ف ب الامرُ أصبح يا ناصري
في خطر يحذر من غادر
ذلك ما يخطر في خاطري
والامر في ذلك للآمر

(على لحن «لحظك يابدر غدا ظالمي»)

ف بذاته (يقول على لحن «مشرق بالحسن بدري»)

قد غدا خوفي عظيماً
ايها الملك الهمام
وارى خطبًا جسيماً
قاضيًا بالاهتمام
كن بما تبدي حكيماً
نال ذو الرشد المرام
فهي قد زاد جواها
بمعاناة الغرام
واذا زاد بلاها
رغبت في الانتقام

لاتقل عزمي وحزمي
وجنودي والمقام
وذكا عقلي وعلمي
وثباتي في الصدام
كم بعوض دون عزم
اسدٌ منها يضام
فكرك السامي سليم
فاذا ضلّ تلام
ايها المولى الكريمُ
احسن الله الختام

الفصل الخامس

الجزء الاول

هرميون

ه

ه بذاتها . .
ابن رشدي . . ماذا جري . . ما احتيالي
كيف انجو من البلا والوبال
فغرامٌ غريم قلب كليم
وظلومٌ بنكبتي لا يبالي
جارَ ظلمًا فحار قلبي وراح آل
سهم يشفيهِ وهو ناعم بالِ
لا لعمري فسوف يلقى جزاهُ
يا الهي رفقًا بهِ وبحالي
كيف يقضي وحبه في ضميري
وبهِ لوعتي ومنه انتحالي
ربما عاد عادلاً بعد ظلم
انت ترجو ياقلب عين المحال
فليمت . . فليمت . . ولكن فوآدي
عنده قد ثوى بدون ارتحال
كيف اقضي بقتلهِ وهو روحي
ابن رشدي . . . ماذاجرى . . ماحتيالي

الجزء الثاني

هرميون كليون

ه ي

ه ي ما وراءك ياكليون . ماذا فعل بيروس
ي ه رأيتهُ ذاهبًا الى الهيكل وقد لعب الطرب بعطفيه . وأندروماك بين يديهِ . وهو ينظر اليها . نظر من لم يصدق بالحصول عليها . اما هي فقد رأيتها تسير وهي حزينة كان هكتور نصب عينيها .
ه ي ياللخيانة . وهل تأملت فيهِ وهو على تلك الحال . ألم يخجل عندما رآك
ي ه انهُ لم يسأل عن هذا الامر . فان السرور انساه القصر . وهرميون وجميع البشر . وقد اقام الحرس لحفظ ابن هكتور زاعمًا ان الغلام وحده في خطر .
ه ي وماذا قال لك اورست
ي ه دخل هو واصحابه اليونان الى الهيكل
ه ي وهل هو مستعد لتتميم الامر
ي ه لا اعلم
ه ي ماذا تقولين . . . اورست ايضًا يخدعني ويقابلني بالغدر
ه ي اورست عبد غرامك . ولا يروم الا تتميم مرامك
لكنهُ بين المخافة والرجا
يسري ولا يدري فاصبح فاكرا
اضحى بطالبة الغرام بقتلهِ
والرشد ينهيهِ فاضحى حائرا

ه ي لا لا انه جبان لايخاف الا الموت .ألا يتذكر الساقط الهمة ان امي اثارت من اجله حربًا دامت عشر سنين وقتل بها عشرون ملكًا وانا اسألهُ وهو يدعي حبي قتل خائن غادر فلا يجيب

يامهجتي زاد البلا فتزلزلي
مما جرى غمًّا ولا تتعللي
بئس الحبوة فلست اوثر حفظها
يامهجتي سيموت من لم يقتلِ
فلاشفين النفس ثم اميتها
فاذا اشتفت فكأنني لم افعلِ

الجزء الثالث

هرميون كليون اورست
ه ي و

(اورست يدخل وثوبه ملطخ بالدم وبيده)
(خنجر يقطر دمًا)

و ه قد تمَّ الامر . و بيروس لاقى في الهيكل جزآءَ الغدر

ه و مات (تقول ذلك سائلةً بلهفة وارتعاد)

و ه اجل لقد تمَّ امرك فاني سرت الى الهيكل باصحابي اليونان فنظر اليَّ الخائن غير مبالٍ بي وأدنى منهُ اندروماك وتوَّجها قائلاً ملكتكِ نفسي وايبره واني لاحفظ ابنك ولو طلبه الثقلان فلما سمع اصحابي هذا الكلام . هاجوا وماجوا وطاب لهم شرب كأس الحمام . فاخترقت بهم الجمع وباتَ بيروس محاطًا بهم لا يعلم من اين يأتيهِ البلاء

رأى اسدًا ما راعها الموت في الوغى
يروع قلوب العاشقين زئيرها
تدكُّ الجبال الراسيات بعزمها
وان سل سيفٌ تلتقيه صدورها
وأسيافها والموت رهن مضائها
حدادٌ مواضٍ ليس يطفى سعيرها
احاطت بهِ كالعاصفات فلم يكن
ليدفعها ردًّا وعزمي يثيرها
انا ابن الذي لا يرهب الموت قلبه
وتحمدهُ الاحياء وهو نصيرها

ه و ما الذي فعلوا (تقول ذلك بيأسٍ شديد)

و ه ارجوك المعذرة فان غيظهم افضى بهم الى العجلة واني اعلم انك تؤثرين ان اكون انا قاتله دون غيري ليعلم وهو يلاقي الموت انهُ يموت عنكِ وبكِ ومنكِ

ه و لا كنت ياقاتل الشهم الكريم ولا
لقيت انسًا ولا ذقت السرور ولا
لبست يافظُ عارًا لست تنزعهُ
مدى الزمان فرح يا ابن الطغاة الى

و ه ياللعجب مولاتي كيف تأمرين ثم تغضبين إذا نفذ امرك

ه و وهل كان من الحزم ان تجاري عاشقةً ذهبت الغيرة بعقلها حتى هوَّنت عليها ما لا يهون اما كان عليك ان تراجعني مائة مرةٍ قبل العمل .... فأنت المذنب انت الظالم انت القاتل انت المطالب بدم ذاك البطل

فتلتك السماء قتل اللئام
وسقتك الصروف كأس الحمام
رح ودعني فلم يعد من مرامي
ترك هذي الديار فهي مقامي

(تقول هذا وتخرج)

الجزء الرابع

اورست

اورست لذاته ....

اما والنهى لم يبقِ دهري على رشدي
فمن منجدٌ قلباً أُصيب على عمد
جنود الاسى قد نازلت ربع مهجتي
فما حال فردٍ بين ذالكم الجند
كاني والاهوال زندٌ ودملجٌ
يضيق ولا ينفك عن ذلك الزند
كأن البلا جاري وقد الف الوفا
وعاهدني قرباً فدام على العهد
كأن بنات النائبات شغفن بي
فواصلنني وصل المتيم على الوجد
يقرب مني الدهر من لا ارومه
ويدنيني ممن قد يطيب له بعدي
تقلص ظلُّ الانسِ عني واقفرت
ربوع سروري وانقضى اجل السعد
مصابٌ وذنبٌ وارتياع وحسرةٌ
تعددت البلوى على واحدٍ فردِ
اثبط عزماً ضعضعتهُ نوائبٌ
وامنع رشداً بالضلالة يستهدي
اطعت الهوى وهو الهوان معللاً
بآمالهِ نفسي فخاب بهِ قصدي
قتلت مليكاً ايدتهُ يد العلى
وقاومت شخصَ العزم والحزم والمجد
وخالفت شرع الملك والوطن الذي
وجدت لاحيي مجده في الورى جهدي
وذلك طوعاً للغرام وانهُ
غريم على رغمي عدوٌّ على عمد
لك الله يامن زدت عنها فاعرضت
وقد قابلتني بالتجنب والصد
رويدكِ ما هذا الصدود وانني
تقمصت عاراً كي اقابل بالضد
قحمتُ المنايا والظبى تقرع الظبى
ويحمل وخزَ الشوك مقتطف الورد
فيازمن الاهوال حسبك ما جرى
وقدك اجتراءً يازمان بما تبدي
ويا موت ما اشقى بعادك عن فتىً
تضيق عليهِ فسحة الغور والنجد
حنانيك جد لي باللقاء وانثني
اليف عنا لم يبق دهري على رشدي ...

(يقول ذلك كمن سلب عقله)

الجز الخامس

اورست بيلاد

و ب

(بيلاد يدخل مسرعاً مرتعد الفرائص ومعهُ بضعة رجال من اتباع اورست)

ب و سيدي يجب اما ان نخرج من هذا المقام . او نستعد لملاقاة الحمام . فان اصحابنا اليونان يمنعون الباب الان . وقد اجتمع الشعب وسارت فيه اندروماك طالبةً للانتقام . فانها اصبحت بعد مقتل بيروس ارملته الحقيقية ونائبته في الاحكام . وربما كانت ترغب في الجميع ادراك ثأره وثأر بعلها فلنخرج ما دام القوم منشغلين عنا بامر هرميون فنبلغ السفن قبل فوات الفرصة

وت لالا فقد ألف البلابل خاطري
يانفس لا تخشي البلا بل خاطري

اني لاتبع هرميون فسر ولا
تنفذ أخا جرمٍ اليف جرائر
ب و دع ذكرها مولاي واعلم انها
قتلت فصارت مثل امس الغابرِ
و ب ماتت . . . .
. . . .
ب و . . . اجل مذ عاينت محبوبها
صاحت رويدًا بالمليك السائر
ماذا دهاهُ فدتهُ نفسي هل قضى
ويعيش قلبي ليس عنه بصابر
وتسنمت صخرًا ونادت قد دنا
يوم اللقاء بذي صدودٍ نافر
وبخنجر طعنت حشاهـا طعنةً
فجرت دماها كالغدير لناظر
وتنهدت والموت ارعش جسمها
فغدت جوارحها كجنح الطائر

و بذاته . امطري ايتهـا السماوات سحب غضبك . . . ولا تبقي . . . ولا تذري . . . . وارميني بسهام النوائب عن قوس الانتقام . . . واجعلي لي في وهدة اليأس مقاما . . . أليس انا . . . . من اوجدت لنظري به مثال غضبك . . . . ليكون انموذجًا للتعاسة . . . . نعم وقد استحكمت علاقات المصائب . . . و بانت نفسي في دائرة اليأس . . . فلا يخرجني منها غير الموت . . . نعم الموت . . . نعم الموت

ارشدوني اين جسم العاشقين
لست اطوي بيننا شقة بين
واجمعوا افئدةً لم تأتلف
بودادٍ واقتلوا عينًا بعين
يالقومي قد محا ليل البلا
بين بلبالٍ واهوالٍ وبين
ما احتيالي خانني الصبر وقد
بات عزمي اثرًا من بعد عين
لا ارى غير دم حولي جرى
اين رشدي يا اخا الارشاد اين

ب وسيدي . . . .

و بذاته

ماذا أرى . . بيروس عدت فكيف قد
انقذت نفسك كي تراني حيثما . .
هذا هو الجرح الاخير . اجل وذا
دمك الذي يجري . . فيالله ما . .
ذي هرميون لديّ ضمت جسمهُ
لتذود عنهُ . . . وهي تصرخ كلما . .
ترنو الي بلحظ منتقم كما
هاج المقاتلُ عندما نظر الدما
وتقود من جنس الابالس عسكرًا
واراقمًا تسعى وتنفث عندمـا

(هنا يذهب بيلاد)

مهلاً بنيات الجحيم فانني
رجل الى هذا العذاب تقدمـا
لمن الاراقم . . . فهي فوق رؤوسكن (م)
فهل سعت سعيًا لتلسعني كما . .
بادرن نحوي لا تخفن مانعـًا . .
اتلفن جسمًا للعذاب مسلما
وافتحن لي باب الجحيم . . كفى كفى . .
عاينته سجنـًا مخيفًا مظلمـا

(يقول كفى كفى . . كمن رأى شيئًا مخيفًا بقوله افتحن لي باب الجحيم)

(ثم يصرخ قائلاً)

مرحن لي هذي الاراقم علها
تقضي بقتلي فهي فاغرة فما

لا لا ... فهذي هرميون تقدمت
ترمي فؤادي من لظاها اسهما

لا تجفلي . . . .
. . . . . ها مهجتي لا ترجمي

فلقد وفت قبل الفراق و بعدما

(بقوله (لا تجفلي) يخاطب هرميون كأنه يتصور وجودها ويقول البيت الاخير بصوت متقطع من اليأس ويسقط سقوط من لا يعي على شيء واذ ذاك يحضر بيلاد ومعة اصحاب اورست اليونان فبوصولهم الى المرسح ومشاهدتهم اورست بتلك الحالة ترتعد فرائصهم ويصفقون الجميع صفقة اليأس ثم يتقدم بيلاد نحو اورست فيراه قد قضى نحبهُ وهكذا يسدل الستار وتختم هذه الرواية)

ادوار الرواية واسماء مشخصيها

بيروس	ملك
اورست	سفير
بيلاد	صاحب اورست
فنكس	وزير
هرميون	خطيبة بيروس
اندروماك	ارملة هكتور
كليون	سميرة هرميون
سفنز	سميرة اندروماك
حجاب	عدد ٤
حرس	« ٢

رواية شارلمان

وهي ذات اربعة فصول

الادوار واسماء المشخصين

شارلمان	ملك فرنسا
برت	ابنة شقيقة شارلمان وابنة
«	رولان وحبيبة جرال
الكونت اموري	كانلون متنكرًا وصهر شارلمان
جرال	ابنهُ
الدوك نعيم	شيخ مقرَّب الى الملك وهو من اعيان فرنسا
رجنهار	اسير سكسوني
روبر	منقذ اموري
ريشار } هراري } جوفرول }	شيوخ
خفراء الملك	عدد ٣
حرس	٣

الفصل الاول

الجزء الاول

روبر

روبر بذاتهِ — اني منشرح الصدر في هذا اليوم لما بلغني من قدوم الكونت بعد غيابهِ شهرين وارجو ان اراه صافي الخاطر قرير العين فانه حسن الطوية . وذو نفس ابية . على انهُ مقيد بسلاسل احزانه . وغيوم الغموم متكاثفة في افق جنانه . فلا تراه صافي البال الا اذا كان ابنه بين يديه . فيا لله من سرٍ عجيب وقفت عليهِ

الجزء الثاني

روبر   مملوك

ر   م

م ر سيدي اننا رأينا الكونت قادمًا من بعيد فاسرعت لاخبرك بالخبر علمًا بانك تسر بهِ اما انا فقد شملني السرور لان فضل مولاي وحلمهُ يفضيان عليَّ بمحبتهِ واني اكاد اذوب غيظًا كلما رأيتهُ في كدر ومما يحملني على العجب اني لا اراه متكدرًا البتة حين يكون لديه سيدي ولده جرال و بالحقيقة ياسيدي ان مرأى جرال يزيل الاكدار

ر م مناسب . عد الى عملك

الجزء الثالث

روبر   اموري (بلباس السفر)

ر   ي

ي ر السلام بالاحترام يا سيدي

ر ي اصلح الله احوالنا

ي ر ولدي ولدي اين ولدي

ر ي لا خطر عليهِ بعون الله وقد سار بجماعة من الابطال للصيد والقنص

ي ر لاتلمني اذا خفت عليهِ المصائب فاني ارى ما احتملتهُ من العذاب غير كاف لتكفير ذنوبي ولذلك اخاف ان تنزل بي النوائب نزول الضيوف بدار الكريم واخشى ان يكون لابني منها نصيب

ر ي خفف روعك وازل عن فكرك هذه التصورات فاني اراك كمن يترقب حلول المصيبة

ي ر كيف كانت المصيبة فاني استقبلها رجلاً واقبلها مذنبًا

ر ي مذنبًا . نعم لقد كنت من قبل مذنبًا وكان في ذنبك قصاصك حتى اشتهرت بالغادر الخائن اما انا فقد انقذت جسمك بعد ان كاد يدركه الفناء وشفيت نفسك بعد ما اشفت من الذنوب فلقيت جزاء عملي باني لم ابق فيك اثرًا من ماضيك واما انت فقد محوت بالتوبة ذنوبك الكثيرة فتغير خلقك كما تغيرت اخلاقك حتى غدوت حين اراك او اسمعك احسب ماضيك امرًا محالاً فارتاب فيهِ ولا ارى فيك الان يا اموري ذلك الرجل الذي اتلفهُ شارلمان فلك الان ان تذكرهُ كما تذكر غريبًا ادّت الى ذكره شجون الحديث

ي ر ان ذنوبي ياسيدي وان برئت جراحها لن تزول آثارها وانك تعلم بكل ما بي ولذلك لم تقدرني حق قدري وصفًا . فاسمع

ر ي قل ياصاح

ي ر ان غاية سفري في السياحة الاخيرة لاتخفى عنك . ذلك اني شعرت بل ايقنت اني اذا عاينت الاماكن الشاهدة بفظائعي اتمكن من ندب آثامي فاستفزّني ذلك الى قصد تلك النواحي ذات الجبال الشاهقة والوادي العميق حيثما هلك رولان بخيانة كانلون فشاهدت تلك الغابة الكثيفة والصخور الناتئة الحادة الرؤوس فرأيت النبت الاخضر في بعض تلك البقاع اخصب من ذي قبل وذلك انها قد سقيت بدم رفاقي اولئك الابطال الشهداء بالدفاع عن الملك وعن مجد فرنسا . واني اذا فحصت تلك الاراضي برأس حسامي

اجد في ثراها لامحالة بقايا رفيق منهم وارى تحت تلك الصخور كثيرًا من جثثهم الطعينة بسهام العدي

فاقمتُ في ذاك المكان ثلثةً
اتلو صحيفةَ ما ارتكبت واندبُ
وغدا لسان الحال فيهِ قائلاً
اذكر ذنوبك وابكها يامذنبُ

وقد ذكرت شراسني الماضية والعار الذي ارتكبتهُ بتسليمي اربعة وعشرين بطلاً من رجالنا للعدى و بغضي لرولان وغدري بشارلمان حال كوني نسيبهُ فتصورت ابطالنا وقوعًا تحت المواضي ورولان ... رولان يستقبل الموت باسماً ويزلزل الجبال بصوت نفيره

ر ي اموري رويدك

ي ر انا .... انا لست اموري .. انا كانلون كانلون .. الخائن .. كانلون الغادر .. فلبثت هنالك وحدي منكسًا رأسي وانا بين صلاةٍ ونواحٍ والليل يهبط من حولي قيلاً قلبي رهبةً وخوفًا والرعد يلعلع فيذكرني قاصفة صياح شارلمان قائلاً يالثارات رولان .. تلك ذكرى ضعضعت همتي فسقطت وعفرت بالثرى جبيني وناديت عفوًا وسلامًا قبل الممات ايهذا الخيال فهل قضى بعذابي الى الابد ... الى الابد كان الجواب فرفعت رأسي فخيل لي بل رأيت تحت عجاج النوء بين تلك الصخور فارسًا منتصبًا بلا حراك وقد سترهُ الكفن الى اخمصيه غير انهُ شف عن درعه ولامتهِ وكان صوتهُ شديدًا كصوت الفوارس تحت العجاج ..... رحماك هتفت رحماك يا رولان الشهير .... اما من مغفرة لي الى الابد ... الى الابد كان الجواب ... فتناقلتهُ الجبال وتواتر بهِ رجع الصدى ... الى الابد . الى الابد . ثم خفضت رأسي الى الحضيض وقد فعلت بي الدهشة فعل العقار فرأيت كأن الارض قد انشقت وخرج من جوفها صور مختلفة الاشكال واشباح هائلة قد احاطت بي ذات اليمين وذات الشمال وجميعها فاغرة افواهها كأنها تريدان تبتلعني وصائح يصيح امامها يالثارات رولان فنشف لهذا الهول ريقي وجمد الدم في عروقي

وناديت عفوًا عن شقائي وذلتي
وصفحًا عن الذنب الذي اوجب النكبه
وقلتُ الى مَ ذا العذاب وذا العنا
فصاحت بي الاشباح هذا الى الابد «١»

اما انا فصعقت من هذا الجواب وسقطت على الارض سقوط قتيل ولبثتُ لا استطيع حراكًا

حتى بدا ملك الصباح برايةٍ
بيضاء بين مواكب وكتائب

فنهضت ونزلت من الجبال بصوت وسكون وسوّلت لي نفسي ان ادفن ذاتي حيًا بين هاتيك القبور ... غير اني ذكرت نصائحك لي فعلمت اني مطالب بكثير من الامور وان لي ولدًا

ر ي ابعد عن فكرك هذه المخائل فان الصدى كان يجيبك لا خيال رولان فهو اكرم ما ذكرت لان الاحياء تهيجهم البغضاء فيرفضون الرجاء واما الاموات فهم اوفر حلمًا فاقتصر

(١) هذان البيتان ليسا موجودين في الاصل وانما اضافها الى الرواية جوق حضرة الاديب يوسف افندي خياط في الاسكندرية

اذن على الاهتمام بولدك وانهج له طريق الصلاح فاني متوسم فيهِ الفلاح لما حواه من البسالة والاستقامة وارجو ان يبلغ من الجد ارفع مقام

ي ر آه..روبر..اذا احاط علمًا بذنبي او درى بحقيقة امري وعلم اسمي

ر ي عليك بحمد الله وان حلت بك النقمه. وارضَ بما يقضي واحسبن قصاصه نعمه. لان النفس الملطخة بالقبائح والذنوب لايغسلها غير الدموع

ي ر ولكن ناشدتك الله الا ما قلت لي: الم يداخل ولدي ريب في حقيقة ولادتهِ والم يتضح له شيء من ماضي امري ام كان ما اتخذناه من الوسائط لذلك كافيًا

ر ي لاتخف فالامر على ما تريد

ي ر الا يسألكم عن ابهِ فان من كان في سنهِ يكون متياحًا يتطلب معرفة كل شيء

ر ي يسألني فأموه عليهِ لانسبة تذكراتهِ الصيبانية وهو لايصدق عن حالهِ الا ما اقولهُ له او تقولهُ انت فلا يعرف لذلك مصافه ونعاستهُ وحقيقة اسمهِ فكن مني على ثقة..

ي ر ان الوثوق بك واجب ولكنني ارى ان ذنوبي تربو على ما لقيت من القصاص فاذا اردت ان افكر في عاري الا بدي ذكرت يوم قدت الى الهيكل ارملة ميلون دو يش اميرة بريطانيا والدة رولان اخت شارلمان وذكرت شارلمان قائلاً لي وهو بأبهة الملك .. يا اخي كن عادلاً ورولان باسطًا يده لزوج امهِ وهو غير مضطرب بالغيرة..آه آه.. لم نجوت يا ترى ولمَ لمْ اسقط قتيلاً في ذلك اليوم يوم كبريائي .. وانت بار و برت لمَ لم تتركني فاموت يوم شقائي ذلك عين العدالة ... لقد كان يجب عليك ان تهمل هذا الجسد الفظ الدامي المتلف الطعين ليكون طعامًا للذئاب والعقبان فتريحني من احتمال ما لا يعبرُ عنهُ بلسان واعظم مصيبة عندي هي ابني جرال فان قلبي يكاد ينخلع خنوقًا كلما فكرت انهُ يقدر ان يقول لي ذات يوم امي هي ام رولان فماذا فعلت يا اخي وكلما خطر لي انهُ ربما وقع عليهِ يومًا ما ثقل خطائي آه اي اضطراب حل بي ....اسمع هذا صوت نفير ....اسمع ما هذا نغم صيد ان هو الا نغم قتال

ي ر (مطلين من الكوَّه)

ر ي هذا هو ...لكن معهُ غريبه ...وغريب هذا اسير سكسوني

الجزء الرابع

روبر أمورى جرال برث رجنهار

ر ي ج بر ه

ج ي أبي

ي ج ابني جرال..هل اصبت بجرح (و يعانقهُ)

ج ي لالسوء حظي فانك قد ذكرت لي ان اول جرح يصاب بهِ المرء حين قضاء الواجبات بطيب له ولم يكن احسن من هذا اليوم للحصول على ذلك (الى برث) غير ان الاعداء لم يتركوا لي غير فرصة قليلة لاحارب عنك

بر ي ......

ان كان يرفض ما استحق من الثنا
كرمًا فما منع الكلام الا لسنا
لم يهزم الاعداء الا بعدما
لعبت بجمعهم الصوارم والقنا

ي بر هذا الثناء احله واجلة
عندي محلاً في الجنان وموطنا
فثبات نفسك في كلامك شف عن
صدق ودلّ عليه فيك وبرهنا
فمرحبا بك ياسيدتي انك لا تعرفين هذا
المكان لبعده من محافل الناس ولانفصاله عنها
بغابات متصلة بغاباته فكيف كان قدومك
الى هذه الارض المقفرة وهل حللت بها من
زمن مديد
بر ي اني قادمة من شطوط وزر من فرزلاند
هنالك مقام كثيرًا ما تحجه اترابي لزيارة ترب
الشهداء. فلما وصلنا الغابة سمعنا ضجيجًا تردده
صدى الادوية ودهمتنا جماعة من الرجال كالذئاب
الخاطفة ففرقوا جماعتي ودنا مني واحد منهم
يريد القبض عليّ وقد اسود وجهه واحمرت
عيناه... فسمعنا اذ ذاك ضجة وكان السبب
في تلك الضجة قدوم ولدك هذا فرأيته وقد
كرّ على الاعداء باساً وجعل لي من حسامه
حرزًا منيعًا فاركنوا الى الفرار فتبعهم ضاربًا
في اعناقهم حتى اذا اختفت اثارهم عاد اليّ وقال
سيري بنا فقد صدت اليوم خير صيد
ي ج احسنت ياجرال
ج ي واني لم افعل غير ما وجب عليّ وقد
علمتني الأ اعد اعدائي الا بعد وقوعهم في
ساحة القتال وقد تبعت ذلك على اني اشكو
اليك نفسي فاقول: انه لما تمزق لفيف السكسون
ورأيت لاول مرة يدي مخضبة بالدم خلت ان
كل شيء فيّ تغير من قلبي وشعوري وعيني
وصوتي وايقنت ان للقتيل على القاتل سطوة
وان القتل لايخلو من الفظاعة ولو كان عدلاً

فانما في كل من الناس بقية من قايل
جزت الصفوف وفرقت الالوف وأر
غمت الانوف وجيش الموت يصطدمُ
افنيت اجسام اقوام مركبة
مثلي واقدمت والارواح تنهزم
وعدت والنصرُ يزهيني برونقه
تبكي الفوارس من فعلي فأبتسم
وقد رأيت فتاة المجد ناظرة
ترنو اليّ بلحظ حشوه كلمُ
ترى انتصاري بعين نابها حزنٌ
ومهجة نالها من حزنها المٌ
ونسأل الله عفوًا للذين قضوا
في ساحة قد سقاها كالغدير دمُ
كأنها بلسان الحال قائلة
معنى القتال يعيه السامع الفهم
شأن المقاتل جهدٌ في القتال وان
لايزدهيه انتصارٌ سمنة ورمٌ
وكان في آخر الاعدا رئيسهم
هذا الاسير . . . .
ي ج . . . .
. . . . .سيجزى كالاولى ظلموا
بر ى الا رفقًا به ياخير مولىً
مخافةَ ان تدان كما تدين
ي بر اعامله اذًا بالرفق طوعًا
. . . .
ي ه . . . .
فما اسمك ياغلام ومن تكون
ه ي اسمي رجنهار
ي ه وماسنك
ه ي ثلاثون سنة .. تاريخ وقوع بلادي في

العبودية

ي ه ولما نسبك

ه ي عمي وتكند

ي ه وابوك

ه ي كان ملكًا حين قدم شارلمان

ي ه انت ابن ملكٍ ونهجم كادنياء اللصوص على حمولة سيدة

ه بذاته كاللصوص

ه ي ما برح الغالب ينعت المغلوب بما شاء . . فانت يامن يستطيع قتلي لماذا تهينني

ي ه ان للحرب آيةً ناسخة . . ان عمك وتكند وشيوخ قبائله الاثني عشر تنصروا خاضعين فسلموا

ه ي خضع الآباء واما الابناء فلا . . . ومع هذا فان ابي قد قتل وعليَّ ان ادرك ثاره لا ان اقتفي آثاره . وقد رأيت الفرنك يقتلونه غير راحمين وكنت حينئذٍ صبيًا غير اني لم انسَ من ذلك شيئًا

ي ه ان السكسون جميعًا لهم على التلبس مقدرة عظيمة بما لهم من سرعة الخاطر على اني ارى فيك من الجراءة ما يدل عليه كلامك الخشن وعيناك البرّاقتان . فانت تستحق الموت

ي ه اتحسبني أجهل ذلك . اني انما اتيت لأُقتل فاقتلني

ي ه ان التي اردت الايقاع بها بدناءة هي التي شفعت فيك عندي فيمكنني لذلك ان اعفو ولكن عليك ان تتخذ للخلاص سبيلاً ذلك ان تتنصر ونقيم هنا . . . تكلّم أجب . . ان نصيبك في يدك

ه ي لعلّ لله بي مقصدًا اجهله . . . اذًا لا استطيع ان ارفض فاعرض عليَّ النصرانية ولو اردت ذلك مني امس لما فعلت

ي ه أرى ان شعاع الهدى قد اخترق ظلمات قلبك فاثبت واقم هنا

بر ي جزاك الملك خير الجزا

ولا زلتَ تلقى جزيل المنا
فان هدايةَ هذا الاسير
اسيرٌ بها بالمنا من هنا

ه بر كيف سيدتي انسافرين

بر ه على الفور . . . وما شأنك انت

ه بر لعلَّ معك حرسًا كافيًا

بر ه لا . ولكني اؤمل ان يكون لي من يحميني

ج بر نعم ان الحامية متهيئون

ه بر لا ترحلي ياسيدتي

بر ه ولماذا

ه بر لقد صار عليَّ من الواجب ان اخلص لك النصح جزاء شفاعتك فيَّ . . . انَّ قبائل السكسون يتخللون هذه الغابات في هذا الليل وهم بعددٍ غفير فاصبري حينًا ضمن هذه الاسوار فاني اقدر ان انجيكِ ولا اخدعهم وهذا جزاءُ وفاقٍ صنيعةً بصنيعةٍ من مثلها

ه للجميع واعلموا ان السكسون جميعًا على اهبة القتال وقد هاجهم حب الانتقام وسيكون القتال شديدًا فانهم لم ينسوا ما مضى . . . ان شارلمان قد امر قديمًا بقتل كل سكسوني زاد طولاً على الحسام . . . فحاذروا ايها المتنصرون ان الندم قريب منكم . . . حاذروا اولاد الشهداء . .

(ويخرج)

الجزء الخامس

اموري روبر برت جرال

ي ر بر ج

بر ر اني لديك اسيرة فانعم بما
ارجوه يامولاي منك تكرما
كيف السبيل الى النجاة من العدى

ياسيدي ان سرت من هذا الحمى

ي بر سيدتي لاسبيل الى ذلك

بر للجميع انوكدون لي

ي بر نعم سيدتي ابني هنا فلربما كنت انت التي تنقذين الحمى وحاميه

بر ي البستني ثوب الفخار تفضلاً
وشملتني بالفضل ياشمس العلى
فتلوت في صحف الثنا بين الملا
آيات فضل منك ان تتأولا

واحب ياسيدي الكونت ان لا اجعل كلامك في غير موقعه أو بالاولى احب ان اريك فيّ اهلية لمؤانستك واسمي وحده كاف لذلك فانه ليذكرك بما تتأثر منه الرجال حال كونك فارس فرنسا الامين

ي بر وما اسمك ياسيدتي

بر ي انا ابنة اخت شارلمان اما والدي فهو رولان .

ج بذاته ابنة رولان

ي بذاته ابنة رولان

بر للجميع وانا يتيمة من يوم رنسفو الشهير .

(هنا اموري يبدي علائم الرعدة والخوف)

ر ي حذاريا اموري فانك ترتعد ... وتمالك فان ابنك ينظر اليك

برت للجميع

انا ابنةُ من اذا طلبوه نادى
انا ابنُ جلا وطلاّع الثنايا
ابي رولان لا يخفى وامي
شقيقةُ من تطيع له البرايا

ي بر سيدتي اعذريني عن اضطرابي وقلقي فان اسم رولان لا يمرّ بسمع جندي نظيري الا وتضطرب نفسه وقد اشرت الى ذلك فاعذريني

بر ي اصلحت يا ابن الكرام
بالفضل حالي
فجلّ في ذا المقام
قدري وحالي
لا زلتَ عالي المقام
في كل حال
ولا عدا للهدى هذا المكانا
انس الهنا والثنا ما البدرُ بانا

(تنشد ذلك على نغم «اصل افتضاحي غدا»)

واعلم اني لا اريد ان اكون هنا الاّ برت ..

برت هذا هو اسمي

ي ج جرال ان الاسير اكد لنا .. ولكن لا فجرائد السكسون يقدرون كيف كانت الحال ان يهاجموا ايضًا اسوارنا واحبُّ ان اكون الاول في خوض هذا الخطر فان نوبتي جاءت فلا تهتم بأمري واصرف اهتمامك الى برت وحدها وخف عليها كل اذى فاذا تمّ لي ذلك المطلب المجيد . اذا وقعت بين يديها قتيلاً لا تبكني ياولدي . ولتتقدم الان جنودنا الى المتاريس منتظرين اول صوت يسمع وليجي الحراس الليل على انتباه لكل حركة وضعف عددهم بل اجعلهم من خيار جنودنا .. لا لا فهذا

متعلق بي وانت ابقَ هنا فهذا هو مقام الشرف

ج ي شكرًا لك ياوالدي فلعل الله يمن عليَّ بقضاء ما وجب لفرنسا ولاسم رولان العظيم ولي بذلك امل واني في حال طفوليتي لم اكن اسمعك ـ وارجوك المعذرة ـ تذكر هذا الاسم الا قليلاً على اني كنت اكرر ذكره الف مرة بنفسي وارى . . . واشعر اليوم بكبريائي ان فيَّ شيئًا يقربني اليه حتى كنت اظنهُ في تصوراتي الصبيانية يحيا فيَّ واحيى فيهِ وكان يخيل لي اني اراه واحبهُ واتبعهُ في مجده اللامع واشتغاله النافع وطالما تصورت نفسي ساقطًا نظيره في ساحة القتال في رونسفو ذلك نتيجة تعلقي بهِ على غير معرفة اما ابنتهُ فنحميها كما اشرت وتكون في آلنا و بين رجالنا ولن ترى بيننا كانلون كما رآهُ ابوها

ي ر سر بنا ياروبر فهذا مما يمزق الاحشاء هلم نذهب

ج ي استودعك الله ياولدي وانا ابقى هنا الى مطلع الفجر متربصًا للاعداء وحاميًا ابنة رولان (اموري و روبر يذهبان)

المظهر السادس

جرال برت

ج بر

بر ج من لي بان ابدي الثنا

عليك يابادي السنا

دافعت عني محسنـــا

واعدت لي روح المنى

اضحت لك العليا وسام

ياصاحب الخلق الوسيم

فدمت ياعين الكرام

في نعمة الرب الكريم

ج بر اني احسب خدمتك فوزًا عظيماً

بر ج لقد زدت فضلاً وملاطفة حتى اعجزتني عن الشكر وانا اودعك الان لاني في حاجةٍ الى الراحة وارجو ان يصل عن قليل الفرسان الذين انتظرُ وفودهم من جانب الامبراطور

ج بر لماذا تتمنين ان يأتوا بسرعة

بر ج لاكون آمنةً من مكائد الاعداء استودعك الله الان وافارقك متذكرة فضلك وانتظر وفود الفرسان لاسير بهم (وتخرج)

المظهر السابع

جرال

ج

ج ج لاسير بهم . . . آه . . . نسافر . . كيف افارقها وقلبي يرافقها . . . يالسر في قلبي لايذاع . . اي خجل يعتريني عند التفكير فيهِ . . أ أكتمهُ ولو اذابني . كيف لا ولكل امر سريرة والله اعلم بالسرائر . . لا ابوح بهِ نعم فان شئمتي الصبر ومن كان مثلي لا يذاعُ لهُ سر . . ولكن اي ضررٍ بكشف هذا السر . . لا لا ان النفس الابية لا ترضى الاستتار ولا اقدر ان اكتم ذلك السر فاذن ساخبر ابي بكل شيء ولكن لماذا احزنه واسلمهُ بيدي الى الكآبة والكدر * فالاولى ان اخفي امري * لالا * من اين تعلمت ياجرال هذا الفن فن المواربة والمخاتلة * كيف اسلك هذه الطرق التي لا اعرفها * ارى نفسي حزينة فكيف يرقص فؤادي لعمري انه لا يرقص طربًا

فالطير يرقص مذبوحًا من الالم * انا احب * انا اعشق * لقد انبث شعاع الحب في ظلام قلبي فاراني ما لم ارَ * ولكنها نسافر * فهل اسافر معها * وما السبيل * اذا قلت الحقيقة لا يؤذن لي والدي بالسفر * اذا قلت له اني اسافر معها ولاجلها يرفض فما القول * ما الرأي ما التدبير * ما العمل * اه عبثًا اطلب الطريق ولا اهتدي * فهل اكتم ام ابوح

اقول لقلب ذاب في الحب شطرهُ
اليف اصطبار لا يذاعُ له سرُّ
أأكتم اشواقًا بــه ام أبثها
فقال هما امران احلاهما مرُّ

المظهر الثامن

جرال اموري
ج ي

ي ج قد رتبت الحراس على الاسوار وهيأت اسباب الدفاع وبينما كنت اعبئ الجنود رأينا من اعالي الاسوار غبارًا ارتفع ثم انكشف عن جريدة من الفرسان فتأملناهم وتأكدناهم انهم من جند الامبراطور

ج ي لعلهم الذين ننتظرهم السيدة برت

ي ج انهم في الغالب آتون من جانب الملك لحمايتها في الطريق

ج ي سيدي

ي ج ماذا

ج ي قد احببت برت

ي ج جرال

ج ي تجلى الامر واتضح الخفآء
فلا كان التلبس والريآء
فتنت بحبها ..

ي ج ...... ولدي

ج ي .... وقلبي
يحلُّ به لذكراها الهنآء
يظللها الكمال اذا تثنت
وان جليت يكللها البهآء
على قلب الحليم لها ولاء
وفوق الناظرين لها لوآء
تكلم من تكلمه بلحظٍ
هو الدآء المحاذر والدوآء
ولو علمت بما في القلب منها
اذا رقت له فدنا الرجآء

ي ج وهلاَّ نعلم برت بذلك

ج ي لا .. اما انا فحيث قد تهيأ لي ان انقذ حياتها وهي على ما ذكرت .. فهل استطيع ..

ي ج جرال * يجب ان تنبذ للساعة هذه المحبة كذا ينبغي بل كذا اريد .. وماذا يطمعك في ذلك اعلو رتبتك ام شرف القلب ام ارتفاع النسب افتكر .. افتكر في كل شيء

ج ي لقد افتكرت ياسيدي وقست هذا المرتقى قبل الصعود اليه فرأيت بل لا ازال ارى في تصوري المتقد رولان شهيد الحرب الفارس المنتخب الذي جاد بروحه حبًا بفرنسا ورأيت او لا ازال ارى ذلك الملك العظيم الذي يمتد ملكه من بلاد بيسانه الى بلاد الغاليين الملك الذي يقول عنه من يراه ما هذا ملكًا هذا ملكٌ على صورة انسان يحمل بيده الكرة الذهبية ولا يداخله اضطراب ومع هذا احب برت وازيد بها كلفًا واشعر ان في قلبي وهو

نفي امين كبرًا يؤهلني لها وشيئًا لا اقدر على وصفه يطمعني في الحصول عليها ويدل على رفعة قدري

ي ج لا انك لست اهلاً لها فلا تتبعها وقد امرت فكن مطيعًا . . اوبالحري اقسم عليك بحنوي الوالدي . . ولقد اخطأت اذ خاطبتك بكلام أمر واني لا نقدم في ذلك الى قلبك فاعذرني اني حزين ياجرال واتجنبك احيانًا مع اني احبك ياولدي وانت مجدي وانت فضيلتي وانت انت سعادتي ولكني اخاف ان ينبعث ظلام الكدر من نفسي الى قلبك النقي

ج ي والدي

ي ج فاحكم اذن ياولدي على حزني . . .
ان قلبي قلب جندي صلب ومع ذلك انظر دموعي

ج ي والدي

ي ج جرال اسمع ان محبتك لبرت هي عين خسارتك واني مؤكد ذلك . . . يطمعك اليوم الرجاء وغدًا يداهمك الكدر ثم العذاب وبعد الحسد ثم الاعداء ومكائدهم ثم الخجل من ان يخطئ السهم الغرض ولا سيما استخفاف المحبوب بالمحب

ج س يارباه

س ج سافر ياولدي ولكن كن متيقنًا اني اموت

ج س ابي

س ج سافر اذا شئت

ج س وانت

س ج اموت

ج س ابي

س ج فاحلف اذًا ان لا تسافر

ج س يمين الله

المظهر التاسع

اموري جرال روبر

ي ج ر

ر ج ان الارصاد قد رأوا من اعلى الاسوار جماعة من الفرسان مقبلين وهم فرسان الملك الذين تنتظرهم السيدة برت ورأينا انهم يسلكون الطريق المؤدية الى هنا وتحت الويتهم الدوك نعيم وهم بأُبهة الملك

ي بذاتو الدوك نعيم - اه - لا يلزم ان اظهر لابني شيئًا (ويذهب)

المظهر العاشر

روبر جرال

ر ج

(على نغم « طرز الريحان حلة الوردِ »

ج ر ياروبر الان ساعة الهجرِ
مدمعي هتان والهوى عذري
وابي ما كان قابلاً عذري
فانا حيران قد وهى صبري
برت منها سهدي زائد في الحد
وابي من وجدي عامل بالضد
آه لو يرضاه لزها وقتي
والهنا يزداد من صفا برت

ر ج عنك دع ياصاح حالة الوجدِ
فالهوى فضاح قط لا يجدي

ج ر لاتحاول لومي لاتغير عزمي
قد جفاني نومي لاتضاعف سقمي
انّ بي اشجان حيرت فكري واصطباري بان

آه او تدري

(الاثنان)

جفاني رشدي فنأى سعدي واضحى قصدي
على الضدّ
فماذا ابدي وماذا يجدي هموماً عندي
بلا حدّ
في الاحزان تزيد الاشجان وحشى الولهان
منها في اتلافِ

الفصل الثاني

المظهر الاول

روبر اموري

ر ي

ي ر قد تمت تعاستي ... الدوك نعيم ...
هذا الشيخ المهاب بين الف من الشيوخ ...
هذا ... نسطور النصارى يأتي داري ...
دار كانلون ... وان عرفني

ري هذا لا يتفق فانهم يظنون كانلون ميتاً
على ان شعرك الذي البسته السنون حلةً بيضاء
والمجاري التي فتحتها سيول الدموع في خديك
تخفي عنهم حقيقة امرك

ي ر اصبت ولكن الانسان كيفما تقلبت بهِ
الاحوال يحفظ علائم في هيئتهِ لا تزول . فما
الفعل ان لفظ الدوك باسمي الحقيقي امام جرال

ر ي تشجع ياصاحبي الى النهاية ولاقِ الخطر
الجديد بقلب حديد وثبت نظرك بحيث لا يبقى
موضع للشك وقابلهُ بثبات وسكون وعينين
مرتفعتين فيذهب للحال اضطرابك اني سامع
حركة واظنهُ قد دنا من هنا فكن كما عهدتك
باسلاً يصادم النوائب بقلب تعودها .. ها هم

قد اقبلوا فحاذر

(يدخل الدوك نعيم وتباعه ومعهم جرال وفي اخرهم رجنهار وهذا يجلس متحايداً عنهم)

المظهر الثاني

اموري روبر جرال الدوك نعيم رجنهار

ي ر ج ن ه

ن ج نعم نعم . اخبر السيدة برث بقدومي
(جرال يهمس لاحد الخدمة بذلك) ولا شك
ان والدك هنا فسرني اليهِ

ج ن ها هو ياسيدي (مشيراً الى ابيهِ)

ي ر الدوك نعيم

ر ي تشجع

ن ي باسم شارلمان ملك الفرنك وامبراطور
المانيا اسلم عليك ايها الكونت واقدم لك مع
رفاقي هولاء وافرّ الاحترام

ي ن اهلاً بكم جميعاً ياسادتي

ي ر عرفتهم فهل يعرفونني

ر ي تشجع

ن ي لا اراني اعرفك من قبل هذا اللقاء
ياسيدي الكونت على اني انوسم فيك بسالة
رجل حرب تعود القتال فكيف انت ...

ي ن ان لقب الكونت حصل لي صدفةً فاعلم ياسيدي
اني لم اكن سوى ركبدار الكونت اموري
الاكيتيني وقد انقذتهُ ذات يوم من خطر
فرعى لي ذالك ولما دنت منه الوفاة واحتضر
منحني لقبهُ واسمهُ

ن ي اعظم بهِ لقباً قد زدتهُ شرفاً
والسر بالمرء ليس السرُّ باللقبِ

لا يبلغ المجد الا كل مجتهدِ
المجد بالجدّ ليس المجد بالنسب

واني منشرح الصدر اليوم لكوني ضيفك فان ولدك فعلَ فعل الابطال الكرام ولا ينسى له هذا الاقدام تعال ياجرال ٠٠٠ ياللعجب لمن يشبه هذا الفتى

ي بذاتو يالله

ن ي لا اتذكر ٠ ادنُ مني ياجرال كلما تأملته اتضح لي ٠٠٠ نعم ٠٠٠ نعم ٠٠٠ انه اشبه الناس برولان ٠

ج بذاتو رولان رولان

ي ر باخيه رولان

ي ن سيدي ان مولَ نستك وما حركت فيّ من الافتخار الوالدي انساني حقوق المضيف فتأخرت عن قضائها فتفضل بالجلوس لتنال شيئاً من المشروب

ن ي حبًا وكرامة

ي (الغلام) فليحضر ياغلام شيء من المشروب

(الغلام يخرج ويتبادر الحاضرون الى الجلوس وفي خلال ذلك يحضر الغلام الطاولة والمشروب والاقداح)

ن ي يسرني ياسيدي الكونت ان اكون قبل مسيري من هنا مع رفاقي هولاء بين يديك على اني احب ان نرتفع من هذه الحضرة الكلفة اشارة الى حصول الالفة فلنشرب معًا

(يشرب اموري والدوك نعيم معًا)

الجميع ـ (ينشدون ما يأتي على نغمِ اصلة نغم «في رياض الجلنار» ولكن المطرب المنشد الشيخ سلامه حجازي لحنه بغيره ما هو اطرب واحسن وقعًا في الاذان وذلك على عهد الجوق الذي تألف اخيرًا برئاسة حضرة مديره البارع يوسف افندي خياط)

(المذهب)

طالع الاسعاد عاد والانس زاد للناظرين
خمرةٌ من عهد عاد فيها المراد للشاربين
وافى الهنا نلنا المنى
فاملأ كؤوس تحكي شموس هي المرام هي المرام

(وهنا يشربون جميعًا الا رجنهار ثم ينشدون على النغم ذاتو)

دور

راحة الارواح راح والانشراح فيها كمين
نورها في الكأس لاح مثل الصباح للناظرين
لاجناح فذا مباح
فاجل المدام يا ابن الكرام فلا ملام فلا ملام

نعيم ٠٠ (يقول على نغم «قده المياس زود وجدي»)

روض الافراح ابدى انسي (١)
فاغنم ياصاح طيب الغرسِ
في كأس الراح نُور الشمس
والسعد لاح بصفا النفس

دور

صوت الانغـام يجلو غمي

(١) «ان هذا القد لم يكن موجودًا في الاصل وانما زاده على الرواية حضرة صديقنا الاديب السليم الذوق محمود افندي واصف وكذلك مذهب القد السابق وهو الذي أضاف ايضًا الى كلام «كانلون» البيتين الواردين في الصفحة ٢٠٦ واشير اليها في ذيل الصفحة مدعوًا الى هذه الاضافة من قبل حضرة خليلنا مدير الجوق السوري المصري يوسف افندي المومأ اليه» .

حسن الالحان ابهى صنع
فيهِ للناس كل الخير
ورحيق الكاس منهُ سكربيه

ن ي لا ينقص سرورنا الا شيء واحد . اما بيننا شاعرٌ اوراوية ينشدنا شيئًا من الاشعار الحماسية فان الاشعار رياحين النفوس

ي ن ليس ما بيننا شاعر غير ان ولدي هذا كان ذا عنايةٍ بالشعر (ثم يلتفت الى جرال ويقول لهُ) انشدنا ياجرال شيئًا من ذلك طوعًا لامرالدوك

ج ي عفوًا فاني لا اراني قادرًا على ذلك فان قريحتي في جمود واخاف ان لا يفتح علي

رج لا بد من الاجابة الى ما طلب فانشدنا ياولدي منظومتك في السيفين فاني اعدها من المقبول

ج الجميع لبيكم واني ارجوكم المعذرة فلا جود الامن الموجود

السيف اصدق من تنبأ وادعى
واعز من لبّي الكميّ واسرعا
قد كان في هذا الزمان لملكنا
سيفان الباب الفوارس روّعا
سيف لرولان الشهير مهندٌ
ان هز أمّن من يشاه وافزعا
هذا درندال الذي اضحت لهُ
في ارض اندلس الاعادي خضعا
سيفٌ اذا عاينتهُ يوم الوغى
تلقى لـــه في كل هامٍ مرتعا
وحسامنا الثاني بقبضة شارلما
ن جهية يوم القتال اذا دعا

هذا جوليس الباتر الماضي الذي
لو مس اجرام السماء لزعزعـا
ان رامهُ او فرّ منهُ مسرع
كانت منيتهُ اليـهِ اسرعا
نزع العدا منا درندالاً وقد
ابقوا اسىً بقلوبنا لن ينزعا
فعسى الزمان كما نريد يعيده
كي يلمع السيفان في وقتٍ معا

ن ج احسنت وأطربت . . . . . فاملأوا واشربوا جميعًا بسر شارلمان (يشربون هنا الا رجنهار)

ن بذاتهِ (يقول منشدًا)
مليكٌ يسير المجد تحت لوائهِ
ويخدمهُ الاقبال والفتح والنصرُ
مطالبهُ العليا وفكرته الهدى
وحضرته الدنيا ونائلهُ الغمر

(ثم يقول الجميع على قد «قل للحبيب ظف ووالِ »)

اعد حديث الكرام	فالقلب يهواه
واملاء كؤوس المدام	واستغفر الله
يشفي غليل النفوس	ذكر الكرامات
وخمرة في كؤوس	منها الكريمات

ن للجميع ثم فلنشرب على ذكر رولان (يشربون الا رجنهار)

ينشدون على نغم (شربت الكاس من اجفانك)

مذهب

شجاعٌ ماجدٌ دانت لهُ العليا
كريمٌ جوده عما
سجاياه قد ازدانت بها الدنيا
هامٌ مجده نمّا

دور

هلموا نشرب الراحا بتكرار
على ذكر له اسنى
فنجم الانس قد لاحا بانوار
حكت اخلاقه الحسنى

ج ه ما بالك يارجنهار اني اراك مكتئبًا فاعل كأسك فارغه

ه ج لا ياسيدي

ج ه فاشرب اذًا امعنا بسر البطلين الفرنسويين

ه الجميع لو كنتم ياسادتي في مثل حالتي لما فعلتم غيرما فعلت فان شيوخكم قد علموني احترام السلف فافهموا سبب تمنعي من الشرب على ذكرها وانا اشرب على ذكر وتكند على ذكر السكس على ذكر المغلوبين

(ويشرب)

ج ه تنبه يارجل (ويهجم عليه) حذار ايها السكسوني

ن ج جرال...

ج ن هذه جرأة لاتطاق

ن ج فلنعذره فقد دعته الى ذلك عزة النفس

ه ن شكرًا لك ايها الدوك فانك قد رأيت ان جرال حملته الكبرياء على ستر عيوبكم فيما انشد مع ان لنا كما لكم من المفاخر والانتصارات ولكم كما لنا من المعايب والانكسارات فانتم تفاخرون برولان . ولكن كانلون

ي بذاته ياالله

ن ه صه ايها السكسوني ولا تذكر هذا الاسم القبيح ....اي كدر جئت تهيج في نفوسنا.. كانلون..ان ذكره يرعش صوتي فهو الذي يعيد الينا ماضي خجلنا وقد جاء ذكره يكدر هذه الساعة التي تجمعنا .. اذًا فلنرفع الايدي لنلعنه جميعًا ولنهبط عليه اللعنة الى اعماق الجحيم

(الحاضرون جميعًا «الار و بر وامور ي» يرفعون الايادي امتثالاً للدوك)

المظهر الثالث

الجميع برت

.. بر

ن بر تقدمي يابرت تقدمي فان لك الحق الاول بلعنه

بر ن بلعن من ياسيدي

ن بر كانلون

بر ن شهد الله ياسيدي ان هذا الاسم كان بعيدًا من فكرتي ...وقد امرني شارلمان بمسامحة اعدائي جميعًا كما امر الله الا كانلون فانا اشارك بلعنه

ج للجميع هو عدل لامحالة وانا ايضًا ارفع يدي لالعن هذا الاسم القبيح

ر ج اسكت ياجرال اسكت . اني كاهن ولي ان انبهكم الى كل شيء

من مات نال جزاءه من ربه
عدلاً فدعه يابني تأدبا
هيهات يجدي الميت رحمة راحم
ان كان مغضوبًا عليه معذبا
او تعتريه تعاسة من لعنة
ان كان في الدار النعيم مقربا

بر ر صدقت ياسيدي الكاهن

ن للجميع ربما كان كلامي شديدًا ولكني لم اتمالك من ذلك فاني قد انقذف كانلون

من الموت مرةً .نعم وذلك في وردن مساء القتال فان ملكًا سكسونيًا يقال لهُ مركولان لا ازال منصورًا قامتهُ المرتفعة قبض على كانلون وجعل رأسهُ على ركبتهِ وهمَّ بقتلهِ ذبحًا فما كان اسرع من ان هجمت عليهِ فحولت حسامهُ عن عنقهِ

ي بذاتهِ نعم ان هذا لا ريب فيهِ

ن الجميع فنهض كانلون مسترجعًا قواه وهجم على قِرنه الذي كان قد وطد على النصر املهُ وضربه فصاح غلام من الاعداء رحماكم لا تقتلوا ابي (هنا رجنهار يهتز مضطربًا) فنظر الى الغلام شزرًا فرجع القهقرى وقتل الاب فما مضى على ذلك غير برهة يسيرة حتى غدر كانلون برولان ومنذ ذلك اليوم لا يعنفني ضميري الا بانقاذي كانلون من الموت

ي بذاتهِ آه آه آه

ه بذاتهِ يا للعجب كيف قد اكمد وجه الكونت . هذا شيء غريب . واراه يتجنب الحاظ الدوك . فلماذا يا ترى فلندنُ فلنلاحظ

ي ه ماذا تريد . . . . . رجنهار

ه بذاتهِ لم يخطئ ظني . . . . هذا هو لحظه

ه ن سيدي الدوك اجز لي ان اقول كلمة

ن ه تكلم

ه ن قلت ان الملك الذي قتلهُ كانلون كان يقال لهُ مركولان

ن ه نعم وكل الافرنج يعرفون هذا السكسوني الباسل ولكن ما الذي دعاك الى السوآل عنه

ه ن ان الملك مركولان هو ابي

ه ي يا سيدي الكونت انك قد دعوتني الى النصرانية فاجبت فهل انا من بعد ذلك حرٌّ

ي ه لا ريب في ان القانون يمنعك من الرجوع الى السكس واذا كنت ترجو

ه ي لا . . . . فانهُ يجب عليَّ ان ابقى مدة في فرنسا

ي ه وما قصدك بذلك

ه ي ستعرفهُ . . . . الان اودعك ايها الكونت

ه بذاتهِ هذا هو نظره بعينهِ (ويخرج)

المظهر الرابع

(المذكورون انفسهم)

ن ي ارعني الان سمعك يا سيدي الكونت ان شارلمان يريد ان ابنك يرافقني الى حضرتهِ ليكافئهُ على انقاذه ابنة اختهِ من الخطر

ج ي آه يا ابي

ي ج جرال . . . . دع عنك هذه الآمال . لقد حلفت فيجب ان لا تتبع برت . . تذكر العهود التي عاهدتني بها واعلم ان برت لا تتنازل الى محبتك حال كونك تحبها . فارفض اذًا

ن ي ماذا تقول يا سيدي الكونت

ي ن ليس لي ما اقولهُ فان ذلك متعلق بابني .

ج بذاتهِ (ملتفتًا الى برت) برت . . آه برت

ي ج آه يا ولدي

ج ي لقد تبصرت يا سيدي فرأيت اني لا اقدر

ي بذاتهِ آه واشقتاه . . . . انا السبب في انكسار قلبك

ن ج اذن نسافر نحن (ثم الى برت) فتأهبي ايتها السيدة للسفر

بر ن اني سالحق بك على الاثر

بر بذاتها هذا غريب ٠ جرال يتردد ..

فلماذا . .انهُ بلا ريب يجبني

(نعيم يودع جرال ويخرج فيتبعهُ اموري وجرال يجلس مطرقًا نتقف برت بين يديه شاخصة اليهِ)

المظهر الخامس

جرال برت

ج بر

بر ج انا احبك ياجرال

ج بر آه... برت ..

بر ج نعم وحيث كان عظم منزلتي واسمي في فوادك منعك عن بث غرامك بدأت بشرح الحب اولاً مفتخرة باني اقدم لك قلبي

اخفيت سرك في الفوآد فلاح لي
ومن الفوآدِ الى الفوآد سبيلُ
فاشرح غرامك كي ابث صبابتي
ان اللسان على الفوآد دليلُ

ج بر يامن تناجيني بمضمر سرها
شرح الغرام كما علمت طويل
قد اطمعتني النفس وهي ابيةٌ
في مطلب ما لي اليهِ وصول
فكتمت حتى لا يقال مملقٌ
وصبرت حتى لا يقال ملول

بر ج كتمت وفي فوادك نار وجد
يلوح لها ولو سترت ضرامُ
فلا يبقى مع الحب اصطبارٌ
ولا يجدي مع الوجد اكتنام
فما الشكوى وما بك مثل ما بي
فدعها او يضيق بنا المقام
فهاك يدي لتبرم عهد حب
وثيق لا يكون له انفصام

ج بذاته
اعاهدها وبي للحب قلبٌ
وفيٌّ لا يفارقهُ الغرام
ويطربني اللقا فاذوب حزنًا
مخافةَ ان يكون لهُ انصرام

ج بر شكا قلبي غرامك وهو غضٌّ
فقلت اصبر كما صبر الكرامُ
فان الحب سلطانٌ مطاعٌ
تذل لهُ الجبابرة العظام

وكيف استطيع الا احبك ام كيف لا يعشق من ينظر جمالك نعم قد ملكت يابرت قلبًا لم يسكر بخمر الغرام قبل الان وقلبي يباركك في حالتي الصفو والكدر وكلمة واحدة منك تذهب عني الاحزان وقد قلت لي يابرت ويا بردَ ماقلت على كبدي٠ . .احبك ياجرال .. اما انا فلم يعد لي بعد ذلك ما اتمناه وصرت ارى كل شيء حسنًا ولكن ليتك تعلمين... ان ابي من برهة قال لي ٠ . لا .لا .فانا احب وارجو .. وقد رد عليَّ ما فقدت من السعادة

بر ج وماذا قال لك ابوك

ج بر دعينا من هذا فاني لا اقدر ان اعرب لك عما الم بي من الخجل حين قلت له اني محبك

بسطت له امري فقال معنفًا
لقد رمتها جهلاً ولست لها اهلا
فعدت الى نفسي وقلت مراجعًا
بحق الهوى مهلاً فقد رمتها جهلا

سيعلم ان الحب أعظم قدرنا
فحل بقلبينا والبسنا فضلا
وان لنا مستقبلاً ان بدا له
يرى حبنا عدلاً فلا يؤثر العذلا
(ثم يقول على قد «خليك عن الدلال وتنازل»)
يا كارهاً ظلماً هوانا والامر عنهُ سترا
تخاف ان تلقى هوانا بالحب لكن سترى

دور

بر ج لا تخشى يا مولاي لائم اللوم يمضي بالهوا
وكن على عهدي ملازم شرط الهوى حفظ الهوى

المظهر السادس

جرال برت اموري

ج بر ي

بر ي سيدي الكونت انا احب جرال وجرال يحبني وقد اخبرني بما دار بينك وبينه من الكلام في هذا الشأن ولي الامل . . .

ي بر سيدتي

ي بذاته قاوماني فكيف اطلب فوزاً
وضعيفان يغلبان قويا
كان خوفي عليهما من مصاب
ولعمري ما جئت شيئاً فريا

ي لما قد تولى الغرام قلبيكما من
بعدما كان ذاك امراً قضيا
والى شارلمان مرجع هذا
ليس يغني عنهُ كلامي شيئاً

بر ي اني قد افتكرت في ذلك فاعلم ان شارلمان لا يعارضني حيث انهُ يعلم بحقيقة حالي وانا طالما تطلبنا معاً رجلاً يكون لي اهلاً فيتخذني اهلاً حتى رأيت جرال وهو وحده يثل لي قدماء الابطال ولكني طامعة في اكثر من ذلك وهو ان يأتي بما لم تستطعهُ الاوائل وأن كان الاخير زمانه فليتبعني الى البلاط لاني احب ان ينال بعزمهِ ما اريد ان انيلهُ فيكون مساوياً لرؤسائنا ولا ارى ذلك ايضاً كافياً (وتلتفت الى جرال) فسر يا جرال على اثر ابطال فرنسا القدماء الذين بنوا في ذروة المجد مقاماً وتجوَّل في البلاد واطلب الشرف الرفيع ومهد سبل المجد لتبلغ الدرجة القصوى وعد الينا فنرى فيك رولان ثانياً . (ثم الى الكونت) فهل تلومني بعد هذا ايها الكونت ام في فؤادك مخاوف لا اعرفها . . اني آخذ ابنك ولكني اسلمهُ الى فرنسا وشارلمان الكبير واستودعهُ الله

ي بر لا هذا لا يمكن لا

ج ي كيف لا يمكن . . . ابعد كل هذا الاتزال مصراً على الرفض فما لي والحالة هذه الا ان اخضع واحمل رفضك على امر لا اعلمهُ

ي ج لالا . . . . لا اقدر

ج ي آه يا والدي . . . .
مولاي صانك ربي
طرحت في اليأس قلبي
هل كان والفرض دينٌ
قضاه فرضي ذنبي
قد زاد فيَّ اضطرابي
وتاه بالغيظ لبي

ي ج هل كان غيظك مني
. . . .

ي بذاته . . . .
الغيظ من ظلم دهري

ج ي اني بما انت قاض ٍ
ارضى ولو عيل صبري
لكن تأمل عذابي
وفرط غمي وقهري
اضحى رجاء فؤادي
ما بين موت ونشر ٍ
ولست افعل خيرًا
الأ بجيء بشر ٍ
حظي وانسي وسعدي
والحب مالك امري
ذا كلهُ مستطاعٌ
ان شئت من غير نكر ٍ
وكلمةٌ منك تقضي
بجبر قلبي وكسري
ولست ترضى بهذا
واحيرتي ضاق صدري

ي ج ولدي.... ولدي.... لعلي كنت مخطئًا فان الوهم يغلب عليَّ احيانًا فلا استطيع دفعهُ ولكني قد إخذت ان افهم فرأيت ان اعظم ما احاذره هو وقوعك في اليأس الذي اكاد ان اقع فيهِ فاقض ِ يابنيَّ واجبانك كما تأمرك برت وانا اسأل الله لي المغفرة ان كان في قبولي هذا خطاء وافتكره يابنيَّ يومًا وانت في حال السعادة ان خوفي لم يكن الأ عن حب والديَّ

ج ي والدي

ي ج رح ياوالدي فذلك عدلٌ

بر ي اليك مني جزيل شكر ٍ
قارنهُ المدح والثناء
قضيت بالعدل واجباتي
والله يقضي بما يشاه

(وتلتفت الى جرال)

اما انت ياجرال فافتكر في كل زمان فيما وعدتك وفيما انتظر منك

ج بر بيمين الله يابرت اني انفق ايامي في الاجتهاد فلا انفياء ظلال الراحة ولا يشغلني عن طلب العلى شاغل فاطرح كل شيء يؤخرني حتى ذكرك وانا اسير هذا المساء كيلا ارى الصبح الا متمماً امرك .. اسير اسيرًا في ودادك حتى اذا صرت اهلاً للانتماء لابيك اعود..

المظهر السابع

جرال برت اموري الدوك نعيم

ج بر ي ن

ن بر سيدني قد جاءت الساعة وركب فرسانك للمسير

بر ن اني ذاهبة للحال (تسير قليلاً ثم تقف ملتفتة الى جرال)

بر بذاتها آه... كنت اظنني اقوى على الفراق (وتلتفت الى جرال) الملتقى ياجرال للملتقى .

بر ي استودعك الله ياسيدي الكونت

ي بر اني ازودك الدعاء

ج بذاتهِ رحلوا فلولا انني
ارجو اللقاء قضيت نحبي
والله ما فارقتهم
لكنني فارقت قلبي

ثم تقول برت على قد «اشكو وابكي ومالي معين»

اسيرٌ وقلبي لديهِ اسير
ودمعي طليق وجفني كسير

اتاني الرحيل وجسمي نحيل
ورسمي محيل وصبري عسير

بر ي ارجوك ياسيدي الكونت ان تمنحني البركة الوالدية

ي بر سيدتي

ي بذاتها آه .. وربما كان ابوها رولان ناظرًا الينا من اعالي مقامهِ

ج ي وانا اسير متكلاً على الرب القدير وارجو ان تمنحني البركة وتزودني الدعاء واني اسال الله ان يسهل لي نيل المجد لاكون جديرًا بالانتساب اليك

الفصل الثالث

المظهر الاول

جيوفرول رجنهار ريشار هردري
ف ه ش د

ف د دعونا من هذه الاحاديث التي لا طائل تحتها فانهُ عما قليل يأتي الفارس الاندلسي ساحة النزال فهل تنتصرون عليهِ بمجرد الكلام

ه ش ارجوك عفوًا فانك عظيم الاهتمام بامر رولان

ش ه نعم فاني كنت اولاً تابعهُ ثم صرت ركبداره

ه بذاتهِ لعلهُ ذلك الشيخ فلندقق النظر فيهِ

ه ش بالحقيقة ان موت رولان خطبٌ عظيم واني لا احب ان اعلم كل ما يتعلق بهِ فهل ادرك ياصاح ثاره

ش ه نعم ولكن قليلاً

ه ش وهل عوقب كانلون

ش ه لم يعاقب كما يستحق

ه ش وهل كنت انت هنالك

ش ه نعم واني آسف

ه ش لماذا

ش ه ما من يجهل الامر هنا ايها السيد السكسوني ذلك انهُ بعد ان قبض على كانلون وربط وهو في حالة الضعف بجواد واطلق الجواد في الغابات تلاً ذاك الغادر قصد اتلافهِ فتبعت انا آثاره لارى ماذا يكون من امره وما زلت مقتفيًا منهُ الاثر حتى وصلت الى ضفة غدير فرأيتُ ثم الجواد وحده فنظرت يمنةً ويسرةً ولم ارَ الجسم ثم رأيت رهبانًا يصعدون الى دير هناك فتبعتهم ورأيتهم يحملون جسد كانلون وهو في حالة الموت فأسفت لانهُ فاتني معظم الانتقام من ترك جسده تتناوشهُ الذئاب والعقبان وتمنيت لو كنت ذئبًا فانهشهُ او عقابًا فانشب فيهِ مخالبي

ه ش يقولون انهُ كان لكانلون ولد

ش ه نعم وقد ستروا هذا الولد وكان الاولى استئصال الشافة واتلاف بيضة الحية بعد هلاكها ولكن من ستر الولدَ .ومتى .واين . فهذا لست اعلمهُ

ه للجميع كفى كفى .. اني اعلم ما لا تعلمون وقد اتضحت لي الحقيقة شيئًا بعد شيء (بذاتهِ) ان نظر اموري ... هو اول دليل والدليل الثاني هو ان كانلون حملهُ الرهبان وروبر راهب .. قد اتضح الخفاء .. اموري هو لامحالة كانلون متلبسًا وقد ستر الراهب بحذقهِ جميع ذاك .اما الولد الذي ستروه فقد غيروا اسمهُ وهوجرال . نعم .. اموري هو كانلون . وجرال هو ابنهُ .. يجب ان يثبت كل ذلك

فلننتظر الى النهاية

(ريشار جيوفروا يتذاكران في خلال كلام رجنهار)

ش ف آه من لي بان انازلهُ انا ... انازل ذلك الاندلسي فاخلص منهُ درندال حسام رولان المشهور ويعلم الناس انهُ لا يزال فينا شيوخ يحق لهم ان يقرعوا جرس الفضة متى شاؤوا ولا تحسبن ثلج المشيب مطفئاً نار همتي فانهُ لعمرك لم يزدها الا اشتعالاً

ف ش وآسفاه ان هذا الجرس الذي كان شجعان فرنسا يقرعونهُ عند الملمات للدخول على الملك لم يقرع منذ عشر سنين فلعل ارباب ذلك قد ذهبوا ام صار الناس يخافون ان يقرعوه لعلمهم ان من يقرعهُ على غير استحقاق يقاص قصاصاً شديداً

ش ف لا تقل قد ذهبت اربابهُ

كلُّ من سار على الدرب وصل

اما انا فاكاد اتميز من الغيظ كلما ذكرت هذا الاندلسي فانهُ في كل يوم يبارز الابطال ويقهرهم وقد حمى ذلك الحسام الذي يتوقف شرف فرنسا الان على تخليصهِ منهُ والحق اولى ما يقال ان هذا الاندلسي شجاع مجرب تعود القتال وهو لا يبالي بالحمام ولا يرهب وقع الحسام . رجنهار يدنو منهما في خلال ذلك فيسمع مذاكرتهما)

ه ش وماسبب هذه المبارزة وقدوم هذا الاندلسي بحسام رولان المشهور

ش ه ان هذا الاندلسي ورد علينا في جماعةٍ من اصحابهِ منذ ثلاثين يوماً ودخل على شارلمان وهو جالس يوماً فقال ايها الملك . اني حضرت يوم رانسفو صبياً واخذت عن جسد رولان حسامهُ درندال المشهور وقد اتيت لارده على فرنسا ولكني لا اعطيهِ الا لمن يستطيع ان يأخذه وهكذا فتح باب المبارزة فتبادر فرساننا الى مبارزته وجملة ما قتل منهم الى الان ثلاثون بطلاً وصرت اخاف ان يبارح الاندلسي هذا المقام قبل ان نأخذ منهُ الحسام على انهُ في كل يوم يركب الى ساحة النزال فيأتي الملك متوكئاً على السيدة برت ابنة رولان فانها وحدها ترافقهُ فيدخل هذه الحجرة رافعاً جبينه الذي جعدتهُ السنون ويترأى للناس من هذه الكوة بالهدء والسكينة ناظراً نظرة اضطراب بين المخافة والرجاء ليرى مَن من الابطال يقدم على القتال لانقاذ درندال فيبقى الى آخر النزال وان ضعف املهُ بالنصر ثم يشرف من الكوة على ساحة القتال او بالحري على مدفن الابطال فيبارك بيد مرتجفة ذلك الفارس الذي يسقط في الساحة . ثم يدخل وقد ازداد اضطرابهُ ووجلهُ وهو يردد اسم رولان

ف للجميع الامبراطور ... الامبراطور آتٍ مع السيدة برت

(الجميع يتفرقون)

المظهر الثاني

شارلمان برت

ل بر

(تقول برت على نغم «عيونك سود حواريه»)

نوّلت فكرك الاهوال

وساءت عندك الاحوال

وهذا مشهدٌ قاس

يزيد الحزن والبلبال

***

فدعنا اليوم منه ولا
تزد في قلبنا الوجلا
وكن مولاي في البلوى
على الرحمن متكلا

بر ل سيدي ان هذا المشهد محزن فخلنا منه اليوم

ل بر هذا فرض عليَّ ولقد تعودت ان ارى مثله كثيرًا فطالما تواردت عليَّ شجعان الرجال من الاندلس وغيرها يريدون منازلة ابطالنا فيتصدى لهم كل اروع صنديد لا يروعه الصدام ولا يرهبه الحمام مثل اوليفيه اورنو او رولان

وما كان اسرع من بروز احدهم لقرنه الأ رجوعه برأسه وسلبه وكنت اذ ذاك اشعر بكبرياء ملكية لا استطيع وصفها آه تلك ايام لا يطمع في رجوعها .....لقد اصبت المجد فيجب ان اصبر للذل ...رولان رولان اي عار عليَّ اعظم من ان ارى حسامك دورندال في يد العدو

بر ل لا تيأس ياسيدي

ل بر الامر لله ولا حول الا بالله لقد نزعت منا القوة الى عدونا واني اعلم انه ما من احد بين رجالنا يغلب هذا الاندلسي

بر ل ربما...

ل بر من...

بر ل جرال...

ل بر ولكنك يابنيه لا تعرفين في اي ارض هو ولقد بعثت الى ابيه ان يحضر اليَّ سريعًا ليقدم حسابًا عن انقطاعه رجاء ان اعرف شيئًا عن حال جرال وقد مضى على ذلك شهران ولم يرد لي من الكونت اموري جواب فالظاهر ان الاقدار تعاكسنا

بر ل سيدي قلبي ينبئني ان جرال يأتي قبل هذا المساء

ل بر لقد كان لي ايضًا هذا الامل فاني كنت كلما سرحت نظري في هذا البلاط الخالي اخال والامل يطمع في كل شيء ان جرس الفضة قرع وان جرال قدم فكان ذلك البرق خلبًا وذلك الغيم جهامًا

بر ل سيدي جرال سيأتي عن قريب ويقرع جرس الفضة وانا اعرف ذلك وانتظره

ل بذاته لقد عرفنا ابنتك يارولان بهذا الثبات والاقدام وهذه العيون يتلألأ بها نظرك

ل بر فبارك الله فيك يابرت فلقد حفظ لي بك تذكار مجدي وقد علمت وحدك باحزاني وعلى جبينك هذا جرت دموعي ولك وحدك انكشف فؤادي وارى ان اكرامك لي في حال الحزن اكثر منه في حال السرور فقرب الله محيَّ حبيبك جرال لاني اريد ان اجمع بينكما قبل موتي .... ولكن الموت لا يمهلني

بر ل سيدي ماذا تقول

ل بر الموت لا يمهلني وكل ما اراه يدلني على ذلك وهذا نسيم المساء يمر على وجهي

ل بر لماذا تبكين يا ابنتي تشددي واسمعي ما اقول ان اعظم شاغل للانسان في حال حياته هو معرفة نفسه وما من يعرف قدر نفسه ما دام حيًا

الموت يكشف ما استتر
ذي عبرة لمن اعتبر
اني لاجهل حالتي
بل لست ادري ما الخبر
وانا المليك اخو العلا
سامي الذرى بين البشر
كم قد شفيت وكم نعمت
وكم لقيت من الخطر
دمثت اخلاق البرابر
وهي اقسى من حجر
وفحت او روبا فدا نت لي واسعد في القدر
لكن اليس بين اعمالي الماضية ما الام عليه
نعم قد اسرفت في تذليل اولئك الشعوب
ارادة ان اضم بعضهم الى بعض ... لعمري
ان الملك لا يعرف هذا الا بعد سقوطه وشجرة
الحقيقة لا تنبت الا على قبره
بر ل سيدي ان شعب الفرنك ومثله العالم
باسره قد سماك الملك العادل وشارلمان الكبير
ل بر ان المداهنة تتبع الملوك ما داموا احياء
سميت بالعادل الكبير ولكن ماذا يكون اسمي
بعد الموت سيعرف ذلك عن قريب
لو كان يعلم من يعلو من البشر
مصيره هجر الدنيا بلا كدر
الدهر يهبط رغماً كل مرتفع
لا تنصف الريح الا عالي الشجر
شاب الزمان على غدر الانام لذا
تراه يفجع بعد العين بالاثر
فاين الملوك الذين سادوا وشادوا الحصون
هل نجتهم حصونهم من المنون اين اولاد ميراف
واولاد كلبوفيس وما تكون حالة اولادك من

بعدك ياشارلمان ابيقى لهم الملك قرناً واحداً
من الزمان ساعرف ذلك عن قريب اعرفه
حينما تأخذني سنة الوفاة فاترك هذه الارض
لارى المستقبل بلا حجاب واتلو ثمَّ في كتاب
الازمنة نبأ مجدك او ذلك يافرنسا اواه هل
ارجو ان يتضعف مجدك في الايام الآتية كما
تتضعف حلقات السلسلة وتمتد ظلالك على
العالم باسره وتكوني مصدراً للتمدن حتى يقال
يوماً ما ان لكل من الناس بلده وفرنسا ...
(ثم يسمع صوت حركة فتقول برت الملك اسمع)
ل بذاته لقد جاء . هذا هو البطل الغريب المتصر
رويدك فوآدي كفاك خفوقاً ما افجع ما ختم
لي . يغلبني هذا الاندلسي انا شارل انا الذي
صرت . بل انا الذي هو شارل الكبير . لا لا لم
تعد الكبير فاخفض رأسك ايها الملك لان
الله مبتعد عنك (يسير فيستوي على العرش
ويدخل الاندلسي ويجلس بين يديه)

المظهر الثالث

الامير الاندلسي شارلمان جوقه
س ل

س ل انا انا الامير الاندلسي ادعوكم ياشجعان
فرنسا للبراز فهل منكم من مبارز فهل من
مناجز بالسيف او الرمح او الرماية وسيفتح باب
القتال فمن منكم يبرز للحمام ايها الابطال
ج س انا انا انا
ل ج مهلاً مهلاً قد كفانا ما سفك من
الدم اما انت فارجع الى قومك
س ل طوعاً لك ايها الامبراطور ولكن تذكر
يوم كنت في اعظم من هذا المجد . يوم كان

لك معظم اسبانيا ولم يكن لنا بها غير سراغوسا وقد ورد عليك في قرطبة من قبل ملكنا الرسل العشرة فرأوك في حديقة غناء مستويًا على عرشك وبين يديك رولان واوليفيه والدوك هانس وانت في عظمة وسكوت والشيب يزيدك هيبة ووقارًا فابتسمت حين رأيت رؤوسنا منخفضة وزاد لديك السفير خضوعًا طالبًا منك المسامحة وجعلني عندك رهنًا فاجبته ولكن بنون العظمة فاعلم ايها الملك ان الزمان تبدل وان لكل زمان دوله. ولكل دولة صوله. وقد استرجعنا الان الاندلس فنحن الان في طرب وطرفك يدمع فانا الان اعود حسب امرك وقد تم نصري وما من يهمني باحتيال فيه اعود بدرندال حسام ابن اختك رولان فاني قد حفظته حتى حفظه (يستل السيف) ها هو فانظره اخر نظرة

ل س رويدك ما انا بملوم اذا بخلت بدم قومي وقد ساعدك السعد عليهم واني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا وقد انافت سنيّ على السبعين على ان هذه البقية تكفي للقاء رجال هذا الزمان فانا انازلك واذا ساعدتك الاقدار على شارلمان فحسبي اني بنظرة اخيرة املأ قلبك خوفًا ووجلاً فهلم للقتال

س ل سيدي الامبراطور لا تفعل كرمًا

بر ل والدي والدي لا تجلب بيدك الموت

ل الجميع لا لا فانا افضل ذلك واني اذا عشت ايضًا يكون عذابي اشد

الذهم ان لاقى الهوان (م) بعيشه لا يرتضي
لا خير في عيش باكناف (م) المذلة ينقضي
فهلم ايها الفارس لنقتل او نُقتل

بر ل سيدي جرس الفضة يقرع

ل بر جرال

بر ل نعم ياسيدي هو بعينه

ج ل سيدي اني قد تجرأت على قرع جرس الفضة استنادًا الى اذنك في ذلك لكل رجل حرب فان كنت قد اخطأت فاني اقبل ما يتعين عليّ من القصاص

ل ج لا اني اعرف ايها البطل حنك واقدرك حق قدرك فلك ان تقرع الجرس وتتمنى الان ما تروم

ج ل حيث منحتني يامولاي هذا الحق فجل ما اتمنى ان انازل للحال هذا البطل واني قد وصلت متأخرًا على ان الوقت الباقي لي يكفي بحول الله فاسألك ياسيدي ان تبيحني ذلك لانتصر بعزمك او اموت من اجلك

ل ج تقدم ايها البطل فقد حسن عندي اقدامك يا ابن الكونت اموري لقد ذكرت لي بسالتك فانك قد حفظت حياة ابنة اختي ولكن كن على حذر فان من تطلب مبارزته رجل شديد العزم ثبت الجنان وتأمل بجثته تعلم مقدار قوته

ج ل جثة هذه اقيسها بعد ما اطرحها في ساحة القتال

ابيت اللعن ان الحرب سوقٌ
تباع ونشتري فيه النفوس
سيعلم من ينازلنا بانا
لنا في الحرب تنخفض الرؤوس
نكرُّ على الخميس ولا نبالي
ونلقاه فينهزم الخميسُ

ل ج مثلت لي رولان فانه لو كان حيًا لما قال احسن من هذا فانا راض بما طلبت

ج ل ان هذا المطلب الذي يجعل قوتي بمقدار واجباتي يشغل فكري منذ سنة حتى اذا رجعت من سفر طويل في افريقيه بعد وقائع جيدة العاقبة أُخبرت بامر هذا الاندلسي وما نابك وناب فرنسا من الاضطراب فرزتني الحمية واستفزتني الى قصده لاحارب عنك ايها الامبراطور فاستأذنت في ذلك والدي فأذن لي وتبعني الى هنا ايضاً وانا انتظره وارجو . .

ل ج ان هذا النظر النافذ وهذا الكلام البليغ يبعثان اليّ الرجاء غير اني لا ازال متردداً في الحكم . . . فهل تحسن يابنيّ الرماية فانك تعلم ان الاندلسيين ارمى منا

ج ل سيدي اني اترك هذا السلاح للعبيد والغلمان واتكل على الحسام فهو سلاح الشجعان ولا جرمَ ان الذي اخترع القوس كان جباناً او يخاف من الالتحام عند الصدام

ل ج انك تتكلم بعزة اجدادي فسر اذاً وادرك ثأرنا وانتقم من عدونا واسترجع درندال حسام رولان الذي يهزه هذا العدو بيمينه وحيث انك تؤثر القتال بالقتال فخذ حسامي خذ جوليس فهو لائقٌ بملكٍ واعلم اني لم اسلمه لاحدٍ من قبلك

ج ل تقلدني هذا الحسام تكرمًا

وذي نعمةٌ طالت وزادت على الامل

فاقسم يامولاي اني ارده

اليك وقد روِّيته من دم البطل

الجميع ل (على قد خالك الند)

ياهمامًا سادَ فينا وملك

ملكٌ انتَ مهابٌ ام ملك

فاز من يمن الملا قد املك

والهنا بعد العنا قد امّ لك

(ثم الى جرال) سر بحفظ الله ياهذا الهمام

وابلغ الامال وارجع بسلام

وانقذن من خصمنا ذاك الحسام

سر اليه واسقه كأس الحمام

ج الجميع ان قدر لي النصر فقد نلنا المرام واسترجعنا الحسام والا فلا يرد قضاء الله فانه كان على كل شيء قديرًا ولقد أتى على الانسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا

بر ج جرال انظر اليّ وهاك يدي فابسط لي يدك فانها لاترجفان اذهب ياحاميني رح ياجرال

س ج لله انت ما اعظم اقدامك ايها الفارس فهلم بنا

الاثنان الى القتال الى القتال

المظهر الخامس

برث شارلمان

بر ل

ل بر هل يمن الله علينا بالنصر فانا عليه متوكلون هلمي يابرث نضرع اليه فعساه ان يمنحه لنا (برث تجثو وشارلمان يبسط يديه والاثنان يدعوان) اللهمّ ياإله يوسف ويهوديت ودانيال اليك نضرع وانت السميع البصير يامن يقضي على الظالمين بعذاب أليم ويبشر الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرًا كبيرًا اعن جرال على عدونا كما اعنت داوود على جالوت وهب له اللهم نصرًا مبينا

ل بر (سائرًا نحو الكوة) ابقي هنا يابرث

ساذكر لك حركات هذا القتال

بر ل (وهي تتبعهٔ) اني اريد ان اعاين ذلك بنفسي (يطلان من الكوة فيسمعان علامة الحرب)

ل بر هذه علامة النزال قد برز جرال

بر ل آه قد خفت الان يا الهي انقذ جرال

ل بر قد برز الآخر والتقيا

بر ل قد تدانيا

ل بر وقع السلاح على السلاح

بر ل لمع السيفان

ل بر قد هجم العدو

بر ل تقهقر ياللسرور

ل بر لا لقد عاد

بر ل درندال يتلوّى كالافعي وامصيبتاه لمع على جبين جرال

ل بر آه اراه يرتعش ما اشد هذا القتال

بر ل واحيبباه قد انشق المغفر وانكشف رأسه فجرى دمهٔ وخضب الارض

ل بر لله دره انه لم يرجع هوذا جوليس يلمع في يده

بر ل والهفاه قد لمع درندال على رأسه ثانيةً

ل بر خلا عنه هذه المرة

بر ل وثب

ل بر مر من تحت درندال

بر ل نهض

ل بر قد اصاب مقتلة

بر ل هلك العدو واطرباه

ل بر سقط مرتجفًا وتعفر جسده بالتراب

بر ل ياللسرور جرال انتصر

ل بر يا لمجدك يا فرنسا (والجميع) اضربوا الطبول

ما من يضعف مجدك يا فرنسا لا زالت قوتك بازدياد ولا برح عزمك في نفوذ

الجميع جرال قد نال المنى

وقد نفى عنا العنا

جاء النصرُ وافى الاقبال

زال العسر نلنا الآمال

فليحيَ جرال البطل

من نال بالحرب الامل

فقد نفى عنا الخجل

ولم يخف وقع الاجل

جاء النصر وافى الاقبال

زال العسر نلنا الآمال

ج ل (حاملاً السيفين) سيدي هذا جوليس وهذا درندال

ل ج بورك فيك ايها البطل (ويعانقه) هات درندال (يأخذه ويقبله) خلصت اخيرًا يادرندال هذا انت هذا فرندك واعرف فولاذك هذه قبضتك الذهبية المتضمنة الذخائر الثمينة . . هذه الذخائر لم تزل موجودة آه دعني اضع شفتي على حدك ايها السيف الشهير سيف رولان بطل فرنسا كم احتملت في اسر الاعداء فتعزَّ والمع فرحًا انك في قبضة شارلمان . ان رولان ينظرك في لحده ونحن نضعك عليه فتحصل له المسرة وهو في دار البقاء اما الان فابقَ على العرش واسطع تحت الراية الفرنساوية واما انت يا جرال فهذا جزاك ان ابنة رولان تكون من الغد زوجتك فهلم بنا الان الى الهيكل لنتقدم لله الشكر على ما وهب لنا من النصر (يخرجون جميعًا)

المظهر السادس

كانلون (هو اموري)

كانلون بذاته لالالا اسير فاني غير مستحق ان اشارك ابني في مجده بل ربما رشقتني الالحاظ فانكشف امري لقد اتيت هنا مكرهًا ولو تمنعت لاستغرب ذلك جرال وقد حاولت ان اجد لي عذرًا فامتنع من الحضور غير اني خفت ان افتح له بابًا للشك ... فيابلاط شارلمان ايها المقام الذي ولجته اقدامي المرتجفة والجدران العالية التي يرفرف عليها النسر الذهبي باسطًا جناحيه كأنه يمدها على العالم بأسره ويا ايتها الحجر والمجالس انك جميعًا ممتلئة بشروري وقبائحي وكلما نظرت اليك ذكرتها على اني وحدي اعرفها هنا يالسر يزداد ثقلة يومًا فيومًا على عاتقي .... ما من احد هنا يعرفني وقد خفيت عن ركبدار رولان كما خفيت عن الدوك نعيم

المظهر السابع

شارلمان كانلون (اموري)

ل ك

ل ك كانلون

كانلون بذاته ياربّاه

ل بذاته نعم هذا هو كانلون رجل رانسفو الغادر فهل خرج من الجحيم لارتكاب فظائع جديدة

ك ل سيدي

ل ك مه

ك ل سيدي

ل ك اسكت ايها الغادر كيف قد نجا هذا الخائن بمعجزة قبيحة فعاد الينا يوم عاد مجدنا نعم هو نعم هو بعينه لقد نجا من الاولى فلا ينجونّ من الثانية فان رولان حريٌ بان يدرك ثأره مرتين نعم كانلون ستهلك ايها الخائن في هذا المكان الذي بفلقة صوتك في هذا المكان الذي ماتت به اختي زوجتك اثرَ ما بلغها من خيانتك القبيحة في قتلة زوجها الاول رولان فسقطت بين يدينا مائتةً تحت هذه الجدران نعم ستهلك ايها الغادر الذي كان لي اخًا .

المظهر الثامن

شارلمان اموري جرال

ل ي ج

ج ي كنت اسأل عنك يا ابي

ل بذاته ابوه ابوه

ي ج اني كنت اسأل الملك نعمة جديدة واخاف ان يشوش علينا حضورك

ج ي اني اخرج يا ابي

ي ج ولكن لا تبتعد فربما دعت الحاجة اليك

ج ي سمعًا وطاعةً يا ابي

المظهر التاسع

شارلمان اموري

ل ي

ل بذاته جرال ابنة جرال منقذ ابن اختي جرال مدرك ثأر رولان. جرال فخر شيخوختي هذا البطل الباسل هو ابن اختي ابن كانلون

ي ل نعم سيدي هو ابني وانا اسألك الرحمة له وحده فانه يموت لامحالة ان عرف حقيقة امي

ل بذاتهِ ابنه ابنة ابن كانلون وفيهِ مثل هذه الشهامة كيف يتفق هذا

ل ي . ولكنك نسيت امهُ يا للعجب العجاب اهذا هو الانسان الذي كرهتهُ نفسي اكثر من كل الناس انت كانلون الذي كنت الان نتكلم فانت اذًا تبكي رولان كما ابكيهِ انا . انت غدرت برولان وابنك ادرك ثأره فماذا نسميك الان اموري ام كانلون . انصفح عن الاب بفعل الابن ام نعاقب الابن بفعل الاب هل اخلف وعدي لهُ بدون ان يعرف سببهُ . . وبرت . . برت محبة بالهُ من مشكل اعياني حلهُ من جهة كانلون ومن الثانية رولان من جهة اعظم الشرف ومن الثانية اقبح العار وكيف التوفيق بينهما . الليل يهبط وقد رصعت برده النجوم . هذا هو كتابي وهذه احرفهُ المتلألئة التي طالما انبأتني بارادة الله فعلمت منها مجيء السعادة وحلول الشقاء فلنستخبرها الان . . . . ايتها السماء التي تنظر اليك عين الشقي بخوف اهدني سبيل الهدى وابعدي عني غيوم الاضطرابات (يجلس هنيهةً ناظرًا الى النجوم)

ل ي نادِ ابنك

ي ج جرال

المظهر العاشر

شارلمان اموري جرال

ل ي ج

ل ج قد حفظنا ان نزعج فوادك الرفيق بما نخبرك بهِ وهو ان والدك حين رأى اشتداد القتال نذر ان يهاجر الى بلاد فلسطين مجاورًا

ج ي ماذا . . ابي . تسافر حين ابتسم ثغر سعدي

ي ج نعم فقد وجب النذر

ج ي ايكون ذلك بعد خطبتي

ي ج لا بل قبل . . . . لماذا نضطرب . . . اي فكرٍ خطر لك . افتكر فذا نذر وقد عاهدت الله ان اترهب

ج ي كيف تسافر بعد ان حللّ لي ان اقدم النقد حسب العادة واقود برت الى الهيكل وانت وحدك لا تحضر هذا الاحتفال

ل ي لا ايها الكونت . . . . أبى الله ان يكون هذا فانا اجيب جرال الى ما طلب فابقَ الى غد

ج بذاتهِ هذا غريب

الفصل الرابع

جرال برت نعيم وجنهار اموري جفرول هردري

ج بر ن ه ي ف د

ن . ج بر نتقدما ايها الفتى وايتها الفتاة نقد ولاني الامبراطور انا الدوك نعيم ان اعقد بينكما العهود فتقدما وتبادلا حسب العادة تقديم الواجبات وعليَّ ان اسأل كلاًّ منكما عن مطاوعة ارادته كي تكونا على هدى . جرال . . كان رجل في عصر الابطال من اعاظم العظماء واكابر الرجال هذا هو رولان وهذه ابنته امامك فقبل ان تتحد بها راجع فكرك فهل فيك ما يمنع من ان تكون اهلاً لها

ج ن لا . . ولذلك اقدر ان اقدم لها النقد على هذا الترس (يقدمهُ لبرت فتأخذه وتعطيه لتابعتها)

ن بر وانت ايتها السيدة قدمي لبسة حسب

العادة الردآء والسيف

بر ن سيدي اني اقدمها له (نعطيه اياها فيأخذها)

ن بذاتهِ والان يجب ان يصادق الاب على ذلك . . نقدم ايها الكونت . . هوذا العروسان فلا برنتبطان بلا مصادقتك فقل

ي ن سيدي الدوك اعذرني فانا اريد في هذا اليوم الذي ينال فيهِ كل ما يستحق ابني من المجد ان يكون ذكري منسيًّا فان ابني بعد ما فعل وما سيفعل هو رئيس البيت الحقيقي اما انا فلم أعُدْ شيئًا مذكورًا فافعلوا ما يريد

ج ى آباوالدي ان جل مجدي هو اقتفائي أثرك

ي ج اني ثابت ياجرال فيما قلت وما انا الا الماضي فسر انت نحو الاستقبال

ن بذاتهِ فاذن بقي علينا ان نسأل الحاضرين فلعل منهم من يكون له في ذلك كلام

ه ن انا

ج بر رجنهار

ي بذاتهِ السكسوني

ن ه قد فهمت ان بغض المغلوب شبت ناره ثانيةً . . . تكلم ايها السكسوني

ه بذاتهِ بغض المغلوب صدقت فاني قد قاسيت وبغضت ولم يكن من دأبي سوى البغض اما الان فقد صار شأني العدل فانتِ ايتها السيدة برت وانت ايها السيد جرال انتما فرنساويان وانا سكسوني ولو كنت مبغضًا لكما لما تكلمت ولكن لا اسكت بل انقذكما معًا قبل وقوعكما في المصاب

ن ه اشرح ما تقول

ي ن لاتسمعوا هذا الرجل فهو عدونا

ه ي احترز انت يامن يسمونهُ اموري

ي ه كيف تجرأ ان تقاوم ابني وتناقض مجده وفضيلته

ه ي انا لا اقاومهُ بل احامي عنهُ

ي ه وممن تحامي عنهُ

ه ي احميهِ منك

ن ه تكلم

ي ن لا . لاتسمعوا فهو كاذب واني نادمٌ لاني ابقيتهُ حيًّا (يدنو من الدوك نعيم)

ه ي انت نادم (هامسًا في اذنه) أليس لك ما يبعث على الندامة غير هذا

ه ن ان هذا الرجل الذي يتجرأ ان يلمس يدك انا اعرف ماضي امره واسمهُ الحقيقي وها انا ذا اذكره لكم جميعًا

ي ه انت تكذب ايها السكسوني انت كاذب

ه ي قل ما شئت فاني ابث صدقي لدى الامبراطور . . ان هذا الرجل يقال له . . .

ي ه اسكت لاتقل هنا لا تقل امامهُ . امام ابني

ه ي ايها الكونت انا اكرم منك انت قتلت ابي امام ابنهِ اما انا فلا البسك العار امام ابنك وكان بودي ان ادفع هذا الامر عن جرال غير اني اخاف ان تلوح لي اشباح الشهداء في منامي فمعظم ما اقدر ان افعله هو ان اسمح لك ان تخبر ابنك بما كان من قصدي ان اقوله

ي ه مناسب

ي ج ابقَ هنا ياجرال

ي للجميع اسمحوا لنا بخلوة

بر بذاتها ما هذا الامر ياربَّاه ما هذا الحادث المدهش

ه بذاته وانظر كيف قد علت وجهه صفرة الوجل

المظهر الثاني

اموري جرال

ي ج

ج ي والدي اني ارى هذا السكسوني مختل الشعور

ي ج لا

ج ي ولكن كيف يكدرك هكذا وهو لا يعرفك

ي ج انهُ يعرفني

ج ي امثل هذه الاهانة . .

ي ج ذالك عدل

ج ي اه ياربّاه اي اضطراب اعتراني

ي ج جرال . . ثبت جاشك . . كيف عرف هذا الرجل الحقيقة ذا لا يهم فاسمع . ليس اسي الحقيقي اموري بل هو اسم مكروه وملعون عند الجميع وقد ظنوا المسمى بهِ ميتاً من زمن طويل مع انهُ لا يزال حيًّا وهذا السر لا يعرفهُ غير السكسوني والملك ان كانلون لم يمت

ج ي ومن هو كانلون

ي ج انا هو

ج ي اه برت

ي ج آه يالعزة النفس والشهامة لقد خالف ظني فلم يفتح كلامهُ بلعني

ج ي بلعنك . هذا لا يكون ولا في مثل هذا الوقت فاني احتمل كما احتملت

ي ج آه كلمني على الاقل بكلام جافٍ فاني ظمآن للاهانة صرّح بها ان كانت تخفف ألمك

ج ي الاهانة هذا لا يكون . فاني لا اريد ان اعلم ما علمتني وهو القيام بحقوق الشرف والطاعة وعزة النفس والشهامة . . . وكل ما فيَّ من حسن فهو مستمد منك وكيف كانت ذلتك فانا انا ابنك ولكن دعني ابكي . . آه . . هكذا كانت امي تبكي حين علمت بما علمت الان

ي ج جرال

ج ي لا تتكلم

لا تنتزع النصل دعهُ
في مهجتي فهي جرحى
فلست اسطيع صبرا
ولست اسمع نصحا
وقد بدا لي امري
وسوء ظني صحَّا
عرفت دائي وسرًّا
بهِ فؤادي اوحى

فيا للارث الذي لا بد من انتقالهِ الى الابناء ولعل وصولهُ الى ابي كان بالارث ايضًا . . نعم نعم قد عرفت الآن ذلك السر الخفي الذي كان يجعلني اظنهُ انا واظنني هو وكان يخال لي اني ان تكلمت فبصوتهِ وان مشيت فبقدمهِ اه يالتعاسة . . . لالا هذا محال . . . هذا فوق الاحتمال

ي ج جرال . . ولكن لا يحق لي ان اعارضك ونظرة منك واحدة تكفي لتخجلني . . . فقد كان امس عفو شارلمان كبيرًا اما الله فلم يشأ ان يعفو . . . وحسبي قصاصًا ما ارى الان من حزنك

ج ي حزني . . أصبت فقد كانت الصدمة

شديدة حتى ارتعدت لها بل بكيت كالصبي
وكان عليّ ان اخفي في قلبي حزني ولكن يجب
عليّ ان اكفرّ ذنبي فان كان لايزال لجرحي
دواء فاني ارضى به ولو كان شديدًا

ي ج اعانك الله ياجرال فاني لا استطيع بعد
الان ان اخالفك بشيء فانا خاضع لما تريد
وقد انتهى عملي فانا اسافر . هكذا يجب فان
المانع الذي طرأ عليك وهو وجودي سيزول .
ولكن اسمح لي قبل انطلاقي من هنا ان امزج
بدموع الخجل دمعة افتخار . اه ان جريمتي
قد افعمتك اضطرابًا على انك بحكم الجنون تقول
هذا هو ابي اما انا فبافتخار لايعرف افول
وارجوك عفوًا ياجرال هذا ابني

ج ي ابي

ي ج استودعك الله ياجرال

ج ي ابي

ي ج واذا تم لي ما ارجوه من انتهاء ايام عذابي
قريبًا ولم يعد لي سوى مجرّد الذكر افتكر
ياجرال رغمًا عن ذنبي الجسيم ان هذا القلب
الشقي كان يحبك واني قد لقيت قصاصًا شديدًا
بأن ارى ذراعيك غير منفتحتين لي عند وداعنا
هذا الاخير

ج ي (فاتحًا ذراعيه) أبي (يتعانقان)

ي ج ابني افارقك الان واستودعك الله
فاني اخاف ان يقوى عليّ الضعف فيمنعني من
المسير . . اسمع حركة قدومهم فابتوارى فان
خجلي يزداد اذا كان لديهم الاب والابن معًا
(يخرج)

ج بذاته هام هوذا الملك خالي اخو امي . .
الملوك نعم . وكل الذين كانوا يثنون عليّ . .
وبرت . برت . اه ياربي هل سخطت عليّ

المظهر الثالث

جرال شارلمان برت نعيم هردريه جيفرول
ج ل بر ن د في
ريشار خدم عدد
ش خ ع

ل ج جرال قد كشف لنا السكسوني الامر . .
ان التوفيق خالفك وانت في اول المرحلة
وكان ينقص مجدك ياجرال الصبر والاحتمال
واني قد عرفت الامر منذ امس ووازنت بين الجريمة
والاستحقاق فرأيت ان احساناتك رجحت سيئات
ابيك وكفاك فخرًا انك اعدت مجد فرنسا
وادركت ثار رولان الذي رأيته انا تحت
ظلال الاشجار الضخمة في ساحة رونسفو فضممته
وهو ملطخ بدمه واقسمت ان ابكيه ما حييت ثم
طلبت حسامه فلم اجده واشتد علي ذلك لان
رولان كان قد عهد ان يدفن سيفه معه وقد
استولى عليه العدو واعيانا تخليصه ولك وحدك
الفضل في استرجاعه وسيودع هذا الحسام في
ضريحه فافخر اذًا ايها الهمام وتبوأ المنزلة التي
انت لها اهل بين اولادي وانت يا ابنتي يابرت
اصيلة المجد تكللي فذلك حق لك

بر ل وما الداعي الى ذلك ياسيدي كلمة
واحدة تكفي . الهيكل معدّ وانا مستعدة . هلم
جرال هلم . . لماذا تخفض رأسك . لماذا تحول
نظرك جرال ما هذا السكوت اعندك في ودادي
ريب اتريد ان ارفع صوتي مصرّحة . . .
سيدي انا احب جرال بمقدار ما اجله وقد
زدت فيه حبًا لان هذه الثانية التي حلت به

لم تنقص من عزمه فهلم الان ياجرال
ل ج هلمّ جرال واقتبل يد برت ثانيةً
ج ل سيدي اني شاكر لك في نفسي ولكني
ارفض هذه النعمة الاخيرة
بر ل يارباه ...جرال
ج بر اسمح ان ابسط سريرتي لديك في
حضرة الملك نعم ياسيدي اني لا اكون مستحقًا
لهذه النعمة الجسيمة ان لم ارفضها فاني اسمع في
نفسي هذا الصوت الذي لا يكذب انا ابن
الذنوب لا ابن التوبة واحب ان يكون القصاص
اكبر من الذنب وان يقاص الابن البري نفسهُ
ليكون العفو عن الاب احق وخيرٌ لي ان
اجرح بيدي قلبي وان لم افعل يقال اني
لم اكفر ذنوب ابي كما ان ابي يهاجر واما ارافقهُ
ومن العدل ان نكون دائمًا معًا

فليعتبر من كان ذا نظرٍ
ولينتبه من نومه من رقدْ
ومن له وسوس ابليس ان
يعذر فلينظر بعقبي الولد
ان ذنوب الوالدين الى
ابنائهم تنقل ياذا الرشد

بر ج انت راحلْ ياجرال
ج بر نعم برت
بر ج اه ان كنت تحبني لاتكن قاسيًا
ج بر انا لا اجسر ان احبك
بر ج وانا جرال...انا..ما ذنبي لتعاملني
بهذه القساوة
ج بر ما خصمنا الا القدر
بر ج لانجاره على ظلمهِ واحرص على السعادة
ج بر اطلبها لك بجملي

بر ج انظر الى المستقبل
ج بر الماضي نصب عيني
بر ج ما من ينظر اليهِ غيرك الا يكفيك
عفو الملك ام تريد ان تسمع صوت ابي من
اعماق قبره او من اعالي مقامهِ في السماء مصرحًا
بالعفو والرضا استحلفك ياجرال باسم ابي
رولان
ج بر اخفضي صوتك او يسمعك ابي كانلون
بر ج (ساقطة بين ذراعي نابعتها) آه
قطع الرجاء

من لم يذق في الناس كأس فراقِ
لم يدر كيف مصارع العشاقِ
قد كان في كأس الغرام بقيةٌ
فشربت وحدي كل ذاك الباقي
يامن يلوم على الاسى ان الهوى
يومان يوم نوىً ويوم تلاقِ
وافى النوى فجرت بوادر ادمعي
ومن الوداع نضيحة المشتاقِ
لاتحسبوا دمعًا جرى من اعيني
هذا فؤادي سال من آماقي

ج ل سيدي خذ يدي فبكاؤها اعياني
كنت آملاً ان انال ابنة رولان واما الان
فهذا الامل قد كرهني بنفسي لكوني ابن ....
ياربا لالا هذا لا يكون اليوم تراني بعين الشفقة
ولكن غدا
ل ج أصبت ياجرال اني لا الومك على هذه
الشهامة ولكن هذا قضائي الملكي النهائي امس
سلمتك جوليس لتسترجع درندال واليوم اصنع
فوق ذلك فان بسالتك تقتضي جزاء اعظم
فاريد ان يكون درندال لك ولو كان رولان

حيًا لسلمك اياه فهو ظمآن لورود دم الاعدآء فانت اهل له فاسقهِ نهلة من دمهم حتى اذا بلغت فيهِ منانا وطردت بهِ عدونا من المغرب الى المشرق نعيده الى قبر رولان

ج ل نعم الى قبره الى آكتينا ثم اذهب لالتقي المنية في مكان اقصى

بر ج واذا باعدتك المنية

ج بر أجد في طلبها حتى ادركها

بر ج (بعد سكوت طويل) مناسب كن كما شئت فان من تحبك تماثلك وقد خلق الله قلبينا متشابهين وهو وحده يجمع بينهما استودعك الله ياجرال

ل الجميع ايها الامرآء والابطال اخفضوا رؤوسكم لديهِ فهو اعظم منا

تمت رواية شارلمان

تنبيه

(من جامع هذه المنتخبات)

لما انعم الجناب الخديوي العالي عام ١٨٨٥ على حضرة صديقنا النبيه يوسف افندي خياط بالتشخيص في قاعة الاوبره الخديوية مدة شهرين في فصل الشتاء مثّل جوقة اذ ذاك هاتين الروايتين البديعتين (اندروماك وشارلمان) ببراعة لم تزل الى هذا اليوم موضعًا للثناء على حضرة مؤلف الجوق وعنايته باتقان فن الروايات العربية

واذ كان في الروايتين دوران مهمان يقتضيان علمًا واسعًا بفن التشخيص وتمثيل الوقائع على اختلاف مؤثراتها وهما: دور اورست في اندروماك واموري اوكانلون في شارلمان: طلب مدير الجوق الى حضرة شقيقهِ وخليلنا الذكي الحاذق انطون افندي خياط ان يقوم بامرها إدارةً وتمثيلاً فلبى الطلب واجاب دعوة العارفين بسعة باعه فمثّل الدورين في مصر والاسكندرية بما لا يزال أثر الكمال في اتقانهِ محفوظًا في الاذهان مذكورًا بكل لسان

فهذا وما نشأ عنهُ من استحسان الناظرين والسامعين لما في هاتين الروايتين من غرائب المؤثرات وحسن البيان وغير ذلك مما يذكر بهِ فقيدنا صاحب هذه المنتخبات كان لدينا في جملة البواعث التي اوجبت حفظها في هذه المجموعة فأفردنا لها فيها مقامًا واسعًا

منتخبات العصر الجديد والمحروسة ومصر الاخيرة وغيرها

كتب رحمهُ الله في مقالة نشرها في العصر الجديد موجهًا بها في الخطاب الى مصر وذلك بعد عودته اليها من بيروت لأثر وسود منصب رئاسة النظار في مصر الى دولة شريف باشا فقال

عند الصباح يحمد القوم السرى

غبنا وكانت اليك عودتنا

ياسكنًا لم يغب عن الفكرِ

خبرنا الدهر بين بعدك والـ

ـغدر فلم نرضَ خطة الغدرِ

وزادنا البعدُ في رضاك جوى

فاستحكمت منهُ علة الصدرِ

وما برحنا في ليل حيرتنا

حتى بدت منك آية الفجرِ

آية فجر الحرية من مجلس نور الوطنية
ناسخة احكام الجهالة مبددة ظلمات الضلالة

فاحملتنا اليك جارية
كانها بالذي بنا تدري
تشق جوف العباب مسرعة
وقلبها مثلنا على جمر

بجمر من الشوق اليك تضرمه الغيرة عليك يوم جنى محب ولاك اصغريه وجعلك اقصى غايته فصرنا الى حماك واقلنا تحت ظلالك

وما بغير مصر للمنى متطلب
وان كان اسباب المناء كثيرا

بل [illegible] وحاجة في النفس لا ترى العين من دونها شيئًا الا وهي كمال نعمتك وتمام بعثتك وظهور آثارك وعلوّ منارك ووصولك الغاية مما تروم وحصولك في المأمن مما تخاف لتكون دليل الشرف في سبيل النجاة وهاديه في مسلك النجاح

فقد رأيتك منتبه طرف الفكرة من رقدة ذي الغفلة تؤيد اميرك الكريم وتوفيقك العزيز فيما يريد من جمع الكلمة وتوحيد الوجهة واعلاء شأن الفضل ورفع مكان العدل وتثبت للغرب انك لا تزال حيًا تعرف نفسك ما لها ولا تنكر ما عليها آخذًا في ذلك بوسائل الحكمة واسباب الدربة حتى كانك عرفت السياسة طفلاً والفتها يافعًا وكهلاً وجبتها حزنًا وسهلاً ولست في شيء من ذلك وانما هي نبالة الطبع تؤدي الى الامل واصالة الرأي تصون من الخطل فاستوقفت اهل الغرب حيرة واستغرابًا واهل الشرق سرورًا واعجابًا فهؤلاء ينظرون اليك نظر المحب الآمل فيك او الداعي لك او الحاذر عليك واولئك يحدجونك بعين الغريب الطامع بك او الخائف منك او المرتاح اليك

ورأيت اميرك الهمام العلي المقام راضيًا عنك مستبشرًا بك حريصًا على مجدك مبرمًا ميثاق عهدك يروم منك الثبات فيما شرعت والحكمة فيما نزعت والاعتدال فيما سلكت والاحسان فيما ملكت وان تكون يده التي يدرأ بها عنك الشر ويجلب بها اليك الخير فتصلح بذلك حالك ويحسن ان شاء الله مآلك

ورأيت وزيرك الشريف ذا المقام المنيف مؤيدًا اجنتك مهدًا محجتك ناشرًا بنودك حافظًا عهودك ناهضًا بما انتدبته اليه قائمًا بما توكلت فيه عليه يصلح من شؤونك ما كان فاسدًا ويروج من امورك ما كان كاسدًا يجلب لك قلوب المنصفين ويقطع عنك ألسنة الجائرين سالكًا في ذلك مسلك الغيرة والاجتهاد والحكمة والتدريج شأن الحكيم الراشد ينظر الى ما وراء الامور ويكشف ما تحت الستور

ورأيت نبهاء قومك ووجهاء اهلك يجمعهم الاتحاد بعد الانفراد ويضمهم الائتلاف بعد الاختلاف فهم في المصلحة العمومية ساعون وعن اللغو واللهو معرضون علموا مزية المجد فالتمسوا ورأوا مقام الحمد فطلبوه وبدت لهم الحرية منيرة الطلعة باسمة الثغر باهية الجمال باهرة الجلال فحنوا اليها مظهري المحبة وجدًا وساقوا اليها جواهر الانفس نقدًا

وبين ذلك قلوب واجفة مثلك والنفس خائفة عليك وعيون محدقة بك وافئدة داعية

لك ومحبون امناء يخاطبون قومك بلسان
الغيرة والاخلاص وبيان الحب والاختصاص
فيقولون

ياقومنا لقد نلتم بالسلم والحكمة والرضى
والقبول ما بذل غيركم من اجله الاموال
واراقوا في سبيله دم الرجال وما لا يزال كثير
من الخلق يطمعون فيه ولا يجدون اليه سبيلاً
وهي نعمة لله واجبة الشكر ويد للامير لازمة
الذكر ومزية للشرق لا يطوي الزمان لها خبرًا
ومحمدة لمصر لاترى العين من مثلها اثرًا وما
نزيدكم علمًا بما لقي اهل الغرب في هذا السبيل
فقد برين السنة خطبائهم واقلام علمائهم في
الدعوة اليه اعصارًا وجرت اموال اغنيائهم
ودماء ابطالهم في الذود عنه انهارًا حتى رأوا
فيه كواكب الليل نهارًا وانتم لا عدمتم ادركتم
الغاية منه او تكادون لم تهرقوا فيه محجمًا ولم
تنفقوا دينارًا فحذار اخوان الاوطان ان تكونوا
مصداق قول القائل

ومن اخذ البلاد بغير حرب
يهون عليه تسليم البلاد

اعيذكم من ذلك بحكمة اميركم وثبات
وزيركم وهمة نبهائكم واتحادكم كلكم اجمعين كما
اعيذكم بالله من غرة الآمن ومكرة الظافر
وغفلة القوي وزلة العالم ومن حيلة المداجي
وخدعة المفاجي ومكر العدو وجهل المحب فانكم
بين الحساد والرقباء والمترددين منكم والذين
يخافون النور ان يظهر ما كانوا يسترون وعليكم
للاجنبي حقوق واجبة الاداء وذمة لازمة الوفاء
وفي الزمان احوال مفروضة الرعاية وضرورات
نافذة الاحكام

فاخطوا مع الدهر اذا ما خطا
واجروا مع الدهر كما يجري

وبعد فللحياة السياسية ادوارٌ من مثل
ادوار الحياة الطبيعية فهي تنتقل من الطفولية
الى المراهقة الى الصبا الى الكهولة الى الهرم ملزمة
في كل دور بحال وفي كل حال بشأن لاتتخطاه
وحدٍّ لا نتعدّاه ولا بد للامم من المرور بهذه
الادوار وان مرَّ عليها الصبر والانتظار فغاية
ما نستطيع ان نكون واسعة الخطا وان نجتنب
وقفات الخطا

ومعاذ الله ان اريد انكم لا تصلحون لما
تريدون بعد اذ ناديت لكم بهذا الحق سرًّا
وجهرًا شرقًا وغربًا في الباطن والظاهر والاول
والاخر لم يأخذني فيه لومٌ ولم اخشَ وعيدًا
ولكني اصونكم وانزه نفسي عن الملق والتغرير.
ولقد رأيت الذين حرصوا على الحياة السياسية
من قبلكم يلتمسونها باسبابها ويدخلونها من
ابوابها متدبرين متدرجين يراعون جانب
الامكان ولا يذهلون عن احكام الزمان والمكان
علمًا منهم بما تقتضيه الاحوال وان الطفرة في
عالم الوجود محال . هذا مع قرب الوسائل
ووفرة الاسباب وسابقة العهد وعموم المعارف
وكمال الدربة ووحدة القصد وعدم المعارض
وتمام الاستقلال

وما ينكر ذو عينين ان مصرًا لا تعدم
عددًا غير قليل من العلماء والفضلاء والنبهاء
وذوي الغيرة الوطنية والمعارف السياسية يقيمون
امورها ويديرون شؤونها وينظمون احوالها
فاذا حصلت لهم قوة الحرية واستقلال الرأي
لم يعجزوا عما ينهض به نبهاء الناس في البلاد

الحرّة فان لم يبلغوا بادئ بدء درجة الكمال فالهلال اول البدر والغيث اوّله انقطر ولكن سائر الامة في حاجة الى التأديب العلمي والتدريب السياسي فلا بد للوجهاء والنبهاء من مراقبة ذلك فيما تنزع اليه نفوسهم الذكية وان يجعلوا المطلوب بقدر الحاجة والمسئول بقدر القوّة

فما تحمل نفس غير طاقتها
ولا تجود يدٌ الّا بما تجـدُ

فاذا ارتقوا اوّل مراتب الكمال السياسي غير متزلزلين كانت الغاية اليهم ادنى والبغية لهم أيسر بما يحصل في الكافة من عادة النهوض بالاعمال والقيام بالامور والحرص على الحق والعلم بالواجب فهذه كلها ملكات كسائر الملكات العلمية والصناعية والخلقية لا تستحكم ولا تحصل الّا بعادة واستمرار بخلاف ما لو ارادوا ادراك الغاية قبل قطع المسافة او ارتقاء المعرج من غير سبيل التدريج فانهم في الاول يحاولون محالاً وفي الثاني لا يأمنون زلة القدم

على ان التدريج لا يفيد الوقوف كما ان التأني لا يتناول الاهمال فلا بد من الثبات والاستمرار مع الحكمة والاعتدال

وقلّ من جدّ في امرٍ يحاولهُ
واستصحب الصبر الّا فاز بالظفر

وما نضرب لمثلكم الامثال ان الملل آفة الاعمال وبلية الآمال ومجلبة الخسران والوبال فلا تهولنكم العقبات ولا ترهبنكم المصاعب ولا تروعنكم الحادثات ولا تخيفنكم المتاعب واذكروا انكم ساعون فيما تبرّد به في القبور رمم الاباء وفي المهود قلوب الابناء

وكيف تهنون ولا تثبتون وقد اسعدكم الزمان وساعدكم التوفيق فوائتم اهل الدهر على احياء الفضل واعلاء الحق ميثاقاً يطالبكم به الاحياء ويذكركم به التاريخ

والناس لا يبقى سوى
آثارهم والعين تفقد

بل قد امنت عليكمُ الوهن بانبهاء الوطن بما رأيت في مجتمعاتكم وما سمعت من سرائكم رأيت اثار الغيرة وعلائم الحمية وسمات النخوة الوطنية على وجوه مستبشرة من قلوب متوازرة على العزم متواثقة على الحزم متضافرة على الاتحاد متوافقة على الاجتهاد . وسمعت بشائر الفوز ووعود الثبات وعهود الوفاء بالسنة ما نطقت بغير الصدق من افواه ما عرفت غير الحق

فاذنوا لي ابشر الاحباء وانذر الاعداء وازيل مخاوف الصادقين واقطع آمال المنافقين واعد مصر والناظرين الى مصر بعين الرجاء والاقتداء انكم تتخذون الحكمة شعاراً والثبات سبيلاً والحزم دليلاً

هذه اماني محبٍّ ما ظهر فيكم بعلم ولا اشتهر بعرفان ولكن استوى فيه اصغراه فما كان في قلبه فهو على اللسان

الواجبات بقدر الحقوق

آية الحكمة في عالم الوجود وسنة العدل في هيأة الاجتماع ان يكون الحق والواجب متعاقبين متلازمين يتبع احدهما الاخر وينشأ عنه وجوباً فاما ترى حقاً بلا واجب يعادله فلا ترجُ هناك عدلاً واما تجد واجباً بلا حق يماثله فلا تطلب ثم انصافاً

فواجبات الامم تختلف بحسب اختلاف

احوالها ولا تكون على اي حال الا بمقدار ما لها من الحقوق . مثلها في هذا الشأن كمثل الفرد من الانسان له او عليه كهلاً كامل الرجولة موفور قوة البدن والعقل ما ليس له ولا عليه يافعًا او صبيًا او طفلاً لا يعي شيئًا

فكلما نقصت حقوق الامة بالحجر والقهر والاذلال رفعت كلفة الواجبات عنها بمقدار ذلك النقص وكلما وفرت حقوقها في الحرية والسواء من طريق العدل كثرت واجباتها فيما يحفظ تلك الحقوق ويمنع من انقلاب نفعها ضرًا وتحول خيرها شرًا

فان كان القوم عبيدًا ارقاء يصدعون بما يؤمرون ويكرهون على ما يكرهون ويمحون الارادة من مجموعهم باثباتها لواحد منهم اطلاقًا

وان كانوا عمي النواظر موتى البصائر لا يرون الا ما ينعكس عليهم بضياء نار الوهم يتعقلون الا ما كان منحصرًا في دائرة التقليد

وان كانوا الآت صماء يدارون فيما لا يعلمون لما لا يستفيدون منه نفعًا ولا يعلمون له قصدًا

فهولاء ليس عليهم من حرج ولا تثريب فيما يبدو من ضعف عزائمهم والتواء قلوبهم وقعودهم عن واجبات ذوي الحقوق الموفورة الا بقدر ما يؤاخذ الطفل على كسر الاناء والصبي على ايثار اللهو فقد قيل ان ضعف الهمة والنفاق والاهمال صفات ملازمة للرق والخوف والذل فان مررت بقوم يظهرون غير ما يضمرون ويقولون غير ما يعتقدون ويتغاضون عما يجب عليهم فاعلم وثبت السوء انهم في موضع استبداد ومكان استعباد وان رأيتهم على خلاف ذلك ينطقون بالحق ويجهرون بالصدق ولا تبعد الحرية فهم من رزق ولا تقرب اجلاً فانت ولك المناه في جنة عدل وفردوس انصاف

وان كان القوم احرارًا مختارين فيما يقولون ويفعلون ما لا يخالف حكم العدل ولا يخرج عن حد السواء

وان كان الامر شورى بينهم ينفذ الحكم فيهم بهم ويكون الاثر منهم لهم فهم الآمرون فيما يأتمرون وهم الحاكمون فيما يطيعون

وان كان اميرهم الذي عقدت عليه القلوب ورئيسهم الذي اجتمعت له الآراء وسراتهم الذين اعلام الفضل

فهولاء لا عذر لهم في ضعف الهمم وفساد النفوس واهمال الفروض فان حق الحرية ملزم بواجب العدل وحق الاختيار بواجب النزاهة وحق الامر والحكم بواجب التدقيق والانصاف وجملة هذه الحقوق المدنية والسياسية بواجب افتداء المصلحة العمومية بالمصلحة الذاتية

ولقد كنتم اهل مصر في الزمن السالف على عهد الجور والاستبداد عبيدًا ارقاء مستضعفين تسلب نعمتكم وتهتك حرمتكم ويستحل فيكم سائر ما حرم الله فلا تعرفون لانفسكم حقًا ولا تجدون للنجاة من الضيم سبيلاً فلم يكن عليكم من حرج في اهمال واجبات الوطن من دفع الاذى عنه وجلب النفع اليه وبذل النفائس والنفوس فيه لان هذه الواجبات لا تلزم الا عن حقوق معلومة من مثلها فاذا سلب الحق سقط الواجب

اللازم عنهُ

اما وقد بدا لكم طالع التوفيق في المظهر الشريف فنجوتم من اسار العبودية وحصلت لكم البعثة الوطنية فنلتم الحق الذي كان مسلوبًا او مضيعًا من قبل فقد لزمكم الواجب المتعين على سائر ابناء الاوطان الحرة في العالم الانساني لا مندحة لكم عنهُ ولا بد لكم منهُ او ينعكس الامر ويلتوي القصد وتختل الاحوال ويسوء المنقلب والعياذ بالله

اجل وليس الذي نلتم او كدتم تنالون من الحق يسيرا لتتسامحوا في اغفال الواجب اللازم عنهُ فقد اهرق الانكليز من اجلهِ دمًا عزيزًا واهلكوا مالاً كريمًا ولم ينالوهُ الا بمرور الايام وكرور الاعوام وتلاهم الفرنسيس في طلبه اواخر المئة الماضية فتهالكوا عليه واستماتوا فيه وتبعهم سائر الاقوام من بعد الى هذا العهد فنهم من فاز بهِ جملةً كالاميركان والهولنديين والبلجيكيين وغيرهم ومنهم من اخذ منهُ بنصيب كالنمساويين والايطاليين والالمان والعثمانيين والاسبانيين ومنهم من لا يزال في سبيل السعي اليهِ كالروس والكثير من الامم الشرقية الا وهو الحكومة العادلة الحقة الشوروية

نلتم هذه الحكومة بلا قتال ولا جدال من مكارم امير صادق النية بعناية وزير صحيح الوطنية بسعي رجال اصفياء الطية رأوا في قلوبكم جذوة غيرة فاضرموها وآنسوا من انفسكم شعلة همة فاوقدوها اضرموا الغيرة بالاقدام واوقدوا الهمة بحسن الاهتمام فاهتديتم بمنارهم وسرتم على آثارهم فالفيتم لدى الامير جانب رضى واشتمال وعند الوزير مكان قبول واقبال فانتقلتم بسرعة توشك لن تنفي ان الطفرة محال فانتم اليوم على مراحل مما كنتم فيهِ بالامس احيا الله ميت وطنيتكم من الرمس وصرتم في عداد السعداء تحت مطالع الشمس فاعيذكم بالفضل ان تذهلوا عن واجبات هاته السعادة وتلك الحياة

ان الوطني الحر وقد صرتم وطنيين احرارًا مرعي الحق الذاتي والحق المدني والحق السياسي آمنٌ على الروح والعرض والمال من السلب والهتك والاغتيال فلا بد له من حفظ الاحكام القاضية بتلك الرعاية والتزام الحدود المعينة في تلك الاحكام

والوطنيُّ الحرُّ مناً اهلٌ بقدر المستطاع للخدم والمناصب العمومية على وجه الاطلاق جدير بحسب الاستحقاق للرتب والكمالات المدنية بلا استثناء فلا بد له من بذل الهمة وصرف الاجتهاد فيما يجعله حريًا بالشرف قويًا على خدمة الوطن عارفًا بحقائق احوالهِ واقفًا على آثار ماضيه ودلائل آتيه مهذب الفكر مطهر القلب مثقف الطباع

والوطني الحر مساوٍ لجميع اخوانه في الوطنية والحرية معادل لهم في الحقوق المدنية والسياسية فلا بد له من رعاية حق السواء الى حد الاخاء بحيث لا يتولاه العجب والتيه في الرفعة والنجاح ولا ينالهُ الحسد والبغضاء في الحطة والاخفاق بل يكون على حد ما قيل

وما انا فيما سرَّني متطاولٌ

ولا انا فيما ساءني متقاصرُ

فيسعى ما وصل اليهِ امكانهُ في سبيل خدمة الوطن لعلمه بان الامة الحرة كاهل البيت الواحد يسعون في طلب الرزق على اختلاف

الطرق والمقادير ويأوي كل احد منهم الى المنزل مساء بما رزقه الله فيكون سعي واحدهم للكل وكلهم للواحد

والوطني الحر متأهل لانتخاب نواب الامة المنتدبين لتقرير الاحكام وجلب المنافع ودرء المفاسد وتنظيم الاحوال وصيانة الحقوق واعانة الحكومة على القيام بالامر العمومي فالواجب عليه ان يكون بصيرًا خبيرًا على بينة مما يترتب عليه النفع ومعرفة بمن يصلح لهذا الامر ونزاهة عن الغرض الذاتي وبعد من التقليد بلا رشد لا يقع اختياره الا على النبهاء النزهاء ولا يصدر في رأيه الا عن الرشاد والسداد ليأمن على وطنه ان تكون النيابة فيه لفاسد يسلك طريق الشر او جاهل لا يهتدي سبيل الخير

والوطني الحر جدير بالنيابة على شروط لا تتعدى كثيرًا من القوم فلا بد له من استكمال صفاتها ونوال معداتها من العلم بشؤون الامة واحوال الوطن ومجاري الاعمال ومواضع الصلاح ومظان المنفعة مع التنزه عن ميل النفس وشهوة القلب والتعفف عن غرض الذات وارب الاثرة والاخلاص في حب الامة والاختصاص بخدمة الوطن فان فاته ذلك او بعض ذلك فهو ناشب نفسه على ضد ابناء جنسه

وجملة القول ان الوطني المرعي الحقوق الفائز بالسواء المؤهل للانتخاب صادرًا منه وموسودًا اليه هو المأمور والآمر والمحكوم والحاكم والمسوس والسائس والمسود والسائد وهو القائم بنفسه على نفسه والعامل بذاته لذاته فالكل به ومنه فيه واليه وهي اعلى مراتب الوجود الانساني وارفع درجات الاجتماع المدني فلا بد المرتقي اليها من اداء حقها واقامة واجبها سعيًا واجتهادًا وجودًا بالمال والروح وطلبًا للمعارف والعلوم والتماسًا للفضائل والكمالات بحيث يصادف فيها محلًا ويكون لها اهلًا

وقد يسر الله للامة المصرية ارتقاء هذه الدرجة او قرب الوصول اليها بما قيض لها من مكارم الامير ومظاهر الاجتهاد والغيرة والوحدة الوطنية فلزمها القيام بالواجبات المترتبة عليها والتأهل لها بما تقدم بيانه من المزايا الوطنية والفضائل المدنية ولا شك ان ذلك لا يحصل الا بعموم المعرفة وانتشار العلم وهو ما نأمله في الحكومة السنية وما نرجوه من اهل الثروة والوجاهة والحمية

نأمل في الحكومة توسيع نطاق المعارف بتكثير عدد المدارس وتمهيد سبل الطلب واعلاء شأن العلم وانشاء المكاتب الابتدائية في المدن والقرى وفتح باب المجانية في التحصيل وتمهيد سبيل الالزام بالتعليم ولا اسف على النفقة في هذا السبيل فانها كنفقة الزارع في شراء البذر يثمر خيرًا وتنبت الحبة منه مائة حبة

ونرجو من ذوي الوجاهة والحمية الاقبال على مغارس المعارف بالنجدة المعنوية والمساعدة المالية تمثلًا بنظرائهم في الاقطار الغربية فهم اولى الناس بهذه الهمة المشكورة يحيون بها آثار آبائهم ويسعدون احوال ابنائهم فيثبت لهم التاريخ ذكرًا لا تمحوه الاعصار ما تعاقب الليل والنهار

الحياة السياسية

ان للوجود الانساني في هذه الحياة الدنيا ثلاثة ادوار متوالية يأخذ بعضها باطراف بعض الاول دور الفطرة وهو الوجود الطبيعي والثاني دور الاجتماع وهو الحالة المدنية والثالث دور السياسة وهو موضوع كلامنا في هذا المقام فالمرء يوجد ساذجا فطريًا يلتمس الغذاء والمبيت وسائر الحاجات الطبيعية مما تصل يد امكانه اليه ثم يدفعه الحرص على الذات الى حفظ النوع وتلجئه كثرة الحاجات الى طلب الاعانة فيتألف ويجتمع فيصير مدنيًا ثم يتقدم في هذه المرتبة فينظر في شؤون نفسه ويهتم باحوال جنسه فيصير سياسيًا وهو الانسان المدني الكامل الحقوق والواجبات

ولا شك في وصولنا الان الى هذه المرتبة العالية وحصولنا في هذا الدور الخطير بما اطلق لنا من الحرية وما تقرر لنا من الحقوق السياسية عفوًا واختيارًا من دون غصب يلزم فيه الرد ولا تقرير يحتمل النقض ولكنا لا نزال في دور الطفولية من هذه الحياة فلا بد من مرب حكيم يأخذ بيدنا فيما نعانيه فلا نسقط ونحن في اول الدرجات ومن دليل راشد يهدينا الصواب فلا نضل ونحن في اول الطريق

ولا يتوهمن محب الحرية ان الحاجة الى المربي والدليل منافية لما تقتضيه حريته او مشعرة ببقاء الاستبداد فان هذه الحاجة قد عرفت والفت في اظهر البلاد تمدنا واحرص الامم على الحرية السياسية وكانت ولا تزال من لوازم النماء والبقاء في الاجتماع الانساني ولن نبرح كذلك مادام في الارض علماء وجهلاء وحكماء وسفهاء وخاصة وعامة وما دام الانسان محل خطاء ونسيان ولكن يشترط في المربي او الدليل ان يكون ممن اجتمعت الكلمة عليهم وحصلت الثقة بهم والا فهو من ذوي السلطة الناشئة عن القوة في جانبه والخوف او الوهم في جانب الرعية ليس الا

وهذا الشرط حاصل لاريب في اولي الامر منا فان الجناب الخديوي المعظم ايده الله قد عرف بالرغبة في اصلاح الوطن والميل الى اعلاء شأن الامة والحرص على حريتهم حتى صار يقال وينشر في عهده ما كان يخشى بعضه من قبله فكثرت في ايامه الجرائد وكانت نزرًا قليلًا وتألفت الجمعيات الخيرية والادبية ولم تكن شيئًا مذكورًا واطلقت الناس حرية الكلمة وكانوا يتكلمون في ديارهم همسًا ولا يأمنون

اما النظار الكرام فهم هم الذين اختارتهم الامة بارادة ذلك الامير العلي الشأن ثقة بهم وعلمًا بانهم اصحاب الرئاسة الحقة والزعامة المستحقة بين الذين يرومون احياء مصر لاهل مصر ويريدون ان يكون الوطني في مقام الانسان فائزًا بحقوقه ناهضًا بواجباته مساويًا لجاره غير معارض في داره يحصد ما يزرع للعيال لا لاهل الاغتيال ويجني ما يغرس للاولاد لا لاهل الاستبداد وقد اخذ هولاء الادلاء الراشدون في تمهيد سبيلنا وازالة العقاب منه متوسلين الى ذلك بالحكمة والاعتدال آخذين باسباب التؤدة ومراعاة الاحوال حتى

وثق بهم الاجنبي فضلاً عن الوطني وبدت مقدمات سعيهم وآثار اجتهادهم بظاهر حسن الادارة وإقامة العدل وتقرير المساواة وإصلاح الخلل السابق تدريجًا فاستحكمت علائق الولاء بينهم وبين المتبوع الكريم وتأيدت صلات الموالاة بين حكومتهم والدول العظام كما تدل عليه اقوال وزرائها على منابر المجالس وكلام وكلائها في دوائر المخابرات

فالواجب على الوطني الراشد ان لا يعبأ بعد ذلك بما تنشره بعض الجرائد مما لا مكان له من الصحة جهلاً منها بحقيقة الحال او ميلاً مع الاهوآء او اضلالاً لافكار ابناء الوطن المصري فان اراجيف تلك الجرائد بديهية الفساد

وكذلك يجب على الصحف الوطنية التي هي في مقام الارشاد والهداية الا تقلق الخاطر عبثًا بايراد هاتيك الاراجيف على علم ببعدها من الصحة وإن كان منها ما يلزم نقله بيانًا لتفاصيل الاحوال السياسية فلا اقلّ من التفريق بينهُ وبين مقاصد الحكومات وآرائها كراهةَ ان يقع اللبس في الامور فينشأ عنهُ النفور في محل الائتلاف والوحشة في مكان التقرب والكدر في موضع الصفآء خصوصًا وإن الحكومة السنية على يقين من ان الدول المحبة لا تقصد بنا الاَّ الخير ولا تنوي لنا الا الموالاة وإنها تتركنا وشأننا نصلح منهُ ما يحتاج الى الاصلاح وننشئ ما يترتب عليهِ النجاة مما لا يمس حقًا مرعيًا ولا يؤثر في العهود المبرمة شيئًا ونحن في اهتمام بهذا الشأن نسأل الله فيهِ فوزًا قريبًا

***

تبين في المطلب السابق ماهية هذه الحياة من طريق الاجمال وإنها عبارة عن وصول المرء في هيئة الاجتماع الى درجة الاهتمام بامور نفسه والنظر في احوال جنسه فبقي ان يعلم كيفية سيره في ذلك السبيل وما يترتب عليهِ وما يحق له ان يكون فيهِ ليكون على بينة من الامر فيأخذ باسبابه ولا يدخله من غير ابوابه

ان هذه الحياة توجب للوطني ان يكون حرًا في رأيه متصرفًا في شأنه الى حد ان لا يضر بالهيئة المجتمعة ولا يمس شأن سواه فهذه الحرية على شرطها المذكور تقتضي العلم بالمصلحة العمومية والحدود الشخصية وهو ما يعبر عنه بالادب السياسي ووجه الضرورة في معرفة هذا الادب ان المرء اذا عرف مصلحة قومه سعى فيما يوجب لها البقآء والنمآء وإذا رأى حدود اخوانه اقام لنفسه حدًا لا يتعداه وخطأً لا يتخطاه بخلاف ما اذا جهل ذلك فانه لا يأمن حينئذٍ ان يظهر بما يخالف تلك المصلحة ويفسد هذه الحدود فتكون حريته ضررًا باوطانه ووبالاً على اخوانه

وليس هذا الادب مما يؤخذ بالمكاشفة ويحصل بالسليقة او يعرف بالبداهة بل لا بد في تحصيله من الطلب والاجتهاد وحسن الاقتداء ودقة النظر والتبصر في احوال الناس من قبل وفي الحال وهيهات مع ذلك ان يحصل بقدر اللازم ويتم بحسب المرام الا بعد توالي الاجيال وتعاقب الاعوام يدل على ذلك ان الذين سعوا اليهِ من قبلنا بمئآت من السنين سعي من شمر ذيله وادرع ليله مجدين ساهرين بياض

النهار وسواد الليل لا يزالون على مراحل من غايته الكمالية يرون ذلك من انفسهم ويعترفون به سرًا وجهرًا ولا تأخذهم عزة الانفس في الاسترشاد بالسابقين منهم وبآحاد اهل العلم السياسي وافراد ذوي الكمال المدني فهم يشربون باسماعهم خطب الوزراء والنواب ويأكلون بانظارهم منشورات الجرائد الوضاء فيردون من تلك الخطب سلسبيل الحكمة والاعتدال ويتناولون من هذه المنشورات غذاء الحمية والوطنية وفيهم بين ذلك علماء تدبير ورجال حكمة وزعماء سياسيون وفضلاء رحالون يكشفون لهم حجب الاوهام عن اوجه الامور ويجلون للافهام صور الحقائق فلا تكاد تخفى عنهم خافية الا ما لا يعلمه غير الله

فاذا حصل هذا الادب للوطني السياسي وكان مع ذلك نبيل النفس طاهر الذيل صادق النية قادرًا على ايثار المصلحة العمومية فله حينئذ (حينئذ فقط) ما لسائر اهل الحياة السياسية وهي حقوق كريمة مقدسة لا ينبغي ان يمسها الا المطهرون من دون الدنيئات حرية رأي وحرية قول وحرية انتخاب

ولكل من هذه الحقوق الثلاثة حد لو تعداه لكانت الحرية فيه شرًا من القيد واشنع من العبودية فحد حرية الرأي ان يكون مبنيًا على القياس موافقًا للحكمة مطابقًا للصواب وحد حرية القول ان يراد به الخير ولا يجاوز فيه حد المنفعة والملاءمة ولا يمس شرفًا مصونًا ولا يهضم بريئًا امينًا ولا ينشر عن غير علم يقين وحد حرية الانتخاب ان يراد به مصلحة الوطن المفروض ليس الا

وقد هيئت حكومتنا السنية بتقرير هذه الحقوق وتعيين هذه الحدود اخذًا بما يحق لها وما يجب عليها من ذلك وصدورًا عن الرأي العمومي الذي اختارها لتكون دليله في هذا السبيل فبقي على الجرائد الوطنية ان نقتدي في ذلك باثارها وتهتدي بانوارها فتسلك بالاذهان مسلكًا سلبًا من الآفات خاليًا عن العقبات وتشرب القلوب سياسة صافية سائغة زلالاً تفيدها عافية ولا تزيدها اعتلالاً مجتنبة في كل ذلك ما يشيعه المرجفون متجافية عما يرجف به اهل الاغراض مما لا يصح التعويل عليه ولا يكون له في جانب التصديق مكان جاعلة مصلحة الوطن نصب عينيها في كل حال عالمة انها بمنزلة المربي للارواح والعقول فلا يحسن بها ان تكون من المفسدين

وبقي على الوجهاء والنبهاء والرؤساء والعلماء وسائر ذوي الكلمة النافذة ان يحسنوا السيرة ويطهروا السرائر وينبذوا الاغراض الذاتية نبذ النواة ويطرحوا الاهواء النفسانية طرح القذاة ويسيروا بالناس في طرق السلامة الى غايات الهناء والكرامة فهم في الركب الاجتماعي بمقام الادلاء واذا لم يهتد الدليل سواء سبيل فغاية الركب الضلال

وعليك يا ايها الوطني كائنا من تكون ان تحرص على شأن اوطانك حرص البخيل على درهمه وتخاف على منفعة قومك خوف الجبان على دمه وتعلم انك ان احسنت فلنفسك وان أسأت فعليها وعلى ابناء جنسك اذ ليس ما تتصرف فيه بحريتك مما يعود ذاهبه او

يمكن الاعتياض منه بسواه وانما هو المصلحة المقدسة الوطنية فحذار ان تأخذك فيه الحدة ويتولاك النزق اغترارًا بما وصلت اليه وذهولا عما كنت بالامس عليه

فانت في اول درجة من مرقاة السياسة وفي اول مرحلة من طريق الحرية فلن تبلغ الدرجة العليا الا ان صعدت سائر الدرج ولن تدرك الغاية القصوى ما لم نقطع سائر المراحل فان حاولت غير ذلك لم تأمن الهبوط من الدرجة التي بلغت والرجوع من المرحلة التي وصلت بل ربما صرت على مسافة اعوام مما كنت ترجو ادراكه بايام

هذه نصيحة مخلص في محبتك ومشورة حريص على منفعتك لا يسألك عليها اجرًا ولا يلتمس شكرًا

فان لم تكن لمقال النصيح
سميعًا ولا عالمًا انت به
ينبهك الدهر من رقدة الـ
ـذهول وان قلت لا انتبه

***

الادب السياسي على ما عرفناه في المقالة السابقة لا يحصل لافراد الامة كلهم اجمعين ولا يكون في الذين يحصلونه سواء بمقدار واحد لانه من الملكات الصناعية العلمية والملكة لا تحصل الا بتكرار العمل وان حصلت فانها تختلف استحكامًا وكمالاً بحسب اختلاف القابلية والتفرغ في الناس

على ان الادب السياسي وان لم يتيسر عمومه في الامة الا انه قد يحصل لافراد كثيرة منهم على مقادير مختلفة فيمكن لمجموعهم ان يسيروا في سبيله آمنين مهتدين اقتداء وتقليدًا او يتدرجوا به في مراتب الحياة السياسية حتى يتوالى التكرار وبطول الاستمرار فيصير فيهم من الملكات الذوقية التي تعرف ولا تعرّف كما كان العرب في الجاهلية بالنظر الى اللغة ينطقون بالكلام المركب بالوضع ولا يعرفون له من قاعدة غير الذوق

وانا اذا تأملنا احوال الامم العريقة في التمدن والسياسة لم نرَ هذا الادب في احد مجموعها بقدر الحاجة ولم نره في الافراد السابقين على حد سوى وانما هو في عدد كثير من ذوي رئاستهم وارباب الكتابة والخطابة فيهم يعقدون له الوية مختلفة الالوان فتسير العامة تحت ظلالها فرقًا متنوعة المسالك مع وحدة الغاية للجميع الا الذين احترقت اذهانهم بنيران الحدة والطيش وما هم بكثير وان كثر ما يضجون وما يعجون

ولكن مهما بلغت الامة من مبالغ السياسة وكثر عدد افرادها المتأدبين بذلك الادب فلن يكون لها نماء ولا بقاء في الحياة السياسية ما لم تكن ذات وجهة معلومة ووحدة لا تقبل النزاع والخلاف يدل على ذلك تقدم الذين اتحدت وجهتهم وتأخر الذين تفرقت كلمتهم من قبلنا وفي هذه الايام

فان قيل ما لنا لا نرى تفرق الامم الاوربية اقسامًا واحزابًا مانعًا من تزايد ثروتهم وتعاظم قوتهم واستفحال امرهم في الحياة السياسية قلنا ان اولئك الامم لا يختلفون على غايتهم المقصودة بالذات وانما تتنوع الطرق التي يسلكونها الى تلك الغاية فان كان الفرنسوي جمهوريًا

او ملكيًا او امبراطوريًا فهو فرنسوي على كل حال وقبل كل شيء وإن كان الالماني محافظًا او نجاحيًا او اجتماعيًا فهو الماني من وراء ذلك وهكذا الانكليزي والايطالي والنمسوي وسائر اهل المدنية والحياة السياسية

وما قيدنا الوحدة اللازمة لهذه الحياة بان لانقبل النزاع والخلاف الا احترازًا مما يحسب في الظاهر موضع ائتلاف واتحاد ولا يكون كذلك في الواقع ونفس الامر ومما لا يمكن ان تجتمع كلمة الامة بجملتها عليهِ لاختلاف الاراء وتنوع العقائد فيهِ فان هذه الجامعات وان كانت جديرة بان تحفظ وتصان الا انها بعيدة من السياسة لتعلقها بالنظر الفكري وتجردها في الذهن عن المحسوس فضلاً عن كونها غير واحدة في مجموع الامة فالجدير باهل الحياة السياسية من اي الناس كانوا ان يجعلوا الوطن وحدتهم لامتناع الخلاف فيهِ بين ذويه

ومعلوم ان قدر الشيء يعلو و يسفل و يزيد وينقص بمقدار ما يكون لهُ من الشأن وما يتعلق بهِ من المنافع فاذا كان الوطن هو الوحدة التي تجمع كلمة الامة عظم بذلك شأنه المعنوي وتعلقت بهِ المنافع الكلية وصار المحور الذي تدور عليهِ المقاصد والمساعي فيرتفع قدره و يعلو مكانه واذا ارتفع قدر الوطن فذلك يعود بالشرف والعز على ساكنيه لانه لا حقيقة لهُ الا بهم وفيهم ولا رفعة فيهِ الا منهم ولهم فهم اياه وهو لفظ وجودهم معناه

فيا ابناء الوطن العزيز لئن فرق بينكم اختلاف الاراء وتنوع المشارب وتلون التصورات فقد وجدتم في الجامعة الوطنية ما تأتلفون بهِ وتجتمعون عليهِ فيجعلكم عصبة خير متلاحمة الاطراف متوازرة متضافرة كالبنيان المرصوص فهلم الى هذه الجامعة ننشر لواءها ونرفع منارها ونظهر للعيان آثارها باعمال تثبت التنزه عن المقاصد الدنية والتعفف عن المآرب الذاتية واقوال تشف عن صحة الابصار والبصائر وحسن الاسرار والسرائر لعلنا نقطع ألسنة الذين يرموننا بالجهل والغباوة والبعد عن مراتب الحياة السياسية ولعلنا نحقق آمال الذين يتمنون لنا السعادة وحسن الحال وبلوغ الاماني وادراك الآمال ولعلنا بحول الله نكون من المفلحين

وسنبين ما هو الوطن وما حقه علينا فموعدنا قريب وعلى الله نتوكل واليه ننيب

***

تقرر فيما سلف ان لا بد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجرًا صلدًا وان خير اوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيهِ ونحن الان مبينون بعون الله ماهية هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقًا فهو السكن بمعنى ان نقول استوطن القوم هذه الارض وتوطنوها اي اتخذوها سكنًا وهو عند اهل السياسة مكانك الذي تنسب اليهِ و يحفظ حقك فيهِ ويعلم حقه عليك وتأمن فيهِ على نفسك وآلك ومالك ومن اقوالهم فيهِ لا وطن الا مع الحرية وقال لابروير الحكيم الفرنساوي لا وطن في حالة الاستبداد ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب سمية وكان

حد الوطن عند قدماء الرومانيين المكان الذي فيهِ للمرء حقوق وواجبات سياسية

وهذا الحد الروماني الاخير لا ينقص قولهم لا وطن الا مع الحرية بل هما سيان فان الحرية انما هي حق القيام بالواجب المعلوم فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق وهما شعار الاوطان التي تفتدى بالاموال والابدان وتقدم على الاهل والخلان ويبلغ حبها في النفوس الزكية مقام الوجد والهيام

اما السكن الذي لا حق فيهِ للساكن ولا هو آمن على المال والروح فغاية القول في تعريفه انه مأوى العاجز ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلاً فان عظم فلا يسر وان صغر فلا يساء قال بروير السابق الذكر ما الفائدة من ان يكون وطني عظيماً كبيرًا ان كنت فيهِ حزينًا حقيرًا اعيش في الذل والشقاء خائفًا اسيرًا

على ان النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة باهداب الشرف الذاتي فهو يغار عليهِ ويذود عنهُ كما يذود عن والده الذي ينتمي اليهِ وان كان سيء الخلق شديدًا عليهِ ولذلك قيل في هذا المقام ان ياء النسبة في قولنا مصري وانكليزي وفرنسوي هي من موجبات غيرة المصري على مصر والفرنساوي على فرنسا والانكليزي على انكلترة فانكر ذلك بعض الناس وكان الامر لاشك سوء فهم او سوء افهام

وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدودًا الاول انه السكن الذي فيهِ الغذاء والوقاء والاهل والولد والثاني انه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان والثالث انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز او يسفل ويذل وهو معنوي محضًا

فاذا تقرر ذلك ما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه فهو سكنه الذي يأكل فيهِ هنيئًا ويشرب مريئًا ويبيت في الاهل امينًا وهو مقامه الذي ينسب اليهِ ولا يجد في النسبة عارًا ولا يخاف تعييرًا وهو الان موضع حقوقه وواجباته التي حصلت لهُ بما اوضحناه من دخوله في دور الحياة السياسية

وللحب على اهله شروط محفوظة عند الاذكياء مجهولة عند المدعين الاغبياء فما تنفع فيهِ الشكوى ولا تقوم لصاحبه دعوى الابيان من الواقع وشاهد من الفعل وما احسن ما قيل

دلائل الحب لا تخفى على احدٍ
كحامل المسك لا يخلو من العبقِ

ولهُ مراتب مناسبة لموضوعه موافقة لمنشاه فهو في الكرامة كريم وفي النبالة شريف وفي المأثرة حميد وفي العز والمجد رفيع وفي الوطن جامع لكل هذه الصفات فان قيل في حب الحسان

احبك حبًا لو تحبين مثله
اصابك من وجد عليَّ جنونُ
لطيفًا مع الاحشاء اما نهاره
فدفع واما ليله فأنينُ

فقل في حب الاوطان:

احبك حبًا لو تحبين مثله
اصابك منه يادبار تغير
شديدًا مع الاشواق اما نهاره
فسعي واما ليله فتفكر

ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر والباسهم جميعًا لباس الجهالة والذل ولكن أبت الحوادث الا ان تثبت لنا وجودًا وطنيًا ورأيًا عموميًا ولو كره المبطلون على ان منهم فئة لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سنساف القول من مثل اننا تعودنا احتمال الظلم والحيف والفناء والخدمة والرق فلن يستقل لنا رأي ولن نهتدي سبيل الحرية كأنما هم لا يعلمون ان اهل الغرب اجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف اعصارًا او كانوا في قديم الايام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح وان العالم باسره كان فريقين احرارًا يظلمون وعبيدًا يطيعون او لم يكن في بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الارض لغيرهم ويباعون كما تباع العجماوات او لم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السالفة لا يزال في بلادنا ستون الفًا او سبعون الفًا عبيدًا للرهبان

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيس من الوصول الى ما ادركوه من رفعة المقام وان بروا امثال تياوس وجربتي وغامبتا في ابناء الذين كانوا من قبل عبدانًا ارقاء

ولئن كان من فضل هذه المائة ان يكتسب في صدر تاريخها تحرير ارقاء العصر السالف فلقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء ان يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا ارقاء في هذا العصر وحسن ذلك ابتداء وحسن ذلك ختامًا

السياسة والاخلاق

قال احد حكماء الفرنسيس: اتى على الناس الوف من السنين وهم يتصورون ويقولون فما ترك الاول للآخر وجاء السلف باحسن ما يمكن ان يقال في الاخلاق (والسياسة) فغايتنا جمع ما نثروه والتقاط ما اسقطوه. ونحن في هذه المطالب مصداق ذلك القول فهي شذرات لبعض حكماء العصر بالحكمة من خطرات الفكر تنسج على هذا المنوال وتنشر تحت هذا العنوان

(١)

قالوا دع السياسة لاهل الرئاسة فهم فيها احق وبها اعلم وعليها اقدر

لا يعرف الحكم الا من يكابده
ولا السياسة الا من يعانيها

ونقول هل اتى على الناس حين من الدهر لم يروا واحدًا او غير واحد من ذوي الاقلام والافهام يبحثون عن حقائق السياسة من خلف ستور العزلة وينظرون الى آداب الاخلاق من وراء حجب الخفاء ... ألف الكاتب الفرنسوي (روسو) كتاب الميثاق الاجتماعي في السياسة وشعر من اهل زمانه بمثل ذلك الاعتراض فاجاب: يقولون أ انت امير

ام انت حاكم لتكتب في السياسة واقول لا
ولكني من اجل هذا كتبت فاني لو كنت اميرًا
او حاكمًا لما اضعت الزمان في كتابة ما ينبغي
ان افعل بل كنت افعلهُ او التزم السكوت

ولكنهُ مقال يشفُّ عن حسن الظن
بالنفس فان قبل من مثل روسو فلا يقبل من
سائر الناس ولذلك لسنا نتخذه حجة على حقيقة
خوضنا في هذا البحث ولكن حجتنا في ذلك
انه لا يلزم الباحث في الاحكام والقوانين
السياسية ان يكون اميرًا او حاكمًا او وزيرًا
كما لا يلزم المؤرخ الناقد ان يتولى كل خطة
ويشهد كل واقعة ويحضر كل حادثة يقع
نقده عليها بل من حقوق الانسان الطبيعية
بل من واجباته ان ينظر فيما يمسه وما يحيط
بهِ من الامور الدنيوية والاحوال الاجتماعية
ولقد جاز للمرء ان يبحث عن اسرار الوجود
ويستكشف نواميس الطبيعة في حالة كونه لا
يستطيع تغيير شيء من نظامها ولا يقوى على
مخالفة حرف من احكامها. فكيف يحظر عليهِ
النظر في النظام الذي هو جزء منه والاحكام
التي هي من وضع الانسان

نعم وقاية النظام وانفاذ الاحكام واجراء
ما يتعلق بذلك من الامور منوط باهل الحكم
لمقدرتهم عليهِ واستحكام ملكتهم فيهِ واختصاصهم
بهِ من دون سائر الناس الاَّ ان تقرير اصول
الاحكام وتحديد شروطها وتبيين انواع الحكومة
وتعيين الحقوق والواجبات كل ذلك من باب
العلم لا الحكومة فان اهل الحل والعقد مشتغلون
بالعمل عن التصور ولو راموا الدخول في
المباحث الخلافية والمسائل الخيالية لاهملوا
الشؤون واضاعوا المصالح التي يجب عليهم
حفظها من الضياع ولكن اهل البصيرة والرشد
منهم ينظرون الى ما يقال في ذلك بعين
التأمل والاعتبار فيأخذون بالنافع منهُ وينبذون
ما لا نفع فيهِ كما هي الحال في رجال حكومتنا
الحرة واولي امرنا الراشدين في هذه الايام

فاذا تبين ذلك مما ذكرناه ثبت وجود
علمٍ باصول تعرف بهِ احوال السياسة والحكومة
لا احوال حكومة معلومة مقصودة بالذات
ولكن الحكومة على الاطلاق بالنظر الى طبائعها
وقوانينها واشكالها الاصولية وما يجب عليها وما
يجب لها وما ينشأُ عنها من الآثار وهو ما سماه
بعضهم بالفلسفة السياسية

(٢)

على ان السياسة وان كانت من حيث
هي علمًا منفردًا بقواعد معلومة متعلقة بنظام
امور وسمط شؤون لا ينبغي ان تختلط بغيرها
في حال ما الا انهُ من النافع اللازم الا تنفصل
عن العلم الذي تمسه من كل ناحية وتتصل
بهِ من كل سبيل وتبنى عليهِ في كثير من
الاحوال الا وهو علم الاخلاق المسمى في بعض
مظاهره ادبًا وفي بعضها تربية وحكمة

ولم يكن الاقدمون في ريب من وجوب
هذا الاتصال بل بالغوا في تمكينه وتقريبه
حتى جعلوا السياسة والاخلاق علمًا واحدًا لم
يفصلوا بينهما ولم يميزوا احدهما من الاخر
بشيء. تدل على ذلك تصانيفهم في الحكمة والسياسة
بما بنيت عليهِ من وحدة الموضوع وان كتاب
السياسة منهم هم الحكماء الافاضل المربون
الباحثون عن اداب الاخلاق كافلاطون

وارسطو وشيشرون .

غير ان اتساع نطاق المعارف والعلوم في الاعصر الاخيرة بانفساح مجال التصور وتوفر مادة الاختبار واجتماع اشتات الاثار قد اوجب اختصاص كل من هذين العلمين بفريق من الباحثين يقتصر على النظر فيه غير مبال بالذي يليه كما حصل في كثير من الفنون التي كانت فيما سبق فروعاً من اصل واحد معلوم ثم صارت الان بمنزلة الاصول يختص كل منها بطائفة من العلماء كالطب الذي كان يشمل الجراحة وعلم الطبائع والامراض الباطنية وعلل العيون والاسنان وسائر ما يتعلق بعلم الابدان وهو الان علوم مستقلة على نوع ما بتعدد هذه الفروع ولكل علم منها رجال يقومون عليه فيقال لزيد فسيولوجي ولعمرو طبيب اسنان ولبكر طبيب عيون ولخالد طبيب نساء وهلمَّ جرا

ولكن اختصاص اهل الحكمة والتربية بعلم الاخلاق تفرغاً له واستيفاء لما اقتضاه الاتساع واختصاص اهل الادارة والتدبير بعلم السياسة تجرُّداً له واستيعاباً لفروعه الكثيرة غير مانع من تلازم العلمين واتصال احدهما بطرف الاخر وجوباً كما يتصل طب النساء بالفسيولوجية وطب العيون بالامراض الباطنية والكل باصول الطب العمومي . وذلك لان السياسة تتناول حتى التربية والتهذيب والتأديب لغة واصطلاحاً وفي واقع الامر وعلى اتصالها بعلم الاخلاق حجة نظرية وحجة واقعية

الاولى ان علم الاخلاق والحكمة الادبية هو الذي يسمو الفلسفة السياسية وتعلم غايتها الحقيقة لما انه مبني على العدل الذي هو قسطاس الاعمال والفضيلة التي هي حد الكمال كما سيجيء

والثانية انهُ لا قيام للامة ولا قوام للدولة الا بادب زاجر للانفس عن السوء واخلاق كافلة بحفظ النظام وتربية عمومية يتيسر معها نفوذ الاحكام والادب وحسن الطباع والتربية من فروع علم الاخلاق وهي من لوازم السياسة فهو وعلم السياسة متلازمان

(٣)

تفصيل الحجة النظرية والحجة الواقعية على اتصال علم السياسة بعلم الاخلاق

الاولى اذا صرف النظر عن التربية واحوال الطباع والحكمة التي هي البحث عن الحقيقة والعدل تاه الفكر في اصول الحكومة وعجز عن معرفة الواجب والجائز والمحظور والمكروه لامتناع العلم بذلك من التاريخ او الآثار ولانه لو حصل هذا العلم الممتنع لما دل على احسن تلك الاصول لامكان وقوع الخطاء والظلم وخلاف الحق في الاصل الاول كما امكن وقوعه في الكثير مما تفرّع عنه . فلا بد والحالة هذه ان يكون الحكم في ماهية الحكومة الحقة مبنيًا على المقابلة بينها وبين موجب العدل ومقتضى الفضيلة وهو علم الاخلاق فان الحكومة ليست بآلة مركبة من اجزاء معلومة تدار على اعمال معينة غير قابلة التغيير وانما هي جسم مؤلف من رجال ذوي طباع واخلاق فهي بمنزلة موجود واحد له غاية ادبية وحقوق مدنية وعليه واجبات فغايتهُ حسن الحال

وحقوقه اجراء الحق وواجباته اقامة العدل وكل ذلك لا يحصل الا بالفضيلة في جانبو وفي جانب الامة معاً (والفضيلة غاية علم الاخلاق)

والثانية ان الحرية التي هي غاية الحياة السياسية والكمال المدني لا تكمل ولا تحصل الا بالفضيلة فان المملكة الحرة ان هي الا بلاد تجوز فيها امور كثيرة محظورة على الناس في بلد غير حر من مثل الاجتماع والخطابة والكتابة والغدو والرواح والادلاج واطلاق الارادة في اهواء الانفس المتعلقة بها بالذات وهلمَّ جرّا فان وجدت هذه الحرية مع فساد الطباع وسفالة النفس واستحكام الجهل وانتشار الرذيلة وضياع الفضيلة كانت مدرجة للخلل والفساد وذهاب الحقوق وقيام بعض الناس على بعض يتنافسون و يتقاتلون فيغلب القوي الضعيف ولا يبقى من فارق بين الانسان وسائر الحيوان اذ تغلب الشهوة على الشهامة ويستولي الشره على العفة ويستعلي حب الذات على الحق فتنقلب الحرية استبدادا بيد الاقوياء وتنوب التحزبات عن الرأي العمومي فينسى الذين تولاهم الفساد واجباتهم الذاتية والوطنية والانسانية ويبيعون انفسهم ووطنهم وحقوق الانسان بشهوة القلب ينالونها وحاجة في النفس يقضونها . والجملة ان السياسة لا تصح الا اذا بنيت على الحرية والحرية لا تحصل الا بالفضيلة (والفضيلة غاية علم الاخلاق)

(٤)

تبين بالحجة النظرية والشاهد العملي ان علم السياسة متصل بعلم الاخلاق غير انه لا يلزم من ذلك الاتصال كون الفضيلة هي الغاية المقصودة بالذات من الحكومات . فالحكم لم يكن الا لحفظ الحق اما الفضيلة فهي واجبة على الافراد . وغاية الدولة العدل ولا عدل الا مع حرية الامة ولكن استعمال الحرية لا يخلو عن الضرر الا اذا اهتدى الوطني فيه سبيلاً مستقيماً فعرف شأن اخيهِ واعترف حق دولته وواطنيه ولم ينسَ واجبات الوطن فالسياسة من هذا الوجه محتاجة الى علم الاخلاق وان لم تكن مبنية على الفضيلة

أرأيت لو ذهبت الامانة وعدمت الشجاعة وزالت الاستقامة وضاع حب الوطن فكيف تكون احوال الدولة والامة . . أتوجد في اهل القضاء ما يغني عن النزاهة . . اتحدث للحامية ما يعوض من الاقدام . . اتبدي لاهل الادارة ما ينوب عن العفاف او تبدع للكافة ما يكون بديلاً من المحبة الوطنية . . فان قلت نقيم على اهل القضاء رقباء ونجعل لذوي الادارة رؤساء قلنا اذا لم يكن رقباؤك ورؤساؤك من الفضلاء فما هم بمصلحين فالحاجة الى الفضيلة واقعة على كل حال . وان حسبت نظام الجند كافياً في تعويد الشجاعة وقانون الاحكام مغنياً عن الادب الوطني فاعلم ان النظام والقوانين عوامل غير محركة وحواجز غير حصينة لا تجلب حسنة معدومة ولا تدفع سيئة في النفوس وانما نظام الشجاعة في القلوب وقانون الوطنية في الاحشاء فليصلح القلوب من رام من الجند الحماية وليطهر النفوس من رام من الامة حفظ القانون فانه

لاتنتهي الانفس عن غيها
ما لم يكن منها لها زاجرُ
وغاية النظام في الجيش انهُ يحفظ البسالة الموجودة ولا يقوم مقام المفقودة . واثر القانون في الامة انهُ يكف عن بعض الاثم الظاهر ولا يمنع من ارتكاب الباطن الخفي فما الجند ولا الامة باقل حاجة الى الفضيلة من ذوي الادارة والقضاء فانهُ اذا ضاعت الشجاعة فمصير المملكة الاستعباد واذا فقد حبُّ المصلحة العمومية فمآلها الضعف واذا عدم الاتحاد والاخاء فغايتها التفرق واذ اهمل السعي فخاتمتها الفقر واذا نبذ والاقتصاد فمآبها الخراب واذا ماتت العزة والشهامة فعاقبتها الظلم وجميع تلك الفضائل داخلة في علم الاخلاق

ومن اجل ذلك رأى الحكماء الفضلاء الذين نستمد من فيضهم هذه الآراء ان يجعلوا البحث في السياسة تابعًا للبحث في الاخلاق فاقتفينا اثرهم في ذلك ليعلم الوطني منا ما يجب عليه لنفسهِ ولآل بيته وللحكومة والوطن فاذا حصل من هذا العلم في ذهنه صورة غير خادعة فانهُ ينظر حينئذٍ الى السياسة نظر الراشد البصير والله ولي التدبير

خطرات الباب

دع الحريري بين حارثه وهمامه والمتنبي لدى سيف دولته وحسامه وابا نواس عند ظبيه وجامه وقف بنا نندب وقتًا اضاعوه وذكاء في غير محله صرفوه

فالوقت هو التبر الثمين ولكنا نتلقاه غير مكترثين فنبدد الاعوام واحدًا بعد واحد لا نستفيد منها نفعًا ولا نحسن فيها ضنعًا

فقل لمن يصرف الايام بين الاوهام والاحلام ان كنت تجهل مقدار ما تضيع فقف بالقبور ملتمسًا من سكانها برهةً من الوقت تعلم انهُ العزيز الذي لا يملك فمن اضاعهُ واشترى بهِ ثمنًا قليلاً فاولئك هم الخاسرون

الاَّ ان الطبيعة لحكيم يهذب الافكار بدروس الاعتبار وانا لنموت في كل حين ثم نحيا ثم نعود امواتًا فلنا في كل يوم عمر جديد ولكن اكثرنا لا يشعرون

تمرُّ بنا الاوقات سراعًا وتكر الايام تباعًا فنذهل عن تعاقبها كالمحدق بالكرة الدائرة يحسبها ساكنةً او كالمغتسل في النهر يمر بهِ الماء جاريًا فلا يميز بين منصرفه وآتيه

والحق انا لفي ضلال مبين لم يكفنا القعود عن شراء الوقت المفقود حتى نشري بكل نفيس ما يضيع بهِ الموجود

نبدد كنوز الايام غير شاكرين فاذا بدا الشاغل قلنا ما ابطأَ الزمان متحركًا وما اثقله نزيلاً والتمسنا الى الفرار منه سبيلاً ولا نفر الا من انفسنا فالزمان عين الوجود

نمل البقاء ونرجو الفناء فاذا جاء نذيره وددنا لو نكون من الخالدين ويتمثل لنا الوقت شيخًا ثقيل الوطأة فاذا تولى رأيناه طائرًا عظيم الجناحين فنسعى في طلبهِ فلا ندرك لهُ اثرًا فنعود عنهُ آسفين

فما سرُّ هذا التناقض وما بالنا نرى اليوم الحاضر بغيضًا فاذا انقضى بكيناه وقلنا ان الزمان بمثلهِ لضنين . ولا يضن الزمان بالايام وانما نحن بها مسرفون وما كان ندمنا الا عقابًا

على الاسراف كذلك يجزى المفرطون

تفيض علينا الاوقات فننفق منها بغير حساب ثم نحثها على المسير فاذا انصرفت ناديناها غير مسمعين فنحن نسعى الى الموت ثم نفر منهُ كعاشقة حمقاء تغاضب من تهواه سعياً الى الهجر فاذا رامه انته مستغفرة انها من التائبين

ونِل الاعمال ولا راحة الا بالاعمال فالهناء ثمرة لا تنبت الا في حقول الاشغال والحياة ان لم تكن مقرونة بالهناء فبي عين العناء

فقل لمن يلتمس الملاهي لصرف ما يحسبه بطيئاً من وقته السريع اي هذا المسترجل طفلاً المستطفل كهلاً القاعد عن النعمة سهواً نراك تحسب اللهو حياة فهل تحسب الموت لهواً

تنام ملء عينيك على وساد الفساد تحت ظلال الوبال ولا تسمع حركة الوجود كانك ممن انجرول فاكتنفتم الانواء تجر سحاباً يمطر عذاباً فحل دويها باذانهم فهم لا يسمعون

فنبه طرف الفكرة من رقدة الغفلة واحرص على يومك حرص البخيل على الدرهم فربما مرت النعمة تحت جناح ساعة منهُ وانت لا تعلم

واعد بما تعد من الفضل ما صار من وقتك منسياً فالمأثرة تعيد مائت الزمن حياً واعلم ان من اضاع شيئاً من الوقت فقد سرق التبر بل سلب العمر وكان من القتلة الظالمين

افتتاح مجلس النواب

ولهُ من فصل طويل في افتتاح مجلس النواب المصري عام ١٨٨٢

قال

صفحاً لهذا الدهر عن هفواته
ان كان هذا اليوم من حسناته

وكيف لا وهو حاجة النفس وامنية القلب منذ توجه الخاطر الى السياسة الوطنية وانصرف العزم الى احياء الهمم وانعقدت النية على حفظ الحقوق واتحدت الوجهة في القيام بالواجبات وهو النشأة التي كست الوطن رداء الفتوّة قشيباً وهو البعثة التي غرست للامة غصن الامل رطيباً وهو ما رجوناه زماناً ودافعنا الزمان فيه وتمنيناه اعواماً وغالبنا الحدثان عليه الى ان بدت انوار الغيرة من جانب الحمية الوطنية وتجلت مكارم التوفيق بمظاهر حسن النية فبشرنا الامل بحسن الحال واذننا الرجاء بصلاح المآل فقلنا أَوعدٌ مثل ما مرّ السحاب قال بل نجاح ليس به ارتياب قلنا متى يثبته التاريخ قال يوم افتتاح مجلس النواب :

٩٠ ١٣٣ ٨٨٩ ٥٦ ١٣١

١٢٩٩

فيا حسنه من يوم ردّ فائت البهاء واحيا مائت الرجاء واعاد شباب الامة وسدل ستور النعمة واظهر مقاصد الامير وايد مساعي الوزير وقضى لبانات النبهاء وحقق اماني النزهاء فلا زال مشرق الشمس مرفوع لواء الانس منقوشاً على صفحات الصدر باحرف من النور على توالي الايام والعصور

تاريخ الفلسفة

(تعريب)

رأيت لبعضهم ــ ولا اسمي ــ كتاباً في تاريخ الفلسفة صغير الحجم كبير النفع مؤلفاً برسم العامة الذين لم يحصل لهم من العلوم والمعارف الاصولية ما يستعان به على ادراك احكام الفلسفة . فدعتني سهولة مأخذه ونبالة المقصد فيه الى تعريبه فاقبلت عليه وجعلته هدية لاخواني الذين يرضون لانفسهم بمنزلة المسترشدين اما سادتي الفضلاء الراشدون فحسبهم من هذا الكتاب نفعاً اني قائم في تعريبه بما كانوا يقصدون

على اني اعرب ولا اترجم احفظ المعنى المقصود والفائدة الخالصة ولا اتبع الاصل فيما تمنع منه احوال الزمان والمكان ان مراعاة هذه الاحوال ضرورة وان للضرورة احكاماً

***

نروم تعليم الفلسفة وبيان ماهية علم العلوم للضعفاء الذين لا يكاد يكون عندهم علم من وجود العلم لاخواننا في الانسانية الذين وجدوا اتفاقاً محرومين من نعمة المعرفة العمومية . انك محاول محالاً . . ما بعدهم عن الصواب ولكن إن صح ان الفلسفة هي الحكمة فباي حق تكون مخصوصة بطائفة من الناس دون الآخرين

كان الحكماء القدماء رعاة قطعان الامم يحجبون الحكمة في مقادسها خوفاً عليها من اللاحاظ فانها كانت مصدر قوتهم . وقد خرجت الامم الان من خطة الغنمية فلم يبق بها من حاجة الى مثل اولئك الرعاة فلا بد من رفع الحجب عن تلك المقادس ليدخلها الناس آمنين فتبصر عيونهم تلك الشمس التي بها يهتدون . وان كان بعض الحقيقة واجب الاخفاء عن الصغار فليس الامر كذلك في البالغين الرشد . وقد انتقلت الامم من دور الطفولية وسئمت انفسها الغذاء من لبن الخرافات والرموز فلا بد لها من العلم بالحقائق السامية كما تعلم المعارف الدانية فقد ازف الوقت الذي يخرج فيه عن صفة الانسانية من لم يكن عارفاً بكل ما اكتشفه عقل الانسان

ولقد علمنا ان افلاطون وارسطو وباكون ولبنز ومن تلاهم ونقدمهم من الحكماء هم الذين صرنا بهم الى ما نحن عليه وان الفلسفة هي التي جعلت السادة والغلمان اخوان اوطان وبددت غيوم الظلمات التي ضيقت انفاس اهل الانسانية فكيف تسير في عالم النور والحرية الذي هو من آثارها غير عالمين بماهيتها وباسماء الذين رفعوا في الارض منارها واوقدوا في القلوب نارها . فلا بد من التعريف بذلك

لا بد من تعريف العامة بسير الذين اخرجوهم من ظلمات اليأس الى انوار الامل ومن مهاوي الذل الى مقامات العزّ ومن منزلة الحيوان الى مقام الانسان

وما سير الحكماء الا في ارائهم وخواطرهم ولكن هذه الخواطر ليست منهم اختصاصاً وانما هي ايضاً نتائج لازمة عن النمو المعنوي الذي وصل الانسان اليه في ايامهم . لانه لا يختص احد بفعله وانما الناس شركاء في الافعال فانك

ايهذا المشتغل بالارض اذا فلحتها فقد اعانك على ذلك صانع المحراث ومن دق حديده ومن قد خشبة من بعد . وايهذا الصانع اذا نسجت قماشاً فقد ساعدتك فيهِ الذي زرع والذي جمع والذي جلب والذي اكتشف من قبل . فالاعمال سلاسل متواصلة الحلقات

واذا قصصت عليك سيرة الذين زادت بهم مقادر المعارف الانسانية فقد بسطت لك تاريخ الفكر الانساني

ولا تخشَّ العجز عن ادراك معنى ما اقول فاني مخاطبك بلسانك وبيانك لا بالرموز ولا بالمعميات . فاذا قرأت هذا الكتاب الصغير عجبت من كونك فيلسوفاً على غير علم منك فان كثيراً مما تراه فيه قد علمتهُ من قبل في معمل صناعتك ومزرعة فلاحتك وبين ذويك وفي بيت ابيك

(١)

ماهية الفلسفة

يوم وجد في الناس من يتساءل عن هذه الاسئلة : ما نحن . ومن اين اتينا . والى اين المصير . وما علة وجودنا في الارض : يومئذٍ وجدت الفلسفة فهي العلم الانساني بالذات من حيث ان موضوعها الانسان وغايتها معرفة طبيعته واصله والنهاية التي ينتهي اليها

وتلك الاسئلة يمكن حصرها في الاولى وهي : ما نحن : من علم حقيقة ذاته فقد علم اصله لامتناع ان لا يكون في ذاته شيء من ذلك الاصل وعلم مصيره لاستحالة ان لا يوجد فيهِ ما يدل على علة وجوده . فالفلسفة من حيث هي هي جديرة بان تسمى بعلم الانسان والقدماء الذين قالوا بانحصارها في مبداه معرفة الذات كانوا من الصادقين

ولكن الانسان موجود من الموجودات فلا بد له قبل البحث عن ماهيته من معرفة معنى لفظ الموجود . ولهذه المسألة درجة واحدة لاشيء فوقها لانه ليس من وراء الموجود سوى العدم اي اللا وجود ولكن لا بد من التنبيه الى ان علم الموجود او الوجود هو المحور الذي تدور الفلسفة عليهِ لانهُ اذا لم يكن ذلك العلم فعلم الانسان محال

وهناك علم اخر لا تسير الفلسفة بدونه قيد اصبع وهو علم قوى الفهم ووسائل اكتشاف الحقيقة وبعبارة اوضح علم الآت ذلك العلم . فهو لازم فيهِ لزوم المرصد والزيج والنظارة في علم الهيئة . وذلك انا نروم معرفة ماهية الانسان والموجودات فلا بد لنا من واسطة لذلك فان قيل ان قوانا العقلية هي الواسطة قلنا ما الذي يدلنا على خواص تلك القوى . . اهتدينا الى العلم بهذه الخواص فقد وصلنا اول الفلسفة لان تلك القوى هي الانسان بذاته من حيث انهُ موجود عاقل

وسنبحث عن قوى الخواص العقلية ولكنه يلزمنا قبل ذلك ان نفقه معنى البحث ونعلم ان له وسائل صحيحة ووسائل فاسدة فنميز بينها ونختار منها الصحيح

فالفلسفة التي هي اولاً علم الانسان تشمل ايضاً علم الموجود وعلم القوى العقلية وعلم وسائل البحث الذي من فروعهِ علم المنطق . فاذا امررنا على الخاطر ضروب الفلسفة ومذاهبها

فلينظر اليها باعتبار هذه الوجوه

ومن هنا يعلم السبب في تسمية الفلسفة بعلم العلوم او بالعلم الكلي بالذات . وفي الحقيقة ان جميع العلوم متفرعة عنها صادرة منها لانها بجملتها متعلقة بالموجودات من وجه او اوجه معلومة . فالمهندس ينظر الى الموجودات من حيث امتدادها والطبيب يبحث فيها عن الاجسام من حيث صحتها واعتلالها والكيماوي يشتغل بها من حيث انفرادها واتحادها فكلهم يهتمون بعلم الموجودات فكلهم من علم الفلسفة مستمدون

فاذا علم ذلك — اذا علم ان الفلسفة هي الاصل الذي يتفرّع سائر العلوم عنه ويستمد اربابها منه — فلا عجب من ان يكون تحول احوالها وتبدل اشكالها قد اثر في تلك الفروع تحويلاً وتبديلاً

على ان تأثير علم الفلسفة غير محصور في المعلومات الانسانية ولكنه يتجاوزها الى هيأة الاجتماع فتظهر فيها اثار تغيره بمظاهر من ثورات الخواطر وتجليات الالباب . ولا بدع في ذلك فهو علم الانسان فلو قدر ان يكون من نتائجه الحكم بكون الناس نوعين اثنين احدهما للامر والسلطة والاخر للطاعة والانقياد للزم من ذلك ان يكون في الارض ظلام لا يرحمون وعبيد لا يأبقون . ولو فرض ان تلك النتيجة قد هذبت فيه ولطفت فلم تنقض الا بان يكون في كل جمعية مدنية فريق يتدبرون الامور عن الكافة وان تكون الكافة وقفًا على خدمة ذلك الفريق لحصل من ذلك مبدأ الامتياز الارستقراطي القبيح لزومًا

فمن اين لعلم الفلسفة هذا التأثير البالغ العجيب — الجواب — ان ذلك التأثير ليس قائمًا بالعلم ولكن بالحقيقة التي هو مظهرها الاول فان الفيلسوف لا يؤثر بالنظر الى ذاته شيئًا فاذا بث آراءه في الالباب كان تأثيره فيها عظيماً

ولا يصح اطلاق هذا الوصف على السياسي او الاقتصادي او غيرهما من ارباب سائر العلوم لان العالم بما دون الفلسفة وان تيسر له الاذن بتغيير شيء من المعارف الانسانية الا ان فعله يكون محدودًا بعيدًا من ان يغير نظام الاجتماع بجملته وذلك لانه يصدر فيه عن حقيقة معينة الحد في حالة كون الفيلسوف يصدر عن جميع الحقائق التي هي روح الامم . فاذا امكن الجماعة مخالفة السياسي في رأيه المخصوص به فانها ما ان تخالف الرأي الفلسفي الذي تلقته ما لم تستبدله بسواه او تقع في التناقض فان الفلسفة متلازمة القضايا لا يمكن نبذ شيء من نتائجها الا بنقض سائرها

وقد قلنا فيما سلف ان العلم بحقيقة الانسان من طريق علم الوجود وقوى العقل ووسائل استعمالها هو المقصود بالذات من الفلسفة الا ان الباحثين في هذا العلم والمشتغلين به ممن لا يخافون دركًا قد الحقوا بهذا الغرض محو الاوهام وتبديد الاراء التي ذهب الجديدان بجدتها وانحى الزمان على صحتها فادام ذلك الى الالمام بالعقائد حسبان انها ناشئة عن المذاهب الفلسفية وهو ما يجب علينا اجتنابه في هذا المقام

(٢)
المذاهب الفلسفية

يزعم بعض الناس ان الفلاسفة قد اختلفوا وتناقضوا وتغايرت اراؤهم في كل زمان حتى امتنع احصاء مذاهبهم واستقصاء مشاربهم . وسيظهر هذا الكتاب لمن تجلد لتصفحه فساد هذا المقال وانهُ لم يكن قط في الفلسفة غير ثلاثة مذاهب

ولكن بيان هذا الامر يضطرنا الى استعمال الاقيسة والالفاظ الفلسفية فنحن نسأل القارئ في ذلك عذرًا وصبرًا :

انا لا نعرف الاشياء الا بقوانا العاقلة وهذه القوى المختلفة الطبائع ثلاثية المظاهر ولذلك فليس لنا الى معرفة الاشياء غير ثلاث وسائل: الحس والادراك والشعور

والمراد بالحس مجموع القوى التي نصل بها الى معرفة الاشياء المحسوسة كاللون والجسامة وما شاكل ذلك من الاشياء القابلة للكثرة والقلة والتي يحصل عنها من هذه الحيثية تصور عددٍ او مقدارٍ ما

اما الادراك فهو معرفة الشيء بذاتهِ وبيان ذلك انا اذا رأينا شيئًا من الموجودات وعرفنا بالحس جسامته او لونه ادركنا فيهِ ماهية معينة تميزه عن غيره وتثبت لنا انهُ هو هو لا سواه وهذه المعرفة لا تكون بواسطة الحس بدليل ان الذاتية من حيث هي غير قابلة للكثرة والقلة كما هي الحال في التصورات الحسية وانما هي بسيطة واحدة لا تتجزأ فانا انا لا اكثر ولا اقل . والقوة المؤدية الى معرفة هذه الوحدة في الذوات والى تمييز بعضها من بعض هي

الادراك

واما الشعور فهو القوة التي نستعين بها على المقابلة والمشابهة بين الموجودات فان المعرفة الحاصلة من الحس والادراك منحصرة في تمييز الاشياء وهذا التمييز غير كافٍ في علم الحقيقة بل لا بد معه من العلم باوجه المشابهة والصلات التي بين الاشياء وذلك لا يحصل بالادراك لانهُ لا يدلنا الا على الاختلافات المطلقة ولا بالحس لانها وان ادتنا الى معرفة الاشياء مختلفة بالكثرة والقلة وممكنة التماثل والتشابه من بعض الوجوه غير انها لا تدلنا على نفس تلك المشابهة من حيث هي لانها ليست مما يقع تحت الحس

فاذا تبين بهذا ما قدمناه علم انهُ لو كان الناس جميعًا يتوسلون الى معرفة الاشياء بالحس او الادراك او الشعور على حدٍ سوى للزم من ذلك ان تكون معارفهم من طبيعة واحدة لا تختلف حقيقة وانما تكثر او تقل وتزيد او تنقص بحسب درجاتهم من الاجتهاد وما حصل لقواهم العاقلة من النمو

ولكن ليس الامر كذلك بدليل اختلاف آرائنا في الشيء الواحد وانما نثق بما نعرفه بواسطة بعض تلك القوى ثقة لا تحصل لنا فيما نعرفه بواسطة البعض الاخر بل وربما وثقنا بذلك البعض دون سواه . وحيث ان المذاهب الفلسفية ليست سوى مجموع الاراء الشخصية فلا يمكن ان تختلف الا بحسب الفرق الذي بين تلك الاراء ولذلك قلنا ان المذاهب الفلسفية ثلاثة ليس الاّ

تنبيـــه

نظن ان الفقيد وصل الى منتهى القطعة الاخيرة في تعريب تاريخ الفلسفة فاننا لم نعثر على البقية في الاعداد التالية من جريدة مصر الصادرة في القاهرة بعد عودته اليها

الشرق والغرب

وقال من فصل مطول في احوال مصر

ان كثرة المخترعات وسعة المعاملات و وفرة حاجات المدنية وتماثل اغراض النفوس وانفراد كل امة بمزية وكل ارض بخاصة مع رغبة الانسان في استكمال تلك المزايا وافتقاره الى هاته الخواص جميعًا كل ذلك قد اوجب استحكام العلاقات وتقارب الصلات بين الامم والدول ومنع من تنارزهم وتقاطعهم وراء اسوار منيعة من مثل سور الصين · بل لو امكن هذا التقاطع وكانت هاتيك الاسوار جبالاً تنطح باروافها النجوم لما وقفت بها حركة التجار ولا امتنع سير الكهرباء ولا تعذر اتصال انسان بانسان

ولهذا كان من شأن الناقد البصير ان ينظر الى الاحوال المدنية والسياسية باعتبار واقع الامر فيقر هاتيك الصلات رضى بها واختيارًا او يحتملها كرهًا واضطرارًا ثم يلتمس منها وجه المنفعة وطريق المصلحة وباب السلامة لاقرب الناس اليه وادنى البلاد منه ثم للانسانية على الاطلاق

والشرق ولا ازيده تعريفًا مغرس الكلمة ومنبت الجامعة ومركز الوحدة لكل نابت في ارضه الذهبية تحت سمائه الزمردية وهو شقيق الغرب الاكبر حنـا عليه طفلاً وعالة يافعًا وايده فتىً ثم احتاج اليه كهلاً فبينهما في الاصل علاقة الاخاء ثم نسبة الوفاء ثم صلة الاحتياج · ومصر ولا احاول لها وصفًا شجرة الآمال ودوحة الاماني لدى كل من اقلته تربتها العسجدية واظلته سماؤها النقية وهي بمنزلة خط الرابطة وهمزة الوصل بين الغرب والشرق بين المجد القديم والمجد الحديث بين الاثر التاريخي والحادث الواقعي بين العظمة الراقدة تحت ظلال الكنفاف والهمة السائرة تحت لواء الطمع فللامم فيها مصالح وللدول علاقات وللمدنية مداخل لا يتيسر لاي كان من الناس محو شيء منها الا في مستقبل غير محدود . فلم يبقَ الا حفظ هذه العلاقات وردها بالتي هي احسن الى حيث لا تزيد من جانب التداخل ولا تكون مانعة من تأيد استقلالنا الاداري وان يحصل الانتفاع من نتائجها بكل ما يمكن استفادته من التمدن الغربي

واعوذ بالله ان اريد بهذا الانتفاع استعمال جالية الغرب على اختلاف مشاربهم ودرجاتهم برواتب الامراء تارةً للقيام بما يعلمون ولا يعملون وحينًا لما يعملون ولا يعلمون وطورًا لما لا يعلمون ولا يعملون فذلك تأباه الحكمة ولا يرضاه اولو الامر منا ولا يميل اليه اهل الحق حتى من الغربيين انفسهم وانما المراد اصلاح مواثيقنا التجارية واحوالنا الزراعية واحكامنا الداخلية مع الاستنارة بافكار

ذوي الرشد والحكمة وحب الانسانية من رجال الغرب . فالغرب لا يعدم الحكماء الراشدين المحبين للانسانية وان كانوا في الارض عددًا قليلاً

وقال في مستهل فصل رائق
في مجلس النواب

هذه عروسنا في الحي تجلي بحبر الحرية لا بديباج خوي خطبناها من الدهر فاغلى لها المهر ومانع ما استطاع ودافع ما امكن الدفاع فبذلنا في سبيلها الهمة وجعلنا صداقها ارادة الامير والامة حتى زفت الينا فما نسيم الصبا في الصباح ولا لقاء الوجوه الصباح ولا الراحة بعد العناء ولا الورود بعد شدة الظماء بارق منها على الروح وابهج منها في العين واوقع منها في النفس واعذب منها على القلب

وقد مرّت بنا ساعات الفرح بانجلائها واويقات السرور بظهور بهائها وقرأنا التهاني بها مرارًا وتلقينا التبريك تكرارًا وانشرحت صدورنا بابتسامات المحبين واشتفت انفسنا بتلهفات الاعداء وحمدنا الله حمد المعترف بالنعماء الشاعر بالسراء

نهي الان في الحمى ياحماه الله فتحت لها الصدور بدل الخدور واسكنت العيون تحت حجاب الجفون ولا غرو ان ضربنا عليها الستور فهي فتانة والمحب غيور

وما حسنها حسن الدمى والتماثيل لنرضى لها بالظهور شأنًا وبالصورة جمالاً وبالنظر امتاعًا

فالحسن في الوجه قريب الزوال
فلتعلم الحسناء ذات الدلال

ولكنها ربة البيت الذي وفدت عليه وشريكة البعيد الذي زفت اليه ولسوف تتولى تدبيره وتقيم اموره وتصلح اختلاله وتداوي اعتلاله وتحفظ ماءه وتعيد بهاءه وتزيد ان شاء الله نماءه بولد من المنافع بررة صالحين اخيار مصلحين يكونون لهذا الوطن الذي سميناه سعيدًا اعوانًا على الزمان ونصراء على الحدثان

ولكن كما ان البيت لا يصلح والاسرة لا تفلح الاّ اذا توثق الحب واستحكم الود وصفت النيات وخلصت المقاصد وحسنت المساعي بين الزوجين لتصح تربية الولد ويسلموا من اثار الحقد واللدد كذلك لا بد في صلاحنا ونجاحنا واستقامة امورنا وانتظام احوالنا وزوال مشاكلنا واندفاع نوازلنا من التلاؤم والتوافق على المنافع الحقة الوطنية ومساعي الهيئة النيابية

وهذا التوافق وان ظهر بادئ بدء عيانًا بديهيًا لا حاجة فيه للبحث ولا مكان به للاختلاف الاّ انه اخفى مكانًا وادق رسمًا واصعب تحقيقًا مما يتوهم الناظر المسرع فرب امر ظاهر النفع بادي اللزوم واضح الوجوب لتبينه قريب المنال سهل النوال فاذا دانيته رأيت غير ما ارتأيت وعاينت غير ما ظننت ورب بعيد يقربه الامل ورب قريب يبعده الريب فما يجلو الامور الاّ اختبارها وما تأتي الامور الاّ باوقاتها

وقد عرف سادتنا النواب هذه الحقيقة ولم تخف عنهم من تفصيلها دقيقة فهم الان

ينظرون في الامور نظر الناقد البصير العارف الخبير المتنبه للعواقب المجانب للمصاعب الذي يخطو مع الدهر اذا ما خطا ولا يذهل عن تبطن بعض الصواب خطا يعلمون ان للوطن عليهم حقا واجب الاداء ولا يجهلون ان للاحوال احكامًا مرعية الاجراء ويميلون مع الغيرة الوطنية ولا يتغافلون عن الحكمة السياسية ففيهم شدة بغير عنف وثبات بغير عناد ولين بغير ضعف وتساهل بغير ارتداد وهي الحكمة بما فيها من دقة وفطنة واصابة وهي السياسة بما فيها من دهاء وتدبير وخلابة

خاتمة المنتخبات

في ذكر ما اجتمع لنا من
المتفرقات التي عثرنا عليها بعد اثبات
ما تقدم

كتب الفقيد في تهنئة حضرة صاحب الدولة شريف باشا بالنيشان العثماني المرصع من الرتبة الاولى وقد ورد اليه من جانب نعم الحضرة السلطانية فقال في فصل راسل به جريدة المحروسة من القاهرة

ان هذا الوسام الكريم عظيم الشأن كبير المقدار مخصوص بالملوك والامراء ومن كان عليّ الهمة صادق الخدمة

نتوقُ اليهِ صدورُ صدورِ آل
بريةِ من عجمها والعربِ
وما نالهُ غيرُ كلِّ عظيمٍ
وكلُّ همامٍ لهُ منتخبِ
ولا غروَ ان زانَ صدرَ الشريف
ولو لم ينلهُ لكانَ العجبِ

فمجلى المعالي ومولى الكما
لِ أولى الانام بأولى الرتبِ

وقال طيب الله ثراه ومعنى البيتين الاولين مستمد من كلام ويكتور هيكو

قتل امرءٍ في غابةٍ
جريمةٌ لا تغتفر
وقتل شعب آمنٍ
مسألةٌ فيها نظر
والحق للقوة لا
يعطاه الامن ظفر
ذي حالة الدنيا فكن
من شرها على حذر

وقال معارضًا بيتي ابي تمام المشهورين وهما قوله

اعوام وصلٍ كان ينسي طولها
ذكر النوى فكأنها ايامُ
ثمَّ انبرت ايام هجرٍ اردفت
قلبي اسىً فكأنها اعوامُ

فقال

لا عامنا في وصلكم يومٌ ولا
ايامنا في هجركم اعوامُ
فالعمر في الحالين برقٌ وامضٌ
اعوامهُ في طولها ايامُ

وقال وهي ابيات ذكرت في قصة الباريسية الحسناء التي عرّبها عن الفرنسوية

حسب المرآة قوم آفةً
من يدانيها من الناس هلك
ورآها غيرهم امنيةً
ملك النعمة فيها من ملك

فمني معشرٌ لو نبذت
وظلام الليل مشتد الحلك
ومني غيرهم لو جعلت
في جبين الليث او قلب الفلك
وصواب القول لا يجهله
حاكمٌ في مسلك الحق سلك
انما المرأة مرآة بها
كل ما تنظره منك ولك
فهي شيطانٌ اذا افسدتها
واذا اصلحتها فهي ملك

وقال

عجبًا له والجمرُ في احشائهِ
مني يحاول بالخديعة ستره
يغتابني فاصونه ويريد لي
شرًّا فادفع بالصنيعة شره
ويجار في امري فينفد صبره
ويعينني صبري فاكشف امره
ويروم ضرّي غير منتفع بهِ
واردّ عني بالمنافع ضرّهُ
فيسوءه ما سرني من امرنا
ابدًا وليس يسوءني ما سرّه

وقال في تاريخ المرحوم اسعد كرم وقد توفي ببعلبك عام ١٨٨٣

صبرًا بني كرمٍ لما حكم القضا
لا تهلكوا فهو اسى وتجلدوا
وذروا القبور على تواريخ لما
فضريح اسعد في القلوب مشيدُ (١٨٨٣)
وعد الحبيب حبيبكم بزيارةٍ
وبمهد السعداء كان الموعدُ
فمضى اليهِ وليس بدعًا ارخوا
ان لاح في ارض السعادة اسعدُ (١٨٨٣)

وقال تاريخًا آخر له

ياقبر اسعد راقٍ من بني كرمٍ
ما انت روضٌ ولا افق لمن نظرا
فكيف اخفاه فيك الدهر عن مقلٍ
رأته يطلع فيهِ الزهر والزهرا
وكيف واري بك العليا مؤرخةً
بل كيف اودع فيك الغصن والقمرا
(١٨٨٣)

وقال في قصيدةٍ يمدح فيها حضرة الاديب جورج افندي مرزا وكان وقتئذٍ في دمشق

كريمٌ متى امدحهُ اسبق بفكرتي
على جريها الاقلام مع انملي العشرِ
تهيئ لي في مدحهِ قبل نظمهِ
معاني حكين العقد في عنق البكرِ
ويرغب عنها في المعالي لعلمهِ
بان العلا للمرء مجلبة الفخرِ
له بين قومي شهرةٌ عنبريةٌ
يفوح له ما بينها طيب النشرِ

الى ان قال

وكرّت سنونٌ قائلات لشخصهِ
بقيت ابا الافضال حتى انقضا الدهرِ

وقال من ابياتٍ كثيرة

حقيقة الحال تنبي انني رجلُ
من عظم بلواي قد ضاقت بي الحيلُ
ليت الذين سبوا قلبي وما رحموا
ردوهُ فهو بنار الحب مشتعلُ

الى قولهِ

كم ضمني ورضابي بات مرتشفًا
وقد جرى من لماه في فمي العسلُ

وان يكن منكرًا قولي فهاك في
وها يدي فيها من خصره جلُ
وقال رحمة الله من قصيدة في الحب
هو الحب لولا الذين صرّحت انه
الهي ومعبودي وما فيه اشكالُ
سابيغة حتى يرى الناس انني
وفيّ بعهدي والحوادث تغتالُ
واشربهُ كأس الذل عزًا بحب من
غدا بلباس التيه والصد يختالُ
واخبرتُ اني ثابتٌ بالغرام لا
تزعزعني عن مركز الحب اقوالُ
الى ان قال في وصف الحبيب وفيه اللف والنشر المرتب
جبينٌ محيًا ثم ثغرٌ وناظرٌ
وردفٌ وقدٌ فيه في الحب ميالُ
هلالٌ وبدرٌ كوثرٌ ثم نرجسٌ
كثيبٌ وغصنٌ وهو ان شئت عسالُ
وقال وفيه نوع الاكتفاء والتورية
وبي رشاءٌ عاتبته وهو معرضٌ
وقلت له قد ذبت مذ بت معرضا
الازر مشوقًا قد اضرّ به الظما
لو يلك وانتم بعد سخطك بالرضا (ب)
واهدى احد اصدقائه رسماً له فكتب فوقه هذين البيتين
يامن اذا غاب عني
اقول للروح روحي
اهديك رسمي كأني
اتحفتُ جفني بروحي
وانشد القصيدة الآتية في حضرة جمعية زهرة الآداب بعد خطابهم تلاه فيها

العلم عاد لقطرنا رغم العدى
ياعلم سد قد عاد عودك احمدا
هاقد زهت هذي الرياض وازهرت
اغصانها وبدت بتيجان الندا
ووفى الزمان لاهله بعد الجفا
فأبيت الا ان يعزّ ويحمدا
ما السعد الا بالعلوم فان بدت
كان الزمان لطالبيها اسعدا
عجبًا لمن يرضى مقال مفندٍ
ويسرّ مبتهجًا باقوال العدى
يامعشر الاعراب بل ياجمع آل
اداب ها علم العلوم لكم بدا
الى ان قال في زهرة الاداب
ها زهرة الشرف التي ما شانها
شينٌ ونالت بالمعالي سؤددا
جدّوا بحفظ نظامها كيما ترى
انوارها وجمالها لمن اهتدى
فبجيدها انتظمت حلى افكاركم
وبدت لعين القوم عقدًا مفردا
فلكم مع الشكر الثناء مكررًا
ما صاح طيرٌ بالرياض مغردا
وقال
ايا لائمًا قلبًا تقطع حسرةً
بجفنك دعه فالملامُ بروّعه
ووالله قلبي ليس يعلم ما الهوى
ولكن قضاء الله لا شيء يدفعه
ومذ راح منصبًا على الحزم والتقى
وراح صحيح الحال لا شيء يوجعه
عيوني بمغناطيسها جذبت له
سيوفًا من الاجفان فهي تقطعه

وقال لواقعة حال

قسماً بخمرة ثغرهِ ورضابهِ
لا ارتضي الا بما يرضى بهِ
قسماً بعينهِ لا اذوق مدامةً
تشفي غليل الشوق من اوصابهِ
الا اذا كان الحبيبُ يديرها
وانا مطيع كلّ ما اوصى بهِ

وكتب الى صديقنا الشاعر المجيد مصباح افندي رمضان

طعنتنا القدود وهيَ رماحُ
وغزتنا العيون يامصباحُ
فافتنا في نواظرٍ قاتلاتٍ
هل عليهنَّ بالجراحِ جناح

وقال

اصل الغرام لواحظ وجفونُ
ويليني يالائمين عيون
اني لاصبرُ في الغرام على الاسى
حتى تسيل من العيون عيون

وقال تاريخاً لمولودٍ دعي باسم توفيق واسم ابيهِ شاكر

لك الهناء بمولودٍ اتاك وذا
من جود ربك فضلٌ انت شاكرهُ
الانس كلله والسعد ظللهُ
والله ارّخت بالتوفيق غامره

وقال من ابياتٍ في بعض النساء

هنَّ اهل الوفاء بالعهد مادمت (م)
جليلاً قبل المشيب كريما
واذا ما رأينَ طالبَ حسنٍ
صرتَ بعد الجديدِ عمرًا ذميما
كل يوم يطلبن عهدًا جديدًا
ويصير الجديد يوماً قديما
قد تحكمنَ بالقلوب فلا تخـ
ـضع اذا كنت باسلاً وحكيما
ومداراتهنَّ داءٌ عضالٌ
يلتقي المرء منهُ ضرًّا اليما
كيدهنَّ العياذ بالله منهُ
انهُ كان بالعباد رحيما

وقال مرتجلاً مودعاً صفيّنا الفقيد المرحوم سليم نقاش حين مسيره الى مصر في جماعته المشخصين عام ١٨٧٦

يامن تعدّى بالنوى
مازال ودك لازما
سر بالسلامة آملاً
وارجع سليماً غانما

فاجابه بقوله

اني لاشكر فضلكم
ما دمت حيًّا سالما

وقال في ذيل كتابٍ ارسله الى احد السادة الفضلاء

يا ايها السيد الاجلُّ
ومن اذا ما حبا يجلُّ
سقنا اليك الثناء درًّا
كل كثير بهِ يقلُّ
وما يضيع الثناء فيمن
بفضلهِ لا يقاس فضلُ
نجد بغيث السؤال عنا
فعامنا باغمام محلُ
وعجلِ البرَّ ذاك خيرٌ
ان لم يكن وابلٌ فطلُّ

بيان

اشرنا في بعض الصفحات السابقة الى عزمنا على إفراد مكان في ذيل هذه المنتخبات لنشر رسائل المدح التي وردت الى الفقيد في حياته ولكن لما كانت تلك الاشارة واردة في محلها اثناء اهتمامنا بجمع مقالات الكتاب ومخابرة بعض اصدقاء الفقيد في اتحافنا بما راسلوه به من اقوال المدح والثناء فكنا في ذلك معوّلين على وعودهم بارسال ما لديهم منها وكان قد مضى الوقت ولم يجتمع لدينا منها ما يستحق النشر رأينا ان نختم المجموعة خالية من تلك الرسائل متعجلين انجازها وتوزيعها على طلّابها اجابة لرغبتهم والحاحهم الشديد

جامع الكتاب
(جورج مخائيل)
(نحاس)

تمت المنتخبات



